بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله في هذه الآية [إِنَّمَا] ليس بحصر ، وإنما هي للمبالغة فيما يريد تقريره على نحو قولك : « إنما الشجاع عنترة » ، ويقضي بذلك أَنا نجد « السبيل » في الشرع على غير هذه الفرقة « موجوداً » ، والسبيل قد توصل بِعَلَى وبإِلَى فتقول : لا سبيل على فلان ، ولا سبيل إلى فلان [1] ،

(١) ومن شواهد وصولها بإلى في الشعر البيت المشهور الذي سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان له خبر طريف مع نصر بن حَجَّاج :

هلْ مِنْ سبيلٍ إلى خمرٍ فَأَشْرَبَهَا ... أَمْ مِنْ سَبيلٍ إلى نصر بن حَجَّاج ؟

غير أَن وصولها بِعَلَى يقتضي أَحياناً ضعف[١] المتوصل إليه وقلَّة مَنَعَته ، فلذلك حسنت في هذه الآية ، وليس ذلك في (إلى) ، أَلا ترى أَنك تقول : «فلان لا سبيل له إلى الأَمر ولا إلى طاعة الله» ، ولا يحسن في شبه هذا (عَلَىَ) ، والسبيل ـ في هذه الآية ـ سبيل العاقبة . وهذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم : عبد الله بن أُبي ، والجدُّ بن قيس ، ومعتب ، وغيرهم ، وقد تقدم نظير تفسير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية . هذه المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، واشترك معه المسلمون في بعض لأَن المنافقين كانوا يعتذرون أَيضاً إلى المؤمنين ، ولأَن إنباءَ الله أَيضاً تحصَّل للمؤمنين . وقوله : [رَجَعْتُمْ] يريد : من غزوة تبوك . وقوله : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾[٢] معناه : لن نصدقكم ، ولكن لفظة [نُؤْمِن] تتصل بلام أَحياناً كما تقدم في قوله : ﴿ويُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] ، و [نَبَّأَ] ـ في هذه الآية ـ قيل : هي بمعنى عرَّف لا تحتاج إلى أَكثر من مفعولين ، فالضمير مفعول أَول ، وقوله : ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ مفعول ثان على مذهب

(١) في بعض النسخ : (ضَعَة) بدلا من (ضَعْف) .

(٢) قوله تعالى : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علَّة للنهي عن الاعتذار ، لأَن غرض المعتذر أن يُصَدَّق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكَذَّب في اعتذاره كفَّ عنه . قاله في «البحر المحيط» ، وأشار إليه في «فتح القدير» .

(٣) من الآية (٦١) من هذه السورة (براءة) .

أَبي الحسن في زيادة (من) في الواجب ، فالتقدير : قد نبأَنا الله أَخباركم ، وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو المفعول الثاني تقديره : قد نبأَنا الله جليَّة من أَخباركم . وقيل : [نَبَّأَ] بمعنى أَعلم يحتاج إِلى ثلاثة مفاعيل ، فالضمير واحد ، و ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ثانٍ حسب ما تقدم من القولين ، والثالث محذوف يدل الكلام عليه تقديره : قد نبأَنا الله من إِخباركم كذباً ، أَو نحوه ، وحذف هذا المفعول مع الدلالة عليه جائز بخلاف الاقتصار ، وذلك أَن الاقتصار إِنما يجوز إِمَّا على المفعول الأَول ويسقط الاثنان إِذ هما الابتداءُ والخبر ، وإِما على الاثنين الأَخيرين ويسقط الأَول ، وأَما أَن يقتصر على المفعولين الأَولين ويسقط الثالث دون دلالة عليه فذلك لا يجوز ، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه .

والإِشارة بقوله سبحانه : ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ إِلى قوله : ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾(١) ، ونحو هذا . وقوله : ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ توعد معناه : وسيراه في حال وجوده ويقع الجزاءُ منه عليه إِن خيراً فخير وإِن شراً فشر . وقوله : ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ يريد البعث من القبور ، والغيب والشهادة يَعُمّان جميع الأَشياءِ ، وقوله : [فَيُنَبِّئُكُمْ] معناه التخويف ممن لا تخفى عليه خافية .

(١) من الآية (٤٧) من هذه السورة ، ومعنى كلامه أن الاشارة في الآية هنا ترجع إلى الآية السابقة وهى رقم (٤٧) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

قيل : إن هذه الآية من أَول ما نزل في شأْن المنافقين في غزوة تبوك ، وذلك أَن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستأْذنوه في القعود قبل مسيره فأَذن لهم ، فخرجوا من عنده وقال أَحدهم : والله ما هو إلا شحمة لأَول آكل ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فيهم القرآن ، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين في مجلس منهم : والله لقد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فيكم قرآن ، فقالوا له : وما ذلك ؟ فقال : لا أَحفظ إلا أَني سمعت وصفكم فيه بالرجس ، فقال لهم مخشّى : والله لوَدِدْتُ أَن أُجلد مائة جلدة ولا أَكون معكم ، فخرج حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما جاءَ بك ؟ فقال : وَجْهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم تسْفَعُه الريح وأَنا في الكِنِّ ، فروي أَنه ممن تاب .

وقوله سبحانه : ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أَمَرَنا بانتهارهم وعقوبتهم بالإعراض والوصم بالنفاق ، وهذا مع إجْمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله ، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً ، وقوله : [رِجْسٌ] أَي نَتَن وقذر ، وناهيك بهذا الوصف محطة دنيوية ، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال : ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّم﴾ أَي مسكنهم . ثم جعل ذلك جزاءً بتكسبهم المعاصي والكفر مع أَن ذلك مما قدره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه .

وأَسند الطبري عن كعب بن مالك أَنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله علبه وسلم من تبوك جلس للناس فجاءَه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ . هذه الآية والتي قبلها مخاطبة للمؤمنين مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : يحلفون لكم مبطلين ومقصدهم أَن ترضوا لا أَنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر .

وقوله : ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا﴾ إلى آخر الآية شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم ، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها ،

فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا (١).

وقوله تعالى : ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية . [الْأَعْراب] لفظة عامة ، ومعناها الخصوص فيمن استثناه الله عزَّ وجلَّ ، وهذا معلوم بالوجود وكيف كان الأَمر ، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بسبب بُعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأَحكام والشرع ، وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي ، ولا محالة أَن خوفهم هناك أَقل من خوف منافقي المدينة ، فأَلسنتهم لذلك مطلقة ، ونفاقهم أَنجم (٢) .

وأَسند الطبري أَن زيد بن صُوحان (٣) كان يحدث أَصحابه بالعلم وعنده أَعرابي ، وكان زيد قد أُصيبت يده اليسرى يوم

(١) في الآية الأولى : ﴿سَيَحْلفونَ باللهِ لكُمْ﴾ الخ ... ذكر الله تعالى حلفهم لأجل الإعراض ، ولهذا جاء الأمر بالإعراض نصاً ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُم﴾ لأن الإعراض من الأمور التي تظهر للناس ، وفي الآية الثانية ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ ذكر سبحانه الحلف لأجل الرضى فأبرز النهي عن الرضى في صورة شرطية لأن الرضى من الأمور القلبية التي تخفى، وخُرِّج مخرج المتردَّدِ فيه وجُعل جوابه انتفاءَ رضى الله عنهم فصار رضى المؤمنين عنهم أبعد شيئاً في الوقوع ، لأنه معلوم منهم أنهم لا يرضون عمَّن لا يرضى الله عنهم .

(٢) الذي في كتب اللغة أن (العَرَب) جيل من الناس ، والنسبة إليهم (عَرَبِيّ) ، وهم أهل الأمصار ، و (الأعراب) منهم : سكان البادية خاصة ، وجمعه أعاريب كما جاء في الشعر الفصيح ، والنسبة إلى (الأعراب) أعرابي لأنه لا واحد له من لفظه ، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان الأنباط جمعاً لنَبَط ، وإنما العرب اسم جنس . وكلام ابن عطية يتفق مع هذا تماماً .

(٣) زَيْد بن صُوحان بن حُجر العبدي ، من بني عبد القيس ، من ربيعة ، تابعي من أهل الكوفة ، له رواية عن عمرو وعليّ ، كان أحد الشجعان الرؤساء ، وشهد وقائع الفتح فقطعت شماله يوم نهاوند ، قاتل مع عليّ رضي الله عنه في يوم الجمل حتى قتل . (طبقات ابن سعد ، والأعلام) .

نهاوند(١) ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني ، قال زيد : وما يريبك من يدي وهي الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري أليمين تقطعون أم الشمال ؟ فقال زيد : صدق الله ، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ . و [أَجْدَرُ] معناه : أحرى وأقمن ، والحدود هنا : السُّنن والأحكام ومعالم الشريعة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

هذا نص في المنافقين منهم ، ومعنى [يَتَّخِذُ] في هذه الآيات أي : يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك ، وأصل المغرم الديْن ، ومنه

(١) قال في معجم البلدان : بفتح النون الأولى وتكسَّر ، والواو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة : مدينة عظيمة في قبلة همذان ، وكان فتحها سنة ١٩هـ ، ويقال سنة ٢٠ هـ ، وقيل سنة ٢١ هـ أيام عمر بن الخطاب ، حدث أحد رجال الأدب أنه رأى بها فتى ساهماً يشكو حاله ويقـول :

يا طولَ لَيْلي بِنهَاوَنْـــــد ... مُفكِّراً في البثّ والوَجْـــــدِ
كَأنّني في خَـــانِهَا مُصْحَـــفٌ ... مُسْتَوْحِشٌ في يدِ مُرْتَـــدِّ

تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغرم والمأْثم ، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإِنسان مما لا يلزمه بحق ، وفي اللفظ معنى اللزوم ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾(١) أي : مكروهاً لازما . و [ٱلدَّوَائِر] : المصائب التي لا مخلص للإِنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة ، وقد يحتمل أَن تشتق من دور الزمان والمعنى : ينتظر بكم ما تأْتي به الأَيام وتدور به . ثم قال على جهة الدعاءِ : ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ ، وكل ما كان بلفظ دعاءٍ من جهة الله عزَّ وجلَّ فإِنما هو بمعنى إِيجاب الشيءِ ، لأَن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته ، ومن هذا قوله سبحانه : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(٢) و ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾(٣) ، فهي كلها أَحكام تامة تضمنها خبَرُهُ تبارك وتعالى . وقرأَ الجمهور من السبعة وغيرهم : ﴿دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن محيصن بخلاف عنه ، وعاصم والأَعمش بخلاف عنهما : ﴿دَائِرَةُ ٱلسُّوءِ﴾ بضم السين ، واختلف عن ابن كثير(٤) ، وقيل : الفتح المصدر والضم الاسم ، واختلف الناس فيهما وهو اختلاف يقرب بعضه من بعض ، والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأَنها سيئة ، وقال أَبو علي : معنى

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الفُرقان) .
(٢) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة) .
(٣) الآية (١) من سورة (المُطَفِّفين) .
(٤) تأمل أنه قال في أول هذه العبارة : «وقرأ ابن كثير» ولم يذكر عنه خلافاً كما نص على ذلك بالنسبة لعاصم والأعمش وابن محيصن .

(الدائرة) يقتضي معنى (السوءِ) فإنما هي إضافة بيان وتأْكيد ، كما قالوا : «شمس النهار» و «لَحْيا رأْسه»(1) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا يقال : «رجل سَوْءٍ» إلا بفتح السين ، هذا قول أَكثرهم ، وقد حكي : «رجل سُوءٍ» بضم السين ، وقد قال الشاعر :

وكنْت كذِئْب السُّوءِ لمَّا رأَى دماً بِصاحِبِهِ يَوْماً أَحالَ عَلَى الدَّم (2)

ولم يختلف القراءُ في فتح السين من قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرابِ منْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ الآية . قال قتادة : «هذه ثُنِيَّةُ الله تعالى من الأَعراب»(4) ، و [يتَّخِذُ] في هذه الآية أَيضاً هي بمعنى : يجعله مقصداً ، والمعنى : ينوي بنفقته في سبيل الله القُرْبَةَ عند الله عزَّ وجلَّ واستغنام دعاءِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار ، وخير الدنيا في أَرزاقهم

---

(1) مُثَنَّى (لَحْي) بفتح اللام وسكون الحاءِ ، قال في اللسان : «واللَّحْي منبت اللِّحية من الإنسان وغيره وهما لَحْيان» .

(2) البيت للفرزدق ، وقد رواه في اللسان مادة — حول — «فكان كذئب السَّوءِ» ، ورواه في مادة — سوأ — «وكنت كذئب السَّوءِ» والرواية فيه بفتح السّين في الموضعين .

(3) من الآية (28) من سورة (مريم) .

(4) ثَنِيَّة — على وزن هَدِيَّة — بمعنى الاستثناء ، رُوي عن كعب أنه قال : «الشهداءُ ثَنِيَّة الله في الأرض» يعني من استثناه من الصعقة الأولى .

ومِنَح الله لهم ، ف [صَلَوَات] على هذا عطف على [قُرُبات] . ويحتمل أَن يكون عطفاً على [مَا يُنْفِق] ، أَي : ويتخذ بالأَعمال الصالحة صلوات الرسول قُربة ، والأَول أَبْيَن .

و [قُرُبَات] جمع قُرْبة أَو قُرُبة بسكون الراءِ وضمها ، وهما لغتان ، والصلاة في هذه الآية : الدعاءُ إِجماعاً ، وقال بعض العلماءِ : الصلاة من الله رحمة ، ومن النبي والملائكة دعاءٌ ، ومن الناس عبادة . والضمير في قوله : [إِنَّهَا] يحتمل أَن يعود على النفقة ، وهذا في انعطاف الصلوات على القُرُبات ، ويحتمل أَن يعود على الصلوات ، وهذا في انعطافه على [مَا يُنْفِق] . وقرأَ نافع : [قُرُبة] بضم الراءِ ، واختلف عنه وعن عاصم والأَعمش ، وقرأَ الباقون : [قُرْبَة] بسكون الراءِ ، ولم يختلف في [قُرُبات] . ثم وعد تبارك وتعالى بقوله : ﴿سَيُدْخِلُهُم اللهُ في رَحْمَتِهِ﴾ الآية . وروي أَن هذه الآية نزلت في بني مُقَرّن من مُزَينة ، وقاله مجاهد . وأَسند الطبري إِلى عبد الرحمن بن مغفل بن مُقَرّن أَنه قال : كنا عشرة ولد مُقَرّن فنزلت فينا : ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ إِلى آخر الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوله : «عشرة ولد مقَرِّن» يريد الستة أَولاد مقرّن لصلبه أَو السبعة على ما في الاستيعاب من قول سويد بن مقرّن وبنيهم لأَن هذا هو الذي في مشهور دواوين أَهل العلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

قال أبو موسى الأشعري ، وابن المسيّب ، وابن سيرين ، وقتادة : ﴿ٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُون﴾ : مَنْ صلى القبلتين . وقال عطاءٌ : ﴿ٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ : من شهد بدراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحولت القبلة قبل بدر بشهرين .

وقال عامر بن شراحيل الشعبي (١) : ﴿ٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ : من أدرك بيعة الرضوان . ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ يريد سائر الصحابة ، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأُمة لكن بشريطة الإحسان ،

---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يضرب المثل بحفظه ، ولد ونشأ ومات بالكوفة ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وكان فقيهاً شاعراً ، سئل عما بلغ إليه حفظه فقال : « ما كتبتُ سوداءَ في بيضاءَ ولا حدّثني رجل بحديث إلا حفظته » . توفي سنة ١٠٣ هـ . (راجع الوفيات ، والتهذيب وتاريخ بغداد) .

وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت مَنْ رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو قال قائل : إن السابقين الأَوَّلين هم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولا يقتضيه اللفظ ، وتكون [مِنْ] لبيان الجنس ، و [ٱلَّذِينَ] في هذه الآية عطف على قوله : [وَٱلسَّابِقُونَ] .

وقرأ عمر بن الخطاب ، والحسن بن أبي الحسن ، وقتادة ، وسلام ، وسعيد ، ويعقوب بن طلحة ، وعيسى الكوفي : ﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارُ﴾ برفع الراءِ عطفاً على [وَٱلسَّابِقُونَ] ، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ﴾ جعل الاتباع عديلا للأَنصار . وأَسند الطبريُّ أَن زيد بن ثابت سمعه فرادّه فبعث عمر رضي الله عنه في أُبي بن كعب فسأَله فقال أُبي بن كعب : ﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِن ٱلْمُهاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ ، فقال عمر رضي الله عنه : ما كنا نرى إلا أَنا قد رفعنا رفعة لا ينالها معنا أَحد ، فقال أُبي : إن مصداق هذا في كتاب الله في أَول سورة الجمعة : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[1] ، وفي سورة الحشر : ﴿وَٱلَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[2] ، وفي سورة الأَنفال في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ﴾[3] ،

(١) الآية (٣) من سورة (الجمعة) .
(٢) الآية (١٠) من سورة (الحشر) .
(٣) الآية (٧٥) من سورة (الأنفال) .

فرجع عمر إلى قول أُبي ، ونبَّهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أدركوا أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما نبَّه من ذكرهم قوله صلى الله عليه وسلم : (اللَّهم ارحم الأَنصار وأَبناءَ الأَنصار وأَبناءَ أَبناءِ الأَنصار) فتأَمله (١) .

وقرأَ ابن كثير : ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ ، وقرأَ الباقون : [تَحْتَهَا] بإسقاط [مِنْ] ، ومعنى هذه الآية : الحكمُ بالرضا عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم ، والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له ، جعلنا الله من الفائزين برحمته ومنِّه .

وقوله : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية . مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم شرَّك معه في بعضها أُمته ، والإشارة بقوله : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إلى جُهَيْنة ومُزيْنة وأَسْلَم وغَفار وعصيَّة ولَحْيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة ، فأَخبر الله عن منافقيهم ، وتقدير الآية : «ومن أَهل المدينة قوم أَو منافقون» ، هذا أَحسن ما حمله اللفظ . و [مَرَدُوا] قال أَبو عبيدة : معناه : مَرَنوا عليه ولجُّوا فيه ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه ، وقال ابن زيد : أَقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون . والظاهر من معنى اللفظ أَن التمرد في الشيء أَو المرود عليه إنما هو اللَّجاج والاستهتار به والعُتُو على الزاجر وركوب

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري وغيره ، وقد سبق الاستشهاد به في الجزء الخامس من هذا الكتاب عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ...﴾ .

الرأس في ذلك ، وهو مستعمل في الشَّر لا في الخير ، من ذلك قولهم : شيطانماردٌ ومَريدٌ ، ومن هذا سميت مراد لأَنها تمردت ، وقال بعض الناس : يقال : «تمرد الرجل في أمر كذا» إذا تجرد له ، وهو من قولهم : «شجرة مرداءُ» إذا لم يكن عليها ورق ، ومنه : ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾(١) ، ومنه قولهم : «تمَرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأَبلقُ»(٢) ، ومنه الأَمْردُ الذي لا لِحْيَة له ، فمعنى [مَرَدُوا] في هذه الآية : لجُّوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم .

ثم نفي عزَّ وجلَّ علْم نبيه بهم على التَّعيين ، وأَسند الطبري عن قتادة في قوله تعالى : ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ قال : فما بال أَقوام يتكلفون علم الناس ، فلان في الجنة ، وفلان في النار ، فإذا سأَلت أَحدهم عن نفسه قال : لا أَدري ، أَنت لعَمْري بنفسك أَعلم منك بأَعمال الناس ، ولقد تكلَّفت شيئاً ما تكلَّفه الرسل ، قال نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣) ، وقال نبي الله شعيب : ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة النمل : ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ .

(٢) مارد : حصنٌ دومة الجندل ، والأبلق : حصنٌ للسموْل بن عاديا ، قيل : وصف بالأبلق لأنه بُني من حجارة مختلفة الألوان بأرض تيماءَ ، وهما حصنان قصدتهما الزبَّاءُ ملكة الجزيرة فلم تقدر عليهما فقالت : «تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق» ، فصار مثلا لكل ما يعزّ ويمتنع على طالبه . (اللسان — مجمع الأمثال للميداني — المستقصى للزمخشري) .

(٣) من الآية (١١٢) من سورة (الشعراء) .

أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ ﴾[١]، وقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه: [سيُعَذبُهُمْ] بالياء، والكلام - على القراءتين - وعيد، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأُولى - فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع، وهذا بعيد لأَن منهم من لم يصبه هذا، وقال ابن عباس أيضاً[٣]: عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه، وقال ابن إسحق: عذابهم هو همُّهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - وهو الأشهر عنه -: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، وروي في هذا التأْويل أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم جمعة فندَّد بالمنافقين وصرَّح وقال: (اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، واخرج أَنت يا فلان، واخرج

(١) الآية (٨٦) من سورة (هود).
(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله تعالى عنه - (الدر المنثور).
(٣) قال (أيضاً) نظراً للرأي الأساسي لابن عباس رضي الله عنهما وإن كان سيأتي ذكره بعد ذلك.

أنـت يا فلان) حتى أَخرج جماعة منهم ، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة ، فظن أَن الناس انتشروا وأَن الجمعة فاتته فاختبأَ منهم حياءً ، ثم وصل إلى المسجد فرأَى أَن الصلاة لم تُقْض وفهم الأَمر (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفِعْلُ النبي صلى الله عليه وسلم هذا بهم هو على جهة التـأْديب اجتهاداً منه فيهم ، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يُخْرَجُ العصاة والمتهمون ، ولا عذاب أَعظم من هذا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين ، فهذا أَيضاً من العذاب . وقال قتادة وغيره : العذاب الأَول هي علل وأَدواءُ أَخبر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أَنه يصببهم بها ، وأَسند الطبري في ذلك عن قتادة أَنه قال : ذكر لنا أَن نبي الله صلى الله عليه وسلم أَسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين ، وقال : ستَّة منهم تكفيهم الدُّبَيْلَة(٢) ، سراج من نار جهنم تـأْخذ في كتف أَحدهم حتى تفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتاً ، ذكر لنا أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يُظَن أَنه منهم نظر إلى حذيفة ، فإن صلى

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن مردويه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ، وفي آخر هذه الرواية : (فلقي عمر رضي الله عنه رجلا كان بينه وبينه إخاءٌ فقال ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فقال كذا وكذا ، فقال عمر رضي الله عنه : أبعدك الله سائر اليوم) . (الدر المنثور) .

(١) الدُّبَيْلَةُ : الداهية (مصغرة للتكبير) ، ويقال : دَبَلَتْه الدُّبَيْلَةُ .

صلَّى عمر عليه وإلا تركَ ، وذكر لنا أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لحذيفة : أَنشدك بالله ، أَمِنهم أَنا ؟ قال : لا ، والله ولا أُؤَمن منها أَحداً بعدك . وقال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ : أَما عذاب الدنيا فالأَموال والأَولاد ، لكل صنف عذاب فهو مرتان ، وقرأَ قول الله تعالى : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُم وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا﴾(١) ، وقال ابن زيد أَيضاً : المرتان هي(٢) في الدنيا ، الأُولى : القتل والجوع والمصائب ، والثانية : الموت إِذ هو للكفارِ عذابٌ . وقال الحسن : الأُولى هي أَخذ الزكاة من أَموالهم ، والعذابُ العظيم هو جميع ما بعد الموت ، وأَظن الزجاج أَشار إِليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

المعنى : ومن هذه الطوائف آخرون اعترفوا بذنوبهم . واخْتُلف في تأْويل هذه الآية – فقال ابن عباس – فيما روي عنه – وأَبو عثمان : هي في الأَعراب ، وهي عامة في الأُمة إِلى يوم القيامة فيمن له أَعمال

(١) من الآية (٥٥) من سورة (التوبة) .
(٢) هكذا في جميع النسخ التي بين يديّ .

صالحة وسيئة ، فهي آية ترج على هذا ، وأسند الطبري هذا عن حجاج ابن أَبي زينب قال : سمعت أَبا عثمان[١] يقول : ما في القرآن آية أَرجى عندي لهذه الأُمة من قوله : ﴿وآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ، وقال قتادة : بل نزلت هذه الآية في أَبي لبابة الأَنصاري خاصة في شأْنه مع بني قريظة ، وذلك أَنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله ، وأَشار هو لهم إلى حلقه يريد أَن النبي صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد ، وأَقسم أَلا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أَو يموت ، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية ، وأَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بِحَلِّه[٢] ، ذكر هذا القول الطبري

---

(١) هو أبو عثمان النهدي .

(٢) سبق الاستشهاد بهذا الحديث ، وقد أخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب أن بني قريظة كانوا حلفاء لأبي لبابة فاطلعوا إليه وهو يدعوهم إلى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا لبابة ، أتأمرنا أن ننزل ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، « إنه الذبح » ، فأخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسبت أن الله غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك ؟ فلبث حيناً حتى غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك ، وهي غزوة العسرة ، فتخلف عنها أبو لبابة فيمن تخلف ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها جاء أبو لبابة يسلم عليه ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففزع أبو لبابة فارتبط بسارية التوبة التي عند باب أُم سلمة سبعاً من بين يوم وليلة في حرّ شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة ، وقال : لا يزال هذا مكاني حتى أُفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ ، فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهر ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه بكرة وعشية ، ثم تاب الله عليه ، فنودي أن قد تاب الله عليك ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلق عنه رباطه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقه عنه بيده ، فقال أبو لبابة حين أفاق: يا رسول الله ، إني أهجر دار =

عن مجاهد ، وذكره ابن إسحق في كتاب السِّيَر أَوعب وأَتقن .

وقالت فرقة عظيمة : بل نزلت هذه الآية في شأْن المتخلفين عن غزوة تبوك ، فكان «عملهم السيِّئ» التخلف بإِجماع من أَهل هذه المقالة ، واختلفوا في «الصالح» _ فقال الطبري وغيره : الاعتراف والتوبة والندم ، وقالت فرقة : بل «الصالح» غزوهم فيما سلف من غزو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف أَهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عُنوا بهذه الآية _ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا عشرة رهط ربط منهم أَنفسهم سبعة ، وبقي الثلاثة الذين خلفوا دون ربط المذكورون بعد هذا ، وقال زيد بن أَسلم(١) : كانوا ثمانية منهم كردم ، ومرداس ، وأَبو قيس ، وأَبو لبابة . وقال قتادة : كانوا سبعة ، وقال ابن عباس أَيضاً وفرقة : كانوا خمسة ، وكلهم قال : كان فيهم أَبو لبابة ، وذكر قتادة فيهم الجَدَّ بن قيس ، وهو _

= قومي التي أَصبت فيها الذنب وأنتقل إليك فأُساكنك ،وإني أختلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يجزي عنك الثلث ، فهجر أبو لبابة دار قومه ، وساكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتصدق بثلث ماله ، ثم تاب فلم يُرَ منه في الإسلام بعد ذلك إلا خير حتى فارق الدنيا . (الدر المنثور) .

ويلاحظ أن قتادة يرى أن الآية نزلت في أبي لبابة وحده لتخلفه عن غزوة تبوك لا لموقفه من بني قريظة وإشارته لهم . كذلك يلاحظ أن جميع الأقوال تجعل أبا لبابة واحداً من الذين نزلت فيهم هذه الآية ، وقد اعترض أبو حيان على رأي قتادة وقال : « ويبعد ذلك من لفظ (وَآخَرُونَ) لأنه جمع » .

(١) هو زيد بن أَسْلم العدوي العمري ، مولاهم . فقيه مفسِّر ، من أهل المدينة ، كان مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أيام خلافته ، وكان ثقة ، كثير الحديث ، له حلقة في المسجد النبوي ، وله كتاب في التفسير . (تهذيب التهذيب ، تذكرة الحفاظ ، الأعلام)

فيما أعلم ـ وهْم لأَن الجَدَّ لم تُرْوَ له توبة ، وأما قوله تعالى : [وَآخَرَ] فهو بمعنى «بِآخَرَ» وهما متقاربان . و [عَسَى] من الله واجبة .

ورُوي في خبر الذين ربطوا أَنفسهم أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد فرآهم قال : (ما بال هؤلاءِ؟) فقيل له : إنهم تابوا وأَقسموا أَلا ينحلوا حتى يحلَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعذرهم(١) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأَنا والله لا أَحلهم ولا أَعذرهم إلا أَن يأْمرني الله بذلك ، فإنهم تخلفوا عني وتركوا جهاد الكفار مع المؤمنين) .(٢)

وقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صدَقَةً﴾ الآية . رُوي أَن أَبا لبَابة والجماعة التائبة التي ربطت أَنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه : ﴿خَلَطُوا عَملًا صَالِحاً وَآخرَ سيِّئاً﴾ جاءَت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تِيبَ عليها فقالت : يا رسول الله ، إنا نريد أَن نتصدق بأَموالنا زيادةً في توبتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لا أَعرِض لأَموالكم إلا بأَمر من الله) ، فتركهم حتَّى نزلت هذه الآية ، فَهُم المراد بها ، فروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَخذ ثلث أَموالهم

(١) يقال : عَذَرَ فلاناً فيما صنع : رفع عنه اللوم فيه . (المعجم الوسيط) ، وفي (الصحاح) : اعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعي فقال له : «قد عذرتك غير معتذر ، إن المعاذير يشوبها الكذب» .

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي بقية الحديث قصة تقدمهم بأموالهم للرسول ليتصدق منها ورفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك إلا إذا أمره الله ، وهو ما أشار إليه ابن عطية بعد ذلك .

مراعاةً لقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم﴾ ، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين ، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

وقالت جماعة من الفقهاء : المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة ، فقوله ـ على هذا ـ : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ضميره لجميع الناس ، وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالثياب والرباع ونحوه ، والضمير الذي في [أَمْوالِهِمْ] أيضاً كذلك عموم يُراد به خصوص إذ يخرج منه العبيد وسواهم ، وقوله : [صَدَقَةً] مجمل يحتاج إلى تفسير[1] ، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها ، و [مِنْ] في هذه الآية للتبعيض ، هذا أقوى وجوهها .

وقوله تعالى : ﴿تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندةً إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في [خُذْ] ، ويحتمل أن تكون من صِفَة الصدقة ، وهذا مترجح بحسب رفع الفعل ، ويكون قوله : [بِهَا] أي بنفسها ، أي : يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها ، ويحتمل أن تكون [تُطَهِّرُهُم] صفة للصدقة و [تُزَكِّيهِمْ] مسنداً إلى النبي

---

(١) قال صاحب « البحر المحيط » تعليقاً على ذلك : « وإطلاق ابن عطية عليه أنه مجمل فيحتاج إلى تفسير ليس بجيّد » ورأيه أن لفظ « صدقة » مطلق لا مجمل ، ولهذا يصدق بأدنى شيءٍ . « البحر ٥ـ٩٥» . وكذلك يقول القرطبي : « هو مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا يتبين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه ، وإنما بيان ذلك في السُّنة والإجماع » .

صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون حالا من الصدقة ، وذلك ضعيف لأَنها حالٌ من نكرة ، وحكى مكي أن يكون [تُطَهِّرُهُم] من صفة الصدقة وقوله [وَتُزَكِّيهِمْ] حالًا من الضمير في [خُذْ] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا مردودٌ لمكان واو العطف ، لأَن ذلك يتقدر : «خذ من أَموالهم صدقة مطهرة ومزكيا بها» ، وهذا فاسد المعنى ، ولو لم يكن في الكلام واو عطف جاز[١] . وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [تُطْهِرْهُم] بسكون الطاءِ .

وقوله تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معناه : ادع لهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأَنفسهم وطمأْنينة ووقاراً ، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد . وحكى مكي[٢] ، والنحاس[٣] ، وغيرهما أَنه قيل : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ .

---

(١) حاول أبو حيان في البحر أن يجد تخريجاً لهذا الاعتراض فقال : «ويصحّ على تقدير مبتدأ محذوف والواو للحال ، أي : وأنت تزكيهم» ، لكنه عاد فاعترف بأنه تخريج ضعيف لقلة نظيره في كلام العرب . وقال الزجاج : «والأجود أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي : فإنك تطهرهم وتزكيهم بها ، على القطع والاستئناف» .

(٢) اسمه مكيّ بن أبي طالب حموش بن محمد الأندلسي القيسي ، مقرئٌ ، عالم بالتفسير والعربية ، من أهل القيروان ، من أهم كتبه : «مشكل إعراب القرآن» و «الكشف عن وجوه القراءات وعملها» ، «والهداية إلى بلوغ النهاية» في معاني القرآن، و «التبصرة في القراءات السبع» (خ) ، و «الإيضاح» في الناسخ والمنسوخ ، و «الرعاية» لتجويد القراءة وغيرها . توفي بقرطبة سنة (٤٣٧ هـ) . (الأعلام) .

(٣) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري ، أبو جعفر النحاس ، مفسّر أديب ، مولده ووفاته بمصر (٣٣٨ هـ) ، كان من نظراء نفطوية وابن الأنباري ، صنف «تفسير القرآن» ، و «إعراب القرآن» (خ) ، و «ناسخ القرآن ومنسوخه» ، و «معاني القرآن» . (الأعلام) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وهم بعيد ، وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين ، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين ، فلا تناسخ بين الآيتين .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، ونافع ، وابن عامر : [إِنَّ صَلَوَاتِكَ] بالجمع ، وكذلك في (هود) وفي (المؤمنين)(١) ، وقرأ حفص عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ بالإفراد ، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في (هود) وفي (المؤمنين) ، وقرأ عاصم في (المؤمنين) وحدها جمعاً ، ولم يختلفوا في سورة (الأنعام) و (سأل سائل)(٢) ، وهو مصدر أفردته فرقة وجمعته فرقة .

وقوله تعالى : [سَمِيعٌ] أي لدعائك ، [عَلِيمٌ] أي بمن يهدي ويتوب عليه وغير ذلك مما تقتضيه هاتان الصفتان . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية فعل ما أُمر به من الدعاءِ والاستغفار

---

(١) أما في (هود) ففي قوله تعالى في الآية (٨٧) : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ، وأما في سورة (المؤمنون) ففي قوله تعالى في الآية (٢) : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ .

(٢) أما في (الأنعام) ففي قوله تعالى في الآية (٩٢) : ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وأما في (سأل سائل) وهي (المعارج) ففي قوله تعالى في الآية (٢٣) : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ، وأجمعوا على الإفراد فيهما لأن الكلمة مكتوبة به في السواد ، قاله الإمام ابن خالويه .

لهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ : رحمة لهم » ، وقال قتادة : « ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي وقار لهم » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما معناه أن من يدعو له النبي صلى الله عليه وسلم فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه ، ويُروى أنه قد صحت وسيلته إلى الله تبارك وتعالى ، وهذا بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ على ذكر الغائب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ـ بخلاف عنه ـ : ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ على معنى : قل لهم يا محمد ألم تعلموا ؟ وكذلك هي في مصحف أُبي بن كعب بالتاءِ من فوق ، والضمير في [يَعْلَمُوا] قال ابن زيد : يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين ، وذلك أنه لما تيب على بعضهم قال الغير : ما هذه الخاصة التي خُص بها هؤلاءِ ؟ فنزلت هذه الآية . ويحتمل أن يكون الضمير في [يَعْلَمُوا] يراد به الذين تابوا وربطوا أنفسهم .

وقوله : [هُو] تأْكيد لانفراد الله بهذه الأُمور وتحقيق ذلك ، لأَنه لو قال : «أَن الله يقبل التوبة» لاحتمل ذلك أَن يكون قبول رسوله قبولا منه ، فبيَّنت الآية أَن ذلك مما لا يصل إِليه نبي ولا ملك ، وقوله : ﴿ويَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ﴾ معناه : يأْمر بها ويُشَرِّعها كما تقول : أَخذ السلطان من الناس كذا ، إِذا حملهم على أَدائه ، وقال الزجاج : معناه : ويقبل الصدقات ، وقد وردت أَحاديث في أَخذ الله صدقة من عبيده ، منها قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبد الله بن أَبي قتادة المحاربي عن ابن مسعود عنه : (إِنَّ العبد إِذا تصدق بصدقة وقعت في يد الله قبل أَن تقع في يد السائل)[1] ، ومنها قوله الذي رواه أَبو هريرة : (إِنَّ الصدقة تكون قدر اللقمة يأْخذها الله بيمينه فيُربيها لأَحدكم كما يُربي أَحدكم فَلُوَّه أَو فصيله حتى تكون مثل الجبل)[2]. وغير هذا من الأَحاديث التي هي عبارة عن القبول والتَّحفي بصدقة العبد ، فقد يحتمل أَن تُخرَّج لفظة [ويأْخُذ] على هذا .

ويتعلق بهذه الآية القول في قبول التوبة ، وتلخيص ذلك أَن قبول التوبة من الكفر يقطع به عن الله عزَّ وجلَّ إِجماعاً ، وهذه نازلة

(١) أخرجه عبد الرزاق ، والحكيم ، والترمذي في نوادر الأصول ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن مسعود بلفظ (ما تصدق رجل بصدقة إلا وقعت ...) وفي آخره : ثم قرأ : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ . (الدر المنثور)

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن أبي هريرة ، وأخرج مثله ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبي هريرة . (الدر المنثور)

هذه الآية ، وهذه الفرقة التائبة من النفاق تائبة من كفر ، وأما قبول التوبة من المعاصي فيقطع بأن الله تعالى يقبل من طائفة من الأُمة توبتهم ، واختلف ـ هل تقبل توبة الجميع ؟ وأما إذا عين إنسان تائب فيرجى قبول توبته ولا يقطع بها على الله . وأما إذا فرضنا تائباً غير معين صحيح التوبة ، فهل يقطع على الله بقبول توبته أم لا ؟ فاخْتُلف ـ فقالت فرقة فيها الفقهاءُ والمحدثون ـ وهو كان مذهب أبي رضي الله عنه[1] ـ : يقطع على الله بقبول توبته لأنه تعالى أخبر بذلك عن نفسه ، وعلى هذا يلزم أن تقبل توبة جميع التائبين . وذهب أبو المعالي وغيره من الأئمة إلى أن ذلك لا يقطع به على الله تعالى ، بل يقوى فيه الرجاءُ ، ومن حجتهم أن الإنسان إذا قال في الجملة : إني أغفر لمن ظلمني ، ثم جاءَ من قد سبَّه وآذاه ، فله تعقُّب حقه ، وبالغفران لقوم يصدق وعده ولا يلزمه الغفران لكل ظالم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونحو هذا من القول ، والقول الأول أرجح ، والله الموفق للصواب .

وقوله تعالى : ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ هي بمعنى «من» ، وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه ، تقول : لا صدقة إلا عن غنى ، ومن

(١) كان ابن عطية يعتز برأي والده دائماً ، ووالده هو الإمام الحافظ أبو بكر غالب ابن عطية ، فقيه ، ومحدث ، وزاهد ، أخذ عن أعلام الأندلس ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٦٩ هـ وأخذ عن علمائه . وهذا العالم الفقيه هو الأستاذ الأول لابن عطية رحمه الله .

غنى ، وفعل فلان ذلك من أَشره وبطره ، وعن أَشره وبطره [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ تقرير ، والمعنى : حق لهم أَن يعلموا ، وقوله : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا﴾ الآية . صيغة أَمر مضمنها الوعيد ، وقال الطبري : المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر أَن المراد بها الذين اعتذروا ولم يتوبوا ، وهم المتوعدون ، وهم الذين في ضمير قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أَنَّ الآيات كلها في الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . ومعنى ﴿فسيرَى ٱللَّهُ﴾ أَي موجوداً متعرضاً للجزاءِ عليه بخير أَو شر ، وأَما الرسول والمؤمنون فرؤيتهم رؤية حقيقية لا تجوز ، وقال ابن المبارك : رؤية المؤمنين هي شهادتهم على المرءِ بعد موته ، وهي ثناؤُهم عند الجنائز . وقال الحسن ما معناه أَنهم حذروا من فراسة المؤمن التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : (اتَّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[(٢)] .

(١) قيل : كلمة (من) وكلمة (عن) متقاربتان إلا أن (عن) تفيد البعد ، فإذا قيل : « جلس عن يمين الأمير » أفاد أنه جلس في ذلك الجانب ولكن مع ضرب من البعد ، ولهذا فإنها تفيد هنا أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه بعيد عن قبول الله توبتَه بسبب ذلك الذنب فيحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه وأبعده عن حضرته ، فلفظة (عن) كالتنبيه على أنه لابد من حصول هذا المعنى للتائب ، ومن المعروف أن (عن) للمجاوزة ، وأن (من) لابتداءِ الغاية .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ ، والترمذي عن أبي سعيد ، وأخرجه الطبرانيُّ في الكبير ، وابن عدي في الكامل عن أبي أُمامة ، وأخرجه ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وقوله تعالى : ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد البعث من القبور ، ومعنى الغيب والشهادة : ما غاب وما شوهد ، وهي حالتان تعم كل شيءٍ[1] ، وقوله : [فَيُنَبِّئُكُمْ] عبارة عن حضور الأَعمال وإِظهارها للجزاءِ عليها ، وهذا وعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى : [وَآخَرُونَ] عطف على قوله أَولا : [وَآخَرُونَ] ، وقرأَ نافع ، والأَعرج ، وابن نصاح ، وأَبو جعفر ، وطلحة ، والحسن ، وأَهل الحجاز : [مُرْجَوْنَ] من أَرْجى يُرْجِي دون همز ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم ، وأَهل البصرة : [مُرْجَئُونَ] من أَرجأَ يرجئُ بالهمز ، واختلف عن عاصم ، وهما لغتان ، ومعناهما التأْخير ، ومنه المرجئة لأَنهم

(١) هكذا في جميع النسخ التي بين يدي ، ويلاحظ أن الضمائر كلها للمفرد ، وكان الصحيح أن يقول : (معناهما) ، وكذلك (هما حالتان تعمَّان) ، وهذه الظاهرة تكررت كثيراً في أسلوب ابن عطية وأشرنا إليها في كل موضع .

أَخَّروا الأَعمال ، أَي أَخروا حكمها ومرتبتها . وأَنكر المبرد ترك الهمز في معنى التـأْخير ، وليس كما قال .

والمراد بهذه الآية ـ فيما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحق ـ الثلاثة الذين خلفوا ، وهم هلال بن أُمية الواقفي ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم ، وقيل : إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضِّرار ، وعلى هذا يكون ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلا من [آخَرُونَ] أَو خبر ابتداءٍ تقديرهم : هم الذين ، فالآية ـ على هذا ـ فيها ترج لهم واستدعاءٌ إلى الإيمان والتوبة . و [عَلِيمٌ] معناه : بمن يهدي إلى الرشد ، و [حَكِيمٌ] فيما ينفذه من تنعيم من شاءَ وتعذيب من شاءَ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقرأَ عاصم ، وعوام القراءِ ، والناس في كل قطر إلا بالمدينة : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ ، وقرأَ أَهل المدينة ، نافع ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وغيرهم : ﴿ٱلَّذِينَ ٱتخَذُوا﴾ بإسقاط الواو ، وكذلك هي في مصحفهم ، قاله أَبو حاتم ، وقال الزهراوي : هي قراءَة ابن عامر ، وهي في مصاحف أَهل الشام بغير واو . فأَما من قرأَ بالواو فذلك عطف على قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ﴾ أَي : ومنهم الذين اتخذوا ، وأَما من قرأَ بإسقاطها فرفع الذين بالابتداءِ ، واختلف في الخبر ـ فقيل : الخبر :

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ ، قاله الكسائي ، ويتجه بإضمارٍ إما في أول الآية وإما في آخرها بتقدير : «لا تقم في مسجدهم» ، وقيل : الخبر : ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُم﴾ ، قاله النحاس ، وهذا أفصح ، وقد ذكرت كون [ٱلَّذِينَ] بدلًا من [آخَرُون] آنفاً . وقال المهدوي : الخبر محذوف تقديره : «مُعذبون» أَو نحوه .(١)

وأما الجماعة المرادة «بالذين اتخذوا» فهم منافقو بني غنم بن عوف ، وبني سالم بن عوف ، وأَسند الطبري عن ابن إسحق عن الزهري وغيره أَنه قال : أَقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك حتى نزل بذي أَوَان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ وقد كان أَصحاب مسجد الضِّرار أَتوه وهو يتجهَّز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أَن تأْتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاءَ الله أَتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما أَقبل ونزل بذي أَوان نزل عليه القرآن في شأْن مسجد الضرار ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم ، ومَعْنَ بن عدي أَو أَخاه عاصم بن عدي فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أَهله فاهدماه وحَرِّقاه ، فانطلقا

(١) وقال الزمخشري : ﴿الَّذينَ اتَّخَذُوا﴾ محله النصب على الاختصاص كقوله تعالى : ﴿وَالْمُقيمينَ الصَّلاةَ﴾ .

مسرعين ففعلا وحرَّقاه بنار في سعف[١] . وذكر النقاش أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر ، ووحشيا مولى المطعم بن عدي[٢] ، وكان بانوه اثني عشر رجلًا : خِذام بن خالد ومن داره أُخرج مسجد الشقاق[٣] ، وثعْلبة بن حاطب[٤] ، ومُعَتَّب بن قُشير ، وأَبو حبيبة بن الأَزعر[٥] وعباد بن حُنيْف أَخو سهل بن حُنيف ، وجارية بن عمرو[٦] ، وابناه : مُجَمّع بن جارية وهو كان إمامهم ، وحلف لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته أَنه لم يشعر بـأَمرهم ، وزيْدُ بن جارية ، ونبْتَل بنُ الحارث ، وبَحْزَج من بني ضبيعة[٧] ، وبجاد بن عثمان[٨] ، ووديعة بن ثابت . وبَحْزَج منهم هو الذي حلف لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أَردتُ إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أَو ضعف عن المسير إلى مسجد قباءٍ .

---

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن مردويه عن أبي رهم بن كلثوم بن الحصين الغفاري ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة ، وأخرج مثله ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور)

(٢) هو وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه .

(٣) خِذَام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف . وهو بالخاء والذال المعجمتين .

(٤) نقل القرطبي عن ابن عبد البر أنه قال : « وفيه نظر لأنه شهد بدراً » .

(٥) كتبت بالزاي في كل المراجع تقريباً ماعدا القرطبي فقدكتبت فيه بالذال .

(٦) في « القرطبي » و « الدر المنثور» : جارية بن عامر ، وفي «البحر المحيط» و «الألوسي» : حارثة بن عامر .

(٧) في بعض النسخ جاءَ اسمه : (يَخْرج) بالياءِ والخاءِ والراءِ ، وفي الدر المنثور : يخدج بالدال المهملة ، ولكنا اخترنا ما يتفق مع مافي الطبري وسيرة ابن هشام، والبحر المحيط .

(٨) بالباءِ المفتوحة .

وقرأ ابن أَبي عبلة : ﴿مَا أَرَدْنا إِلَّا ٱلْحُسْنَى﴾ .

والآية تقتضي شرح شيءٍ من أَمر هذه المساجد ، فروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف ، وهو مسجد قباءٍ ، وقيل : وجده مبنياً قبل وروده ، وقيل : وجده موضع صلاة فبناه ، وتشرف القوم بذلك فحسدهم من حينئذ رجال من بني عمهم من بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف ، فكان فيهم نفاق ، وكان موضع مسجد قباءٍ مربطاً لحمار امرأَة من الأَنصار اسمها لية ، فكان المنافقون يقولون : والله لا نصبر على الصلاة في مربط حمار لية ونحو هذا من الأَقوال ، وكان أَبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم ، وكانت أُمه من الروم ، فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب ، وهو أَبو حنظلة غسيل الملائكة ، وكان سيداً نظيراً[1] وقريباً من عبد الله بن أُبي بن سلول ، فلما جاءَ الله تبارك وتعالى بالإِسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزَّب على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأَحزاب ، فلما ردهم الله بِغيظهم أَقام أَبو عامر بمكة مظهراً لعداوته ، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف،

---

(١) النَّظير : المِثْلُ والمساوي ، فهو مساو لابن سلول في المكانة بين قومه ، وفي أبي عامر الراهب هذا يقول كعب بن مالك :

معاذَ اللهِ من فِعْـــــلٍ خَبِيثٍ   كَسَعْيِكَ في الْعَشِيرَةِ عَبْدَ عَمْرو
وقُلْتَ بأَنَّ لي شـــرَفاً وذِكْراً   فَقَدْ تَابَعْتَ إيمـــاناً بِكُفْــرِ

فلما أَسلم أَهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أَن ابنوا مسجداً مُقَاوَمَةً لمسجد قباءٍ وتحقيراً له ، فإني سآتي بجيش من الروم أُخرج به محمداً وأَصحابه من المدينة ، فبَنَوْهُ وقالوا : سيأْتي أَبو عامر ويصلي فيه ويتخذه معبداً ويُسَر به ، ثم إن أَبا عامر هلك عند قيصر . ونزل القرآن في أَمر مسجد الضرار ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني أَبا عامر وقولهم : «سيأْتي أَبو عامر» . وقرأَ الأَعمش : «للَّذين حاربوا الله» . وقوله : [ضِرَاراً] أَي داعية للتضار بين جماعتين ، فلذلك قال : [ضِرَاراً] ، وهو في الأَصل مصدر ما يكون من اثنين وإن كان المصدر الملازم لذلك مُفَاعلة كما قال سيبويه[1] . ونصب (ضِرَار) وما بعده على المصدر في موضع الحال ، ويجوز أَن يكون على المفعول من أَجله ، وقوله : ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد : بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباءٍ ، فإن من جاوز مسجدهم كانوا يصرفونه إليه وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان . وقيل : أَراد بقوله : ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى ، وسيأْتي ذلك . قال النقاش : يلزم من هذا

---

(١) قال بعض العلماء : الضَّرَر : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضَرَّة ـ والضِّرار : الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المَضَرَّة .

أَلا يُصَلَّى في كنيسة ونحوها لأَنها بنيت على شرٍّ من هذا كله ، وقد قيل في هذا : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تفقه غير قوي (١) .

والإرصاد : الإعداد والتهيئة ، والذي حارب الله ورسوله : أَبو عامر الفاسق ، وقوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يريد : في غزوة الأَحزاب وغيرها ، والحالف المراد في قوله : [لَيَحْلِفُنَّ] هو بَحْزَجُ ومن حلف من أَصحابه ، وكُسِرَت الأَلف من قوله : ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأَن الشهادة في معنى القول .

وأَسند الطبري عن شقيق (٢) أَنه جاءَ ليصلي في مسجد بني غاضرة (٣) فوجد الصلاة قد فاتته ، فقيل له : إِن مسجد بني فلان لم يصل فيه

(١) قال القرطبي : «لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضرر بالغير ، وإن كان أصل بنائها على شر ، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واتخذ اليهود البيعة موضعاً للعبادة بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا ، وقد أجمع العلماء على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته صحيحة ، وذكر البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يصلي في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل» .

(٢) عرف بهذا اثنان : شقيق بن إبراهيم الأزدي البَلْخي ، أبو علي ، زاهد صوفي من مشاهير المشايخ في خراسان ، من أول من تكلم في علوم الصوفية ، وكان من كبار المجاهدين ، استشهد سنة ١٩٤ هـ . وشقيق بن ثور بن عفير السدوسي البصري ، من أشراف العرب في العصر الأموي ، شهد صفين مع علي ، وقدم على معاوية في خلافته ، وهو من التابعين ، ومن الثقات عند رجال الحديث ، وتوفي سنة ٦٤ هـ. ونرجح أن المراد هو الثاني لأن الأول عاش ومات في خراسان ، والحادثة المروية هنا تتعلق ببني غاضرة وهم من العرب .

(٣) في الصحاح : غاضرة : قبيلة من بني أسد ، وحيٌّ من بني صعصعة ، وبطن من ثقيف . وفي القاموس : وهم بنو غاضرة بن بغيض بن ثابت بن غطفان بن سعد .

بعد فقال : لا أُحب أَن أُصلي فيه فإنه بُني على ضرار ، وكل مسجد بُني ضراراً ورياءً وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار ، وروي أَن مسجد الضرار لما هدم وأُحرق اتخذ مزبلة ترمى فيه الأَقذار والقمامات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)﴾

روي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبداً﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد ، وهذا النهي إنما هو لأَن البانين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بنينا مسجداً للضرورات والسيل الحايل بيننا وبين قومنا فنريد أَن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة ، فهَمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشي معهم إلى ذلك ، واستدعى قميصه لينهض فنزلت الآية : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ . وقوله : [لَمَسْجِدٌ] قيل : إن اللام لام قَسَم ، وقيل : هي لام الابتداءِ كما تقول : لَزيْدٌ أَحسن الناس فعلا ، وهي مقتضية تأْكيداً .

وقال ابن عباس ، وفرقة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم : المراد بالمسجد الذي أُسس على التقوى : هو مسجد قِباءٍ ، وروي عن عمر ، وأَبي سعيد ، وزيد بن ثابت أَنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ويليق القول الأَول بالقصة ، إلا أَن القول الثاني رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نظر مع الحديث ، وأَسند الطبري في ذلك عن أَبي سعيد الخدري أَنه قال : اختلف رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف فقال الخدري : هو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : هو مسجد قباءٍ ، فأَتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأَلاه فقال : (هو مسجدي هذا ، وفي الآخر خير كثير)[1] إلى كثير من الآثار في هذا عن أُبي بن كعب ، وسهل بن سعد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بقعته نخل وقبور مشركين ومِربد[2] ليتيمين كانا في حجر أَسعد بن زرارة ، وبناه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري . (الدر المنثور ، وفيض القدير)

(٢) المِرْبد : موقف الإبل ومَحْبسها ، وبه سُمّى مِرْبد البصرة ، كان سوقاً للإبل ، وكان الشعراء يجتمعون فيه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات : الأُولى بالسَّميط(١) وهي لبنة أَمام لبنة ، والثانية بالصعيدة(٢) ، وهي لبنة ونصف في عرض الحائط ، والثالثة بالأُنثى والذكر ، وهي لبِنتان تعرض عليهما لبِنتان ، وكان في طوله سبعون ذراعاً ، وكان عُمُده النخل ، وكان عريشاً يكف المطر ، وعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم بنيانه ورفعه فقال : (لا ، بل يكون عريشاً كعريش أَخي موسى كان إِذا قام ضرب رأْسه في سقفه) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل فيه اللَّبِن على صدره ، ويقال إِن أَول من وضع في أَساسه حجراً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وضع أَبو بكر حجراً ، ثم وضع عمر حجراً ، ثم وضع عثمان حجراً ، ثم رمى الناس بالحجارة فتفاءَل بذلك بعض الصحابة في أَنها الخلافة فصَدَقَ فأْله .

وقوله : ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ قيل : معناه : منذ أَول يوم ، وقيل : معناه : من تأْسيس أَول يوم ، وإِنما دعا إِلى هذا الاختلاف أَنَّ من أُصول النحويين أَنَّ (من) لا تُجر بها الأَزمان وإِنما تُجَر الأَزمان بمنذ ، تقول : ما رأَيته منذ يومين أَو سنة أَو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من

(١) السَّمِيطُ : بفتح السّين المشددة وكسر الميم ، وقد تشدّد السِّين مع الضم وتشدّد الميم مع الفتح هو : الآجُرّ القائم بعضه فوق بعض ، وقد يُسَمى المَسْمُوط ، والسّمْطُ . (المعجم الوسيط) .

(٢) طريقة ثانية في البناء يكون عرض الجدار فيها مساوياً لِلَبِنَة ونصف لَبِنَة ، أما الطريقة الأولى فيكون عرض الجدار فيها لبنة واحدة ، وقد وضح ذلك ابن عطية ، أما الطريقة الثالثة فهي قائمة على وضع لَبِنَتَين ثم فوقهما لبنتان أُخريان بالعرض .

سنة ، ولا من يوم ، فإذا وقعت (من) في الكلام وهي تلي زمناً [١] فيقدر مضمر يليق أن تجره (من) كقول الشاعر :

لِمنِ الديَارُ كقُنَّة الحِجْـــــر أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ ومِنْ دهْر؟ [٢]

و «منْ شَهْر» رواية ، فقدروه : «مِنْ مرِّ حِجَج ومِنْ مرِّ دَهْر» ، ولما كان قوله تعالى ﴿أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يوماً وهو اسم زمان احتاجوا فيه إلى تقدير «مِنْ تـأْسيس» [٣] ، ويحسن عندي أَن يُستغنى في هذه الآية عن تقدير ، وأَن تكون (مِنْ) تجر لفظة [أَوَّلِ] لأَنها بمعنى البداءَة ، كأَنه قال : من مبتدإِ الايام ، وهي – هنا – تقوم مقام «المَرِّ» في البيت المتقدم ، وهي كما تقول : «جئت من قبلك ومن بعدك» وأَنت لا تدل بهاتين اللفظتين إلا على الزمن ، وقد حُكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أَئمة النحو .

ومعنى ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أَي بصلاتك وعبادتك . وقرأَ جمهور الناس : ﴿أَنْ تقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ﴾ بكسر الهاءِ ، وقرأَ عبد الله ابن زيد : ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ فيهُ﴾ بضم الهاءِ الثانية على الأَصل ،

---

(١) هكذا في جميع النسخ التي بين يديّ ، والمفروض أن تكون العبارة : « فإذا وقعت (مِنْ) في الكلام يليها زمن » .

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمى ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها هرم بن سنان ، والقُنَّة : قِمَّة الشيءِ أو ما أشرف منه على الأرض ، والحِجر : منازل ثمود عند وادي القرى بناحية الشام ، وأقْوَيْن : أقْفَرْن وخَلَوْنَ ، والحِجَج : السنون .

(٣) يعني : « من تأسيس أول » .

ويُحَسِّنه تجَنُّب تكرار لفظ واحد ، وقال قتادة وغيره : الضمير عائد على مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرجال : جماعةُ الأَنصار .

وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : (يا معشر الأَنصار إني رايت الله أَثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون ؟) فقالوا : يا رسول الله : إنا رأَينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماءِ ، (قال القاضي أَبو محمد رحمه الله : يريدون الاستنجاءَ بالماءِ) ففعلنا نحن ذلك ، فلما جاءَ الإِسلام لم ندعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فَلا تدعوه أَبداً) (١) .

وقال عبد الله بن سَلَام (٢) وغيره ما معناه : إِن الضمير عائد على مسجد قباءٍ ، والمراد بنو عمرو بن عوف ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم إِنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو بن عوف ، والأَول أَكثر . واختلف أَهل العلم في الأَفضل بين الاستنجاءِ بالماءِ أَو بالحجارة ، فقيل هذا وقيل هذا ، ورأَت فرقة من أَهل العلم الجمع بينهما ،

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٣–٤٢٢) عن عويم بن ساعدة الأنصاري ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : (إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء) ... الخ .

(٢) هو عبد الله بن سَلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي ، قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وفيه نزلت الآية الكريمة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، والآية الكريمة : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ ، وقد شهد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين علي رضي الله عنه ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات بها سنة ٤٣ هـ، له (٢٥) حديثاً . (تهذيب التهذيب – الأعلام) .

فينقى بالحجارة ثم يتبع بالماءِ ، وحدثني أَبي رضي الله عنه أَنه بَلَغه أَن بعض علماءِ القيروان كانوا يتخذون في مُتَوَضَّياتهم أَحجاراً في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماءِ أَخذاً بهذا القول .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما يتصور الخلاف في البلاد التي يمكن فيها أَن تنقي الحجارة . وابن حبيب لا يجيز الاستنجاءَ بالحجارة حيث يوجد الماءُ ، وهو قولٌ شذَّ فيه .

وقرأَ جمهور الناس : [يَتَطَهَّرُوا] ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، والأَعمش : [يطَّهَّروا] بالإِدغام ، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : [الْمُتَطَهِّرِينَ] بالتاءِ ، وأَسند الطبري عن عطاءٍ أَنه قال : أَحدث قوم من أَهل قباءٍ الاستنجاءَ بالماءِ فنزلت الآية فيهم ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (منهم عُويم بن ساعدة) ولم يسم أَحداً منهم غير عُويم .

وقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ الآية . استفهام بمعنى تقرير . وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وجماعة : ﴿أُسِّسَ بُنْيَانُهُ﴾ على بناءِ [أُسِّسَ] للمفعول ورفع [بُنيَان] فيهما[1] ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وجماعة : ﴿أَسَّس بُنيَانَهُ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ونصب [بُنيان] فيهما ، وقرأَ عمارة بن ضبا - رواه يعقوب - الأَول على بناءِ الفعل للمفعول والثاني على بنائه للفاعل. والآية تتضمن

(١) أي في قوله : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ وقوله : ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ .

معادلة بين شيئين ، فإما بين البناءَين وإما بين البانين ، فالمعادلة الأُولى هي بتقدير : «أَبِناءُ من أَسَّس ؟» . وقرأَ نصر بن علي – ورويت عن نصر بن عاصم – : «أَفَمَنْ أُسُّ بُنيانِهِ» على إضافة «أُسُّ» إلى البنيان ، وقرأَ نصر بن عاصم ، وأَبو حيوة أَيضاً : «أَساسُ بُنيانِهِ» ، وقرأَ نصر بن عاصم أَيضاً : «أُسُسُ بُنيانِهِ» على وزن (فُعُل) بضم الفاءِ والعين ، وهو جمع أَساس كقَذَالٍ وقُذُل ، حكى ذلك أَبو الفتح[١] ، وذكر أَبو حاتم أَن هذه القراءَة لنصر إِنَّما هي : «أَسَسُ» بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة ، وعلى الحكايتين فالإِضافة إِلى البنيان ، وقرأَ نصر بن علي أَيضاً : «أَساس» على جمع «أُسٍّ»[٢] ، والبنيان

(١) روى أبو الفتح هذه القراءات الثلاث عن نصر بن عاصم ونصر بن علي في كتاب المحتسب (ج ١–٣٠٣ – القاهرة – تحقيق علي النجدي) ، ويتفق كلام ابن عطية مع ما في المحتسَب في قراءتين : ﴿أَسَاسُ بُنْيَانِهِ﴾ بفتح الألف وألف بين السِّينين ، و ﴿أُسُّ بُنْيَانِهِ﴾ برفع الألف وبالسين المشددة وبخفض النون في بنيانه – أما القراءة الثالثة فقد ضبطها ابن عطية هنا : ﴿أُسُسُ بُنْيَانِهِ﴾ على وزن فُعُل بضم الفاء والعين . وقال : وهو جمع أساس كَقَذَالٍ وقُذُل ، ولكن محقق المحتسَب ضبطها : ﴿أَسَسُ بُنْيَانِهِ﴾ وقال على وزن فَعَل . وضبط الفاء والعين بالفتح . وهو ما نقله ابن عطية عن أبي حاتم بعد ذلك .

ونصر بن عاصم هو : نصر بن عاصم الليثي ، (ويقال : الدؤلي) البصري النحوي، تابعي ، سمع من مالك بن الحويرث وغيره ، وعرض القرآن على أبي الأسود ، وروى القراءة عنه عَرْضاً أبو عمرو ، وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، وتوفي قبل سنة مائة . (طبقات القراء لابن الجزري) .

أما نصر بن علي فهو نصر بن علي أبو حفص الخضيضي ، روى الحروف عن حفص بن سليمان عن عاصم . (طبقات القراء لابن الجزري) .

(٢) على مثال : خُفٌّ وأَخْفَاف وقُفْل وأَقفال . ولكن الكثير إساسٌ مثل خِفَاف ، قال الشاعر : أَصْبَحَ الملكُ ثابِتَ الإِسَاسِ في البهالِيلِ مِنْ بني العبَّاسِ

هذا وجمع الأساسِ أُسُسٌ مثل قَذَال وقُذُل .

مصدر ، يقال : بنى يبني بناءً وبُنياناً كالغُفْران والطُّغيان فسمي به المبني مثل الخلْق إذا أَردت به المخلوق ، وقيل : هو جمعٌ واحدُهُ بُنيَانَة ، وأنشد في ذلك ابو علي :

كبُنيَانَةِ القَاري موْضِعُ رجْلِهـا وآثارِ نِسْعيْها من الدَّفِّ أَبْلَقُ (١)

وقرأ الجمهور : ﴿عَلَى تَقْوَى﴾ ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿عَلَى تَقْوًى﴾ بتنوين الواو ، حكى هذه القراءة سيبويه وردها الناس ، قال أَبو الفتح : قياسها أَن تكون الأَلف للإلحاق كأَرطًى ونحوه (٢).

وأما المراد بالبُنيان الذي أُسس على التقوى والرضوانِ فهو ـ في ظاهر اللفظ وقولِ الجمهور ـ المسجدُ المذكور قبلُ ، ويطرد فيه الخلاف المتقدم، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بـأَنه أُسس على تقوى من الله ورضوان هو مسجد قباءٍ ، وأَما البنيان الذي أُسس على شفا جرف هار فهو مسجد الضرار بإجماع .

(١) الشاهد في البيت أن (بُنْيَانَة) واحدة (بُنْيان) . والقاري : ساكن القرية ، كما أن البادي : ساكن البادية . والنِّسْع : المفصل بين الكف والساعد ، والدَّفُّ : من قولهم : دَفَّ الطائر أي ضرب بجناحيه ، أو حَرَّكَ جناحيه ورجلاه في الأرض ، وفي الحديث : (كُلْ ما دَفَّ ولا تأكل ما صَفَّ) . والبَلَق : سوادٌ وبياضٌ في الشيء ، يقال : بَلِق فهو أبْلَق ، والجمْع : بُلْقٌ . والبيت غير منسوب .

(٢) معنى أن الألف للإلحاق أنها ليست للتأنيث وذلك مثل أرطىً كما قال ، ومثل تَتْرًى ، وكذلك عَلْقىً في قول العجَّاج :

* يَسْتَنُّ في عَلْقىً وفي مكُورِ *

والعَلْقَى والمُكُور : ضربان من الشجر ، ويَسْتَنُّ : يرعى : فالعجاج يصف ثوراً يرعى في ضروب من الشجر .

والشَّفا : الحاشية والشَّفير[1] ، والجُرُف : الحفير حول البئر ونحوه مما جرفته السيول والنَّدوة والبلى[2] ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وجماعة : [جُرُف] بضم الراءِ ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، وجماعة : [جُرْف] بسكون الراءِ ، واختلف عن عاصم ، وهما لغتان ، وقيل : الأَصل بضم الراءِ وتخفيفها بعد ذلك مستعمل . و [هارٍ] معناه : متهدم مُنْهال ، من هَار يهور ، ويقال : هار يهير ويهار ، وأَصله : هاير أَو هاور ، فقيل : قلبت راوُه قبل حرف العلة فجاءَ هارِوْ أَو هارِي ، فصنع به ما صنع بِقَاضٍ وغازٍ ، وعلى هذا يقال في حال النصب : هاريا ، ومثله «في يوم راح» أَصله : رائح ، ومثله «شاكي السلاح» أَصله : شائك ، ومثله قول العَجاج :

لَاثٍ بهِ الأَشاءُ والعُبْرِي[3]

أَصله : لائِثٌ ، ومثله قول الشاعر :

. . . . خَفَضُوا أَسِنَّتَهُمْ فكُلٌّ ناعٍ[4]

---

(١) الكلمات الثلاث معناها واحد وهو : الحرف والطرف .

(٢) الجُرْف : ما أكل السَّيْل من أسفل شِقّ الوادي ، وجمعه أجرافٌ وجُرُوف وَجِرَفة ، فإن لم يكن من شِقِّه فهو شطٌّ وشاطىء ، وجُرْف الوادى ونحوه من أسْنادِ المسَايِل إذا نَخَرَ الماءُ في أصله فاحتفره فصار كالدحل وأشرف أعلاه ، ولعل هذا يفسر لنا معنى إضافة « الندوة والبلى » إلى « السيول » في كلام ابن عطية .

(٣) الأَشَاءُ : النَّخْل ، والعُبْرِيّ : السِّدْرُ الذي على شاطىء الأنهار ، ومعنى « لاثٍ به » : مُطيف به .

(٤) هذا عجز بيت للأجدع بن مالك كما قال في اللسان ، والبيت بتمامه :

خَيْلانِ مِنْ قَوْمي ومِنْ أعْدَائِهِمْ خَفَضُوا أَسِنَّتَهُمْ وكُلٌّ ناعِ =

على أَحد الوجهين ، فإنه يحتمل أَنه من «نَعَى ينعى» والمراد أَنهم يقولون : «ياثارات فلان» ، ويحتمل أَن يريد : «فَكُلُّهم نَائِـعٌ» أَي عاطِشٌ كما قال عُميْر بن شييم [(١)] :

. . . . والأَسَلَ النِّيَاعَا [(٢)]

وقيل في [هارٍ] : إن حرف علَّته حُذف حذفاً ، فعلى هذا يجري بوجوه الإعراب فتقول : هذا جُرُفٌ هارٌ ، ورأَيتُ جرُفاً هارًا ، ومررت بِجُرُف هارٍ . واختلف القراءُ في إمالة [هارٍ] و [انْهَارَ] .

= والاحتمال الثاني هنا قاله يعقوب وأنشد البيت عليه بلفظ: «وكلّ ناعِـي» ، قال : «أراد نايِـعٌ أي عطشان إلى دم صاحبه» . أما الاحتمال الأول فقد قاله الأصمعي ، قال : «هو على وجهه ، إنما هو فاعِلٌ من نَعَيْتُ ، وذلك أنهم يقولون : يالثارات فلان :

ولقَدْ نَعَيْتُكَ يَوْمَ حرْمِ صَوَائِقٍ بِمَعَابِلٍ زُرْقٍ وأَبْيَضَ مِخْذَمِ

أي : طلبتُ دمك فلم أزل أضرب القوم وأطعَنُهُم وأنعاك وأبكيك حتى شفيت نفسي وأخذتُ بثأري» .

(١) في بعض الأصول كتب عمرو بن شييم ، وفي بعضها كتب عامر . وصحة اسمه كما أثبتناه : عمير بن شييم بن عمرو بن عباد بن بكر التغلبي ، عدّه ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين ، وكان يكثر من الأمثال في شعره ، توفي عام ١٠١ هـ . (معجم الشعراء – طبقات فحول الشعراء – المؤتلف والمختلف – مقدمة ديوانه) .

(٢) هذا جزء من بيت ، رواه في اللسان منسوباً إلى القطامي (عمير بن شييم) ، والبيت بتمـــامه :

لَعَمْرُ بني شِهَابٍ ما أقاموا صُدورَ الخَيْلِ والأَسَلَ النِّيَاعَا

ثم قال : «يعني الرِّماح العطاش إلى الدماءِ ، والأسل : أطراف الأسنة» ، ثم عاد فقال : قال ابن برّي : البيت لدريد بن الصمة» . وهذا يوافق ما في «الصحاح» .

وتأْسيس البناءِ على تقوى إنما هو بِحُسْن النية فيه وقصد وجه الله تبارك وتعالى وإظهار شرعه ، كما صنع في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وفي مسجد قباءٍ . والتأْسيس على شفا جرف هار إنما هو بفساد النية وقصد الرياءِ والتفريق بين المؤمنين ، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة . و [خَيْرٌ] في هذه الآية تفضيل ، ولا شركة بين الأَمرين في خير إلا على معتقد باني مسجد الضِّرار ، فبِحَسَب ذلك المعتقد صح التفضيل .

وقوله تعالى : ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه وممَّا صح من خبرهم وهَدْم رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدهم أَنه خارج مخرج المثل ، أَي : مثل هؤلاءِ المضارين من المنافقين في قصدهم معصية الله وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم ، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره . وقيل : بل ذلك حقيقة وإن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم ، قاله قتادة وابن جريج (١) . وروي عن جابر بن عبد الله وغيره أَنه قال :

---

(١) قال الزمخشري : «لما جُعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل : ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على معنى : فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيءَ بلفظ الانهيار الذي هو الجرف ، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها» .

رأَيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروي في بعض الكتب أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه حين انهار حتى بلغ الأَرض السابعة ففزع لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، وروي أَنهم لم يصلوا فيه أَكثر من ثلاثة أَيام ، أَكملوه يوم الجمعة وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت وانهار يوم الاثنين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله بإِسناد لين ، وما قدمناه أَصوب وأَصح ، وكذلك بقي أَمره والصلاة فيه من قبل سفر رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلى تبوك إِلى أَن قفل منها .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ طعن على هؤلاءِ المنافقين وإِشارة إِليهم . والمعنى : لا يهديهم من حيث هم ظالمون ، أَو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه ، وأَسند الطبري عن خلف بن ياسين أَنه قال : رأَيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن فرأَيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان ، وذلك في زمن أَبي جعفر المنصور . وروي شبيه بهذا أَو نحوه عن ابن جريج ، أَسنده الطبري .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

الضمير في [بُنْيانِهِم] عائد على المنافقين البانين للمسجد ومن شاركهم في غرضهم ، وقوله : ﴿ٱلَّذِي بَنَوْا﴾ تأكيد وتصريح بأَمر المسجد ورفع للإشكال . والرِّيبة : الشك ، وقد يُسمى ريبةً فسادُ المعتقد واضطرابه والاعتراض في الشيء والتخبط فيه والحزازة من أَجله وإن لم يكن شكاً ، فقد يرتاب من لا يشك ، ولكنها في مُعتاد اللغة تجري مع الشك . ومعنى الريبة - في هذه الآية - أَمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام ، فمقصد الكلام : لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يُبقي في قلوبهم حزازة وأثر سوءٍ ، وبالشك فسر ابن عباس رضي الله عنهما الريبة هنا ، وفسرها السدي بالكفر ، وقيل له : أَفَكَفَر مجمع بن جارية ؟ قال : لا ولكنها حزازة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومُجَمَّع رحمه الله قد أَقسم لعمر رضي الله عنه أَنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءًا ، والآية إنما عنت من أَبطن سوءًا ، فليس مجمع منهم . ويحتمل أَن يكون المعنى : لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم ، وجملة هذا أَن الريبة في الآية تعم معاني كثيرة يأْخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والكسائي : ﴿إِلَّا أَنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُم﴾ بضم التاءِ وبناءِ الفعل للمفعول ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم – بخلاف عنه – : ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ﴾ بفتح التاءِ على أَنها فاعلة ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، ﴿إِلَى أَنْ تَقَطَّع﴾ على معنى : إلى أَن يموتوا ، وقرأَ بعضهم : ﴿إلى أَنْ تَقْطَع﴾ ، وقرأَ أَبو حيوة ﴿إِلَّا أَنْ يُقْطِع﴾ بالياءِ مضمومة وكسر الطَّاءِ ونصب القلوب ، أَي : بالقتل ، وأَما على القراءَة الأُولى فقيل : بالموت ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد وغيرهم . وقيل : بالتوبة ، وليس هذا بالظاهر إلا أَن يُتَأَول : أَو يتوبوا توبة نصوحة يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب همًّا وفكرة ، وفي مصحف ابن مسعود : «ولو قُطِّعت قلُوبُهم» ، وكذلك قرأَها أَصحابه وحكاها أَبو عمرو : «وإن قُطِعت» بتخفيف الطاءِ ، وفي مصحف أُبي : «حتى الممات» ، وفيه «حتى تقطع» .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية .

هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأَنصار على السبعين ، وكان أَصغرهم سنا عقبة بن عمرو ، وذلك أَنهم اجتمعوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فقالوا : اشترط لك ولربك ، والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة ، فاشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم حمايته مما يحمون منه أَنفسهم ، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأَحمر والأَسود في الدفع عن الحوزة ، فقالوا : مالَنا على ذلك ؟ قال : الجنة ، فقالوا : نعم ، ربح البيع لا نقيل ولا نقال ، وفي بعض الروايات : ولا نستقيل ، فنزلت الآية في ذلك ، ثم الآية – بعد ذلك – عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ، وقال بعض العلماءِ : ما من مسلم إلا ولله في عنقه هذه البيعة وفَى بها أَو لم يَف ، وفي الحديث : (إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذل العبد دمه فإِذا فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك)[1] ، وهذا تمثيل من الله عزَّ وجلَّ جميلَ صنعه بالمبايعة ، وذلك أَن حقيقة المبايعة أَن تقع بين نَفْسين بقصد منهما وتملُّك صحيح ، وهذه القصة وهب الله عباده أَنفسهم وأَموالهم ، ثم أَمرهم ببذلها في ذاته ، ووعدهم على ذلك ما هو خير منها ، فهذا غاية التفضل ،

(١) قال القرطبي : رواه الحسن ، ثم أنشد البيت المشهور :

الجُودُ بالمال جُودٌ فيه مكرُمَةٌ والجُودُ بالنَّفْسِ أَقْصى غايَةِ الجود

ثم شبه القصة بالمبايعة ، وأسند الطبري عن كثير من أهل العلم أنهم قالوا : ثامَنَ الله تعالى في هذه الآية عباده فأعلى لهم ، وقاله ابن عباس ، والحسن بن أبي الحسن ، وقال ابن عيينة : معنى الآية : اشترى منهم أنفسهم ألَّا يُعْملوها إلا في طاعة الله ، وأموالهم ألَّا ينفقوها إلا في سبيل الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالآية ـ على هذا ـ أعم من القتل في سبيل الله ، ومبايعة الخلفاءِ هي منتزعة من هذه الآية ، كان الناس يعطون الخلفاءَ طاعتهم ونصائحهم وجدهم ، ويُعْطيهم الخلفاءُ عدلهم ونظرهم والقيامَ بأمرهم . وحدثني أبي رضي الله عنه أنه سمع الواعظ أبا الفضل ابن الجوهري يقول على المنبر بمصر : ناهيك من صفقةٍ البائع فيها رب العلا ، والثمن جنة المأْوى ، والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقطوع ومستأْنف ، وذلك على تأْويل سفيان بن عيينة ، وأما على تأْويل الجمهور من أن الشراءَ والبيع إنما هو مع المجاهدين فهو في موضع الحال . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، والحسن ، وقتادة ، وأبو رجاءٍ ، وغيرهم : [فَيَقْتُلُونَ] على البناءِ للفاعل ، [وَيُقْتَلُونَ] على البناءِ للمفعول ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والنَّخَعي ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش بعكس ذلك ، والمعنى واحد إذ الغرض أن المؤمنين

يقاتلون فيوجد فيهم من يَقْتُل وفيهم من يُقْتَل ، وفيهم من يجتمعان له ، وفيهم من لا تقع له واحدة منهما ، وليس الغرض أَن يجتمع ولابد لكل واحد واحد ، وإذا اعتبر هذا بان (١) .

وقوله سبحانه : ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لأَن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد فجاءَ هذا مؤكداً لما تقدم من قوله ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ . وقال المفسرون : يظهر من قوله سبحانه : ﴿فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ﴾ أَن كل أُمة أُمرت بالجهاد ووعدت عليه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أَن ميعاد أُمة محمد صلى الله عليه وسلم تقدم ذكره في هذه الكتب .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام على جهة التقرير ، أَي : لا أَحد أَوفى بعهده من الله ، وقوله : [فَاسْتَبْشِرُوا] فعل جاءَ فيه استفعل بمعنى أَفعل ، وليس هذا من معنى طلب الشيءِ كما تقول : استوقد ناراً ، واستهدى مالًا ، واستدعى نصراً ، بل هو كعجب واستعجب (٢) ، ثم وصف تبارك وتعالى ذلك البيع بأَنه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ،

---

(١) قال الزمخشري : [يُقَاتِلُونَ] فيه معنى الأمر ، لقوله تعالى : ﴿تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ .

(٢) قوله تعالى : (فَاسْتَبْشِرُوا) خطاب من الله تبارك وتعالى بعد ضمائر الغائب على سبيل الالتفات ، لأن في مواجهته تعالى لهم بالخطاب تشريف لهم ، وهذه هي حكمة الالتفات هنا .

أي أنه الحصول على الحظ الأَغبط من حط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب [(١)] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾

هذه الأَوصاف هي من صفات المؤمنين الذين ذكر الله أَنه اشترى منهم أَنفسهم ، وارتفعت هذه الصفات لما جاءَت مقطوعة في ابتداءِ آية على معنى : هم التائبون . ومعنى الآية على ما تقتضيه أَقوال العلماءِ والشرع أَنها أَوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إِليها أَهل التوحيد حتى يكونوا في أَعلى رتبة ، والآية الأُولى مستقلة بنفسها ، يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وإِن لم يتصف بهذه الصفات التي في هذه الآية الثانية أَو بأَكثرها . وقالت فرقة : بل هذه الأَوصاف جاءَت على جهة الشرط ، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إِلا المؤمنون الذين

---

(١) قال الحسن : « والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة » ، فما أعظم هذا الفوز حقاً !

هم على هذه الأَوصاف ويبذلون أَنفسهم في سبيل الله . وأَسند الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم أَن رجلًا سأَله عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَى﴾ الآية ، وقال الرجل : أَلا أَحمل على المشركين فأَقتل حتى أُقتل ؟ فقال الضحاك : ويلك ، أَين الشرط : ﴿ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ﴾ الآية ؟ وهذا القول تحريج وتضييق والله أَعلم ، والأَول أَصوب ، والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد ، وقد رُوي أَن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه ، خَتَمَ الله لنا بالحسنى .

وقالت فرقة : إن رفع التائبين إنما هو على الابتداءِ وما بعده صفة إِلَّا قوله : [ٱلآمِرُونَ] فإنه خبر الابتداءِ ، كأَنه قال : هم الآمرون ، وهذا حسن إلا أَن معنى الآية ينفصل من معنى التي قبلها ، وذلك قلق فتأَمله . وفي مصحف عبد الله بن مسعود : ﴿ٱلتَّائِبِينَ ٱلْعَابِدِينَ﴾ إِلى آخرها ، ولذلك وجهان : أَحدهما : الصفة للمؤمنين على اتباع اللفظ ، والآخر : النصب على المدح .

و [ٱلتَّائِبُونَ] يعم الرجوع من الشر إِلى الخير كان ذلك من كفر أَو معصية ، والرجوع من حالة إِلى ما هي أَحسن منها وإِن لم تكن الأُولى شرًّا بل خيراً ، وهكذا كانت توبة النبي صلى الله عليه وسلم واستغفاره سبعين مرة في اليوم ، والتائب هو المُقْلع عن الذنب العازم على التمادي على الإقلاع النادم على ما سلف ، والتائب عن ذنب يسمى

تائباً وإن أقام على غيره إلا أن يكون من نوعه فليس بتائب ، والتوبة ونقضها دائباً خير من الإصرار ، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقض فإن ذنوبه الأُولى تبقى عليه لأن توبته منها علم الله أنها منقوضة ، ويحتمل الأمر غير ذلك ، والله أعلم .

وقال الحسن في تفسير الآية : [التَّائِبُونَ] معناه : من الشرك .

و [ٱلْعَابِدُونَ] لفظ يعم القيام بعبادة الله تبارك وتعالى والتزام شرعه وملازمة ذلك والمثابرة عليه والدوام ، والعابدُ هو المحسن الذي فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : (أَنْ تعبد اللهَ كأَنَّك تراه)[1] ، وبأدنى عبادة يؤديها المرءُ المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أدنى رتبة ، وعلى قدر زيادته في العبادة يحصل الوصف .

و [ٱلْحَامِدُونَ] معناه : الذاكرون لله بأوصافه الحسنى في كل حال وعلى السرَّاءِ والضرَّاءِ ، وحمده لأنه أهل لذلك ، وهو أعم من الشكر إذ الشكر إنما هو على النِّعَم الخاصة بالشاكر .

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري في تفسير سورة لقمان وفي كتاب الإيمان ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، ورواه أبو داود في كتاب السُّنَّة ، ورواه الترمذي في كتاب الإيمان ، وابن ماجه في المقدمة ، والإمام أحمد في مواضع كثيرة ، وفيه أن جبريل عليه السلام سأله عن الإيمان ، فأجاب ، ثم سأله عن الإسلام فأجاب ، ثم سأله عن الإحسان فقال : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ، ثم سأله عن الساعة فأجاب بالحديث عن أشراطها ، ثم قال في آخر الحديث : (هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم) .

و[ٱلسَّٰٓئِحُونَ] معناه : الصائمون ، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «سياحة هذه الأُمة الصيام» ، أَسنده الطبري ، ورُوي أَنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم(١) ، وفي الحديث : (إن لله ملائكة سيَّاحين مشَّائين في الآفاق يبلغوني صلاة أُمتي عليّ)(٢) ، ويروى الحديث (صيَّاحين) بالصاد مِن الصِّياح ، والسياحة في الأَرض مأْخوذ من السَّيْح وهو الماءُ الجاري على الأَرض إلى غير غاية ، وقال بعض الناس– وهو في كتاب النقاش – : «[السَّائِحون] هم الجائلون بأَفكارهم في قدرة الله وملكوته» ، وهذا قول حسن ، وهي من أَفضل العبادات ، ومن ذلك قول معاذ بن جبل رضي الله عنه : «اقعد بنا نؤمن ساعة» ، ويروى أَن بعض العباد أَخذ القدح ليتوضأَ لصلاة الليل ، فأَدخل إصبعه في أُذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر ، فقيل له في ذلك فقال : أَدخلت إصبعي في أُذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾(٣) ، وفكرت كيف أَتلقى الغُلَّ وبقيت في ذلك لَيْلي أَجمع .

---

(١) الخبر المسند إلى عائشة رضي الله عنها أسنده الطبري ، أما أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فقد روي عن أبي هريرة موقوفاً كما قال الشوكاني . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن النجار من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (السائحون هم الصائمون) . (الدر المنثور)

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والنسائي في سُنَنه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه – عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ولفظه كما رواه : (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أُمتي السلام) . (الجامع الصغير)

(٣) من الآية (٧١) من سورة (غافر) .

و ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ هم المصلون الصلوات الخمس ، كذا قال أَهل العلم ، ولكن لا يختلف في أَن من يكثر من النوافل هو أَدخل في الاسم وأَغرق في الاتصاف .

وقوله : ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ هو أَمر فُرض على أُمة محمد صلى الله عليه وسلم بالجملة ، ثم يفترق الناسُ فيه مع التعيين ، فأَما ولاة الأَمر والرؤَساءُ فهو فرض عليهم في كل حال ، وأَما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط ، منها : أَلا تلحقه مضرَّة ، وأَن يعلم أَن قوله يُسْمع ويُعْمل به ونحو هذا ، ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أَعظم أَجراً ، وأَسند الطبري عن بعض العلماءِ أَنه قال : حيثما ذكر الله الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأَمر بالإِسلام والنهي عن الكفر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولاشك أَنه يتناول هذا وهو أَحرى أَن يتناول ما دونه[1] فتعميم اللفظ أَولى . وأَما هذه الواو التي في قوله : [وَٱلنَّاهُونَ] ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبلُ ، فقيل : معناها الربط بين هاتين الصفتين وهما الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ هما من غير قبيل الصفات الأُول .

---

(١) جاء في بعض النسخ : « إذ يتناول ما دونه » ، على معنى أن اللفظ يتناول ما دون الإسلام والكفر فأولى به أن يتناولهما .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لأَن الأُول فيما يخص المرءَ ، وهاتان فيما بينه وبين غيره [(١)] ، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما ، وقيل : هي زائدة ، وهذا قول ضعيف لا معنى له ، وقيل : هي واو الثمانية ، لأَن هذه الصفة جاءَت ثامنةً في الرتبة ، ومن هذا قوله تعالى في أَبواب الجنة : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [(٢)] ، وقوله : ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [(٣)] ، ومن هذا قوله : ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ [(٤)] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

على أَن هذه تعترض حتى لا يلزم أَن تكون واو ثمانية لأَنها فرقت بين فصلين يعمان بمجموعهما جميع النساءِ ولا يصح أَن يكون [(٥)] «ثَيِّبَاتٍ أَبْكَاراً» فهي فاصلة ضرورة ، وواو الثمانية قد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأَبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى : ﴿وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وأَنكرها أَبو علي ، وحدثني أَبي رضي الله عنه عن الأُستاذ

---

(١) جاء ترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن ، إذ بدأ أولا بما يخص الإنسان مُرَتَّبة على ما سعى ، ثم بما يتعدى الإنسان إلى غيره كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بما شمل ما يخصه في نفسه ويتعدى إلى غيره وهو الحفظ لحدود الله . ولما ذكر الله جميع الصفات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين ، وفي الآية التي قبلها أمرهم سبحانه بالاستبشار فقال : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ فحصلت لهم المزية التامة بأن الله أمرهم بالاستبشار وأمر رسوله أن يبشرهم .

(٢) في الآية (٧٣) من سورة (الزُّمر) .

(٣) في الآية (٢٢) من سورة (الكهف) .

(٤) من الآية (٥) من سورة (التحريم) .

(٥) أي : لا يصح أن يكون التعبير «ثَيِّبَاتٍ أبكاراً» لأن هذا غير ممكن ، وفي بعض النسخ : «لا يصح أن يَكُنَّ» أي النساء .

النحوي أَبي عبد الله الكفيف المالقي ــ وكان قد استوطن غرناطة وأَقرأ فيها في مدة ابن حبوس ــ أَنه قال : « هي لغة فصيحة لبعض العرب ، من شأْنهم أَن يقولوا إذا عدُّوا : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أَربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، وثمانية ، تسعة ، عشرة ، فهكذا هي لغتهم ، ومتى ما جاءَ في كلامهم أَمر ثمانية أَدخلوا الواو »[1].

---

(١) يرى بعض النحويين أن الواو التي تدخل على العدد ثمانية أو على ثامن الأشياء المعدودة تسمى « واو الثمانية » ، ومنهم ابن خالويه الذي ذكرها في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى في سورة الزُّمَر : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ، وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشاً كانت تقول : « ستة ، سبعة ، وثمانية » فتدخل الواو في الثمانية ، وحكى نحوه القفال فقال : إن قوماً قالوا : العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة ، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو ، كقوله تعالى : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...﴾ ثم قال سبحانه : ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، ويدلّ على ذلك أنه سبحانه لما ذكرأبواب جهنم قال : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوها فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بدون واو ، ولما ذكر الجنة قال : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو ، وأنه سبحانه قال في سورة التحريم : ﴿خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ ... إلى أن قال : ﴿وَأَبْكَاراً﴾ ، فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا . قال القُشيري أبو نصر : ومثل هذا الكلام تحكم ، ومن أين أن السبعة نهاية عندهم ؟ ثم هو منقوض بقوله تبارك وتعالى : ﴿هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ولم يذكر الاسم الثامن بالواو ، وإنما ذكرت الواو في هذه الآيات لعلّة خاصة في كل آية ، وفي آيتنا هذه ذكر ابن عطية رحمه الله العلّة وهي أنها أداة للربط بين صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما تختلفان عن الصفات السابقة من حيث أنهما تتعلقان بصلة المرء بغيره ، أما الصفات الأولى فتختص بالمرء نفسه ، وذكر أبو حيان التوحيدي علة أخرى خلاصتها أن الصفات إذا تكررت للمدح أو الذم أو الترحم جاز فيها الإتباع للمنعوت والقطع في كلها أو بعضها ، وإذا تباين ما بين الوصفين جاز العطف ، ولما كان الأمر بالمعروف مبايناً للنهي عن المنكر لأن الأول طلب فعل والثاني ترك فعل حسن العطف في قوله سبحانه : ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ ــ هذا وسنذكر إن شاء الله علّة ذكر الواو في الآيات الأخرى في مواضعها إن شاء الله ، أي في (الكهف) ، و (الزُّمَر) و (التحريم) .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ لفظ عام تحته إلزام الشريعة والانتهاءُ عما نهى الله عنه في كل شيءٍ وفي كل فن ، وقوله : ﴿وبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : هو لفظ عام أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم أَن يبشر أُمته جميعاً بالخير من الله ، وقيل : بل هذه الأَلفاظ خاصة لمن لم يغْزُ ، أَي : لمّا تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أُمِر أَن يبشر سائر الناس ممن لم يَغْزُ بأَن الإيمان مخلص من النار ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِـيِّ﴾ الآية . يقتضي التأْنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأْس عن إيمانهم ، إمَّا بموافاتهم على الكفر وموتهم ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العاص بن وائل : «لا جزاه الله خيراً » ، وإما بنص من الله تعالى على أَحَد كأَبي لهب وغيره فيمتنع الاستغفار له وهو حيّ .

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية ؛ فقال الجمهور ــ ومداره على ابن المسيّب وعمرو بن دينار ــ : نزلت في شأْن أَبي طالب ، وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه حين احتضر ووعظه وقال : (أَي عمّ ، قل : لا إلٰه إلا الله كلمة أُحاجّ لك بها عند الله تعالى) ، وكان بالحضرة أَبو جهل وعبد الله بن أُمية ، فقالا له : يا أَبا طالب أَترغب عن ملَّة عبد المطلب ؟ فقال أَبو طالب : يا محمد ، والله لولا أَني أَخاف أَن يُعَيّر بها ولدي من بعدي لأَقررت بها عينك ،

ثم قال : أَنا على ملَّة عبد المطلب ، ومات على ذلك ، إذ لم يسمع منه النبي صلى الله عليه وسلم ما قال للعباس ، فنزلت : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والله لأَستغفرن لك ما لمْ أُنْهَ عنك) ، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار لأَبي طالب[2] ، وروي أَن المؤمنين لما رأَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لأَبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم ، فلذلك دخلوا في التأْنيب والنهي ، والآية - على هذا - ناسخة لفعل النبي صلى الله عليه وسلم إذ أَفعالُه في حكم الشرع المستقر .

وقال فُضيْل بن عطية وغيره : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة أَتى قبر أُمِّه فوقف عليه حتى سخنت عليه الشمس ، وجعل يرغب في أَن يؤذن له في الاستغفار لها فلم يؤذن له ، فأَخبر أَصحابه أَنه أُذن له في زيارة قبرها ومُنع أَن يستغفر لها ، فما رُئي باكياً أَكثر من يومئذ ، ونزلت الآية في ذلك[3] ، وقالت فرقة :

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (القصص) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن سعيد ابن المسيّب . (الدر المنثور)

(٣) روى ابن جرير عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ، ثم قام مستعبراً ، فقلنا : يا رسول الله إنَّا رأينا ما صنعت ، قال: (إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي فأذن ، واستأذنته في الاستغفار لها =

إنما نزلت بسبب قول النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين : (والله لأزيدن على السبعين)[١] ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا : نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه فنزلت الآية في ذلك[٢] ، وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، فنزل رفع الاعتراض في الآية التي بعدها .

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ يريد : من بعد الموت على الكفر ، فحينئذ تبين أنهم أصحاب الجحيم ، أي سكانها وعمرتها ، والاستغفار للمشرك الحيّ جائز إذ يُرجى إسلامه ، ومن هذا قول أبي هريرة رضي الله

= فلم يأذن لي) ، فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ ، وروى مثله ابن حاتم عن ابن مسعود ، وكذلك روى الطبراني عن عكرمة عن ابن عباس مثله في حديث طويل جاء فيه أنه صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك اعتمر ، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم فذهب فنزل على قبر أُمه ... وفي آخر الحديث : (دعوت ربِّي أن يرفع عن أُمتي أربعاً ، فرفع عنهم اثنتين وأبي أن يرفع عنهم اثنتين ، دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وألا يلبسهم شيعاً وألا يُذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض ، وأبي أن يرفع عنهم القَتْلَ والهرج » . (الدر المنثور ، وتفسير ابن كثير) .

(١) سبق الاستشهاد بهذا الحديث عند تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية (٨٠) من هذه السورة : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ .

(٢) أخرج مثله ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن محمد بن كعب . (الدر المنثور) .

عنه : «رحم الله رجلا استغفر لأَبي هريرة وأُمّه» ، قيل له : ولأَبيه ، قال : لا إن أَبي مات كافراً ، وقال عطاءُ بن أَبي رباح : الآية في النهي عن الصلاة على المشركين ، والاستغفار ها هنا يراد به الصلاة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

المعنى : لا حجة أَيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأَبيه فإن ذلك لم يكن إلّا عن موعدة ، واختلف في ذلك ــ فقيل : عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأَبيه ، وذلك قوله : ﴿سأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِـي حَفِيًّا﴾ (١) ، وقيل : عن موعدة من أَبيه له في أَنه سيُؤمن ، فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله على الاستغفار له حتى نُهي عنه ، وقرأَ طلحة : «وَمَا يسْتَغْفِر إبراهيمُ» ، وروي عنه : «وما اسْتَغفَرَ إِبراهيمُ» . و [مَوْعِدَة] مَفْعِلة من الوعد ، وأَما تَبَيُّنُهُ أَنه عدوٌّ لله ــ

(١) من الآية (٤٧) من سورة (مريم) .

فقيل : بموت آزر على الكفر ، وقيل : ذلك بأنه نُهي عنه وهو حيّ . وقال سعيد بن جبير (١) : ذلك كله يوم القيامة ، وذلك أن في الحديث أن إبراهيم عليه السلام يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله : «سأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي» فيقول له : الزم حَقْوي (٢) فلن أَدعك اليوم لشيءٍ ، فيلزمه حتى يأْتي الصراط فيلتفت إليه فإذا هو قد مُسِـخَ ضِبْعاناً أَمْدَر (٣) ، فيتَبَرَّأُ منه حينئذ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وربط أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناءٌ من الله تعالى على إبراهيم ، والأَوَّاه ، قال ابن مسعود : هو الدّعّاءُ ، وقيل : هو الداعي

---

(١) سعيد بن جُبَيْر الأسدي بالولاء ، الكوفي ، أبو عبد الله ، تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشي الأصل ، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين ، كان ابن عباس إذا أتاه أحد من الكوفة يستفتيه يقول : أتسألوني وفيكم ابن أُم دهماء ؟ يعني سعيداً رضي الله عنه ، قتله الحجاج لأنه كان مع ابن الأشعث عند خروجه على عبد الملك ابن مروان ، قال الإمام أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو مُفْتَقِرٌ إلى علمه ، وكان مقتله عام ٩٥ هـ (وفيات الأعيان — وطبقات ابن سعد ، وتهذيب التهذيب . والأعلام) .

(٢) الحَقْوُ بفتح الحاء وسكون القاف : الخَصْرُ وموضع شدّ الإزار ، ثم أطلق على الإزار ، والجمع أحْقٍ ، أصْلُهُ أحْقُوٌ فحذف لأنه ليس في الأسماء اسم آخره حرف علّة وقبله ضمة . (الصحاح) .

(٣) قال في الصّحاح : «وضِبْعَانٌ أَمْدَر أي : مُنْتَفخ الجنبين عظيم البطن ، ويقال : هو الذي تَتَرَبّ جنباه كأنه من (المدر أو التراب) .

بتضرع ، وقيل : هو الموقن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : هو الرحيم ، قاله ابن مسعود أيضاً ، وقيل : هو المؤمن التَّوَّاب ، وقيل : هو المُسبِّح ، وقيل : هو الكثير الذكر لله عزَّ وجلَّ ، وقيل : هو التَّلَّاءُ للقرآن ، وقيل : هو الذي يقول من خوفه لله عزَّ وجلَّ أبداً : أَوّاهْ ويكثر ذلك . وروي أن أبا ذر سمع رجلا يكثر ذلك في طوافه فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (دَعْهُ فَإِنَّهُ أَوَّاه)(١) ، والتَّأَوّه : التفجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بأَوْهِ ، قال المؤلف : ويقال : أَوَّه(٢) ، فمن الأول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلالٍ في بيع أَوْ شراءٍ أنكره عليه : (أَوْهِ ، ذلك الرِّبا بعينه)(٣) ، ومن الثاني قول الشاعر :

فَأَوْهٍ لِذِكْرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا وَمِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بيْنَنَا وسَمَاءُ(٤)

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي ذرّ رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٢) قال في اللسان : «وآوَّهْ ، وأَوَّهْ ، وآوُوهُ (بالمد وواوَيْن) ، وأَوْهِ (بكسر الهاء خفيفة) ، وأَوْهَ ، وآهِ ، كلُّهَا : كلمة معناها التَّحزُّن» .

(٣) قال في اللسان : «وردَ الحديث بأوْهِ في حديث أبي سعيد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : (أَوْهِ ، عَيْنُ الرِّبا)» . وقال ابن الأثير : «أَوْهِ : كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع ، وهي ساكنة الواو مكسورة الهاء» . ثم قال : «وبعضُهم يفتح الواو مع التشديد فيقول : أَوَّهْ ، وفي الحديث : (أَوَّهْ لفراخ محمد من خليفة يُسْتَخْلَف) .»

(٤) أنشد الفراء في (أَوْهِ) ، قال صاحب اللسان : «ويروى : فأوٍّ لذكراها ، ويُروى : فَآهٍ لذكراها ، قال ابن برّي : ومثل هذا البيت :

فَأَوْهِ على زيارَةَ أُمِّ عَمْروٍ فكيف مَعَ العِدَا ومَعَ الوُشَاةِ ؟

وقال في الصحاح : «ويُرْوَى : (فَأَيٍّ لذكراها) .

ومن هذا المعنى قول المُثَقِّب العَبْدي :

إذا ما قُمْتُ أَرْحلُـــهَا بِليْلٍ تَـأَوَّه آهَةَ الرَّجُلِ الْحَـــزِينِ (١)

ويروي : أَهَّةَ ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَوَّهْ لأَفراخ محمد) . و [حَلِيمٌ] معناه : صابر محتمل عظيم العقل ، والحلم : العقل (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً﴾ الآية . معناه التأْنيس للمؤمنين ، وقيل : إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشركين دون أَمْر من الله تبارك وتعالى فنزلت الآية مؤنسة ، أَي : ما كان الله ـ بعد أَن هدى إلى الإسلام وأَنقذ من النار ـ لِيُحبط ذلك ويُضل أَهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه ، فأَما إذا بيّن لهم ما يتقون

(١) المثقِّب العبدي : اسمه عائذ بن محصن بن ثعلبة ، شاعر جاهلي فحل قديم ، سمِّي المثقِّب لقوله : « وثَقَّبْنَ الوَصَاوِص والعيونا » ، وبيته هذا من قصيدته التي يطالب فيها حبيبته فاطمة بالوصال والمتعة ، والتي بدأها بقوله :

أفاطِمَ قبْلَ بيْنِك متِّعيني ومنْعُكِ ما سألْتُ كأنْ تَبِيني

وفي البيت يصف ناقته بأنها تتأوّه تَأَوُّهَ الرجل الحزين إذا ما قام ليضع الرحل عليها ليسير بها في الليل . قال في اللسان : ويروى : « تَهَوَّهُ هَاهَةَ الرجلِ » ، وقال ابن سيدة : وعندي أنه وضع الاسم موضع المصدر ، أي : تأوَّهُ تأوُّهَ الرَّجُلِ الحزين .

(٢) الحِلْم بالكَسْر : الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم ، وفي الكتاب العزيز : ﴿أَمْ تَأمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا﴾ ، وقال جرير :

هلْ مِن حُلُوم لأقوام فتُنْذِرهُمْ ما جرَّبَ النَّاسُ من عَضِّي وتَضْرِيسي ؟

من الأُمور ويتجنَّبون من الأَشياءِ فحينئذ مَنْ واقع ـ بعد النهي ـ استوجب العقوبة . وقيل : إن هذه الآية إنما نزلت بسبب قوم من أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا غيباً فحولت القبلة فصلوا ـ قبل أَن يصلهم ذلك ـ إلى بيت المقدس ، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أَن يصل إليهم ، فخافوا على أَنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية ، والقول الأَول أَصوب وأَليق بالآية .

وذهب الطبري إلى أَن قوله سبحانه : ﴿يُحْيِـي وَيُمِيتُ﴾ إشارة إلى أَنه يجب أَيها المؤمنون أَلا تجزعوا من عدو وإِن كثر ، ولا تهابوا أَحداً فإِن الموت المخوف والحياة المحبوبة إنما هما بِيَدِ الله تبارك وتعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمعنى الذي قال صحيح في نفسه ، ولكن قوله : «إن القصد بالآية إنما هو لهذا» قول يبعد ، والظاهر في الآية إنما هو لمَّا نَصَّ في الآية المتقدمة نعمتَه وفضلَه على عبيده في أَنه متى منَّ عليهم بهداية ففضلُه أَسبغ من أَن يصرفهم ويضلهم قبْلَ أَن تقع منهم معصية ومخالفة أَمْر ـ أَتْبع ذلك [١] بأَوصاف فيها تمجيد الله عزَّ وجلَّ وتعظيمه وبعْث النفوس على إدمان شكره والإِقرار بعبوديته .

(١) قوله : «أَتْبَعَ ذلك ...» هو جواب لمَّا في قوله : «إنما هو لمَّا نصَّ في الآية المتقدمة» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أَرفع منها ، فقد تكون في الأَكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة ، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أَكمل منها ، وهذه توبته في هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم لأَنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأَجرها وتحمّل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله . وأَما توبته على المهاجرين والأَنصار فحالها معرضة لأَن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين ، وأَما توبته على الفريق الذي كاد أَن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا .

و [ٱتَّبَعُوهُ] معناه : دخلوا في أَمره وانبعاثه ولم يرغبوا بأَنفسهم عن نفسه ، وقوله سبحانه : ﴿في ساعَةِ ٱلْعُسْرَة﴾ يريد : في وقت العسرة ، فأَنزل الساعة منزلة المدّة والوقت والزمن وإن كان عرف الساعة في اللغة

أنه لِمَا قلَّ من الزمن كالقطعة من النهار . أَلا ترى قوله صلى الله عليه وسلم في رواح يوم الجمعة في الساعة الأُولى وفي الثانية الحديث [١] ، فهي هنا تجوّز ، ويمكن أَن يريد بقوله : ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة إذ السّفرة كلها تَبَعٌ لتلك الساعة وبها وفيها يقع الأَجر على الله وترتبط النية ، فمن اعتزم على الغزو وهو مُعْسر فقد اتَّبع في ساعة العسرة ، ولو اتفق أَن يطرأَ لهم غنًى في سائر سفرتهم لما اختل كونهم متبعين في ساعة عُسرة ، والعسرة : الشدة وضيق الحال والعدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [٢] ، وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : (من جهَّز جيش العسرة فله الجنة) [٣] ، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بأَلف جمل وأَلف دينار ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلَّب الدنانير في يده وقال : (وما على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذلك رواه مسلم ، والترمذي ، ومالك في الموطأ في كتاب الجمعة ، ورواه أبو داود في كتاب الطهارة ، ولفظه كما جاء في البخاري : (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرَّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر) .

(٢) من الآية (٢٨٠) من سورة (البقرة) .

(٣) رواه البخاري في مناقب عثمان رضي الله عنه ، ولفظه : (وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يحفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرها عثمان ، وقال : من جَهَّزَ جيش العُسْرَةَ فله الجنة ، فجهَّزه عثمان) .

عثمان ما عمل بعد هذا ؟) ، وجاءَ أَيضاً رجل من الأَنصار بسبعمائة وَسْق من تمر[١] ، وقال مجاهد ، وقتادة : إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة وهي غزوة تبوك إلى أَن قسموا التمرة بين رجلين ، ثم كان النفر يأْخذون التمرة الواحدة فيمضغها أَحدهم ويشرب عليها الماءَ ثم يفعل كلهم بها ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وأَصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماءِ ويعصرون الفرث حتى استسقى لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه يدعو ، فما رجعهما حتى انسكبت سحابة فشربوا وادّخروا ثم ارتحلوا فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر ، وحينئذ قال رجل من المنافقين : وهل هذه إلا سحابة مرت ؟[٢] وكانت الغزوة في شدة الحرّ ، وكان الناس كثيراً فقَلَّ الظَّهر فجاءَتهم العسرة من جهات . ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أَوائل بلد العدوّ فصالحه أَهل أَذْرُج وأَيْلة[٣] وغيرهما على الجزية ونحوها ، وانصرف .

---

(١) الوَسْق بفتح الواو : مِكْيَلَة معلومة ، وهي ستون صاعاً ، والصاع خمسة أرطال وثلث . والوَسْق أيضاً : حِمْل البعير والعربة والسفينة . (المعجم الوسيط) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن خُزيمة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والضياءِ في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا ... إلى قوله : العسكر . وليس فيه كلام الرجل المنافق . (الدر المنثور) .

(٣) أذْرُج (بالذال المعجمة والراءِ المضمومة) قال في التاج : هي مدينة السَّراة ، وقيل : إنما هي أدْرُج ، وذكر ذلك في اللسان ، وصوب ياقوت ذلك وخطأ ما قبله وأطال في ذلك، =

وأَما الزَّيْغ الذي كادت قلوب فريق منهم أَن تواقعه فقيل : همّت فرقة بالانصراف لما لقوا من المشقة والعسرة ، قاله الحسن . وقيل : زيغها إنما كان بظنون لها ساءَت في معنى عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلك الغزوة لما رأته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد المشقة وقوة العدو المقصود .

وقرأَ جمهور السبعة ، وأَبو بكر عن عاصم : [تَزيغُ] بالتاءِ من فوق على لفظ القلوب ، وروي عن أَبي عمرو أَنه كان يدغم الدال في التاءِ ، وقرأَ حمزة ، وحفص عن عاصم ، والأَعمش ، والجحدري : [يزيغ] بالياءِ على معنى جَمْع القلوب ، وقرأَ ابن مسعود : «من بَعْدِ ما زاغَتْ قُلوبُ فريقٍ» ، وقرأَ أُبي بن كعب : «من بَعْدِ ما كادَتْ تَزيغُ».

وأَمَّا [كادَ] فيحتمل أَن يرتفع بها ثلاثة أَشياءَ ، أَوّلها وأَقواها : القصة والشأْن ، هذا مذهب سيبويه ، وترتفع «القلوب» – على هذا – بـ [تزيغُ] . والثاني : أَن يرتفع بها ما يقتضيه ذكر المهاجرين والأَنصار أَولا ، ويقدر ذلك: «القوم» ، فكأَنه قال : من بعد ما كاد القوم تزيغ قلوب فريق منهم . والثالث : أَن يرتفع بها «القلوب» ويكون في قوله : [تَزيغُ] ضمير القلوب ، وجاز ذلك تشبيهاً بكان في قوله تعالى :

= وأيلة معروفة الآن باسم إيلات قال في اللسان : «وأَيْلة: قرية عربية ورد ذكرها في الحديث ، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء البلد المعروف فيما بين مصر والشام» .

وقال حسّان بن ثابت :

مَلَكنا مِنْ جبَلِ الثَّلْج إلى جانِبَيْ أَيْلَةَ مِنْ عَبْدٍ وحُرّ

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) ، وأَيضاً فلأَن هذا التقديم للخبر يراد به التأْخير ، وشبهت (كاد) بـ (كان) لِلُزُوم الخبر لها ، قال أَبو علي : ولا يجوز ذلك في (عسى) (٢) .

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَنه تاب أَيضاً على هذا الفريق وراجع به ، وأَنَّس بإِعلامه للأُمة بأَنه رءُوفٌ رحيم . والثلاثة هم : كَعْبُ بن مالك(٣) ، وهلال بن أُمية الواقفي(٤) ، ومُرارة بن الربيع العامري ، ويقال : ابن ربيعة ، ويقال : ابن ربعي(٥) . وقد خرَّج حديثهم بكماله البخاري ومسلم(٦) ، وهو في السِّير ، فلذلك اختصرنا سوقه . وهم الذين تقدم

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الروم) .

(٢) أورد أبو حيّان في « البحر المحيط » إشكالات على هذه الإعرابات الثلاثة على قراءة التاء في [تَزيغ] فقال : « إذا قدّرنا فيها ضمير الشأن كانت الجملة في موضع نصب على الخبر والمرفوع ليس ضميراً يعود على اسم كاد ، بل ولا سبباً له ، وهذا يلزم في قراءة الياء أيضاً . وأما توسيط الخبر فهو مبني على جواز مثل هذا التركيب في مثل : « كان يقوم زيد » ، وفيه خلاف والصحيح المنع . وأما توجيه الآخر فضعيف جداً من حيث أُضمر في كاد ضمير لا يعود إلا بتوهم ، ومن حيث يكون خبر كاد واقعاً سببياً . ويُخلّص من هذه الإشكالات اعتقاد كون (كاد) زائدة ومعناها مراد ولا عمل لها ». (البحر المحيط ٥-١٠٩) .

(٣) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري الخزرجي ، اشتهر في الجاهلية ، وكان من شعراء النبي في الإسلام ، شهد الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان ، كفَّ بصره في آخر عمره ،مات سنة ٥٠ هـ وعمره سبع وسبعون سنة ،وله ٨٠ حديثاً. (الأعلام ،الإصابة ،الأغاني).

(٤) هلال بن أُمية بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي ، شهد بدراً وما بعدها ، له ذكر في الصحيحين من رواية سعيد بن جُبَيْر عن ابن عمر . (الإصابة والاستيعاب) .

(٥) مُرَارة بن ربيعة ، ويقال ابن ربيع العمري الأنصاري من بني عمرو بن عوف كما جاء في (الاستيعاب) ، ومُرارة بن ربعي بن عدي بن زيد بن جُشَم ، ذكره ابن الكلبي وقال : كان أحد البكائين كما جاء في (الإصابة) .

(٦) الحديث كما رواه البخاري طويل جداً ، ويروي فيه كعب بلاءه وبيعته ليلة العقبة ، ويروي بصدق لماذا تخلف وكيف اعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم إلى أن نزلت الآية الكريمة، =

فيهم : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ . ومعنى [خُلِّفُوا] : أُخِّرُوا وتُرك أَمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردّت عليهم ، فكأَنهم خُلِّفوا عن المعتذرين ، وقيل : معنى [خُلِّفُوا] أَي عن غزوة تبوك ، قاله قتادة ، وهذا ضعيف وقد ردّه كعب بن مالك نفسه وقال : معنى [خُلِّفُوا] : تُركوا عن قبول العذر ، وليس بتخلفنا عن الغزو ، ويُقوّي ذلك جعله (حَتَّى إذا ضَاقَتْ) غاية للتخلف ، ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو ، وإنما ضاقت عليهم الأَرض عن تخليفهم عن قبول العذر .

وقرأَ الجمهور : [خُلِّفُوا] بضم الخاءِ وشدّ اللام المكسورة ، وقرأَ عكرمة بن هارون المخزومي ، وزِرّ بن حُبيش ، وعمرو بن عبيد ، وأَبو عمرو أَيضاً : [خَلَفُوا] بفتح الخاءِ واللام غير مشددة ، وقرأَ أَبو مالك : [خُلِفُوا] بضم الخاءِ وتخفيف اللام المكسورة ، وقرأَ أَبو جعفر محمد بن علي ، وعلي بن الحسين ، وجعفر بن محمد ، وأَبو عبد الرحمن : [خَالَفُوا] ، والمعنى قريب من التي قبلها ، وقال أَبو جعفر: ولو خلفوا لم يكن لهم ذنب، وقرأَ الأَعمش: «وعلى الثلاثة المُخَلَّفِين».

وقوله تعالى : ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ معناه : برحبها ، كأَنه قال : على ما هي في نفسها رحْبة ، فـ [ما] مصدرية ، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾

= قال: (فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا) ، ثم قال كعب : (وكنا تخلفنا أيّها الثلاثة عن أمر أُولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ ، وليس الذي ذكر الله مما خُلّفْنَا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه) .

استعارة لأَن الهم والغمَّ مَلآها ، [وَظَنُّوا] في الآية بمعنى : أَيقنوا وحصل علماً لهم[١] .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ ، لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأَ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عزَّ وجلَّ ليكون ذلك مُنَبّها على تلقي النعمة من عنده لا ربَّ غيره ، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداءُ بالجهة التي هي عن المذنب كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] ، ليكون هذا أَشدّ تقريراً للذنب عليهم ، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومُعجز اتِّساقه . وبيان هذه الآية ومواقع أَلفاظها إِنَّما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا في الكتب التي ذكرنا[٣] ، وإِنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأَن الشرع يُطالبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه ، إِذ هم أُسوة وحجة للمنافقين والطاعنين ، إِذ كان كعبٌ من أَهل العقبة وصاحباه من أَهل بدر ، وفي هذا ما يقتضي أَن الرجل العالِمَ والمُقتدى به أَقل عذراً في السقوط من سواه . وكتب الأَوزاعي رحمه الله[٤] إِلى المنصور أَبي جعفر في آخر رسالة : «واعلم أَن قرابتك

---

(١) في بعض النسخ : «وحصل علمٌ لهم» وهي أصح وأوضح .

(٢) من الآية (٥) من سورة (الصف) .

(٣) يريد البخاري ، ومسلم ، وكتب السيرة كما سبق أن ذكر .

(٤) اسمه عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي ، أبو عمرو ، إمام في الفقه والزهد ، وأحد الكتاب المترسلين ، ولد في بعلبك ونشأ في البقاع ، وكانت الفُتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكَم بن هشام، له كتاب «السُّنَن» في الفقه ، و «المسائل» وقد سئل عن سبعين ألف مسألة أجاب عنها كلها ، توفي سنة ١٥٧ هـ . (تاريخ بيروت ، الوفيات ، الأعلام) .

من رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تزيد حق الله عليك إلا عِظَما ، ولا طَاعَتَه إلَّا وجوبا ، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلَّا إنكاراً والسلام » . ولقد أَحسن القاضي التنوخي في قوله :

* والعَيْبُ يَعْلَقُ بالكبير كبيرُ *

وفي بعض طرق حديث الثلاثة أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة نزول توبتهم في بيت أُم سلمة ، وكانت لهم صالحة [1] ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا أُم سلمة ، تِيب على كعب بن مالك وصاحبيه) ، فقالت : يا رسول الله أَلا أَبعث إليهم ؟ فقال : (إذاً يحطمكم الناس سائر الليلة فيمنعوكم النوم) .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ، هذا الأَمر بالكون مع أَهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين ، فجاءَ هذا الأَمر اعتراضاً في أَثناءِ الكلام إذْ عنَّ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله ، وقال ابن جريج وغيره : الصدقُ في هذه الآية هو صدق الحديث ، وقال نافع ، والضحاك ما معناه : إن اللفظ أَعمّ من صدق الحديث ، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير ، كما تقول العرب : عَوْدٌ صدقٌ ورجلٌ صدق » . وقالت هذه الفرقة : كونوا مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وأَبي بكر ، وعمر ، وأَخيار المهاجرين الذين صدقوا الله

(١) يريد : وكانت للثلاثة مصالحة ، ولعله سهو من النساخ . وفي نخسة : « وكانت لهم صلْحاً » أي مصالحة .

في الإسلام . و [مَع] في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : ﴿وكُونُوا مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن مسعود يتأول في صدق الحديث ، وروي عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جدّ ولا هزل ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿يـأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وكُونُوا مع ٱلصَّادِقِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

هذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوه ، وقوة الكلام تعطي الأمر بصحبته إلى توجُّهه غازياً وبذْل النفوس دونه ، واختلف المتأولون ، فقال قتادة : كان هذا الإلزام خاصاً مع النبي صلى الله عليه

وسلم ووجوب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه ، ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاء ، وقال زيد بن أَسلم : كان هذا الأَمر والإلزام في قلة الإسلام والاحتياج إلى اتصال الأَيدي ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله في الانبعاث إلى غزو العدوّ على الدخول في الإسلام ، وأَما إذا أَلَـمَّ العدو بجهة فمتعين على كل أَحد القيام بذبّه ومكافحته .

وأَما قوله تعالى : ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فمعناه أَلَّا يتحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الله مشقة ويجود بنفسه في سبيل الله فيقع منهم شحّ على أَنفسهم ويكعّون عما دخل هو فيه ، ثم ذكر تعالى لِمَ لَـمْ يكن لهم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الآية . والنصب : التعب ، ومنه قول النابغة :

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ . . . . (١)

---

(١) هذا صدر بيت قاله النابغة في مطلع قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر المعروف بابن أبي شَمِر وذلك حين هرب النابغة إلى دمشق حين بلغه أن مُرّة بن قريع وشى به إلى النعمان في أمر المتجردة ، وقيل: إن الواشي هو المُنَخّل بن عبيد اليشكري، والبيت بتمامه :

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ وليلٍ أُقاسيه بطيء الكواكب

و (كِلِيني) فعل أمر بمعنى اتركي ، والمعنى المراد : خلّي بيني وبين الهم الذي أتعبني والليل الطويل الذي أُقاسي منه . وقد أجمع الرواة على نصب (أُمَيْمَةَ) في البيت ، وعلل ذلك أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة بالترخيم ، وإذا كان الحرف الذي قبل هاء التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاء التأنيث لأجل سلامة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادي المؤنث المرخم . ومعنى (ناصب) : ذو نصب ، أي : تعب ، فهو همٌّ مُتْعِب .

أي : ذي نَصَبٍ ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾[١]. والمخْمصة : مفْعَلة من خموص البطن وهو ضموره ، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له ، ومن ذلك قول الأَعشى :

تَبِيتُونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وجاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٢]

ومنه : «أَخْمَص القدم»[٣]، والخُمْصانة من النساءِ[٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً﴾ أَي : ولا ينتهون من الأَرض منتهًى مؤذياً للكفار ، وذلك هو الغائط ، ومنه في «المدونة» : «كنا لا نتوضَّأ من مَوْطئٍ» من قول ابن مسعود . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ لفظٌ عامٌّ لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أَخذ مالٍ أَو إِيراد هوانٍ وكثيره[٥]، والنَّيْلُ : مصدر نال ينال ، وليس من قولهم : نلتُ أَنوله نولًا ونوالًا ، وقيل : هو منه وبدلت الواو ياءً لخفتها هنا ، وهذا ضعيف ، والطبري قد ذكر نحوه وضعّفه وقال : ليس ذلك المعروف من كلام العرب . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الكهف) .

(٢) قاله الأعشى في قصيدة يهجو بها علقـمة بن عُلاثة ، ويروي : (وجاراتكم جـوْعى) بدلا من (غـرْثى) . والقصيدة مُقْذعة في الهجاء .

(٣) الأخـمَص : باطن القدم وما رقّ من أسفلها وتجافي عن الأرض .

(٤) الخَمصان (بالفتح) والخُمصان (بالضم) : الجائع الضامر البطن ، والأنثى : خَمُصانة بالفتح والضم أيضاً ، وجمعها خِماصٌ .

(٥) (كثيره) معطوفة على (قليـل) فيكون المعنى : لفظ عامٌّ للقليل وللكثير مما يصنعه المؤمنون بالكفرة .

الآية . قدم الصغيرة للاهتمام ، أي : إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أَحرى ، والوادي : ما بين الجبلين كان فيه ماءٌ أَو لم يكن ، وجمعه أَودية ، وليس في كلام العرب فاعِلٌ وأَفعِلَة إلَّا في هذا الحرف وحده [١] ، وفي الحديث : (ما ازداد قوم من أَهليهم في سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قرباً) [٢] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قالت فرقة : سبب هذه الآية أَن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أَهمهم ذلك ، فنفروا إلى

(١) سمع من ذلك : نادٍ وأندية ، قال الجوهري : « الجمع أَوْدية على غير قياس كأنه جمع وَدِيٍّ مثلُ سرِيٍّ وأَسْرِية للنهر » ، وقال ابن الأعرابي : « الوادي : يجمع أوداءٍ على أفعال مثل صاحب وأصحاب » . وطيِّءٌ تقول : أَوْداءٌ ، قال جرير :

عرفتُ بِبُرْقَةِ الأَوْداهِ رسْماً مُحيلا ، طال عَهْدُكَ مِنْ رسُوم

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري .

المدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أَن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو ، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك . وقالت فرقة : إن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين قالوا : هلك أَهل البوادي ، فنزلت هذه الآية مقيمة لعذر أَهل البوادي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فيجيءُ قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ﴾ عموماً في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهورُ والأَكثر ، وتجيءُ هذه الآية مبينة لذلك مطردة الأَلفاظ متصلة المعنى من قوله تبارك وتعالى : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله تعالى : [يَحْذَرُونَ] . بُيِّن في آخر الآية العمومُ الذي في أَولها إذ هو معرض أَن يتأَول فيه أَلَّا يتخلف بشر . والتفقه هو من النافرين ، والإِنذارُ هو منهم ، والضمير في [رَجعُوا] لهم أَيضاً . وقالت فرقة : هذه الآية ليست في معنى الغزو ، وإِنما سببها أَن قبائل العرب لمّا دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على مُضر بالسنين أَصابتهم مجاعةٌ وشدّة ، فنفروا إلى المدينة لمعنى المعاش فكادوا أَن يفسدوها ، وكان أَكثرهم غير صحيح الإِيمان وإِنما أَضرعه الجوع[1] ، فنزلت الآية في ذلك فقال : وما كان مَنْ صفته الإِيمان لينفر مثل هذا النفير ، أَي : ليس هؤلاءِ المؤمنين . وقال ابن عباس ما معناه : إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا ، والآية المتقدمة

(١) أي أَذَلَّهُ وأضعفه ، يقال : أَضرع الله خدَّه : أَذلّه . (المعجم الوسيط) .

ثابتة الحكم مع خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو ، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه ، أَي : يجب إذا تخلف أَلا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً ، وإنما ينبغي أَن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقَّه هذه الباقية في الدين وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم . وقالت فرقة : هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال ، والضمير في قوله [لِيَتَفَقَّهُوا] عائد أَيضاً – على هذا التأْويل – على الطائفة المتخلفة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو على القول الأَول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة ، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأَقوال على هذه ، ومع بعضها على هذه .

والجمهور على أَن التفقُّه إنما هو بمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته . وقالت فرقة : يُشْبه أَن يكون التَّفقُّه في الغزو في السرايا لما يرون من نُصرة الله لدينه وإظهارِهِ العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين وعِلْمهم بذلك صحة دين الإِسلام ومكانته من الله تعالى ، ورجحه الطبري وقوّاه ، والآخر أَيضاً قوي . والضمير في قوله سبحانه : [لِيُنْذِرُوا] عائد على المتفقهين بحسب الخلاف ، والإِنذار عام للكفر والمعاصي والحذر منها أَيضاً كذلك .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية . قيل : هذه الآية نزلت قبل الأَمر بقتال الكفار كافة فهي من التدريج الذي كان في أَول الإِسلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قَوْلٌ يضعفه أن هذه الآية من آخر ما نزل . وقالت فرقة : إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربَّما تجاوز قوماً من الكفار غازياً قوماً آخرين أبعد منهم ، فأمر الله تعالى بغزو الأدنى فالأدنى إلى المدينة ، وقالت فرقة : الآية مبينة صورة القتال كافة ، وهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة ، ومعناها أن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يصاقبه[1] من الكفرة ، وهذا هو القتال لكلمة الله وردّ الناس إلى الإسلام ، وأما إذا مال العدوّ إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد ، وقال قائلوا هذه المقالة : نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام لأنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرب ، إذ كانت العرب قد عمّها الإسلام وكانت العراق بعيدة ، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفُرْس والدَّيْلم[2] وغيرهما من الأُمم ، وسأل ابنَ عمر رضي الله عنهما رجلٌ عن قتال الدَّيْلم فقال : عليك بالروم ، وقال الحسن : هم الروم والدَّيْلم .

---

(١) أي يقاربه ويواجهه ، يقال : صاقَبَهُ مُصاقَبَةً وصِقاباً ، ويقال : جارٌ مُصَاقب . (المعجم الوسيط) .

(٢) الدَّيْلَمُ : جيل من العجم كانوا يسكنون نواحي أذْربيجان ، ولهذه الكلمة معانٍ كثيرة تجدها في كتب اللغة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يعني في زمنه ذلك ، وقاله علي بن الحسين . وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها : العرب ، فلما فُرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم : ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى قوله : ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [(١)].

وقرأ جمهور الناس : [غِلْظَة] بكسر الغين ، وقرأ المفضل عن عاصم ، والأعمش : [غَلْظَة] بفتحها ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبان بن ثعلب ، وابن أبي عبلة : [غُلْظة] بضمها ، وهي قراءة أبي حَيْوة ، ورواها المفضّل عن عاصم أيضاً ، قال أبو حاتم : رويت الوجوه الثلاثة عن أبي عمرو ، وفي هاتين القراءتين شذوذ ، وهي لغات . ومعنى الكلام : وليجدوا فيكم خشونة وبأْساً ، وذلك مقصود به القتال ، ومنه : «العذاب الغليظ»[(٢)] و ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾[(٣)] ، و ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[(٤)] في صفة الزبانية ، و (غَلُظَتْ عَلَيْنَا كُدْيَة) في حفر الخندق[(٥)] إلى غير ذلك .

---

(١) من الآية (٢٩) من هذه السورة (التوبة) .

(٢) إشارة إلى ما ورد في كثير من آيات التنزيل ، مثل قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ، وقوله : ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وقوله : ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ .

(٣) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران) .

(٤) من الآية (٦) من سورة (التحريم) .

(٥) إشارة إلى ما حدث في غزوة الخندق ، وجاءت هذه الجملة في حديث رواه البخاري عن جابر ، ولكن بلفظ : (فَعَرَضَتْ) بدلا من (وغلظت) . قال جابر : إنا يوم الخندق =

ثم وعد تعالى في آخر الآية ، وحضَّ على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقى العدو ، وقد قال بعض الصحابة : « إنما تقاتلون الناس بأعمالكم » . وأهلها هم المجدون في طريق الحق ، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى ، ومن كان الله معه فلن يُغْلَب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

هذه الآية نزلت في شأن المنافقين ، والضمير في قوله تعالى : [فَمِنْهُمْ] عائد على المنافقين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم ، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم[1] ، ويثقون بسترهم

= نحفر فعرضت لنا كُدْيَةٌ شديدة ، فجاءُوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق ، فقال : (أنا نازل)، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم ... الحديث ، والكُدية هي الصّفاةُ العظيمة الشديدة ، وقيل : الأرض الصلبة .

(١) استنام إلى الشيء : استراح وسكن إليه .

عليهم ، ويطمعون في ردّهم إلى النفاق . ومعنى ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً﴾ الاستخفاف والتحقير لشأْن السورة كما تقول : أَي غريب في هذا ؟ أَو أَيّ دليل ؟

ثم ابتدأَ عزَّ وجلَّ الردَّ عليهم والحكم بما يهدم لبسهم فأَخبر أَن المؤمنين قد زادتهم إِيماناً ، وأَنهم يستبشرون من أَلفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه . والزيادة في الإِيمان موضع تخبط للناس وتطويل ، وتلخيص القول فيه أَن الإِيمان الذي هو نفس التصديق ليس مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه ، وإِنما تقع الزيادة في المُصَدَّق به ، فإِذا نزلت سورة من الله تبارك وتعالى حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن قبلُ ، فتصديقُهم بما تضمنته السورة من أَخبار وأَمر ونهي أَمرٌ زائد على الذي كان عندهم قبلُ ، فهذا وجه من زيادة الإِيمان ، ووجه آخر أَن السورة ربما تضمنت دليلا أَو تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أَدلة ، فإِذا نزلت السورة زادت في أَدلته ، وهذه أَيضاً جهة أُخرى من الزيادة ، وكلها خارجة عن نفس التصديق إِذا حصل تامًّا ، فإِنه ليس يبقى فيه موضع زيادة ، ووجه آخر من وجوه الزيادة أَن الرجل ربما عارضه شك يسير أَو لاحت له شبهة مشغبة فإِذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها ، فهذا أَيضاً زيادة في الإِيمان إِذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إِلى

الخلوص منها ، وأما على قول من يُسمّي الطاعات إيماناً ـ وذلك مجاز عند أهل السُّنة ـ فتَتَرَتَّب الزيادة بالسورة ، إذ تتضمن أَوامر ونواهي وأَحكاماً ، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإيمان ونقصانه إلى يوم القيامة ، فإن تعلّم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن .

و ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون ، وهذا تشبيه ، وذلك أَن السالم المعتقد المنشرح الصدر بالإيمان يشبه الصحيح ، والفاسد المعتقد يشبه المريض ، ففي العبارة مجاز فصيح لأَن المرض والصحة إنما هي[1] خاصة في الأَعضاء ، فهي في المعتقدات مجاز ، والرِّجس في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة ، وذلك أَن الرجس في اللغة يجيءُ بمعنى القذر ، ويجيءُ بمعنى العذاب ، وحال هؤلاءِ المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل ، وزيادة الرجس إلى الرجس هي عمههم في الكفر وخبطهم في الضلال ، يعاقبهم الله على الكفر والإعراض بالختم على قلوبهم والحَتم بالنار عليهم ، وإذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إلى رجسهم .

وقوله تعالى : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ الآية . قرأَ الجمهور : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياءِ على معنى : أَوَلا يرى المنافقون . وقرأَ حمزة :

---

(١) ـ يريد : إنما هي صفات خاصة في الأَعضاء .

﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ بالتاءِ على معنى : أولا ترون أيها المؤمنون ، فهذا تنبيه للمؤمنين . وقرأ ابن مسعود ، وأُبي بن كعب ، والأعمش : ﴿أَوَلَا تَرَى﴾ أي أنت يا محمد ، وروي عن الأعمش أيضاً : ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾ ، وذكر عنه أبو حاتم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ . وقال مجاهد : [يُفْتَنُونَ] معناه : يُخْتبرون بالسَّنَة والجوع ، وحكى عنه النقاش أنه قال : مرضة أو مرضتين ، وقال الحسن بن أبي الحسن ، وقتادة : معناه : يُخْتبرون بالأمر بالجهاد ، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله تعالى أسرارهم وإفشائه عقائدهم ، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة ، وأما الجهاد أو الجوع فلا يتَرَتَّب معهما ما ذكرناه ، فمعنى الآية على هذا : أفلا يزدجر هؤلاءِ الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين بحسب واحد واحد ، ويعلمون أن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده ، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين ، وقد كان الحسن ينشد :

أَفي كلِّ عام مرْضَةٌ ثم نَقْهَـــةٌ فحتَّى مَتى حتى مَتى وإلى مَتى ؟

وقالت فرقة : المعنى : يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأكاذيب ، فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك ، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة وهو غريب من المعنى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

الضمير في قوله سبحانه : [بَعْضُهُم] عائد على المنافقين ، والمعنى : وإذا ما أُنزلت سورة فيها فضيحة أَسرارهم نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير ، يفهم من تلك النظرة التقرير ، هل معكم من ينقل عنكم ؟ هل يراكم من أَحد حين تدبرون أُموركم ؟ وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا﴾ معناه : عن طريق الاهتداءِ ، وذلك أَنهم حينما يبين لهم كشف أَسرارهم والإعلام بمغيَّبات أُمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف نظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك ، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه (١) كأَنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة للنظر الصحيح والاهتداءِ ، وابتدأَ بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيَّنَّاه . وقوله : ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون دعاءً عليهم ، ويحتمل أَن يكون خبراً ، أَي استوجبوا

(١) قال في اللسان : « ارتبك الرجل في الأمر أي نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه » ، وقال : « وفي حديث علي : (تحيّر في الظلمات وارتبك في الهلكات) ، ومنه : أرتبك الصيد في الحبالة : اضطرب .

ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله . وأَسند الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال : «لا تقولوا : انصرفنا عن الصلاة ، فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا : قضينا الصلاة» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا النظر الذي في هذه الآية إنما هو إيماءٌ ، وحكى الطبري عن بعضهم أَنه قال : [نَظَر] في هذه الآية في موضع (قال) .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور ، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ، إذ جاءَ بلسانهم وبما يفهمونه من الأَغراض والفصاحة وشُرّفوا به غابر الأَيام . وقال الزَّجاج : هي مخاطبة لجميع العالم ، والمعنى : لقد جاءَكم رسول من البشر ، والأَول أَصوب . وقوله : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأَنه من صميم العرب وأَشرفها[1] ، وينظر إلى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم)[2] ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (إنِّي

(١) في جميع النسخ الأصلية جاء (وشرفها) بدون الهمزة ، والمعنى يقتضي وجودها ، وقد نقل أبو حيان في البحر كلام ابن عطية كما أثبتناه هنا .

(٢) أخرجه ابن سعد ، ومسلم ، والترمذي ، والبيهقي في الدلائل عن واثلة بن الأسقع ، وفي أوله : (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى إسماعيل من بني كنانة) الحديث . (الدر المنثور) .

من نِكاح ولست من سِفاح)[١] ، معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نِكاح ، ولم يكن فيه زنى . وقرأ عبد الله بن قُسَيْط المكي : ﴿مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ بفتح الفاءِ من النفاسة ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضي الله عنها ، وذكر أبو عمرو أن ابن عباس رضي الله عنهما رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه : عَنَتُكُم ، فـ [ما] مصدرية ، وهي ابتداءٌ ، و [عزيزٌ] خبر مقدم ، ويجوز أن يكون ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ فاعلا بـ [عَزِيز] و [عَزِيز] صفة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا أصوب من الأول[٤] . والعَنَتُ : المشقَّة ، وهي هنا لفظة عامة ، أي : ما شق عليكم من كفر وضلال بسبب الحق ، ومن قتْل أو إسارٍ وامتحان بسبب الحق واعتقادكم أيضاً معه . وقال قتادة : المعنى : عنت مؤمنيكم .

---

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال : لم يصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خرجتُ من نكاح ولم أخرج من سفاح) . (الدرالمنثور) . واخرجه ابن عدي في الكامل ، والطبراني في الأوسط عن علي كرم الله وجهه بزيادة في آخره (من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأُمي ، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيءٌ) ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن .

(٤) فيكون المعنى على هذا : يَعِزّ عليه مشقتكم ، كما قال الشاعر :

يسُرُّ المرْءَ ما ذَهَبَ اللّيالي وكان ذَهَابُهُنَّ لَهُ ذهابَا

أي : يسر المرءَ ذهابُ الليالي . ويجوز أن يكون [عَزِيزٌ] مبتدأ و ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ هو الخبر وأن تكون (ما) بمعنى الذي ، ذكره الحوفي ، وهو إعراب دون الإعرابين السابقين كما قال أبو حيان الأندلسي في « البحر » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتعميم عنَت الجميع أوجه .

وقوله تعالى : ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ يريد : على إيمانكم وهداكم ، وقوله : [رَؤُوفٌ] معناه : مبالغٌ في الشفقة ، قال أبو عبيدة : الرأفة أرقّ الرحمة . وقرأ [رؤُفٌ] دونَ مدٍّ الأعمشُ ، وأهل الكوفة ، وأبو عمرو (١) .

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال : ﴿فَإِنْ تولَّوْا﴾ يا محمد ، أي أعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي منَّ الله تبارك وتعالى عليهم بها ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ معناه : وأعمالك بحسب قولك من التفويض إلى الله والتوكل عليه والجِدّ في قتالهم .

(١) وصف الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بستة أوصاف ، الأولى : الرسالة وهي صفة كمال الإنسان لما احتوت عليه من كمال ذات الرسول وطهارة نفسه الزكية وأنه من الخيار بحيث صار أهلا لأن يكون واسطة بين الله وبين خلقه ، ولما كانت هذه الصفة أشرف الأشياء بدأ بها . والثانية : أنه من أنفسهم ، وهي صفة مؤثرة في التبليغ والفهم عنه والتآنس به ، فإن كان الخطاب للعرب ففي هذه الصفة التنبيه على شرفهم والتحريض على اتباعه ، وإن كان الخطاب لبني آدم ففيها التنويه بهم واللطف في إيصال الخير إليهم . والثالثة : أنه يعزّ عليه ما يشق عليهم فهذا الوصف من نتائج الرسالة ومن نتائج أنه منهم لأن من كان منك دلّك على الخير وصعب عليه إيصال ما يؤذي إليك ، والرابعة : حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ، وهذه أيضاً من نتائج الرسالة . والصفتان الخامسة والسادسة أنه رءوف رحيم بالمؤمنين ، وهذا من نتائج التبعية له والدخول في دين الله ، وصدق الله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

هذا وقد قال الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لنبي بين اسمين من أسمائه إلا لنبيّنا صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

وليست بآية موادعة لأنها من آخر ما نزل ، وخصّص العرش بالذكر إذ هو أعظم المخلوقات . وقرأ ابن محيصن : [الْعَظِيمُ] برفع الميم صفة للربّ ، ورويت عن ابن كثير .

وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة ابن ثابت(١) ، «ووقع في البخاري : أو أبي خزيمة » ، فلما جاءَ بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال : «فقدت آيتين من آخر سورة التوبة » . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئاً أم لا ، فإنما ثبتت الآيتان بالإجماع لا بخزيمة وحده ، وأسند الطبري في كتابه قال : كان عمر لا يثبت آية في المصحف إلا أن يشهد عليها رجلان ، فلما جاءَ خزيمة بهاتين الآيتين قال : والله لا أسأل عليهما بيِّنَة أبداً فإنه هكذا كان صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يعني صفة النبي صلى الله عليه وسلم التي تضمنتها الآية ، وهذا ـ والله أعلم ـ قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدة أبي بكر رضي الله عنه حين الجمع الأول ، وحينئذ فقدت الآيتان ، ولم يجمع من القرآن شيءٌ في خلافة عمر رضي الله عنه . وخزيمة بن ثابت هو

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري ، أبو عمارة ، صحابي جليل ، من أشراف الأوس ومن شجعانهم ، حمل راية بني خَطْمَةَ (من الأوس) يوم فتح مكة ، وعاش إلى خلافة علي ، وشهد معه صفّين فقتل فيها سنة ٣٧ هـ ، روى له البخاري ومسلم ٣٨ حديثاً ، وهو المعروف بذي الشهادتين .

المعروف بذي الشهادتين ، وعرف بذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لِنَفْسه صلى الله عليه وسلم(١) ، وهذا خصوص لرسول الله صلى الله عليه وسلم(٢). وذكر النقاش عن أُبي بن كعب أَنه قال : أَقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة(٣) .

انتهى بعون الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التوبة

والحمد لله رب العالمين

(١) روى أبو داود من طريق الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدّثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرساً من أعرابي (اسمه سوار ابن الحارثة) فجحده فشهد له خزيمة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً ؟ قال : صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من شهد له خزيمة أو شهد عليه فحسبه . وروى الدارقطني عن خزيمة بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل شهادته شهادة رجلين ، وفي البخاري من حديث زيد بن ثابت : فوجدتها مع خزيمة بن ثابت الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين . (الإصابة — الأعلام) .

(٢) يعني أنه لا يجوز لأحد أن يحكم لنفسه ، والنبي عليه صلوات الله وسلامه حكم لنفسه في هذه القضية ، فهي خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، كما أن جعل شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة رجلين خصوصية لخزيمة .

(٣) في « نوادر الأصول » عن بُريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قال عشر كلمات عند دُبُر كل صلاة وجد الله عندهن مكْفياً مَجْزياً ، خمسٌ للدنيا وخمسٌ للآخرة : حسبيَ اللهُ لديني ، حسبيَ اللهُ لدنياي ، حسبي اللهُ لما أهمّني ، حسبي اللهُ لمن بَغَى عَليّ ، حسبي اللهُ لمن حسدني ، حسبي الله لمن كادني بسوءٍ ، حسبي الله عند الموت ، حسبي الله عند المساءلة في القبر ، حسبيَ اللهُ عند الميزان ، حسبي الله عند الصراط ، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أُنيب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٠) سورة يونس مكية
وآياتها تسع ومائة

تفسير سورة يونس عليه السلام

هذه السورة هي مكيّة ، قال مقاتل : إلَّا آيتين وهي [١] قوله تبارك وتعالى : ﴿فَإِن كُنْتَ في شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة . وقال الكلبي : هي مكيّة إلَّا قوله تعالى : ﴿ومِنْهُم مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [٢] نزلت في اليهود بالمدينة . وقالت فرقة : نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة .

---

(١) هكذا بلفظ (هي) ، والمتأمل في أُسلوب ابن عطية يجده يكثر من ذلك فهو يستعمل الضمير (هي) قاصداً به مذكوراً سيأتي وهو « الآيات » ، ومن العجيب أن القرطبي ينقل هنا عن مقاتل رأيه فيقول : « وقال مقاتل : إلا آيتين وهي قوله : ﴿فَإِنْ كُنْتَ في شَكٍّ﴾ ، » وهو نفس تعبير ابن عطية ، فهل أخذه عن مقاتل ؟ على أن الذي ذكره أكثر المفسرين كالشوكاني ، والقرطبي هو : « إلا ثلاث آيات هي » . فهل قال ذلك ابن عطية وأخطأ النساخ ؟ والخلاف بين ابن عباس ومقاتل في أن المكي ثلاثُ آيات أو آيتان مبني على اختلافهما في تحديد آخر الآية الثانية ، فمقاتل يرى أنها تمتد إلى قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ ، وابن عباس رضي الله عنهما يرى أنها تنتهي عند قوله تعالى : ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ، والآيات المقصودة هي رقم (٩٤) من السورة وما بعدها .

(٢) الآية رقم (٤٠) من السورة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

تقدم في أَول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور ، وتلك الأَقوال كلها تترتَّب هنا ، وفي هذا الموضع قول يختص به ، قال ابن عباس ، وسالم بن عبد الله ، وابن جبير ، والشعبي : [الٓر] و [حمٓ] و [نٓ] هو (الرَّحْمٰن) قُطع اللفظُ في أَوائل هذه السُّور[1] . واخْتُلف عن نافع في إمالة الراءِ ، والقياس أَلَّا تمال . وكذلك اختلف القراءُ ، وعلَّة من أَمال الراءَ أَن يدل بذلك على أَنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها وإنما الحرف (ر)[2] .

وقوله تعالى : [تِلْكَ] قيل : هو بمعنى : (هذه)[3] ، وقد يشبه أَن

(١) تعبير القرطبي هنا نقلا عن ابن عباس : « الر ، وحم ، ونون : حروف (الرَّحمن) مفرقة » ، وهو يفسر المعنى المراد هنا .

(٢) قال ابن خالويه في كتاب « الحجة » : « يُقرأُ بكسر الراء وفتحها ، فالحجة لمن أمال أنه أراد التخفيف ، والحجة لمن فتَح أنه أتى باللفظ على الأصل ، وكلهم قصروا الراءَ ، وأهل العربية يقولون في حروف المعجم : إنه يجوز إمالتها ، وتفخيمها ، وقَصْرُها ومَدُّها ، وتذكيرُها وتأنيثها » .

(٣) والمشار إليه — على هذا — حاضر قريب ، وهذا هو رأي ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره أبو عبيدة كما ذكر أبو حيان في « البحر » ، وعليه جاء قول الأعشى :

تِلْكَ خَيْلي منْهُ وتِلْكَ رِكابي هُنَّ صُفْرٌ أَولادُها كالزَّبيب =

يتصل المعنى بـ [تِلْكَ] دون أَن نقدرها بدل غيرها ، والنظر في هذ اللفظة إنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبّره . و [الْكِتَاب] قال مجاهد ، وقتادة : المراد به التوراة والإنجيل ، وقال مجاهد أيضاً وغيره : المراد به القرآن ، وهو الأَظهر . و [ٱلْحكِيمُ] فعيل بمعنى مُحْكَم ، كما قال تعالى : ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾(١) ، أَي : مُعتد مُعَد ، ويمكن أَن يكون [حكِيم] بمعنى : ذو حكمة فهو على النسب ، قال الطبري : «فهو مثل أَليم بمعنى مؤلم» ، ثم قال : هو الذي أَحكمه وبيّنـــــه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فساق قولين على أَنهما واحد .

وقوله تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ الآية . قال ابن عباس ، وابن جُرَيج ، وغيرهما : نسبت هذه الآية أَن قريشاً استبعدوا أَن يبعث الله رسولا من البشر . وقال الزجاج : إنما عجبوا من إخباره أَنهم يُبعثون من القبور ، إذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك ، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم : أَما وجد اللهُ من يبعث إلا يتيم أَبي طالب ؟

= ثم اختلف – بعد ذلك – في المقصود بالإشارة ، فقيل : آيات القرآن الكريم ، وقيل : آيات السورة التي تقدم ذكرها في آخر التوبة في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ، وقيل : المشار إليه هو (الراء) فإنها كنوز القرآن ، وبها العلوم التي استأثر الله بها ، إذ المراد أن الحروف التي افتتحت بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال .

(١) من الآية (٢٣) من سورة (ق) .

ونحو هذا من الأَقاويل التي اختصرتها لشهرتها ، فنزلت الآية . وقوله : [أَكَانَ] تقرير[١] ، والمراد [بالنَّاسِ] : قائلوا هذه المقالة . و [عجباً] خبر (كَانَ] ، واسمها : ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ، وفي مصحف ابن مسعود : «أَكانَ لِلنَّاسِ عجبٌ» ، وجعل الخبر في قوله سبحانه : ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ، والأَول أَصوب لأَن الاسم معرفة والخبر نكرة وهذا القلب لا يصحُّ ولا يجيءُ إِلَّا شاذًّا[٢] ، ومنه قول حسان :

. . . . يكُونُ مِزَاجُها عسلٌ ومَاءُ [٣]

ولفظة العجب هنا ليست بمعني التعجب فقط ، بل معناه : أَوصل إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب ؟ وقرأَت فرقة :﴿إِلَى رَجْلٍ﴾ بسكون الجيم . ثم فسّر الوحيَ وقسّمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين . والقدمُ – هنا – : ما قُدّم . واخْتُلف في المراد بها ها هنا – فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والربيع بن أَنس ، وابن زيد : هي الأَعمال الصالحة من العبادات ، وقال الحسن بن أَبي الحسن ،

---

(١) قال القرطبي : « استفهام معناه التقرير والتوبيخ » ، وقال الشوكاني : « لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ » . وجعله الألوسي وأبو حيان للإنكار فقط .

(٢) قال أبو حيان : « وهذا تخريج الزمخشري وابن عطية ، وقيل : [كان] تامة ، و [عـَجَـبٌ] فاعل بها ، والمعنى : أحـَدثَ للناس عجبٌ لأن أوحينا ؟ وهذا التوجيه حسن » . فالشذوذ ناتج عنده عن فهم الزمخشري وابن عطية وليس في القراءة نفسها .

(٣) وهذا عجز بيت لحسّان ، وهو بتمامه :

كأنّ سبيئةً من بيَـْتِ رأسٍ يكون مِـزَاجـُها عسلٌ ومَاءُ

والسبيئةُ : الخمر ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلاتـُهُم عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ الآية (٣٥) من سورة (الأنفال) .

وقتادة : هي شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال زيد بن أَسلم ، وغيره : هي المصيبة بمحمد صلى الله عليه وسلم في موته ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أَيضاً ، وغيره : هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ ، وهذا أَليق الأَقوال بالآية ، ومن هذه اللفظة قولُ حسّان :

لَنَا القَدمُ العُلْيا إِلَيْكَ وخَلْفُنَا لأَوَّلِنَــا في طَاعةِ اللهِ تَابِــعُ (١)

وقول ذي الرمة :

لكُمْ قَدمٌ لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهــا مع الحسَبِ العالي طمَّتْ على الْبحْر (٢)

ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم : (حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول : قَطْ قَطْ) (٣) أَي ما قدم لها من خلقه ،

(١) ورواه في (اللسان) : « القدم الأولى » ، والقَدَم : السابقة وما تقدموا فيه غيرهم من الخير ، والخَلْفُ : الباقي بعد الهالك والتابِعُ له ، سُمّي به المُتَخَلّف والخالف لا على جهة البَدَل ، وجمعه : خلوف مثل قَرْن وقرون ، والخَلْفُ هنا محمود ، أما في قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾ فهو مذموم . والبيت من قصيدة له يذكر فيها الأيام الأولى من تاريخ المسلمين في المدينة ، وهي أحد عشر بيتاً .

(٢) أنشد هذا البيت الزمخشري في « أساس البلاغة » (قدم) قال : « ولفلانٍ قدم في هذا الأمر : سابقة وتقدم ، وله قدم صدق ، قال ذو الرمة : « لكم قَدَمٌ ... » وهو في الديوان وتفسير الطبري : « مع الحسب العادي » ، وفي الديوان : « على الفخر » ، ومعنى العادي : القديم . ومعنى البيت : لكم سوابق تقدمت من الخير والفضل والحسب ما يعدّه الإنسان من مفاخره .

(٣) رواه البخاري في تفسير سورة (ق) ، وفي الإيمان ، وفي التوحيد ، وكذلك رواه مسلم ، والترمذي ، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يُلْقَى في النار وتقول : هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول : قَطْ قَطْ) ، وروى مثله عن أبي هريرة في لفظ طويل ، ومثله عن أبي هريرة أيضاً بلفظ موجز .

هذا على أن (الجبار) اسم الله تبارك وتعالى ، ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم ، فالقدم على هذا التأويل : الجارحة (١). والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح ، كما تقول : رجلٌ صِدْقٌ ورجلُ سوْءٍ (٢). وقوله سبحانه : ﴿قَالَ ٱلْكَافِرُونَ﴾ يحتمل أن يكون تفسيراً لقوله : «أكان وحْيُنا إلى بشر عجبا؟» قال الكافرون عنه كذا وكذا؟ وذهب الطبري إلى أن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه ، تقديره : فلما أنْذر وبَشَّر قال الكافرون كذا وكذا . وقرأ جمهور الناس ، وهي قراءة نافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر : ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ، وقرأ مسروق بن الأجدع ، وابن جبير ، والباقون من السبعة ، وابن مسعود ، وأبو رُزَيْن ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى بن عمر بخلاف ، وابن محيصن ، وابن كثير بخلاف عنه : ﴿إِنَّ هَذَا لَساحِرٌ﴾ ، والمعنى متقارب . وفي مصحف أُبي : «قال الكافرون ما هذا إلَّا سحرٌ مبين» . وقولهم في الإنذار والبشارة سحرٌ إنما هو بسبب

---

(١) هذا الاحتمال غير وارد لأن بعض روايات الحديث في مسلم تقول : (حتى يضع ربّ العزّة) ، ولأن معنى الحديث يرفضه .

(٢) رجُلٌ صَدْقٌ بفتح الصاد . جاء في الصحاح : «رجُلٌ صَدْقُ اللقاء وصَدْقُ النَّظَر وقوم صُدْقٌ بالضم ، مثل فرسٍ ورَدٍ وأفراسٍ وُرْدٍ ، وجَوْنٍ وجُونٍ» . وفي المعجم الوسيط : الصَّدْق : الكامل من كل شيءٍ ، يقال : «رمْحٌ صَدْقٌ : مُسْتَوٍ صُلْبٌ ، ورجُلٌ صَدْقُ اللقاء : ثبْتٌ فيه» . ويقال كذلك بالكسر : رجُلٌ صِدْقٌ .

وأمّا السَّوْءُ فبفتح السين : «يقال : رجلُ سَوْءٍ وعَمَلُ سَوْءٍ ، ورجُلُ السَّوْءِ ، والرجلُ السَّوْءُ» (المعجم الوسيط) .

أَنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأَشبه بذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هذا ابتداءُ دعاءٍ إِلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وإِعلام بصفاته ، والخطاب بها لجميع الناس ، و ﴿خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هو على ما تقرر أَن الله عزَّ وجلَّ خلق الأَرض ثم استوى إِلى السماءِ وهي دخان فخلقها ثم دحى الأَرض بعد ذلك . وقوله : ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل : هي من أَيام الآخرة ، وقال الجمهور ـ وهو الصواب ـ : بل من أَيام الدنيا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك في التقدير ، لأَن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الله المخلوقات : (إِن الله ابتدأَ يومالأَحد كذا ويوم كذا كذا) إِنما هو على أَن نقدر ذلك الزمان

ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة . والمشهور أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأَحد ، ووقع في بعض الأَحاديث في كتاب مسلم ، وفي الدلائل أن البداءة وقعت يوم السبت (١) ، وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تبارك وتعالى هذه الأَشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلِّم عباده التؤدة والتماهل في الأُمور .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا مما لا يوصل إلى تعليله ، وعلى هذا هي الأَجنَّة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك ، والله عزَّ وجلَّ قد جعل لكل شيءٍ قدراً وهو أَعلم بوجه الحكمة في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تقدم القول فيه في [الٓمٓصٓ] . وقوله : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يصح أَن يريد (بالأَمر) اسم الجنس من الأُمور ، ويحتمل أَن يريد الأَمر الذي هو مصدر أَمرَ يأْمُرُ أَمْراً ، وتدبيره لَا إِلٰه إِلَّا هُو الإِنفاذ لأَنه قد أَحاط بكل شيءٍ علما . وقال مجاهد : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه : يقضيه وحده .

---

(١) عبارة ابن عطية هنا تدل على أنه يشك في صحة هذه الرواية ، بدليل قوله : « ووقع في بعض الأحاديث » ، والحقيقة المشهورة عند العلماء أن الله بدأ الخلق يوم الأحد ، وأن مدة الخلق كانت ستة أيام بِنَصِّ القرآن الكريم . ومعنى ذلك أن هذه الرواية تتعارض مع الآية فلا بد من إسقاطها أو تأويلها ، ولا يمنع من ذلك ورودها في صحيح مسلم غفر الله لنا وله ، وقد تكلم كثير من الحفاظ في هذا الحديث . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ردٌّ على العرب في اعتقادها أَن الأَصنام تشفع لها[(١)] ، وقوله : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى الله تبارك وتعالى ، أَي هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه ، ثم قررهم على هذه الآيات والعِبر فقال : ﴿أَفلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي : فيكون التذكُّر سبباً للاهتداءِ .

واختصار القول في قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَن يكون استوى بقهره وغلبته ، وإِمَّا أَن يكون [ٱسْتَوَى] بمعنى استولى — إِن صحَّت اللفظة في اللسان ، فقد قيل في قول الشاعر :

قَد استــوى بِشْرٌ عَلَى الْعِراقِ   مِنْ غَيْرِ سيْفٍ ودَمٍ مُهْــرَاقِ

إِنَّه بيتٌ مصنوع — وإِما أَن يكون فَعَلَ فِعْلا في العرش سماه استوى . واستيعاب القول قد تقدم[(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ الآية آية إِنباءٍ بالبعث من القبور ، وهي من الأُمور التي جوزها العقل وأَثبت وقوعها الشرع . وقوله [جمِيعاً] حال من الضمير في [مَرْجِعُكُمْ] ، [وَعْدَ ٱللهِ] نصب على المصدر ، وكذلك قوله : [حَقًّا] ، وقال أَبو الفتح : [حقًّا] نعت .

---

(١) قال بعض العلماء : فماذا إذا ادّعَوْا الإذن لها وقالوا : إنها تشفع بعد أن يؤذن لها ، والآية لا تنفي الإذْنَ ؟ يقال : ولن يأذن لها لأنها ليست أهلا للشفاعة .

(٢) في الآية (٥٤) من سورة (الأعراف) . واللغويون لهم آراء كثيرة في معنى (استوى) أشهرها أنه بمعنى : استولى وظهر ، وقد سئل مالك بن أنس رضي الله عنه : كيف استوى :؟ فقال : « الكيف غير معقول ، والاستواءُ غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

وقرأَ الجمهور : [إِنَّهُ] بكسر الأَلف على القَطع والاستئناف ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع ، والأَعمش ، وسهل بن شعيب ، وعبد الله : [أَنه] بفتح الأَلف ، وموضعها النصب على تقدير : أَحق أَنه ، وقال الفراءُ : موضعها رفع على تقدير : يحق أَنَّه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يجوز عندي أَن يكون [أَنَّه] بدلًا من قوله : [وَعْدَ ٱللَّهِ] ، قال أَبو الفتح : إِن شئت قدرت : لأَنه يبدأ الخلق ، أَي : فمن في قدرته هذا فهو غني عن إِخلاف الوعد ، وإِن شئت قدرته : وَعدَ ٱللَّهُ حقاً أَنَّه ، ولا يعمل فيه المصدر الذي هو [وعْدَ] لأَنه قد وُصف فآذن ذلك بتمامه وقطع عمله [(١)] . وقرأَ ابن أَبي عبلة [حقٌّ] بالرفع ، فهو ابتداءٌ وخبره [أَنَّهُ] ، وقوله : ﴿يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ﴾ يريد النشأَة الأُولى ، والإِعادة هي البعث من القبور ، وقرأَ طلحة : ﴿يُبْدِي ٱلْخَلْقَ﴾ بضم الياءِ وكسر الدال . وقوله : [لِيجْزِيَ] هي لام كي ، والمعنى أَن الإِعادة إِنما هي لِيَقَع الجزاءُ على الأَعمال ، وقوله : [بِالْقِسْطِ] أَي بالعدل في رحمتهم وحُسْن جزائهم ، وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ابتداءٌ ، والحميمُ : الْحَارُّ المسَخَّن ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، ومنه الحمام والحمة ، ومنه قول المرقش :

في كلِّ يوْم لَهَا مِقْطَرَةٌ وكباءٌ مُعَدَّةٌ وحميمْ [(٢)]

---

(١) فلا يصح أن يوصف قبل تمامه .

(٢) البيت للمرقّش الأصغر ، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد ، وهو ابن أخ للمرقش الأكبر ، وعمٌّ لطرفة بن العبد ، وهو أشهر المرقشين ، ويعد واحداً من فرسان العرب وشجعانهم ، =

وحميم النار - فيما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه(١)، وهو كما وصفه الله تعالى : ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾(٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

هذا استمرار على وصف آيات الله والتنبيه على صنعته الدالة على الصانع ، وهذه الآية تقتضي أن الضياءَ أعظم من النور وأبهى بحسب

= والبيت من قصيدة يتغزل فيها في محبوبته ابنة عجلان ، والرواية هنا ناقصة ،وفيها اختلاف عن الديوان ، واللفظ كما في الديوان :

في كُلِّ مُمْسىً لَهَا مِقْطَرَةٌ فيها كِباءٌ مُعَدَّةٌ وحميمْ

ورواية اللسان : «كُلِّ عشاءٍ - ومُعَدّ » . - وجميع الروايات تحتاج إلى مناقشة في الوزن الشعري ، والمِقْطَرَة : المِجْمَرَة ، والكِباءُ بكسر الكاف : العود ، والحميم : ماءٌ حارٌ تُحَمّ به ، يصفها بالنظافة فيقول : إنها تُعِدُّ كل مساءٍ ماءً ساخناً لتغتسل به ، وهذا المعنى مأثور ومتكرر في الشعر الغزلي عند الجاهليين ، إذ ينسبون إلى الحبيبات كل نعيم للتدليل على الترف.

(١) رواه الترمذي ، والإمام أحمد (٥-٢٦٥) ولفظه كما جاء فيه : عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُه) قال : يقرب إليه فيتكرهه فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ... الخ الحديث .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الكهف) .

الشمس والقمر ، ويلحق ها هنا اعتراض وهو أنا وجدنا الله تعالى شبّه هداه ولطفَه بخلقه بالنور فقال : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) ، وهذا يقتضي أَن النور أَعظم هذه الأَشياءِ وأَبلغها في الشروق ، وإِلَّا فلم ترك التشبيه الأَعلى الذي هو الضياءُ وعدل إلى الأَقل الذي هو النور ؟ فالجواب عن هذا والانفصال أَن تقول : إِن لفظة النور أَحكم وأَبلغ في قوله سبحانه : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذلك أَنه تعالى شبَّه هداه ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو أَبداً موجود في الليل وأَثناء الظلام ، ولو شبهه بالضياءِ لوجب أَلَّا يضل أَحد إِذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي لا تبقى معها ظلمة ، فمعنى الآية : إِن الله تبارك وتعالى قد جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام فيهتدي قومٌ ويضل آخرون ، ولو جعله كالضياءِ لوجب أَلا يضل أَحد ، وبقي الضياءُ على هذا الانفصال أَبلغ في الشروق كما اقتضت آيتنا هذه ، والله عزَّ وجلَّ هو ضياءُ السمٰوات والأَرض ونورُها وقيُّومُها . ويحتمل أَن يعترض هذا الانفصال ، والله المستعان .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ يريد البروج المذكورة في غير هذه الآية(٢). وأَما الضمير الذي ردّه على القمر وقد تقدم ذكر الشمس

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (النور) .

(٢) في قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ، وفي سورة الفرقان : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ ، وفي سورة البروج : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ، وكانت العرب تنسب للبروج الأنواء ، وهي ثمانية وعشرون برجاً .

معه فيحتمل أن يريد بالضمير القمر وحده لأنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب ، لكنه اجتزأ بذكر الواحد كما قال : ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1] ، وكما قال الشاعر :

رماني بذَنْبٍ كنْتُ منْهُ ووالِدِي　　بريئاً ، ومن أَجْلِ الطَّوِيّ رماني[2]

قال الزجاج : وكما قال الآخر :

نحن بما عندنا وأَنْتَ بِما　　عنـدك راضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِف[3]

وقوله تعالى : [لِتَعْلَمُوا] المعنى : قدر هذين النَّيِّرَيْن منازل لكي تعلموا بها عدد السنين والحساب رفقاً بكم ، ورفعاً للالتباس في معاشكم وتَجْرِكم وإجارتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ .

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (التوبة) .

(٢) لأن الشاعر قال : (بريئاً) ولم يقل (بريئين) ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت ، وقد رواه الفراءُ في كتابه «معاني القرآن» ، وفي اللسان أن ابن برّي قال : البيت لابن أحمر ، وقيل : هو للأزرق بن طرفة بن العَمَرّد الفراصي ، ورُوي : (ومِنْ جَوْل الطويّ) ، والطَّوِي : بئر اختصم عليها الشاعر مع أحد الناس فقال خَصْمه : إنَّه لِصٌّ وابن لِصٌّ ، فقال هذه القصيدة ، وبعد البيت :

دَعَاني لِصاً في نُصوصٍ وما دعَا　　بها والدي فيما مضَى رجُلانِ

وجول الطَّوِيِّ : كل ناحية من نواحي البئر من أعلاها إلى أسفلها .

(٣) إذ قال : (راضٍ) ولم يقل : (راضون) ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة التوبة : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبِيلِ اللهِ﴾ ، وكذلك عند تفسير قوله سبحانه في الآية (٦٢) من نفس السورة : ﴿واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ .

هذا ومثل الآية والبيتين قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ إذ لم يقل سبحانه (إليهما) ، ومثلها أيضاً قول حسان بن ثابت الأنصاري :

إنَّ شرْخَ الشباب والشَّعَرَ الأسْـ　　ـوَدَ ما لَمْ يُعاصِ كان جُنُونَا

فقد قال : (يعاص) ولم يقل : (يعاصيَان) .

وقوله تعالى : ﴿ما خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي للفائدة لا لِلَّعِب والإِهمال ، فهي إِذاً يحق أَن تكون كما هي .

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص : ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآياتِ﴾ ، وقرأَ ابن كثير أَيضاً ، وعاصم ، والباقون(١) ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وأَهل مكة ، والحسن ، والأَعمش : [نُفَصِّل] بنون العظمة .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خصهم لأَن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أَضاءَ وإِن كان التفصيل إِنما وقع مجملا للكل مُعَدًّا ليحصله الجميع . وقرأَ جمهور السبعة ، وقد رويت عن ابن كثير : [ضِيَاءً] ، وقرأَ ابن كثير وحده فيما روي أَيضاً عنه (٢) : [ضِئَاءً] بهمزتين ، وأَصله ضياءً فقلبت (٣) فجاءَت (ضِئَاءًا) ، فقلبت الياءُ همزة لوقوعها بين أَلفين . قال أَبو علي : وهي غلط (٤) .

---

(١) يريد باقي السبعة .

(٢) في القرطبي وفي البحر المحيط أنها قراءة قنبل .

(٣) يعني : قدمت الهمزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف وصارت ضئايا ، ثم قلبت الياءُ همزة لوقوعها بعد ألف زائدة فصارت ضئاءا ، وكذلك إن قدرت أن الياء حين تأخرت رجعت إلى أصلها وهو الواو التي انقلبت عنها ـ إن قدرت هذا فإن الياء تقلب همزة أيضاً وتكون على وزن فلاع مقلوب من فعال .

(٤) لأن القياس هو الفرار من اجتماع همزتين إلى تخفيف إحداهما فكيف نتخيل تقديماً وتأخيرا يؤديان إلى اجتماعهما ولم يكونا موجودين في الأصل . وتأمل التعليل الذي ذكره ابن عطية لقلب الياء المتأخرة همزة وهو أنها وقعت بين ألفين ، وما ذكرنا هنا من أنها قلبت همزة لوقوعها بعد ألف زائدة ، فقد قيل بالرأيين .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية . آية اعتبار وتنبيه ، ولفظة (الاختلاف) تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفة وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أَقطار الأَرض ، وقوله : ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات ، والآيات : العلامات والدلائل ، وخصص القوم المتقين تشريفاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع ، ونسبتهم إلى هذه الأَشياءِ المنظور فيها أَفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتَّقى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال أَبو عبيدة ، وتابعه القتبي وغيره : [يرْجُونَ] في هذه الآية بمعنى يخافون ، واحتجوا ببيت أَبي ذؤَيب :

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لم يرْجُ لَسْعَها وخالَفَها في بيت نُوبٍ عواسِلِ (١)

(١) جاء في اللسان : « وقال ثعلب : قال الفراءُ : الرجاءُ في معنى الخوف لا يكون إلا مع الجحد ، تقول : ما رجوتك ، أي : ما خفتك ، ولا تقول : رجوتك بمعنى خفتك وأنشد لأبي ذؤيب : إذا لسعته ... البيت . أي : لم يخف ولم يبال ، ويروى : وحالفها » .

وحكى المهدوي عن بعض أَهل اللغة ـ قال ابن سيدة : هو الفراءُ ـ : إن لفظة الرجاءِ إذا جاءَت منفية فإنها تكون بمعنى الخوف ـ وحكى عن بعضهم : إنها تكون بمعناها في كل موضع تدل عليه قرائن ما قبله وما بعده ، فعَلَى هذا التأْويل معنى الآية : « إن الذين لا يخافون لقاءَنا » . وقال ابن زيد : هذه الآية في الكفار ، وقال بعض أَهل العلم : الرجاءُ في هذه الآية على بابه ، وذلك أَن الكافر المكذب بالبعث ليس يرجو رحمة الله في الآخرة ، ولا يحسن ظناً بأَنه يلقى الله ، ولا له في الآخرة أَمل ، فإنه لو كان له فيها أَمل لقارنه لا محالة خوفٌ ، وهذه الحال من الخوف المقارن هي الفائدة من النجاة ، والذي أَقول : إن الرجاءَ في كل موضع على بابه ، وإن بيت الهذلي معناه : لم يرج فقْدَ لَسْعِها فهو يبني عليه ويصبر إذ يعلم أَنه لابُدَّ منه .

وقوله تعالى : ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد : كانت آخر همهم ومنتهى غرضهم ، وأَسند الطبري عن قتادة أَنه قال في تفسير هذه الآية : « إذا شئت رأَيت هذا الموصوف ، صاحب دنيا ، لها يغضب ، ولها يرضى ، ولها يفرح ، ولها يهتم ويحزن » . فكأَن قتادة صورها في العصاة ، ولا يترتب ذلك إلا مع تأَوّل الرجاءِ على بابه ، إذ قد يكون العاصي المُجلِّح[1] مستوحشاً من آخرته ، فأَما على التأْويل الأَول فمن لا يخاف لقاءَ الله فهو كافر ، وقوله : ﴿وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ تكميل

---

(١) المُجلِّح في الأمر : الذي يُقْدم عليه في عزم وتصميم ويركب رأسه فلا يتراجع .

في معنى القناعة بها والرفض لغيرها ، لأَن الطمأْنينة بالشيءِ هي زوال التحرك إلى غيره . وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون ابتداءَ إشارة إلى فرقة أُخرى من الكفار ، وهؤلاءِ - على هذا التأْويل - أَضل صفقة لأَنهم ليسوا أَهل دنيا بل أَهل غفلة فقط[1] ، ثم حتم عليهم بالنار ، وجَعَلها مأْواهم ، وهو حيث يأْوي الإنسان ويستقر ، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم واجتراحهم ، وفي هذه اللفظة ردّ على الجبرية ونص على تعلّق العقاب بالتكسب الذي للإنسان .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية . لما قرّر تبارك وتعالى حالة الفرقة الهالكة عقَّب ذلك بذكر حالة الفرقة الناجية ليتضح الطريقان ويرى الناظر فرق ما بين الهدى والضلال ، وهذا كله لطف منه بعباده . وقوله : [يَهْدِيهِمْ] لا يترتب أَن يكون معناه : يرشدهم إلى الإيمان ، لأَنه قد قررهم مؤمنين ، فإنما الهدى في هذه الآية على أَحد وجهين ، إما أَن يريد أنه يديمهم ويثبتهم ، كما قال : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾[2] فإنما معناه : اثبتوا ، وإما أَن يريد به : يرشدهم إلى طرق الجنان في الآخرة . وقوله : [بِإِيمَانِهِمْ] يحتمل أَن يريد : بسبب إيمانهم ويكون ذلك مقابلاً لقوله قبل : ﴿مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ، ويحتمل أَن يكون الإيمان هو نفس الهدى ، أَي :

---

(١) لم يذكر الاحتمال الثاني وهو أن يكون قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غافِلُونَ﴾ من عطف الصفات ، فيكون الغافلون عن الآيات هم الذين لا يرجون لقاءَ الله .

(٢) من الآية (١٣٦) من سورة (النساء) .

يهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم . قال مجاهد : يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به ، ويتركب هذا التأويل على ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن العبد المؤمن إذا قام من قبره للحشر تمثل له رجل جميل الوجه طيب الرائحة ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقوده إلى الجنة)[١] وبعكس هذا في الكافر ، ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره . وقوله : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ﴾ يريد : من تحت عِلِّيَّاتهم وغرفهم ، وليس التحت الذي هو بالمسامتة ، بل يكون إلى ناحية من الإنسان ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[٢]، وكما قال حكاية عن فرعون : ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ الآية . الدعوى بمعنى الدعاء ، يقال : دعا الرجل وادَّعى بمعنى واحد ، قاله سيبويه . و ﴿سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تقديس وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل مالا يليق به ، وقال

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال : حدثنا الحسن قال : بلغنـــا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (المؤمن إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إني لأراك عين امرئ صدق ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، وأما الكافر فإذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إني لأراك عين امرئ سوءٍ ، فيقول : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار) . (الدر المنثور) .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (مريم) .

(٣) من الآية (٥١) من سورة (الزخرف) .

علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في ذلك : «هي كلمات رضيها الله تعالى لنفسه» ، وقال طلحة بن عبيد الله : قلت : يا رسول الله ، ما معنى «سبحان الله» ؟ فقال : (معناها تنزيه الله من السّوءِ) ، وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في [ٱللَّهُمَّ] ، وحكي عن بعض المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة إنما يقولها المؤمن في الجنة عندما يشتهي الطعام ، فإنه إذا رأى طائراً أو غير ذلك قال : «سبحانك اللّهم» فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى(١). رواه ابن جريج ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يريد : تسليم بعضهم على بعض ، والتحية مأخوذة من تمني الحياة للإنسان والدعاءِ بها ، يقال : حيّاه يُحيِّيه ، ومنه قول زهير بن جناب :

مِنْ كُلِّ ما نَالَ الفَتى قد نِلْتُه إلَّا التَّحيَّهْ(٢)

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : : أُخبرت أن قوله : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ إذا مرَّ بهم الطائر يشتهونه قالوا : سبحانك اللّهم ، ذلك دعاؤهم به ، فيأتيهم الملك بما اشتهوا ، فإذا جاء الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا: الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِين ، فذلك قوله : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الدر المنثور)

(٢) رواية التّاج : «ولَكُلُّ ما» وكذلك في غيره من المراجع ، يقول : لقد نلت كل ما يتمناه أمثالي ولم ينقصني إلا أن أكون ملكاً ينحني لي الناس بالتحية ، وزُهَيْر كان سيداً وخطيباً وشاعراً وبطلا في قومه (قضاعة) ونال فعلا مكانة عالية وعمّر طويلا ، وقيل : رأته ابنة له يوماً يدبّ على عصاه فقالت لابن ابنها : خذ بيد جدِّك ، فقال له : من أنت ؟ فلما أجابه أنشأ يقول :

أَبَنِيَّ إنْ أَهْلِكْ فَقَدْ أَوْرَثْتُكُمْ مَجْداً بَنِيَّهْ

وتَرَكْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَا دات زِنَادُكُمْ وَرِيَّهْ

ولَكُلُّ مَا نَالَ الفَتَى قدْ نِلْتُهُ إلا التَّحِيَّهْ

يريد دعاءَ الناس للملوك بالحياة ، وقد سُمّي المُلْكُ تحية بهذا التدريج ، ومنه قول عمرو بن معديكرب :

أَزورُ أَبَا قـابوس حتَّى   أُنيخَ علَى تَحِيَّتِهِ بِجُنْدِي (١)

أَراد : على مملكته . وقال بعض العلماءِ : [وَتَحِيَّتُهُمْ] يريد تسليم الله عزَّ وجلَّ ، والسلام مأْخوذ من السلامة .

وقوله تعالى : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ يريد : وخاتمة دعواهم في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه ، وكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم . وقرأَ جمهور الناس : ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي عند سيبويه (أَنْ) المخففة من الثقيلة ، وقرأَ ابن محيصن ، وبلال بن أَبي بُردة ، ويعقوب ، وأَبو حيوة : ﴿أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ﴾ ، وهي – على الوجهين – رفع على خبر الابتداءِ ، قال أَبو الفتح : هذه القراءَة تدل على أَن قراءَة الجماعة هي (أَنْ) المخففة من الثقيلة بمنزلة قول الأَعشى :

فِي فِتْيَةٍ كسُيوف الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا   أَنْ هَالِكٌ كلُّ منْ يَحْفَى وينْتَعِلُ (٢)

(١) عن اللسان : (قال أبو عمرو : التحية المُلْك ، وأنشد قول عمرو بن معديكرب : «أسيرُ به إلى النُّعْمَانِ حَتَّى ... البيت» يعني على مُلْكِه ، ويُروى : «أسير بها» ، ويروى : «أؤمُّ بها» . وقال خالد بن يزيد : لو كانت التحية المُلك لما قيل : التحيَّات للهِ) .

(٢) الرواية في الديوان :

في فِتْيَةٍ كسُيُوفِ الهنْدِ قَدْ عَلِمُوا   أنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عن ذي الحيلَةِ الحِيَلُ

وهو أنسب للمعنى ، أما الحديث عن الحفاء والانتعال ففي بيت آخر قبل هذا البيت بثلاثة أبيات ، وفيه يقول الأعشى :

إمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لا نِعَالَ لَنَـا   إنَّا كذلك ما نَحْفَى ونَنْتَعِـلُ

والبيتان من قصيدته المشهورة التي مطلعها :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ   وهلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أيُّهَا الرَّجُـلُ ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قال مجاهد : «نزلت في دعاءِ الرجل على نفسه أَو ماله أَو ولده ونحو هذا ، فأَخبر الله تعالى أَنه لو فعل مع الناس في إِجابته إِلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إِجابتهم إِلى الخير لأَهلكهم ، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر تقديرها : ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون ، فاقتضب القول وتوصل إِلى هذا المعنى بقوله سبحانه : ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ ، فتأَمل هذا التقدير تجده صحيحاً . و [ٱسْتِعْجَالَهُم] نصب على المصدر ، والتقدير : مثل استعجالهم ، وقيل : التقدير : تعجيلا مثل استعجالهم ، وهذا قريب من الأَول . وقيل : إِن هذه الآية نزلت في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِن ٱلسَّمَاءِ﴾[1] ، وقيل : نزلت في قوله تعالى : ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[2] وما جرى مجراه .

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال) .

(٢) من الآية (٧٧) من سورة (الأعراف) ، وهي قوله سبحانه : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ .

وقرأ جمهور القراءِ : [لَقُضِيَ] على بناءِ الفعل للمفعول ورفع (الأَجل) ، وقرأ ابن عامر وحده (١) ، وعوف ، وعيسى بن عمر ، ويعقوب : [لَقَضَى] على بناءِ الفعل للفاعل ونصب (الأَجل) ، وقرأ الأَعمش : [لَقَضَيْنَا] ، و الأَجل ـ في هذا الموضع ـ أَجل الموت ، ومعنى (قضى) في هذه الآية : أَكمل وفرغ ، ومنه قول أَبي ذُؤَيب :

وعلَيْهِما مَسْرُودتانِ قَضَاهُمَـــا داودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابغِ تُبَّعُ (٢)

وأَنشد أَبو علي في هذا المعنى :

قضيْتُ أُموراً ثم غادرْتُ بَعْدَهـا فوائح في أَكمامِها لَمْ تفَتَّق (٣)

---

(١) يعني من بين القراء السبعة ، وإلا فقد قرأ بها معه عوف وغيره ممن ذكرهم ابن عطية .

(٢) هذا البيت من عَيْنِيَّة أبي ذؤيب المشهورة التي قالها في الرثاء ، ومطلعها : « أَمِنَ المنونِ وريْبه تَتَوَجَّعُ » ، وقوله : « مسرودتان » : رواية المفضل الضبي في « المفضليات »، والمسرودة : الدرع التي سمرت حلقاتها ، والسَّرْد : الحلق ، وقوله تعالى : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ معناه أن يجعل المسمار على قـــدر الثقب بحيث لا يكون الثقب واسعــاً فيتقلقل المسمار ، ولا يكون الثقب دقيقــاً والمسمار غليظاً فينقصم الحلق . ورواية جمهـــرة أشعار العرب : « وعليهما ماذيتان » أي : درعان من الحديد لينتان سهلتان . ومعنى « قضاهما » : أحكمهما وأكملهما وفرغ منهما ، ورجُلٌ صَنَعٌ : ماهر في الصناعة ، وتُبَّع : من ملوك اليمن ، قيل : كان يجيد صناعة الدروع ، أو يأمر بصنعها محكمة ، وداود عليه السلام اشتهر أيضاً بصنع الدروع ، قال تعـــالى : ﴿وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ و(صَنَعُ) مضافةٌ إلى (السوابغ) ، وروي بالفعل الماضي في صَنَع ، (والسوابغَ) مفعول به .

(٣) ويروى (حوائج) بدلا من (فوائح) ، وقضى هنا بمعنى انتهى منها وأكملها ، وكُمٌّ كل نوْر وعاؤه ، والتفتق : التَّفتح ويترتب عليه انتشار الرائحة الطيبة . ولم نقف على قائله .

وتعدَّى (قضى) في هذه الآية بإلى لمَّا كان بمعنى : فَرغَ ، وفرغ يتعدى بإلى وباللام ، فمن ذلك قول جرير :

الآن فَقَدْ فَرَغْتُ إلَى نُمَيْرٍ فصِرْتُ عَلَى جَمَاعَتِهَا عَذَابَا [١]

ومن الآخر قوله عزَّ وجلَّ : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ﴾[٢] ، وقرأ الأعمش [٣] : ﴿فَنَذَرَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، و [يَرْجُونَ] في هذا الموضع على بابها ، والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاءَ الله ، والرجاءُ مقترن أبداً بخوف ، والطغيان : الغُلُوّ في الأَمر وتجاوز الحدّ ، والعَمَهُ : الخبط في ضلال ، فهذه الآية نزلت ذامّة لخلق ذميم هو في الناس ، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أَحياناً سوءُ الخلق على الدعاءِ في الشَّرّ ، فلو عُجّل لهم لهلكوا .

---

(١) البيت غير موجود في ديوانه (دار المعارف بمصر – تحقيق نعمان محمد أمين د.) وأقرب الظن أن يكون من قصيدته المشهورة التي قالها في هجاء الراعي النميري ، ومطلعها :

أقِلِّي اللَّوْم عاذلَ والعِتَابَا وقُولي إن أصبْتُ لَقَدْ أصَابَا

ومنها البيت المشهور الذي قال النقاد عنه إنه أهجى بيت قالته العرب :

فَغُضَّ الطرفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كلابَا

(٢) الآية (٣١) من سورة (الرحمن) .

(٣) يفهم من كلام الزمخشري أن هذه القراءة بالنصب [فَنَذَرَ] حيث قال : «فإن قلت : فكيف اتصل به قوله : ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ؟ وما معناه ؟ قلت : قوله : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ﴾ متضمن نفي التعجيل ، كأنه قيل : ولا نعجل لهم الشَّرَّ ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم .»

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية ، هذه الآية أيضاً عتابٌ على سوءِ الخُلق من بعض الناس ، ومضمنه النهيُ عن مثل هذا ، والأَمرُ بالتسليم إلى الله تعالى والضراعة إليه في كل حال ، والعلمُ بأَن الخير والشر منه لا ربّ غيره . وقوله : [لِجَنْبِهِ] في موضع حال ، كأَنه قال : مضطجعاً ، ويجوز أَن يكون حالا من [ٱلإِنسانِ] ، والعامل فيه [مَسَّ] (١) ، ويجوز أَن يكون حالا من ضمير الفاعل في [دَعَانَا] والعامل فيه (دعا) وهما معنيان متباينان . و [الضُّرُّ] لفظ عام لجميع الأَمراض والرزايا في النفس والمال والأَحبة ، هذا قول اللغويين ، وقيل : هو مختص برزايا البدن : الهزال والمرض ، وقوله : [مَرَّ] يقتضي أَن نزولها في الكفار ثم هي بعْدُ تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أَو عاص ، فمعنى الآية : مرَّ في إشراكه بالله وقلَّة توكله عليه . وقوله : [زُيِّن] إن قدرناه من الله تبارك وتعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم صحبة أَعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها ، وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة ، ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين مرّة من فعل الله تعالى ، ومرّة من فعل الشياطين .

---

(١) هذا قول الزجاج ، وضعفه أبو البقاء لأمرين ، أحدهما : أن الحال – على هذا – واقع جواب بعد [إذا] وليس بالوجه والثاني : كثرة دعائه في كل أحواله لا على الضر يصيبه في كل أحواله ، وعليه آيات كثيرة في القرآن . راجع البحر المحيط ٥–١٢٩ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

هذه آية وعيد للكفار وضرب أَمثال لهم ، أَي : كما فعل هؤلاءِ فِعلَكُم فكذلك يُفْعل بكم ما فعل بهم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ إِخبارٌ عن قسوة قلوبهم وشدة كفرهم . وقرأَ جمهور السبعة ، وغيرهم : [نَجْزِي] بنون الجماعة ، وفرقة [يجْزِي] بالياءِ على معنى : يجزي الله . و [خَلَائِفَ] جمع خليفة . وقوله : [لِنَنْظُرَ] معناه : لنبيّن في الوجود ما علمناه أَزلا ، لكن جرى القول على طريق الإِيجاز والفصاحة . وقرأَ يحي بن الحارث[(١)] ــ وقال : رأَيتها في الإِمام مصحف عثمان ــ : [لِنَظُّرَ] بإِدغام النون في الظَّاءِ[(٢)] .

(١) هو يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى ، أبو عمرو الذّمَاري (من ذَمار على مرحلتين من صنعاء) ثم الدمشقي ، إمام الجامع الأموي وشيخ القراءِ بدمشق بعد ابن عامر ، أخذ القراءة عن ابن عامر . مات سنة ١٤٥ وله تسعون سنة . (طبقات القراء) .

(٢) قال أبو الفتح : ظاهر هذا أنه أدغم النون في الظاءِ ، وهذا لا يعرف في اللغة ، ويُشبه أن تكون مخفاة فظنها القراءُ مدغمة على عادتهم في تحصيل كثير من الإخفاء إلى أن يظنوه مدغماً ، وذلك لأن النون لا تدغم إلا في ستة حروف يجمعها قولك (يَرْمَلون) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «إن الله تعالى إنما جعلنا خلفاءَ لينظر كيف عملنا فأَرُوا الله حسن أَعمالكم في السِّرّ والعلانية » ، وكان أَيضاً يقول : «قَد استُخلفت يا بن الخطاب فانظر كيف تعمل» ، وأَحياناً كان يقول : «قد استُخْلفت يابن أُم عُمر» .

وقوله تعالى : ﴿وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ الآية . هذه الآية نزلت في قريش لأَن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى : ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قِبَلِكَ على اختيارنا ، وأَحلَّ ماحرّمته وحرّم ما حلَّلته ليكون أَمرنا حينئذ واحداً وكلمتنا متصلة . فذَمَّ الله هذه الصنعة وذكَّرهم بأَنهم يقولون هذا للآيات البينات ، ووصفهم بأَنهم لا يؤمنون بالبعث ، ثم أَمر نبيّه عليه الصلاة والسلام أَن يردّ عليهم بالحق الواضح ، وأَن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويُعلم بخوفه ربّه . واليوم العظيم : يومُ القيامة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

هذه من كمال الحجة ، أَي : هذا الكلام ليس من قِبَلي ولا من عندي ، وإنما هو من عند الله ، ولو شاءَ الله ما بعثني به ولا تلوتُه عليكم

ولا أَعلمتكم به . و [أَدْرَاكُمْ] بمعنى : أُعْلمكم ، يقال : دريت بالأَمر وأَدريت غيري . وهذه قراءَة الجمهور ، وقرأَ ابن كثير[(١)] في بعض ما روي عنه : ﴿وَلَأَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ وهي لام تـأْكيد دخلت على (أَدرى) ، والمعنى ـ على هذا ـ ولأَعلمكم به من غير طريقي ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن سيرين[(٢)] ، وأَبو رجاءٍ[(٣)] ، والحسن[(٤)] : ﴿وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ بِهِ﴾ ، وقرأَ ابن عباس أَيضاً وشهر بن حوشب : ﴿وَلَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ﴾ ، وخرّج الفراءُ قراءَة ابن عباس ، والحسن على لغة لبعض العرب منها قولهم : «لبَّأْتُ» بمعنى «لبَّيْتُ» ، ومنها قول امرأَة منهم : «رَثَأْتُ زوجي بأَبيات» ، أَي : رثَيْتُ ، وقال أَبو الفتح : إنما هي (أَدْرَيْتكُم) قلبت الياءُ أَلفاً لانفتاح ما قبلها[(٥)]. وروينا عن

---

(١) هو عبد الله بن كثير الداريّ ، مولى عمرو بن علقمة الكناني ، ويكنى أبا مَعْبد ، توفي بمكة سنة عشرين ومائة للهجرة .

(٢) محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاءِ ، أبو بكر ، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة ، تابعي ، من أشراف الكتاب نشأ بزازاً وتفقه وروى الحديث ، واشتهر بالورع ، ينسب له كتاب « تعبير الرؤيا . ط » ، وهو غير « مُنْتَخَب الكلام في تفسير الأحلام » المنسوب إليه . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، مات سنة ١١٠ هـ (طبقات القراء) .

(٣) هو عمران بن تيم ، أبو رجاء العطاردي البصري التابعي ، ولد قبل الهجرة وأسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ، عرض القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما وتلقنه من أبي موسى رضي الله عنه ، وحدث عن عمر رضي الله عنه وغيره ، مات سنة ١٠٥ هـ ـ (طبقات القراء) .

(٤) هو أبو سعيد الحسن البصري إمام أهل البصرة ، ولد لسنتين بقيتاً من خلافة عمر رضي الله عنه ، وكان جامعاً عالماً فقيهاً حجةً مأموناً عابداً كثير العلم فصيحاً ، توفي سنة ١١٠ هـ ـ (طبقات القراء) .

(٥) هذا مع أن الياء ساكنة ، وذلك كقولهم في يَيْبَس : يابَس ، وقالوا في الإضافة إلى الحِيَرة : حاريّ ، وإلى طيءٍ : طائيّ ، فقد قلبت الياء الساكنة في هذه الكلمات ألفاً ، =

قطرب : إن لغة عقيل في أَعطيتك : أَعطأْتك ، قال أَبو حاتم : قلبت الياءُ أَلفاً كما هي في لغة بني الحارث بن كعب : « السلام علاك » .

ثم قال : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي الأَربعين سنة قبل بعثته عليه السلام ، ويريد : لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيءٍ من هذا ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أَن كل عمرُه[1] وتقاصر أَمله واشتدت حنكته وخوفه لربّه ، وقرأَ الجمهور بالبيان في [لَبِثْتُ] ، وقرأَ أَبو عمرو [لَبِتُّ] بإدغام الثاءِ في التاءِ .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية . جاءَ في هذه الآية التوقيف على عظم جرم المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك ، قيل : فاتسق القول واضطردت فصاحته ، وقوله : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهامٌ وتقرير ، أَي : لا أَحد أَظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ﴾ مِمَّنْ ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بعد بيانها ، وذلك أَعظم جرم على الله ، وأَكثر استشراف إلى عذابه . ثم قرر أَنه لا يفلح أَهل الجرم ، و [يُفْلِحُ] معناه : يظفر ببغيته .

وقوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ﴾ الآية . الضمير في [يَعْبُدُونَ] عائد على الكفار من قريش الذين تقدمت محاورتهم ،

= ثم لما صارت الياء أَلفاً هُمِزَ على لغة من قال في الباز : البأز ، وفي العالم : العألم ، وفي الخاتم : الخأتم . (راجع ذلك في كتاب الخصائص لابن جني — باب ما همزته العرب ولا أَصل له في همز مثله ٣—١٤٢) .

(١) أي : ضعف وثقل عن العمل ، يقال : كلّ عن الأمر بمعنى : ثقل الأمر عليه فلم ينبعث له . (المعجم الوسيط) .

و ﴿مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ هي الأصنام ، وقولهم : ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ هو مذهب النبلاءِ منهم ، فأمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يقررهم ويوبّخهم : أهم يعلمون الله بأنباءٍ من السموات والأرض لا يعلمها هو؟ وذكر «السموات» لأن من العرب من يعبد الملائكة والشعرى . وبحسب هذا حسن أن يقول : [هَؤُلَاءِ] ، وقيل : ذلك على تجوّز في الأصنام التي لا تعقل ، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم ، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا : لا نفعل ولا نقدر ، وذلك لهم لازم من قولهم : ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ . و [سُبْحَانَهُ] استئناف تنزيه لله عزَّ وجلَّ . وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر هنا : ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياءِ على الغيبة ، وفي حرفين في النحل ، وحرف في الروم ، وحرف في النمل[١] ، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع ، والحسن ، والأعرج ، وابن القعقاع ، وشيبة ، وحميد ، وطلحة ، والأعمش . وقرأ ابن كثير ، ونافع هنا وفي النمل فقط : [تُشْرِكُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الحاضر . وقرأ حمزة ، والكسائي الخمسة الأحرف بالتاءِ ، وهي قراءَة أبي عبد الرحمن .

---

(١) أما في (النحل) ففي الآية (١) وهي قوله سبحانه : ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وفي الآية (٣) وهي قوله تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ــ وأما في الروم ففي الآية (٤٠) وفيها يقول سبحانه وتعالى : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُم مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ــ وأما في النمل ففي الآية (٦٣) حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . والحجة لمن قرأ بالياء أنه أخبر بها عن المشركين في حال الغيبة ، والحجة لمن قرأ بالتاء أنه أراد : قل لهم يا محمد : تعالى الله عما تشركون أيُّها الكفرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قالت فرقة : المراد آدم ، كان أُمة وحده ، ثم اختلف الناسُ بعْدُ ، وفي أَمر بنيه . وقالت فرقة : المراد نَسَم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأَشهدهم على أَنفسهم . وقالت فرقة : المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أَحد ابنيه الآخر . وقالت فرقة : المراد : وما كان الناس إلَّا أُمة واحدة في الضلالة والجهل بالله ، فاختلفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة . ويحتمل أَن يكون المعنى : كان الناس صنفاً واحداً مُعَدًّا للاهتداءِ . واستيفاءُ القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله سبحانه : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (١). وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو جعفر ، ونافع ، وشيبة ، وأَبو عمرو : ﴿لَقُضِي بَيْنَهُم﴾ بضم القاف وكسر الضاد ، وقرأَ عيسى بن عمر : [لَقَضَى] بفتحهما على الفعل الماضي .

(١) من الآية (٢١٣) من سورة البقرة) .

وقوله : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يريد قضاءه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقتة . ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ [١] .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الآية . يريدون بقولهم : «آية من ربه» آية تضطر الناس إلى الإيمان ، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط ، ولا هي معجزات اضطرارية ، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون . وقوله : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، لا يطلع على غيبه أحد . وقوله : [فَانْتَظِرُوا] وعيد وقد صدقه الله تبارك وتعالى بنصرته محمداً صلى الله عليه وسلم ، قال الطبري : في بدر وغيره .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ الآية . المراد بالناس في هذه الآية الكفار ، وهي بعْدُ تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله تبارك وتعالى عند زوال المكروه عنه ، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه ، وذلك في الناس كثير . والرحمة هنا بعد الضراء كالمطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض ونحو هذا مما لا ينحصر . والمكرُ : الاستهزاءُ والطعن عليها من الكفار واطراح الشكر والخوف من العصاة ، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج بمهلهم

---

(١) في بعض النسخ : «إنما كان حينئذ» ، وقد آثرنا التعبير الذي أثبته أبو حيان في نقله عن ابن عطية رحمه الله .

لأنه مُتَيَقَّن به وواقع لا محالة ، وكل آت قريب . قال أبو حاتم : قرأ الناس : ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ بضم السّين ، وخفف السّينَ الحسنُ ، وابن أبي الحسن ، وأبو عمرو .

ويقال : [أَسْرعُ] من : سرعَ ، ولا يكون من : أَسْرَعَ يُسْرعُ ، حكى ذلك أبو علي ، قال : ولو كان من أَسْرَع لكان شاذًّا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في نار جهنم : (لَهِيَ أَسْوَدُ مِن القَار)[١] وما حفظ للنبي صلى الله عليه وسلم فليس بشاذ[٢] .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، ونافع ، وقتادة ، ومجاهد : [تَمْكُرُونَ] بتاءٍ على المخاطبة ، وهي قراءة أهل مكة ، وشبل ، وأبي عمرو ، وعيسى ، وطلحة ، وعاصم ، والأعمش ، والجحدري ، وأيوب

---

(١) الحديث في الموطأ .

(٢) معنى كلام أبي علي أن (أَسْرع) اسم تفضيل لأنها من الثلاثي . وابن عطية يرى أنها مثل (أسود) التي وردت في حديث نبوي شريف . قال أبو حيّان تعليقاً على ذلك : « في بناء التعجب وأفعل التفضيل من (أفْعل) ثلاثة مذاهب : المنع مطلقاً وما ورد من ذلك فهو شاذ ، والجواز مطلقاً ، والتفصيل بين أن تكون الهمزة فيه للنقل فيمنع ، أو لغير النقل فيجوز نحو : أشكل الأمر ، وأظلم الليل » . ثم قال : « وأما تنظير « أسود من القار » بأسرع ففاسد ، لأن أسود فعله ثلاثي ، ولم يمتنع التعجب والتفضيل من نحو سوِد وحمِر وأدِم إلا لكونه لوناً ، وقد أجاز ذلك بعض الكوفيين في الألوان مطلقاً ، وبعضهم في السواد والبياض فقط » . (البحر : ٥-١٣٦) .

ابن المتوكل ، [وقرأ الحسن ، وقتادة ، ومجاهد] [١] ورويت أيضاً عن نافع ، والأعرج [يمْكُرُون] على الغيبة . قال أبو حاتم : قال أيوب ابن المتوكل : «في مصحف أُبي : يأَيها الناس إن الله أَسرع مكرا وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون» [٢] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر . وركوبُه وقت حُسْن الظن به للجهاد والحج مُتَّفَقٌ على جوازه ، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أَو لتصرف التجر ، وأَما ركوبُه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأَكثر . وغاية مُبيحِهِ أَن يقول : وتركُه أَحسنُ ، وأَما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع ، وفي الحديث :

(١) ما بين القوسين المعقوفين زيادة يقتضيها المعنى ، وقد نقلناها عن البحر ، وإلا لما كان هنا مبرر لأن يقول : « ورويت أيضاً » عن نافع ، والأعرج .

(٢) قال أبو حيان تعليقاً على ذلك : « وينبغي أن يحمل هذا على التفسير لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون من سواد المصحف ، والمحفوظ عن أُبيّ القراءةُ والإقراءُ بسواد المصحف ». (البحر ٥–١٣٧) .

(من ركب البحر في ارتجاجه فقد بَرئت منه الذِّمة)[١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (البحر لا أركبه أبداً)[٢].

وقرأ جمهور القراءِ من السبعة وغيرهم: [يُسَيِّرُكُم]، قال أَبو عليّ: وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تَعْدِية، لأَن العرب تقول: سرتُ الرجلَ وسيَّرته، ومنه قول الهزلي:

فَلا تَجْزَعَنْ مِن سِيرةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرُهَا[٣]

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥–٧٩) عن أبي عمران الجوني قال: حدثني بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغزونا نحو فارس فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من بات فوق بيت ليس له إجار فوقع فمات فبرئت منه الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات فقد برئت منه الذمّة). وقد علّق على الحديث الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه: «الأحاديث الصحيحة» فقال: «أخرجه الإمام أحمد وهو صحيح متصل الإسناد وجهالة الصحابي لا تضر».

(٢) لم نقف على تخريج لهذا الحديث، ولكن في الدارمي حديث آخر فيه: (لا يركب البحر إلا حاجّ أو معتمر أو غاز)، ومعنى هذا التحذير من ركوب البحر إلا في الطاعة ولأمر هام كالجهاد والحج، على أن الثابت في القرآن الكريم أن البحر نعمة من نعم الله، وفيه فوائد كثيرة، ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. فإن صحّ الحديث فليس لنا أن نفهم منه إلا مجرد التحذير من ركوب البحر إلا عند الضرورة. وقوله تعالى هنا: ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ دلالة على جواز ركوب البحر، والله أعلم.

(٣) جاء في (اللسان – سَيَر): «والسِّيرَةُ: السُّنَّة، وقد سارَتْ وسِرْتُهَا، قال خالد بن زهير – وقال ابن برّي: هو لخالد ابن أُخت أبي ذؤيب – كان أبو ذئيب يرسله إلى محبوبته فأفسدها عليه فعاتبه أبو ذئيب في أبيات كثيرة فقال له خالد:

فَإنَّ الَّتي فِينَا زَعَمْتَ ومِثْلَهَـــا لَفِيكَ، ولكنّي أَراكَ تَجُورُهَـــا

تَنَقَّذْتَهَا مِن عند وَهْب بن جابر وأَنتَ صَفِيُّ النفْس منه وخيرُهَـــا

فلا تجزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أنْت سِرْتَهَا فأوّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرُهَـــا

يقول: أنت جعلتها سائرةً في الناس، وقال أبو عبيد: سارَ الشيءُ وسِرْتُهُ، فعمَّ». وعلى هذا فالبيت لخالد بن زُهَيْر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا ، وهو أَن يجعل الضمير كالظرف ، كما تقول : « سرت الطريق »(١) ، وهذه قراءَة الجمهور من (سَيَر) ، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود ، وفي مصحف أَبي شَيْخ(٢) . وقال عوف بن أَبي جميلة : قد كان يُقرأَ : [يَنْشُرُكُم] فغيرها الحجاج بن يوسف [يُسَيِّرِكُمْ] ، قال سفيان بن أَبي الزعل : كانوا يقرؤُون : [يَنْشُرُكُم] فنظروا في مصحف ابن عفان رضي الله عنه فوجدوها [يُسيِّرُكُمْ] ، فأَول من كتبها كذلك الحجاجُ . وقرأَ ابن كثير في بعض طرقه : [يُسيركم] من أَسار ، وقرأَ ابن عامر وحده من السبعة : [يَنْشُرُكُمْ] بفتح الياءِ وضم الشين ، من النَّشْر والبَث ، وهي قراءَة زيد بن ثابت ، والحسن ، وأَبي العالية ، وأَبي جعفر ، وعبد الله بن جبير بن الفصيح ، وأَبي عبد الرحمن ، وشيبة ، وروي عن الحسن أَنه قرأَ : [يُنْشِرُكُمْ] بضم الياءِ وكسر الشين وقال : هي قراءَة عبد الله ، قال أَبو حاتم : أَظنه غلط .

---

(١) قال أبو حيان في « البحر » تعليقاً على ذلك : « هذا لا يجوز عند الجمهور لأن (الطريق) عندهم ظرف مختص كالدار والمسجد فلا يصل إليه الفعل غير (دخلت) عند سيبويه ، و (انطلقت وذهبت) عند الفراءِ إلا بواسطة (في) إلا في الضرورة ، وإذا كان كذلك فضميره أحرى ألا يتعدى إليه الفعل .

(٢) أبو شَيْخ الهُنائي ، اسمه حيْوان بحاء مهملة أو معجمة والياء ساكنة ، روى عن عمر رضي الله عنه ، ومعاوية ، وروى عنه بَيْهَس وقتادة ، وثّقه ابن حبان ، ومات بعد المائة . (خلاصة تذهيب الكمال ٣٨١) . هذا وقد اضطربت الأصولة المخطوطة في كتابته .

و [ٱلْفُلْك] : جمع (فُلْكٍ) ، وليس باسم واحد للجميع والفرد [١] ، ولكنه فُعْل جُمِـع على فُعْل ، ومما يدل على ذلك قولهم : (فُلْكان) في التثنية ، وقراءة أَبي الدرداءِ وأُم الدرداءِ : ﴿في الفُلْكِيّ﴾ على وزن فُعْلِيّ بياءِ نَسَب [٢] ، لقولهم : أَشقريّ ودَوَّاريّ [٣] في دور الدهر ، وكقول الصَّلَتان [٤] :

أَنَا الصَّلَتانيُّ . . . . [٥]

---

(١) يشير بذلك إلى رأي الفراء ، ثم استدل على كلامه بأنه قد ثُني فقيل : فُلْكان ، ذلك أن التثنية تدل على أنه قد حدث تغيير ، إذ من المعروف أن مالا يُغَيَّر ليس بجمع بل هو مشترك ، والخلاف أصلا بين ابن جني والفراء ، فابن جني يقدّر التغيير ويعتبر سكون الجمع غير سكون الواحد ، والفراءُ لا يقدر التغيير لأن السكون أمرٌ عدمي فكيف نقدره ؟ راجع حواشي البيضاوي .

(٢) نسب أبو الفتح هذه القراءة إلى أُم الدرداء فقط ، واسمها هجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية أُم الدرداء الصغرى زوجة أَبي الدرداء ، أخذت القراءة عن زوجها ، وأخذ عنها إبراهيم بن عبلة ، وعطية بن قيس ، ويونس بن هبيرة ، توفيت بعد الثمانين . (طبقات القراء ٢–٣٥٤) .

(٣) يقال للدّهر : دوّاري ، قال الليث : الدّوّاريُّ الدّهر الدائر بالإنسان أحوالا ، قال العجّاج :

والدّهْرُ بالإنسانِ دوّارِيُّ   أَفْنى القرونَ وهُو قَعْسَرِيّ

(٤) الصَّلَتان بفتح الصاد المشددة واللام : اسم لثلاثة شعراء ، (عَبْديّ) نسبة إلى عبد القيس ، واسمه قُثم وهو المراد هنا ، و (ضبيّ) نسبة إلى ضبّ بن أُدّ ، و (فَهْميّ) نسبة إلى فهم بن مالك . (راجع تاج العروس للزبيدي) .

(٥) هذا جـــزءٌ من بيت قاله في مطلع قصيدة نظمهـــا حين جعلوا إليه الحكم بين الفرزدق وجرير ، أيهما أشعر . (راجع الأمالي للقالي ٢–١٤٢ ، ١٤٣) ، والبيت بتمامه :

أنا الصَّلَتَانيُّ الذي قدْ عَلِمْتُمُ   مَتى ما يُحَكَّم فَهْوَ بالحقّ صادعُ

وقوله : [جَرَيْنَ] علامة قليل العدد[١] ، وقوله : [بِهِمْ] خروج من الحضور إلى الغيبة ، وحسُنَ ذلك لأن قوله : ﴿كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ هو بالمعنى المعقول : حتى إذا حصل بعضكم في السفن[٢] ، والريح إذا أُفردت فعُرْفها أن تستعمل في العذاب والمكروه ، لكنها لا يحسن في البحر أن تكون إلا واحدة لا نشراً ، فقيدت المفردة بالطيّب فخرجت عن ذلك العُرف وبرع المعنى . وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ، والعاصف : الشديدة من الريح ، يقال : عصَفَت الرّيح[٣] ، وقوله : [وَظَنُّوا] على بابه في الظن ، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور ، وقوله : ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾ أي : نسوا الأصنام والشركاء وجردوا الدعاءَ لله ، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماءِ حكاية قول العجم : « هيا شراهيا » ومعناه : يا حي يا قيوم ، قال الطبري : جواب قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ : ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ

---

(١) يقول : إن النون علامة جمع قليل العدد ، وهو جمع المؤنث السالم ، وهذا يتفق مع ما نبّه عليه الأشموني عند الكلام على جموع القلّة من أن استعمالها في القِلّة على سبيل الحقيقة ، واستعمالها في الكثرة على سبيل المجاز ، وقد خالف في ذلك ابن خروف وتبعه الرضي وقالا : إن الجمعين لمطلق الجمع دون نظر إلى قِلّة أو كثرة .

(٢) قال أبو حيان في « البحر » تعقيباً على ذلك بعد أن نقله : « فكأنه قدّر مفرداً غائباً يعاد الضمير عليه فيصير كقوله تعالى : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يغشاه﴾ أي : أو كذي ظلمات ، فعاد الضمير غائباً على اسم غائب فلا يكون من باب الالتفات » .

(٣) ويقال أيضاً : (أعصفت الريح) ، فهي عاصف ومعصف ومعصفة ، أي : شديدة فالفعلان لازمان ، قال الشاعر :

حتّى إذا أعصفَت ريحٌ مُزَعْزِعَةٌ فيها قطارٌ ورعْدٌ صوتُه زَجَل

عَاصِفٌ﴾ ، وجواب قوله : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ : ﴿دَعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

[يَبْغُونَ] : أي يفسدون ويكفرون ، والبغي : التعدي والأعمال الفاسدة ، وأكَّد ذلك بقوله : ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(٢) ، ثم ابتدأ بالزجر وذمّ البغي في أوجز لفظ . وقوله : ﴿مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ﴾ رفع ، وهذه قراءة الجمهور ، وذلك على خبر الابتداءِ ، والمبتدأُ [بَغْيُكُمْ] ، ويصحّ

(١) هذا مخالف للظاهر لأن قوله : (وَظَنُّوا) ظاهره العطف على جواب (إذا) لا أنه معطوف على (كُنْتُمْ) لكنه محتمل ، قاله في البحر .

(٢) قال الزمخشري : فإن قلتَ : ما معنى قوله : (بِغَيْرِ الْحَقِّ) والبغي لا يكون بحق ؟ قلت : بلى ، وهو استيلاءُ المسلمين على أرض الكفرة وهدْم دورهم وإحراق زروعهم وقطْع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة . اهـ. وعلّق على ذلك أبو حيان في «البحر» فقال : وكأنه قد شرح قوله تعالى : [يَبْغُون] بأنهم يفسدون ويعبثون مترقين في ذلك ممعنين فيه من : بَغَى الجرحُ إذا ترقّى للفساد . ولا يصح أن يقال في المسلمين إنهم باغون على الكفرة إلا إذا ذُكر أن أصل البغي هو الطلب مطلقاً ولا يتضمن الفساد ، وحينئذ ينقسم إلى طلب بحق وطلب بغير حق ، ولما حمل ابن عطية البغي هنا على الفساد قال : «أكَّدَ ذلك بقوله : ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ . وجواب [لما] هو [إذا] الفجائية وما بعدها ، وذلك دليل على أنها حرف يترتب ما بعدها من الجواب على ما قبله من الفعل الذي وقع بعد [لَمَّا] وأنها تفيد الترتيب والتعليق في المضي ، وأنها كما قال سيبويه حرف ، والجواب بها دليل على أنه لم يتأخر (بَغْيُهُم) عن (إنجائهم) ، بل بنفس ما وقع الإنجاءُ وقع البغي .

أَنْ يرتفع [مَتَاعُ] على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : ذلك متاع ، أَو هو متاع ، وخبر البغي قوله : ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ . وقرأَ حفص عن عاصم ، وهارون عن ابن كثير ، وابن أَبي إِسحق : [مَتَاعَ] بالنصب ، وهو مصدر في موضع الحال من البغي ، وخبر البغي - على هذا - محذوف تقديره : مذموم أَو مكروه أَو نحو هذا ، ولا يجوز أَن يكون الخبر قوله : ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ لأَنه كان يحول بين المصدر وما عمل فيه بأَجنبي ، ويصح أَن ينتصب [مَتَاعَ] بفعل مضمر تقديره : تمتعون متاعَ الحياة الدنيا . وقرأَ ابن أَبي إِسحق : «متاعاً الحياةَ الدنيا» بالنصب فيهما ، ومعنى الآية : إِنما بغيكم وإِفسادكم مضر لكم وهو في حالة الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة ، قال سفيان بن عيينة : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَي : تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا ، وعلى هذا قالوا : البغي يصرع أَهله .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقالوا : الباغي مصروع لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ بُغِـيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[1] ، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما من ذنب أَسرع عقوبة من بَغْي)[2] . وقرأَت فرقة : [فَنُنَبِّئُكُمْ] على ضمير المعظم المتكلم ، وقرأَت فرقة : [فَيُنَبِّئُكُمْ] على ضمير الغائب ، والمراد الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة (الحج) .

(٢) أخرجه البخاري ، والإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه في سننهم ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه عن أبي بكرة ، قال ذلك في «الجامع الصغير» ، ولفظه فيه : (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

المعنى : إنما مثل تفاخر الحياة الدنيا وزينتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناءِ كمطر نزل من السماءِ فاختلط . ووقف هنا بعض القراءِ على معنى : فاختلط الماءُ بالأَرض ، ثم استأْنف : ﴿بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ على الابتداءِ والخبر المقدم ، ويحتمل ـ على هذا ـ أَن يعود الضمير في [بِهِ] على الماءِ أَو على الاختلاط الذي يتضمنه القول[1] . ووصلَت فرقةٌ فرفع (النبات) على ذلك بقوله : [ٱخْتَلَطَ] ، أَي : اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماءِ . وقوله : ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ يريد الزروع والأَشجار ونحو ذلك ، وقوله [وَٱلْأَنْعَامُ] يريد سائر العشب المرعي .

---

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ما ذكره ابن عطية : « والوقف على قوله : [فَاخْتَلَطَ] لا يجوز وخاصة في القرآن لأنه تفكيك للكلام المتصل الصحيح المعنى الفصيح اللفظ ، وذهاب إلى اللغز والتعقيد والمعنى الضعيف ، ألا ترى أنه لو قيل : بالاختلاط نباتُ الأرض لم يكد ينعقد كلاماً لضعف الإسناد وقربه من عدم الإفادة ؟ ولولا أن ابن عطية ذكره وخرجه لم نذكره في كتابنا » .

و ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ لفظة كثرت في مثل هذا ، كقوله : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾[١] . والزُّخْرف : التَّزيّن بالألوان ، وقد يجيءُ الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه . وقرأ مروان بن الحكم ، وأبو جعفر ، والسبعة ، وشيبة ، ومجاهد ، والجمهور : [وَازَّيَّنَتْ] ، أصله : تَزَيَّنَت ، سكنت التاءُ لتُدغم فاحتيج إلى ألف وصل . وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وأُبي بن كعب : [وتَزَيَّنَتْ] وهذه أصل قراءة الجمهور ، وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، والشعبي ، وقتادة ، ونصر بن عاصم ، وعيسى : [وَأَزْيَنَتْ] على معنى : حضرت زينتها كما تقول : أحصد الزرع ، و [أَزْيَنَت] على مثال : أَفْعَلَتْ[٢] ، وقال عوف بن أبي جميلة : كان أشياخنا يقرؤُونها : [وازْيَانَّت] النون شديدة وألف ساكنة قبلها[٣] ، وهي قراءة أبي عثمان الهنديّ ، وقرأت فرقة : [وَازْيَأَنَّتْ] ، وهي لغة منها قول الشاعر :

. . . . إِذَا ما الْهَوَادي بالعَبيط احْمأَرَّتِ[٤]

وقرأت فرقة : [وازَّايَنَتْ] ، والمعنى في هذا كله : ظهرت زينتُها .

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الأعراف) .

(٢) صحّت الياءُ فيه على جهة النُّدْرَة كأغْيَلَت المرأة ، وكان القياس أن تقلب الياءُ ألفاً فيقال : ازَّانَتْ .

(٣) على وزن اسْوَادَّتْ واحْمَارَّت .

(٤) هذا عجز بيت لكُثيّر ، والبيت بتمامه :

وأنتَ ابنُ لَيْلى خيْرُ قومِكَ مشْهداً إذا ما الْهَوَادي بالْعَبِيطِ احْمَأَرت

ورواية الديوان : «إذا ما احمأرَّتْ بالْعَبِيطِ الْعَوَامِلُ» ، وهو من قصيدة قالها كثير يمدح بها عبد العزيز بن مروان ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى في الفاتحة : ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ ، وروي هناك بلفظ «العوالى» بدلا من «الهوادي» (١-١٣٠) ، وكثير هو صاحب عزَّة ، توفي سنة ١٠٥ هـ .

وقوله تعالى : ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ على بابها [١] ، والضمير في [عَلَيْها] عائد على الأَرض ، والمراد ما فيها من نعمة ونبات ، وهذا الكلام فيه تشبيه جملة أَمر الحياة الدنيا بهذه الجملة الموصوفة أَحوالها ، و [حَتَّى] غاية ، وهي حرف ابتداءٍ لدخولها على [إِذَا] ، ومعناها متصل إلى قوله : ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ ، ومن بعد ذلك بدأَ الجواب ، والأَمر الآتي واحد الأُمور كالريح والصِّر والسَّموم ونحو ذلك ، وتقسيمه ليلا أَو نهاراً تنبيه على الخوف وارتفاع الأَمن في كل وقت . و [حَصِيداً] فعيل بمعنى مفعول ، وعبّر بحصيد عن التالف الهالك من النبات وإن لم يهلك بحصاد إذ الحكم فيهما واحد ، وكأَن الآفة حصدته قبل أَوانه . وقوله : ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ﴾ أَي : كأَن لم تنعم ولم تنضر ولم تغر بغضارتها . وقرأَ قتادة : [يَغْنَ] بالياءِ من تحت ، يعني الحصيد ، وقرأَ مروان : ﴿كَأَنْ لَمْ تَتَغَنَّ﴾ بتاءَين مثل تَتَفَعّل [٢] ، والمغاني : المنازل المعمورة ، ومنه قول الشاعر :

وقد نَغْنَى بِهَا وَنَرَى عُصُوراً بها يَقْتَدْنَنَا الخُرُدَ الخِدالا [٣]

وفي مصحف أُبيّ بن كعب : «﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ وما كُنَّا لِنُهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾» رواها عنه

(١) بهابُها هو المعنى الأصلي للظن وهو أن يدرك الذهن الشيءَ مع ترجيحه .

(٢) قال أبو الفتح : «جاء هذا مجيءَ نظائره ، كقولهم : تمتّعتُ بكذا ، وتأنّقتُ فيه ، وتلبّستُ بالأمر» . (المحتسب ١-٣١٢) .

(٣) سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها﴾ الآية (٩٢) من سورة (الأعراف) .

ابن عباس رضي الله عنهما . وقيل : إن فيه «وَما كانَ اللهُ لِيُهلِكَها إلَّا بذنوب أهلها»[١] ، وقرأ أبو الدرداء : ﴿لِقَوْم يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا ، وخصّ المتفكرين بالذكر تشريفاً للمنزلة ، ولِيَقَع التسابق إلى هذه الرُّتبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

نَصَّتْ هذه الآية أن الدعاءَ على الشرع عامّ في كل بشر ، والهداية التي هي الإرشاد مختصة بمن قُدِّر إيمانه . و [ٱلسَّلَامُ] ، قيل : هو اسم الله عزَّ وجلَّ ، فالمعنى : يدعو إلى داره التي هي الجنة . وإضافتها إليه

(١) قال العلماء : هذا مخالف لما في سواد المصحف و لا يصح أن يقرأ به ، ولعلّه من قبيل الشرح والتوضيح .

إضافة ملك إلى مالك . فقيل : السلام : بمعنى السلامة ، أي : من دخلها ظفر بالسلامة وأمن الفناء والآفات ، وهذه الآية رادّة على المعتزلة [١] .

وقد وردت في دعوة الله تعالى عباده أحاديث منها رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم جبريل وميكائيل ، ومثّلا دعوة الله ، ومحمداً عليه الصلاة والسلام الداعي ، والملة المدعو إليها ، والجنة التي هي ثمرة الغفران بالمأدُبَة يدعو إليها ملِك إلى منزله [٢] ، وذكر قتادة في كلامه على هذه الآية : ذُكر لنا أن في التوراة مكتوباً : «يا باغي الخير هلُمّ ، ويا باغي الشّرّ انتــه» [٣] .

(١) يتركز الخلاف بين أهل السُّنَّة والمعتزلة في « إرادة الاهتداء » ، فأهل السُّنَّة يقولون : إن هذه الإرادة خاصة ، والمعتزلة يقولون: إنها عامة ، ومعنى كلام المعتزلة أن يكون الله جلّ شأنه قد أراد إيمان الكفار ولم يقع مراده سبحانه وتعالى عن ذلك ، وكلام ابن عطية هذا ينفي ما قاله ابن تيمية وبعض المحدثين من أن لابن عطية ميولا اعتزالية . وقد رددنا عليهم في مقدمة هذا التفسير . هذا وقد قال قتادة ومجاهد : هذه الآية بيِّنة الحجة والردّ على القدرية لأنهم قالوا : هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فردُّوا على الله نصوص القرآن . قال ذلك القرطبي .

(٢) أخرجه ابن جرير ، والحاكم ، وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه قال : سمعت أبا جعفر محمد بن علي رضي الله عنه وتلا ﴿واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ ويَهْدِي منْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقال : حدثني جابر رضي الله عنه قال : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمعْ سمعَتْ أُذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أُمتك كمثل ملِك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه . فالله الملِك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها) . (التخريج عن الدر المنثور ، واللفظ عن الطبري)

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والإمام أحمد عن قتادة . (الشوكاني) .

وقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَة﴾ الآية . قالت فرقة وهي الجمهور : الحُسْنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ ، وروي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه صُهيب (١) ، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق ، وحذيفة ، وأبي موسى الأشعري ، وعامر بن سعد ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة . وقالت فرقة : الحسنى : هي الحسنة ، والزيادة : هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نصِّ الحديث وتفسير قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ، وهذا قولٌ يعضده النظر ،

---

(١) حديث صهيب هذا أخرجه الإمام مسلم ، والإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وكثيرون غيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم تثقلْ موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم) .

وخرّجه أيضاً ابن المبارك في دقائقه عن أبي موسى الأشعري موقوفاً ، وخرّج الترمذي عن أُبي بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين في كتاب الله ، في قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال : (النظر إلى وجه الرحمن) ، وعن قوله : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مائة أَلْف أَوْ يَزِيدُون﴾ قال : (عِشْرُونَ أَلْفاً) .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن منده في الرد على الجهمية ، والدارقطني في الرؤية ، وابن مردويه ، واللالكائي ، والخطيب ، وابن النجار عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ فقال : الذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله الكريم . (الدر المنثور ، والشوكاني ، وابن كثير ، والقرطبي) .

ولولا عظم القائلين بالقول الأَول لترجّح هذا القول ، وطريق ترجيحه أَن الآية تتضمن اقتراناً بين ذكْر عمّال الحسنات وعمّال السيئات ، فوصف المحسنين بأَن لهم – على إحسانهم – حُسْنى وزيادة من جنسها ، ووصف المسيئين بأَن لهم بالسيئة مثلها ، فتعادل الكلامان . وعبّر عن الحسنات بالحسنى مبالغةً إِذْ هي عشرة . وقال الطبري : الحُسْنى عام في كل حسْنى فهي تعم جميع ما قيل ، ووعد الله في جميعها بالزيادة ، ويؤيد ذلك أَيضاً قوله : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، ولو كان معنى الحُسْنى الجنَّة لكان في القول تكرير بالمعنى ، على أَن هذا ينفصل عنه بأَنه وصف المحسنين بأَن لهم الجنة وأَنهم لا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة ، ثم قال : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ على جهة المدح لهم ، أَي : أُولئك مستحقوها وأَصحابها حقاً وباستيجاب .

و [يَرْهَقُ] معناه : يغشى مع ذلة وتضييق ، والقَتَرُ : الغبار المسودّ ، ومنه قول الشاعر :

مُتَوَّجٌ برداءِ المُلْك يَتْبَعهُ ... موجٌ تَرَى وسْطَهُ الرَّايَاتِ والقَتَرا (١)

وقرأَ الحسن ، وعيسى بن عمر ، والأَعمش ، وأَبو رجاءٍ : [قَتْرٌ] بسكون التاءِ . وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ الآية . اختلف النحويون في رفع [جَزَاءُ] بم هو ؟ فقالت فرقة : التقدير : «لهم جزَاءُ سيّئَة بمثلها» ، وقالت فرقة : التقدير : «جزاءُ سيئة مثلها» والباءُ زائدة .

---

(١) البيت للفرزدق ، والتتويج لا يكون بالرداء ، ولكنه أراد بالرداءِ المهابة ، والموْجُ : الجيش الكثيف ، والرايات : الأعلام ، والقـتَـر بالفتح : الغبرة ، وتأمل كيف يكون القـتَـر وسط الموج ؟ ولهذا روي : «ترى فَوْقَهُ» وهي الأصح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتوجه أَن يكون رفع الجزاءِ على المبتدأ ، وخبره في [ٱلَّذِينَ] ، لأَن [ٱلَّذِينَ] معطوف على قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فكأَنه قال : «ولِلَّذينَ كسبوا السيئات جزاءُ سيئة بمثلها» ، وعلى الوجه الآخر فقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ رفع بالابتداءِ ، وتعمُّ السيئاتُ هاهنا الكفرَ والمعاصي ، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار ، ومثل سيئة المعاصي مصروف إِلى مشيئة الله تبارك وتعالى .

والعاصمُ : المنجي والمجير ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ﴾[1] ، و [أُغْشِيَتْ] : كُسيت ، ومنه الغشاوة ، والقِطَعُ : جمع قِطْعة . وقرأَ ابن كثير : [قِطْعاً] بسكون الطاءِ ، وقرأَ الباقون بفتح الطاءِ ، والقِطْعُ : الجُزءُ من الليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ﴾[2] ، وهذا يراد به الجزءُ من زمان اللَّيل ، وفي هذه الآية يراد الجزءُ من سواده .[3] و [مُظْلِماً] نعت لِقِطْعٍ ، ويجوز أَن يكون حالًا من الذكر الذي في قوله : ﴿مِنَ ٱللَّيْلِ﴾[4] ، فإِذا كان نعتاً فكان حقه أَن يكون قبل الجملة ، ولكن قد يجيءُ بعدها ، وتقدير الجملة : «قِطْعاً استقر من الليل مظلماً» على نحو قوله

(١) من الآية (٤٣) من سورة (هود) .

(٢) من الآية (٨١) من سورة (هود) ، والآية (٦٥) من سورة (الحجر) .

(٣) أي : يراد الزمان من الليل في آية هود وآية الحجر ، حيث طلب إلى لوط عليه السلام أن يسري بأهله في هذا الزمن من الليل ، أما في آيتنا ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهم قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ فيراد به جزء من سواده وظلامه .

(٤) يريد بقوله : «الذِّكْر» الضمير في متعلق ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ .

تبارك وتعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[١] . ومن قرأ [قِطَعاً] جمع قِطْعة فنصب [مُظْلِماً] على الحال من الليل ، والعاملُ في الحال [مِنَ] إذ هي العامل في ذي الحال[٢] . وقرأ أُبي بن كعب : «كَأَنَّمَا يغْشَى وجوهَهُمْ قِطْعٌ من اللَّيْل مُظْلِمٌ» .[٣] وقرأ ابن أَبي عبلة : ﴿قِطَعٌ مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِمٌ﴾ بتحريك الطاءِ في «قِطَع» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قرأ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، والحسن ، وشيبة ، وغيرهم : [نَحْشُرُهُمْ] بالنون . وقرأت فرقة : [يحْشُرُهُمْ] بالياءِ . والضمير في [نَحْشُرهُمْ] عائد على جميع الناس محسنين ومسيئين ، و [مَكَانكُمْ] نصب على تقدير : لازموا مكانكم ، وذلك مقترن بحال

(١) من الآية (٩٢) من سورة (الأنعام) . وقد نقل أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية ثم عقب عليه بقوله : «ولا يتعين تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكون جملة ، بل الظاهر أن يقدر باسم الفاعل فيكون من قبيل الوصف بالمفرد ، والتقدير : قِطْعاً كائناً من الليل مظْلماً» .

(٢) قال في تفسير «أبو السعود» : «العامل فيه (أُغْشِيَتْ) لأنه العامل في (قِطَعاً) ، وهو موصوف بالجار والمجرور ، والعامل في الموصوف عامل في الصفة ، أو معنى الفعل في (مِنَ اللَّيْلِ) . وهذا التوضيح مذكور أيضاً في الكشاف .

(٣) بسكون الطاءِ في (قِطْع) ، أما قراءة ابن أبي عبلة فالطاء مفتوحة كما قال ابن عطية .

شدة وخزي ، و [مَكَانَكُم] في هذا الموضع من أَسماءِ الأَفعال إِذ معناه : قفوا واسكنوا ، وهذا خبر من الله تعالى عن حالة تكون لِعَبَدَة الأَوثان يوم القيامة ، يؤمرون بالإِقامة في موقف الخزي مع أَصنامهم ، ثم يُنْطِق الله الأَصنام بالتبري منهم . وقوله : [وَشُرَكَاؤُكُمْ] أَي الذين تزعمون أَنتم أَنهم شركاءُ لله ، فأَضافهم إِليهم لأَن كونهم شركاءَ إنما هو بزعم هؤلاءِ . وقوله : ﴿فَزَيَّلْنَا بيْنَهُمْ﴾ معناه : فرقنا في الحجة والمذهب وهو من زلتُ الشيءَ عن الشيءِ أزيله ، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية . وكونُ مصدر زيَّل تزييلا يدلُّ على أَن زيّل إنما هو فعَّل لا فيْعل لأَن مصدره كان يجيءُ على فيعلة . وقرأَت فرقة : [فَزَايَلْنَا]، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن الكفار إذا رأَوْا العذاب وتقطعت بهم الأَسباب قيل لهم : اتَّبعوا ما كنتم تعبدون ، فيقولون : كنا نعبد هؤلاءِ ، فتقول الأَصنام : والله ما كنا نسمع ولا نعقل ، وما كنتم إِيانا تعبدون ، فيقولون : والله لإِيَّاكم كنا نعبد ، فتقول الآلهة : ﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وظاهر هذه الآية أَن محاورتهم إنما هي مع الأَصنام دون الملائكة وعيسى بن مريم بدليل القول لهم : ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم : ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه . (الدر المنثور)

﴿لَغَافِلِينَ﴾ ، وهؤلاءِ لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم ، و [أَنْتُمْ] رفع بالابتداءِ ، والخبر : موبخون أَو مُهَانون [١] ، ويجوز أَن يكون [أَنْتُم] تـأْكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو « قفوا » أَو نحوه [٢].

و [شَهِيداً] نصب على التمييز ، وقيل : على الحال : [٣] . و [إِنْ] هذه عند سيبويه هي مخففة موجبة حرف ابتداءٍ ، ولزمتها اللام فرقا بينها وبين (إِنْ) النافية ، وقال الفراءُ : [إِنْ] بمعنى (ما) ، واللام بمعنى (إِلَّا) . و [هُنَالِكَ] نصب على الظرف . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [تَبْلُو] بالباءِ بواحدة بمعنى : تختبر ، وقرأَ حمزة ، والكسائي : [تَتْلُو] بالتاءِ بنقطتين من فوق بمعنى : تَتْبَع ، أَي تطلب وتتبع ما أَسلفت من أَعمالها ، ويصح أَن يكون بمعنى : تقرأُ كتبها التي ترفع إِليها . وقرأَ يحي بن وثاب : [وَرِدُّوا] بكسر الراءِ ، وقرأَ الجمهور : ﴿ورُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَي رُدُّوا

---

(١) هذا الإعراب عليه مآخذ ، من أهمها أنه يفك الكلام الذي اتصلت أجزاؤه ، وفيه تقدير إضمار لا ضرورة له ، وأيضاً فإن قوله تعالى : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يدل على أنهم ثبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتى وقع التفريق بينهم ، وكذلك فإن قراءة من قرأ : ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ بالنصب يدُلُّ على أنه مفعول معه والعامل فيه اسم الفعل، فلو كان [أَنْتُم] مبتدأ حُذف خبره لما جاز أن يأتي بعده مفعول معه ، تقول : «كل رجل وضيعتُه» بالرفع ، ولا يجوز النصب .

(٢) وهذا أيضاً ليس بجيد ، إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير الذي في الفعل المقدر (قفوا أو نحوه) لجاز تقديمه على الظرف ، إذ الظرف لم يتحمل ضميراً على هذا القول فيلزم تأخيره عنه ، وهو غير جائز ، لا تقول : «أنت مكانك» ، والأصح أنه لا يجوز حذف المؤكد في التأكيد المعنوي ، فكذلك هذا لأن التأكيد ينافي الحذف ، وليس في كلامهم «أنت زيداً» .

(٣) التمييز أحسن لقبوله (مِنْ) . راجع «البحر المحيط» .

إلى عقاب مالكهم وشديد بأْسه ، فهو مولاهم في الملك والإحاطة لافي الرحمة والنصر ونحوه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه . و﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ يريد : بالمطر ، [وَٱلْأَرْضِ] يريد : بالنبات ونحو ذلك ، و ﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصارَ﴾ لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه حتى أَن ما عداهما تبع ، و ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الجنين من النطفة ، والطائر من البيضة ، والنبات من الأَرض ، إذْ له نمو شبيه بالحياة . ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك ، وقد تقدم فيما سلف إيعاب القول في هذه المعاني . وتدبير الأَمر عام لهذا وغيره من جميع الأَشياءِ ، وذلك استقامة الأُمور كلها عن إرادته عزَّ وجلَّ ، وليس تدبيره بِفِكْر ولا رَوِيَّة وتغيّرات ، تعالى عن ذلك ، بل علمه محيط كامل دائم . ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللهُ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك ،

ولا تمكنهم المباهتة بسواه ، فإذا أقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في افترائكم وجعلكم الأَصنام آلهة .

وقوله تعالى : ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُم﴾ الآية . يقول : فهذا الذي هذه صفاته ربكم الحق ، أي المستوجب للعبادة والأُلوهية ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق ، وعبارة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً ، وحكمت هذه الآية بأَنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسأَلة التي هي توحيد الله ، وكذلك هو الأَمر في نظائرها وهي مسائل الأُصول التي الحق فيها في طرف واحد ، لأَن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي ، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله فيها : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[1] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أُمورٌ متشابهات)[2] ، والحق في هذه في الطرفين لأَن المتعبدين إنما تُعِبّدوا بالاجتهاد لا بالتعيين في كل نازلة ، ويدلك على أن الحق في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيءٍ واحد ، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أَحكام

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة) .

(٢) رواه البخاري في الإيمان والبيوع ، ومسلم في المساقاة ، وأبو داود في البيوع وكذلك الترمذي والنسائي ، وابن ماجه في الفتن ، والدارمي في البيوع ، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحلال بيّن والحرام بين وبينهما أُمور مُشْتَبِهة ، فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه) .

طارئة على وجود ذات متقررة لا يُختلف فيها ، وإنما يُخْتلف في الأَحكام المتعلقة بالمتشرع[١] . وقوله : ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تقرير[٢] ، كما قال : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ؟[٣] ثم قال سبحانه : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ أي : كما كانت صفات الله كما وصف ، وعبادته واجبة كما تقرر ، وانصراف هؤلاءِ كما قدر عليهم وتكسبوا - كذلك حَقَّتْ.

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي هنا وفي آخر السورة[٤] : [كَلِمَةُ] على الإِفراد الذي يراد به الجمع ، كما يقال للقصيدة : كلمة . فعبّر عن وعيد الله بكلمته . وقرأَ نافع ، وابن عامر في الموضعين المذكورين : [كَلِمَاتُ] ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وشيبة بن نصاح .

وهذه الآية إِخبار أَن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده . وقرأَ ابن أَبي عبلة : [إِنَّهُمْ] بكسر الأَلف .

---

(١) ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : (اللَّهُمَّ لك الحمد) الحديث ، وفيه : (أنت الحقُّ ، ووعدك الحقّ ، وقولك الحقّ ، والجنة حقّ ، ولقاؤك حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيُّون حق . ومحمد حق) . سبحانه وتعالى هو الواجب الوجود .

(٢) يمكن أن يكون الاستفهام إنكارياً كما قال الألوسي بمعنى إنكار الواقع والتعجب منه بالنظر للمخلوقين .

(٣) الآية (٢٦) من سورة (التكوير) .

(٤) في الآية (٩٦) من هذه السورة حيث يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

هذا توقيف أيضاً على قصور الأَصنام وعجزها ، وتنبيه على قدرة الله عزَّ وجلَّ ، وبدْءُ الخلق يريد به إنشاءَ الإِنسان في أَول أَمره ، وإعادتُه هي البعث من القبور . و [تُؤْفَكُونَ] معناه : تصرفون وتحرمون ، تقول العرب : « أَرْض مأْفوكة » إذا لم يصبها مطر فهي بمعنى الخيبة والتلف ، كما قال : ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي﴾ الآية . ﴿يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يريد به : يُبَيّن طرق الصواب ويدعو إلى العدل ويفصح بالآيات ونحو هذا . ووصف الأَصنام بأَنها لا تَهْدي إلا أَن تُهْدى ، ونحن نجدها لا تَهتدي وإنْ هُدِيت ، فوجه ذلك أَنه عامل – في العبارة عنها – معاملتهم في وصفها بأَوصاف من يعقل ، وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن ، ذكر ذلك أَبو عليّ الفارسي ، والذي أَقول :

(١) الآية (٥٣) من سورة (النجم) .

إن قراءَة حمزة والكسائي تحتمل أَن يكون المعنى : « أَمَّن لا يهدي أَحداً إلا أَن يُهدى ذلك الأَحد بهداية من عند الله » ، وأَما على غيرها من القراءَات التي مقتضاها : « أَمَّن لا يَهْتَدي إِلَّا أَن يُهْدى » فيتجه المعنى على ما تقدم لأَبي عليّ الفارسي ، وفيه تجوز كثير . وقال بعضهم : هي عبارة عن أَنها لا تنتقل إلا أَن تنقل . ويحتمل أَن يكون ما ذكر الله تعالى من تسبيح الجمادات هو اهتداؤُها ، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ في اهتدائها إلى مناكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى في هذه السورة .

وقراءَة حمزة والكسائي هي [يَهْدِي] بفتح الياءِ وسكون الهاءِ . وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وشيبة ، والأَعرج ، وأَبو جعفر : [يَهْدّي] بسكون الهاءِ وتشديد الدال [1] . وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر : [يَهَدّي] بفتح الياءِ والهاءِ ، وهذه أَفصح القراءَات ، نقلت حركة تاءَ (يَهْتَدي) إلى الهاءِ وأُدغمت التاءُ في الدال ، وهذه رواية ورش عن نافع . وقرأَ عاصم في رواية حفص : [يَهِدّي] بفتح الياءِ وكسر الهاءِ وشدّ الدال ، أَتبع الكسرة الكسرة . وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر : [يِهِدّي] بكسر الياءِ والهاءِ وشدّ الدال ، وهذا أَيضاً إتباع . وقال مجاهد : الله يهدي من الأَوثان وغيرها ما شاءَ .

---

(١) قال أبو حيان في « البحر » : « فجمعوا بين ساكنين » ، قال النحاس : « لا يقدر أحد أن ينطق به » ، وقال المبرد : من رام هذا لابد أن يحرك حركة خفيفة ، وسيبويه يسمي هذا : اختلاس الحركة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقرأَ يحيي بن الحارث الزَّماري : ﴿إِلَّا أَنْ يهَدِّي﴾ بفتح الهاءِ وشد الدال. ووقف القراءُ على: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ ثم يبدأُ : ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَتَّبِـعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ إِخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأَنه ظن ، ثم بيَّن منزلة الظن من المعارف وبُعْده عن الحق . والظن ـ في هذه الآية ـ على بابه في أَنه معتقد أَحد جائزين لكن ثَمَّ ميلٌ إِلى أَحدهما دون حجة تبطل الآخر . وجواز ما اعتقده هؤلاءِ إِنما هو بزعمهم لا في نفسه ، بل ظنهم محال في ذاته . والحق أَيضاً على بابه في أَنه معرفة المعلوم على ما هو به ، وبهذه الشروط لا يغني الظن من الحق شيئاً ، وأَما في طريق الأَحكام التي تَعَبَّدَ الناس بظواهرها فيغني الظن في تلك الحقائق ويصرف من طريق إِلى طريق . والشهادة إِنما هي مظنونة ، وكذلك التُّهم في الشهادات تغني ، وليس المراد في هذه الآية هذا النمط . وقرأَ جمهور الناس : [يفْعلُونَ] ، وقرأَ عبد الله بن مسعود : [تَفْعَلُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الحاضر .

---

(١) فيكون قوله تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلام تامٌ معناه : أي شيءٍ لكم في عبادة الأوثان ؟ ثم قيل لهم : ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح فتعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئاً ، و [كَيْفَ] منصوبة بـ [تَحْكُمُونَ] ، فالجملة الأولى وهي [مالَكُمْ] استفهام معناه الإنكار والتعجب ، والجملة الثانية وهي : ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر فيه معنى الإنكار والتعجب ، وسبب التعجب في الاستفهامين مختلف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

هذا نفي قول من قال من قريش : «إن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفتري القرآن وينسبه إلى الله تعالى» وعبّر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ (١) ، وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ (٢) ، وغير هذا مما يعطي المعنى والقرائن والبراهين استحالته .

و [يُفْتَرَىٰ] معناه : يُختلق ويُنشأ ، وكأن المرء يفريه من حديثه أي يقطعه ويَسِمُه بسمة ، فهو مشتق من (فريْت) إذا قطعت لإصلاح . و [تَصْدِيقَ] نصب على المصدر ، والعامل فيه فعل مضمر ، وقال الزجاج : هو خبر كان مضمرة ، والتقدير : ولكن كان تصديق الذي بين يديه . وقوله : ﴿ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التوراة والإنجيل ،

---

(١) من الآية (١٦١) من سورة (آل عمران) .

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

والذي بين اليد هو المتقدم للشيء ، وقالت فرقة في هذه الآية : إن الذي بين يديه هي أَشراط الساعة وما يأْتي من الأُمور .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا خطأٌ ، والأَمر بالعكس ، كتاب الله تبارك وتعالى بين يديْ تلك ، أَمَّا أَنَّ الزجاج تحفظ فقال : « الضمير يعود على الأَشراط والتقدير : ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن » فهذا أَيضاً قلق ، وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان في أَن يصدق القرآنُ ما في التوراة والإنجيل مع أَن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أَنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه . وتفصيل الكتاب هو تبْيينُه . و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يريد : هو في نفسه على هذه الحالة ، وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾ الآية . [أَمْ] هذه ليست بالمعادلة لأَلف الاستفهام التي في قولك : أَزيدٌ قام أَم عمرو ؟ وإنما هي التي تتوسط الكلام . ومذهب سيبويه أَنها بمنزلة «الأَلف» و «بَل» لأَنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم . وهي كقولهم : «إنها لإبلٌ أَم شاءٌ» ؟ وقالت فرقة في [أَمْ] هذه : هي بمنزلة أَلف الاستفهام . ثم عَجَّزهم في قوله : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ، والسُّورَةُ مأْخوذة من «سُورَةِ البناءِ» [1] ، وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأٌ وختم . والتحدي في هذه

---

(١) سُورَة مثل بُسْرَة : كلُّ منزلة من البناء ، ومنه سُورَة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى .

الآية وقع بجهتَي الإعجاز اللتين في القرآن . إحداهما : النظم والرصف والإيجاز والجزالة ، كل ذلك في التعريف بالحقائق ، والأُخرى : المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل . وحين تحداهم بعشر مفتريات تحداهم بالنظم وحده .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا قول جماعة من المتكلمين ، وفيه عندي نظر ، وكيف يجيءُ التحدي بمماثلة في الغيوب ردًّا على قولهم : « افتراه » ؟ وما وقع التحدي في الآيتين :ـ هذه وآية العشر السُّور ـ إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق ، وما أُلزموا قط إتياناً بغيب ، لأَن التَّحدي بالإعلام بالغيوب كقوله : ﴿وَهُمْ مِنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[1] ، وكقوله : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[2] ، ونحو ذلك من غيوب القرآن ـ فبيّن أن البشر مقصر عن ذلك ، وأَما التحدي بالنظم فبيَّن أيضاً أَن البشر مقصر عن نظم القرآن إذ الله تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً ، فإذا قدر الله اللفظة في القرآن علم بالإحاطة اللَّفْظَةَ التي هي أَليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود حتى كمل القرآن على هذا النظام ، الأَوْلى فالأَوْلى ، والبشر ـ مع أَن يفرض أَفصح العالم ـ محفوف بنسيان وجهل بالأَلفاظ والحق ، وبغلط وآفات بشرية . فمحال أَن يمشي في اختياره على الأَولى فالأَولى . ونحن نجد العربي ينقح قصيدته ـ وهي الحَوْلِيَّات ـ يبدل فيها ويقدم ويؤخر ، ثم يدفع تلك القصيدة

(١) من الآية (٣) من سورة (الرُّوم) .
(٢) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح) .

إلى أَفصح منه فيزيد في التنقيح . ومذهب أَهل الصرفة مكسور بهذا الدليل ، فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحي إليه الله تعالى ، وميّزتْ فصحاءُ العرب هذا القدر من القرآن وأَذعنتْ له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها ، وأَنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه من غيره ، كفعل الفرزدق في أَبيات جرير ، والجارية في شعر الأَعشى ، وقول الأَعرابي في عَرْفَجِكُمْ [1] ، فقطع ، ونحو ذلك مما إذا تُتُبِّع بان . والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين : اطراد النظم والسرد ، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل ، فأَمّا مثل قوله تعالى : [مُدْهَآمَّتَانِ] [2] ، وقوله : [ثُمَّ نَظَرَ] [3] فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله ، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه .

وقوله : [مِثْلِهِ] صفة للسُّورة ، والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر ، كأَنه قال : فأْتوا بسُورة مثل القرآن ، أَي في معانيه وأَلفاظه [4] . وخلطت فِرَقٌ في قوله : [مِثْلِهِ] من جهة اللسان ، كقول الطبري : ذلك على المعنى ، ولو كان على اللفظ لقال : «مثلها» ، وهذا وهم بيّن لا يحتاج إليه . وقرأ عمرو بن فائد : ﴿بِسُورةِ مِثْلِهِ﴾ على الإضافة ،

(١) العَرْفَج : نبات طيب الرائحة أغبر إلى الخضرة له زهرة صفراءُ وليس له حبٌّ ولا شوك ، والإبل والغنم تأكله رطباً ويابساً ، ولهبه شديد الحمرة ، ويبالغ بحمرته فيقال : كأن لحيته ضرام عرفجة .

(٢) الآية (٦٤) من سورة (الرحمن) .

(٣) الآية (٢١) من سورة (المدثر) .

(٤) احتج المعتزلة بهذه الآية على أن القرآن مخلوق ، قالوا : لأنه تحدّى به ، وطلب الإتيان بمثله ، وعجزوا ، ولا يمكن هذا إلا إذا كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة ، ولو كان القرآن قديماً لكان الإتيان بمثله محالا في نفس الأمر ، فوجب ألا يصح التحدي به .

قال أَبو الفتح : التقدير : بسورة كلام مثله[١] ، قال أَبو حاتم : أَمر عبدُ الله الأَسودَ أَن يسأَل عمر رضي الله عنه عن إِضافة [سُورَةٍ] أَو تنوينها ، فقال له عمر : كيف شئت .

وقوله : ﴿وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ إِحالة على شركائهم وجِنِّهم وغير ذلك ، وهو كقوله في الآية الأُخرى : ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٢] ، أَي معيناً ، وهذا أَشد إِقامة لنفوسهم وأَصح تعجيزاً لهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المعنى : ليس الأَمر كما قالوا في أَنه مفترى ، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ، وهذا اللفظ يحتمل معنيَيْن ، أَحدهما : أَن يريد

(١) فهو عند ابن جني على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه .

(٢) من الآية (٨٨) من سورة (الإسراء) .

به الوعيد الذي توعدهم الله عزَّ وجلَّ على الكفر ، و [تَـأْويلهُ] على هذا يراد به ما يؤول إليه أَمره ، كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَـأْوِيلَهُ ﴾[1] ، والآية بجملتها - على هذا التـأْويل - تتضمن وعيداً . والمعنى الثاني : أَنه أَراد : بل كذَّبوا بهذا القرآن العظيم المُنْبِئ بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة ، ولا أَحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه ، ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه . و ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد من سلف من أُمم الأَنبياءِ . قال الزجاج : [كَيْفَ] في موضع نصب على خبر [كَانَ] ، ولا يجوز أَن يعمل فيها [ٱنْظُرْ][2] لأَن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا قانون النحويين لأَنهم عاملوا (كيف) في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك : « كيف زيدٌ » ؟ ، و لِـ (كَيْفَ) تصرفات غير هذا ، تحل محل المصدر الذي هو « كيفية » وتخلع معنى الاستفهام ، ويحتمل هذا أَن يكون منها ، ومن تصرفاتها قولهم : « كن كيف شئتَ » ، وانظر قول البخاري : « كيف كان بدءُ الوحي » ، فإِنه لم يستفهم[3] .

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأعراف) .

(٢) أي : لا يعمل فيها لفظاً ، لكن الجملة في موضع نصب بـ (انْظُر) معلقة ، وهي من نظر القلب لا العين .

(٣) علّق أبو حيان على هذا بكلام طويل خلاصته أن (كيف) لها معنيان : أحدهما : الاستفهام المحض ، فهي سؤال عن الهيئة إلا إذا تعلق عنها العامل فيكون معناها معنى الأسماء التي يستفهم بها عند تعليق العامل عنها ، والثاني : الشرط كقول العرب : «كيف تكون أكون» ، وأما قول البخاري : «كيف كان بدءُ الوحي» ؟ فهو استفهام محض على سبيل الحكاية ، كأن سائلا سأله فقال : «كيف كان بدءُ الوحي» ؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفية ذلك. «البحر ٥-١٦٠» .

وذكَّر الفعل المسند إلى «العاقبة» لما كانت بمعنى المآل ونحوه ، وليس تأنيثها بحقيقي .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية . الضمير في [مِنْهُمْ] عائد على قريش ، ولهذا الكلام معنيان : قالت فرقة : معناه : مِن هؤلاءِ القوم من سيؤمن في المستقبل ، ومنهم من حتم الله أَنه لا يؤمن به أَبداً . وقالت فرقة : معناه : مِن هؤلاءِ القوم من هو مؤمن بهذا الرسول إلا أَنه يكتم إيمانه وعلمه بأَن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإعجاز القرآن حق ، حفظاً لرياسته أَو خوفاً من قومه ، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾[١] ، وكالعباس ونحو هذا ، ومنهم من ليس بمؤمن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفائدة الآية على هذا التأْويل التفريق لكلمة الكفار ، وإضعاف نفوسهم ، وأَن يكون بعضهم على وجل من بعض . وفي قوله : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ تهديد ووعيد .

وقوله تعالى : ﴿وإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ آية مناجزة لهم ومتاركة ، وفي ضمنها وعيد وتهديد ، وهذه الآية نحو قوله : ﴿قُلْ يَأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة . وقال كثير من المفسرين منهم ابن زيد : هذه الآية منسوخة بالقتال لأَن هذه مكية ، وهذا صحيح[٢] .

---

(١) من الآية (٩٧) من سورة (النساء) .

(٢) قال بالنسخ مع ابن زيد مجاهدٌ ، والكلبي ، ومقاتل . وقال المحققون : ليست بمنسوخة، ومدلولها اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمراتها من الثواب والعقاب ، ولم ترفع آية =

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ . جمع [يَسْتَمِعُونَ] على معنى [مَنْ] لا على لفظها ، ومعنى الآية : ومن هؤلاءِ الكفار من يستمع إلى ما تأْتي به من القرآن بأُذنه ، ولكن حين لا يُؤْمن ولا يحصل فكأَنه لا يسمع ، ثم قال على وجه التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم : أَفأَنت يا محمد تريد أَن تُسمع الصمَّ ؟ أَي : لا تكترث بذلك ، وقوله : ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه : ولو كانوا في أَشدّ حالات الأَصمّ ، لأَن الأَصمّ الذي لا يسمع شيئاً بحال فذلك لا يكون في الأَغلب إلا مع فساد العقل والدماغ ، فلا سبيل أَن يعقل حجة ولا دليلا أَبداً . و [لَوْ] هذه بمعنى (إِنْ) ، وهذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم . أَي : أَلزم نفسك هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية . هي نحو الأُولى في المعنى ، وجاءَ [يَنْظُرُ] على لفظ [مَنْ] ، وإذا جاءَ الفعل على لفظها فجائز أَن يعطف عليه آخر على المعنى ، وإذا جاءَ أَوَّلا على معناها فلا يجوز أَن يعطف عليه آخر على اللفظ ، لأَن الكلام يلبس حينئذ(١) . وهذه الآية نحو الأُولى في المعنى كأَنه قال : ومنهم من ينظر إليك

= السيف شيئاً من هذا . قاله أبو حيان في البحر ، ثم قال : هذا وقد جاء ترتيب الآية على نسق بلاغي بديع ، إذ بدأ في المأمور بقوله : ﴿لي عَمَلي﴾ لأنه آكد في الانتفاء منهم ، وفي براءة بدأ بقوله : ﴿أنتُمْ بَرِيئُونَ﴾ لأن هذه الجملة جاءت متممة لما قبلها ومؤكدة له وهو : ﴿ولَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ ، ولمراعاة الفواصل إذ لو تقدم ذكر براءته كما تقدم ذكر أن عمله له لم تقع الجملة فاصلة إذ كان يكون التركيب : ﴿وأَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ .

(١) قال أبو حيان بعد أن نقل كلام ابن عطية هذا : « وليس كما قال ، بل يجوز أن تراعي المعنى أولا فتعيد الضمير على حسب ما تريد من المعنى من تأنيث وتثنية وجمع ، ثم تراعي اللفظ فتعيد الضمير مفرداً مذكراً ، وفي ذلك تفصيل ذكر في علم النحو » .

ببصره ، لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته ، فهو لذلك كالأعمى ، فهوّن ذلك عليك ، أفتريد أن تهدي العُمْي والهداية أجمع بيد الله عزَّ وجلَّ (١) ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قرأت فرقة : ﴿وَلَكِنِ ٱلنَّاسُ﴾ بتخفيف [لَكِن] ورفع [الناس] ، وقرأت فرقة : [وَلَكِنَّ] بالتشديد ونصب [النَّاس] ، وظلم الناس لأنفسهم إنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأفعالهم . وعرف (لكن) إذا كان قبلها واو أن تثقل ، وإذا عرّيت من الواو أن تخفف ، وقد ينخرم هذا . وقال الكوفيون : قد تدخل اللام في خبر (لكنَّ) المشددة على حدّ دخولها في (إنَّ) ، ومنع ذلك البصريون .

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية وعيد بالحشر وخِزيِهم فيه وتعارفِهِم في التلاوُم بعضهم لبعض . و [يَوْمَ] ظرف ، ونصبه

(١) الاستفهام في الآيتين معناه النفي ، فكأن الكلام : أنت لا تُسْمِع الصم ، وأنْتَ لا تَهْدي العمي .

يصح بفعل مضمر تقدير : واذكر يوم ، ويصح أَن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله : ﴿كَأَنْ لَمْ يلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ﴾[١] ، ويصح نصبه بـ [يتَعَارَفُونَ] ، والكاف من قوله : [كَأَنْ] يصح أَن تكون في معنى الصفة لليوم[٢] ، ويصحُّ أَن تكون في موضع نعت للمصدر كأَنه قال : ويوم نحشرهم حشراً كأَن لم يلبثوا ، ويصح أَن يكون قوله : ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في موضع الحال من الضمير في [نَحْشُرُهُمْ] . وخصص النهار بالذكر لأَن ساعاته وقسمته معروفة بَيِّنة للجميع ، فكأَن هؤلاءِ مُتَحَقِّقُون قلَّة مالبثوا ، إِذ كل أَمد طويل إِذا انقضى فهو واليسير سواءٌ . وأَما قوله [يتَعَارَفُونَ] فيحتمل أَن يكون معادلة لقوله : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ، كأَنه أَخبر أَنهم يوم الحشر يتعارفون ، وهذا التعارف على جهة التلاوم والخزي من بعضهم لبعض ، ويحتمل أَن يكون من موضع الحال من الضمير في [نَحْشُرُهُمْ] ويكون معنى التعارف كالذي قبله ، ويحتمل أَن يكون حالًا من الضمير في [يَلْبَثُوا] ويكون التعارف في الدنيا ، ويجيءُ معنى الآية : ويوم نحشرهم للقيامة فتنقطع المعرفة بينهم والأَسباب ، ويصير تعارفهم في الدنيا

---

(١) قال أبو حيان : « هذا كلام مجمل لم يبين الفعل الذي يتضمنه ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولعلَّه أراد ما قاله الحوفي من أن الكاف في موضع نصب بما تضمنت من معنى الكلام وهو السرعة».

(٢) قيل : « هذا لا يصح لأن ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ معرفة ، والجمل نكرات ، ولا تنعت المعرفة بالنكرة . » وأفضل إعراب لقوله تعالى : [كَأَنْ ...] هو أنها جملة حالية من مفعول [نَحْشُر] ، وهذا ما اتفق عليه كل من الألوسي ، والزمخشري ، وأبو حيان ، وذكره ابن عطية في آخر آرائه .

كساعة من النهار لا قدر لها ، وبنحو هذا المعنى فسّر الطبري[1] ، وقرأ السبعة وجمهور الناس : [نَحْشُرُهُمْ] بالنون ، وقرأ الأعمش فيما روي عنه : [يَحْشُرُهُمْ] بالياء .

وقوله تعالى : ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرها . حكم على المكذبين بالخسارة ، وفي اللفظ إغلاظ على المحشورين من إظهار لما هم عليه من الغرر مع الله تعالى . وهذا على أن الكلام إخبار من الله تبارك وتعالى ، وقيل : إنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية . [إمّا] شرط ، وجوابه [فَإِلَيْنَا] ، والرؤية في قوله : [نُرِيَنَّكَ] رؤية بصر ، وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين : أحدهما [الكاف] ، والآخر [بعض] . والإشارة بقوله : ﴿بَعْضَ ٱلَّذِي﴾ إلى عقوبة الله لهم في بدر وغيرها ، ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى ، أي : إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب ، ثم مع ذلك فالله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم ، ف [ثُمَّ] هاهنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها[2] ، و [إمَّا] هي (إنْ) زيدت عليها (ما) ، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة ، ولو كانت (إن) وحدها لم يجز .

---

(١) قيل : لاتعارف يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ ، وقيل : يبقى تعارف التوبيخ ، وهوالأصح ، والآية السابقة معناها : لا يسأله سؤال شفقة ورحمة ، والدليل على بقاء التعارف للتوبيخ قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ الآية .

(٢) هذا إذا أُريدت الشهادة على حقيقتها ، أما إذا أُريد لازمها وهو ما يترتب عليها من عقاب فإن (ثُمَّ) تكون لترتيب القصص في أنفسها ، قاله في الشوكاني وأبي السعود .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ إخبار مثل قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ﴾[(١)] ، وقال مجاهد ، وغيره : المعنى : فإذا جاءَهُم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّر قوم للجنة وقوم للنار ، فذلك القضاءُ بينهم بالقسط[(٢)] ، وقيل : المعنى : فإذا جاءَ رسولهم في الدنيا وبعث صاروا من حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم ، فذلك قضاءُ بينهم بالقسط . وقرن بعض المتأَولين هذه الآية بقوله سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٣)] ، وذلك يتفق إمَّا بأَن نجعل [مُعَذِّبِينَ] في

---

(١) من الآيتين (٨ ، ٩) من سورة (المُلْك) .

(٢) دليل ذلك قول الله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ .

(٣) من الآية (١٥) من سورة (الإسراء) .

الآخرة ، وإما بأن نجعل القضاءَ بينهم في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ إلى قوله : [يَسْتَقْدِمُونَ] . الضمير في [يقولون] يراد به الكفار ، وسؤالهم عن الوعد تحديد بزعمهم في الحجة ، أي : هذا الذي تُوعِدُنا حدِّدْ لنا فيه وقته لنعلم الصدق في ذلك من الكذب . وقال بعض المفسرين : قولهم هذا على جهة الاستخفاف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يظهر من اللفظة .

ثم أمره تعالى أن يقول لهم : ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ ، المعنى : قل لهم يا محمد ردًّا للحجة : إني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً من دون الله ، ولا أنا إلا في قبضة سلطانه وبضمن الحاجة إلى لطفه ، فإذا كنت هكذا ، فأَحرى أَلا أَعرف غيبه ولا أَتعاطى شيئاً من أَمره ، ولكن لكل أُمة أَجل انفرد الله تبارك وتعالى بعلم حدّه ووقته ، فإذا جاءَ ذلك الأَجل في موت أَو هلاك أُمّة لم يتأَخروا ساعة ولا أَمكنهم التقدم عن حدّ الله عزَّ وجلَّ . وقرأَ ابن سيرين : [آجَالُهُمْ] بالجمع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المعنى : قل : يـأَيُّها الكافرون المستعجلون عذاب الله عزَّ وجلَّ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ ليلا وقت المبيت؟ يقال : بيّت القومُ القومَ إذا طرقوهم ليلا بحربٍ أَو نحوها ، ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ لكم منه مَنَعَة أَو به طاقة ؟ فماذا تستعجلون منه وأَنتم لا قِبَلَ لكم به ؟ و [مَا] ابتداءٌ ، [ذَا] خبره ، ويصح أَن تكون [مَاذَا] بمنزلة اسم واحد في موضع رفع بالابتداء وخبره الجملة التي بعده ، وضعف هذا أَبو علي وقال : إنما يجوز ذلك على تقدير إضمارٍ في [يَسْتَعْجِلُ] وحَذْفه كما قال :

. . . . كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ(١)

(١) هذا جزءٌ من بيت لأبي النجم ، والبيت بتمامه :

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

برفع (كلّ) ، وبها يتم المعنى الصحيح لأنه أراد التَّبَرُّؤَ من جميع الذنب ، ولو نصب (كُلّ) لكان ظاهر قوله أنه صنع بعضه ، وهذا هو حذف الضمير من الخبر ، وهو قبيح ، والتقدير : لم أصنعه ، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (٥٠) من سورة (المائدة) .

و «زيد ضربْت» ، قال : ويصحُّ أَن تكون [مَاذَا] في حال نصب لـ [يَسْتَعْجِلُ] . والضمير في [مِنْهُ] يحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أَن يعود على العذاب .

وقوله تعالى : ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ الآية . عطف بقوله : [ثُمَّ] جملة القول على ما تقدم ، ثم أَدخل على الجميع أَلف التقرير . ومعنى الآية : إِذا وقع العذاب وعاينتموه آمنتم به حينئذ ، وذلك غير نافعكم ، بل جوابكم الآن ، وقد كنتم تستعجلونه مكذبين به . وقرأَ طلحة ابن مصرف : [أَثَمَّ] بفتح الثاء ، وقال الطبري في قوله تعالى [ثُمَّ] بضم الثاء : معناه : هنالك ، وقال : ليست (ثُمَّ) هذه التي تأْتي بمعنى العطف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمعنى صحيح على أَنها (ثُمَّ) المعروفة ، ولكن إِطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا ، وما ادعاه الطبري غير معروف . و [آلْآنَ] أَصله عند بعض النحاة [آنَ] فعل ماض دخلت عليه الأَلف واللام على حدّها في قوله :

. . . . الحِمَارِ الْيُجَدَّعُ (١)

---

(١) وهذا أيضاً جزء من بيت قاله ذو الخِرَق الطُّهَوِيّ ، وقد ذكره صاحب اللسان مع بيت سابق عليه للاستشهاد على معنى (مُجَدَّع) ، قال : «الجَدْع : القطع ، وقيل : هو القطع البائن ... يقال : جَدَعه يَجْدعه جدْعاً فهو جادع ، وحمارٌ مُجَدَّع : مقطوع الأذن ، قال :

أَتَانِي كلامُ التَّغْلَبيّ بن دَيْسَقٍ فَفي أيِّ هـذا ويْلَه يَتَتَـرَّعُ ؟
يقول الخَنَى ، وأبْغَضُ العُجْم نَاطِقاً إلى رَبِّهِ صَـوْتُ الحمارِ اليُجَدَّعُ

أراد : الذي يُجَدَّع فأدخل اللام على الفعل المضارع لمضارعة اللام الذي، كما تقول: هو =

ولم يتعرف بذلك كل التعريف ، ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف ولذلك بُنيت على الفتح لتضمنها معنى الحرف ، ولوقوعها موقع المبهم ، لأَن معناها : « هذا الوقت » ، وقرأَ الأَعمش ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، والجمهور : [آلآن] بالمدّ والاستفهام على حدّ التوبيخ ، وكذلك ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾[1] ، وقرأَها باستفهام بغير مدّ طلحة والأَعرج .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية . هو الوعيد الأَعظم بالخلود لأَهل الظلم الأَخصّ الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية . وقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ توقيف وتوبيخ . ونصت هذه الآية على أَن الجزاءَ في الآخرة هو على تكسّب العبد .

وقوله تعالى : [وَيَسْتَنْبِئُونَكَ] معناه : يستخبرونك ، وهي – على هذا – تتعدى إِلى مفعولين : أَحدهما الكاف ، والآخر في الابتداءِ والخبر . وقيل : هي بمعنى يستعلمونك ، فهي – على هذا – تحتاج إِلى مفاعيل ثلاثة : أَحدها الكاف ، والابتداءُ والخبر سدّ مسَدَّ المفعولين[2] .

= اليَضْرِبُكَ . وهو من أبيات الكتاب » . يريد: كتاب سيبويه . واليُجَدَّع : فعل مضارع مبني للمجهول . وقد قال أبو بكر بن السَّرَّاج : لما احتاج إلى رفع القافية قلب الاسم فعلا ، وهو من أقبح ضرورات الشعر ، وأنكر ابن برّي أن يكون هذا البيت من أبيات الكتاب كما ذكر الجوهري وقال : وإنما هو في نوادر أبي زيد .

(١) من الآية (٩١) من هذه السورة (يونس) .

(٢) الأصل أن (استنبأ) يتعدى إلى مفعولين أحدهما بِعَنْ تقول : استنبأتُ زيداً عن عمرو ، والظاهر أنها معلّقة عن المفعول الثاني ، ولا يلزم من كونها بمعنى (يستعلمونك) أنها تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل لأن (استعلم) لا يتعدى هو إلى ثلاثة مفاعيل فأولى بذلك ما كان بمعناه .

و ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل : الإشارة إلى الشرع والقرآن ، وقيل : إلى الوعيد ، وهو الأظهر ، وقرأ الأعمش : ﴿آلْحَقُّ هُوَ﴾ بِمَدَّةٍ وبلام التعريف[1]. وقوله : [إِي] هي لفظة تتقدم القَسَم ، وهو بمعنى (نعم) ، ويجيءُ بعدها حرف القَسَم وقد لا يجيءُ ، تقول : إِي وربي ، وإِي ربّي ، و [مُعْجِزِينَ] معناه : مُفْلتين ، وهذا الفعل أَصله تعدية (عجز) لكن كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب : « أَعْجَزَ فلان » إذا ذهب في الأَرض فلم يُقدر عليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذا إِخبارٌ للكفار في سياق إِخبارهم بأَن ذلك الوعد حق . و [أَسَرُّوا] لفظة تجيءُ بمعنى : أَخْفَوْا ، وهي حينئذ من السّر ، وتجيءُ بمعنى :

---

(١) قال أبو الفتح تعليقاً على هذه القراءة : « إن الأجناس تتساوى فائدتها معرفتها ونكرتها في نحو هذا ، تقول : ثِقْ بأمانٍ من الله ، وثق بالأمان من الله ، وهذا حق ، وهذا الحق ، وهذا صدق ، وهذا الصدق ، ومنه قولهم : خرجت فإذا بالباب أسد ، وإذا بالباب الأسد ، المعنى واحد ووَضْع اللفظ مختلف ، وسبب ذلك كون الموضع جنساً » . (المحتسب ٢-٣١٣) .

أَظهروا ، وهي حينئذ من أَسارير الوجه [١] . قال الطبري : المعنى : وأَخفى رؤَساءُ هؤلاءِ الكفار الندامة عن سفلتهم ووضعائهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

بل هو عام في جميعهم .

و [أَلَا] استفتاح وتنبيه ، ثم أَوجب أَن جميع ما في السموات والأَرض مِلك لله تبارك وتعالى ، قال الطبري : يقول : فليس لهذا الكافر يومئذ شيءٌ يقتدي به .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وربط الآيتين هكذا يتجه على بعد ، وليس هذا من فصيح المقاصد . وقوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيّد بالأَكثر لأَن بعض الناس يؤمن فهم يعلمون حقيقة وعد الله تعالى ، وأَكثرهم لا يعلمون فهم لأَجل ذلك يكذبون .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ يُحْيِي﴾ يريد : يُحْيِي من النطفة ، ﴿وَيُمِيتُ﴾ بالأَجل ، ثم يجعل المرجع إِليه بالحشر يوم القيامة . وفي قوة هذه

---

(١) من شواهد مجيئها بمعنى أظهروا قولُ كُثَيِّر :

فَأَسْرَرْتُ النَّدَامَةَ يوْم نَادَى بِرَدِّ جِمال غَاضِرةَ المُنَادي

أي : أظهرت الندامة . ويقوّي معنى الإظهار في الآية أن يوم القيامة ليس بيوم تصبر ولا تجلّد ، ولا يقدر فيه الكافر على كتمان ما ناله ، ولأنه عند رؤيَة العذاب يوم القيامة يتحسَّر الإنسان على ارتكاب ما سببه له وأوجبه عليه ، ويظهر الندامة على ما فاته من الفوز والخلاص من العذاب ، ولهذا يقولون : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ .

الآيات ما يستدعي الإيمان وإجابة دعوة الله عزَّ وجلَّ ، وقرأ [تُرْجَعُونَ] بالتاءِ من فوق الأعرج ، وأبو عمرو ، وعاصم ، ونافع ، والناس . وقرأ عيسى بن عمر [يُرْجعُونَ] بالياءِ من تحت . واختلف عن الحسن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

هذه آية خوطب بها جميع العالم ، والموعظة : القرآن لأَن الوعظ إنما هو بقولٍ يأْمر بالمعروف ويزجُر ويرقِّق ويُوعد ويَعد ، وهذه صفة الكتاب العزيز ، وقوله : ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد : لم يختلقها محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره ، بل هي من عند الله عزَّ وجلَّ ، و ﴿مَافِي ٱلصُّدُورِ﴾ يريد به الجهل والعُتُوّ عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى ونحو هذا مما يدافع الإيمان . وجعَلَه موعظة بحسب الناس جميعاً ، وجعله هُدًى ورحمة بحسب المؤمنين فقط ، وهذا تفسير صحيح المعنى إذا تُؤُمّل بان وجهه .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الباءُ متعلقة بمحذوف استغني عن ذكره يدل عليه قوله : ﴿وَهُدًى وَرَحْمَة﴾ . قال بعض المتأَولين

وهو هلال بن يِساف(١) ، وقتادة ، والحسن ، وابن عباس رضي الله عنهما : الفضل : الإسلام ، والرحمة : القرآن ، وقال أَبو سعيد الخدري : الفضل : القرآن ، والرحمة : أَن جعلهم من أَهله ، وقال زيد بن أَسلم ، والضحاك : الفضل : القرآن ، والرحمة : الإِسلام ، وقالت فرقة : الفضل : محمد صلى الله عليه وسلم ، والرحمة : القرآن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا وجه عندي لشيءٍ من هذا التخصيص إلا أَن يستند منه شيءٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه أَن الفضل هو هداية الله تعالى إلى دينه ، والتوفيق إلى اتباع شريعته ، والرحمة هي عفوه وسُكنى جنته التي جعلها جزاءً على التَّشرع بالإِسلام والإِيمان به . ومعنى الآية : قل يا محمد لجميع الناس : بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم ، لا بأُمور الدنيا وما يجمع من حطامها ، فالمؤمنون يقال لهم : فَلْتَفْرَحُوا ، وهم مُتَلَبِّسُونَ بعلة الفرح وسببه ، ومُحَصِّلون لفضل الله منتظرون الرحمة . والكافرون يقال لهم : بفضل الله وبرحمته فلْتَفرحوا ، على معنى أَن لو اتفق لكم ، أَو لو سعدتم بالهداية إلى تحصيل ذلك .

وقرأَ أُبيّ بن كعب ، وابن القعقاع ، وابن عامر ، والحسن ـ على ما زعم هارون ـ ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : [فَلْتَفْرَحُوا] . و [تَجْمَعُونَ] بالتاءِ فيهما على المخاطبة ، وهي قراءَة جماعة من السلف

(١) ضبطه محقق « المحتسَب » لابن جني بالفتح ، وذكر في الهامش نقلا عن القاموس أنه بالكسر وقد يفتح .

كبيرة ، وعن أكثرهم خلاف . وقرأ السبعة سوى ابن عامر [١] ، وأَهلُ المدينة ، والأَعرج ، ومجاهد ، وابن أَبي إِسحق ، وقتادة ، وطلحة ، والأَعمش بالياءِ فيهما على ذكر الغائب ، ورويت عن الحسن بالتاءِ من فوق فيهما . وقرأَ أَبو التياح ، وأَبو جعفر ، وقتادة — بخلاف عنهم — وابن عامر بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وجماعة من السلف ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة ، ورويت عن أَبي التياح . وإذا تأَملت وجوه ذلك بانت على مَهْيَع الفصيح من كلام العرب ، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ ، وفي مصحف أُبي بن كعب : «فبذلك فافرحوا» ، وأَما من قرأَ : [فَلْتَفْرَحُوا] فأَدخل اللام في أَمر المخاطب فذلك على لغة قليلة ، حكى ذلك أَبو علي في الحجة ، وقال أَبو حاتم وغيره : الأَصل في كل أَمر إِدخال اللام إِذا كان النهي بحرف ، فكذلك الأَمر إِذا كان أَمراً لغائب بلام [٢] ، قال أَبو الفتح :

---

(١) ذكر ابن عطية أن ابن عامر في الجماعة الأولى التي قرأت بالتاء ، وأكّدَ ذلك بقوله : « وقرأ السبعة سوى ابن عامر بالياء » ، ثم عاد فنقل أن ابن عامر قرأ في الأولى وهي [فَلْتَفْرَحوا] بالياء ، وفي الثانية وهي [تَجْمعون] بالتاء ، ولو تأملت الأسماء في كل جماعة لوجدت تكراراً أو ما يشبه التناقض ، لكن يتضح لك الموقف حين تقرأ قوله : « وإذا تأملت وجوه ذلك بانت — أي ظهرت كلها — على مهْيَع الفصيح من كلام العرب ، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ » . ولهذا فلا داعي لتعليق أبي حيان على ما نسبه ابن عطية لابن عامر من القراءة بالتاء وتأكيده أنه قرأ بالياء ، فقد عاد ابن عطية وذكر ذلك .

(٢) معنى هذا أن أصل الأمر أن يكون بحرف الأمر وهو اللام ، فأصل اضرب : لِتَضْرب ، وأصل قم : لتقم ، ولكن لما كثر أمر الحاضر حذفوا حرف المضارعة تخفيفاً ودلّ المقام عليه ، فلما حذف حرف المضارعة بقي ما بعده في الأغلب ساكناً فاحتيج إلى همزة الوصل ليقع الابتداء به فقيل : اضرب ، اكتب ، اذهب... الخ . ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب .(٢–٣١٣) .

إلا أَن العرب رفضت إِدخال اللام في أَمر المخاطب لكثرة ترداده[١].

وقرأَ أَبو التياح ، والحسن بكسر اللام من [فَلِتَفْرَحُوا] ، فإِن قيل : كيف أَمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذمُّه في قوله : ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٢] ، وفي قوله : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَايُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[٣] ، قيل : إِنّ الفرح إِذا ورد مقيّداً في خير فليس بمذموم ، وكذلك هو في هذه الآية ، وإِذا ورد مقيداً في شرّ أَو مطلقاً لحقه ذمٌّ إِذ ليس من أَفعال الآخرة ، بل ينبغي أَن يغلب على الإِنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربّه . وقوله : ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يريد : من مال الدنيا وحطامها الفاني المؤذي في الآخرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) كان أمر الحاضر أكثر لأن الغائب بعيد عنك ، فإذا أردت أن تأمره احتجت إلى أن تأمر المخاطب ليؤدي كلامك إلى الغائب ، فتقول : يا محمد قل لعلي اقرأ ، أما الحاضر فلا يحتاج إلى ذلك لأن خطابك إياه مباشرة أغنى عن تكليف غيره أن يحمل إليه كلامك . (عن أبي الفتح في المحتسب ، (٢-٣١٣) .

(٢) من الآية (١٠) من سورة (هود) .

(٣) من الآية (٧٦) من سورة (القصص) .

هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب والنصيب من الحرث والأَنعام وغير ذلك مما لم يـأْذن الله به ، وإنما اختلقوه بـأَمرهم .

وقوله تعالى : [أَنْزَلَ] لفظة فيها تجوّز ، وإنزال الرزق إما أَن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل أَو نزول الأَمر به الذي هو ظهور الأَثر في المخلوق منه المخترع ، ثم أَمر الله نبيّه بتوقيفهم على أَحد القسمين ، وهم لا يمكنهم ادعاءُ إذن الله في ذلك ، فلم يبق إلا أَنهم افتروْه ، وهذه الآية نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[1] ، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ آية وعيد . لمَّا تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها أَنهم مفترون على الله عظَّم في هذه الآية جرم الافتراءِ ، أَي : ظنُّهم في غاية الرداءَة بحسب سوءِ أَفعالهم ، ثم ثنَّى بإِيجاب الفضل على الناس في الإِمهال لهم مع الافتراءِ والعصيان ، والإِمهال داعية إلى التوبة والإِنابة . ثم استدرك ذكر من لا يرى حق الإِمهال ولا يشكره ولا يبادر فيه على جهة الذمّ لهم ، والآية بعد هذا تعُمُّ جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره لا ربَّ غيره .

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

قصد الآية وصف إحاطة الله بكل شيءٍ ، ومعنى اللفظ : وما تكون يا محمد ـ والمراد هو وغيره ـ في شأْن من جميع الشؤون ، ﴿وَما تَتْلُو مِنْهُ﴾ الضمير عائد على [شَأْنٍ] أي فيه وبسببه من قرآن ، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن ، ثم عمَّ بقوله : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ ، وفي قوله : ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ تحذير وتنبيه . و [تُفِيضُونَ] : تأْخذون وتنْهضُونَ بجدّ ، يقال : أَفاض الرجل في سيره وفي حديثه ، ومنه الإِفاضة في الحج ، ومفيض القِداح(١) ، ويحتمل أن (فاض) عُدّي بالهمزة .

---

(١) القِداح : جمع قَدَح . يقال : أفاض الرجل بالقداح إفاضة : ضرب بها ، لأنها تقع منبثة متفرقة ، ويجوز أفاض على القِداح ، قال أبو ذؤيب الهذلي يصف حماراً وأُتُنه :

وكَأَنَّهُنَّ رِبَابَةٌ وكَأَنَّـــهُ يَسَرٌ يُفِيضُ عَلَى القِداح ويَصْدَعُ

يعني : يفيض بالقداح .

و [يَعْزُبُ] معناه : يغيب حتى يخفى ، حتى قالوا للبعيد : عازب ، ومنه قول الشاعر :

عوازبُ لم تسمَعْ نُبُوحَ مُقَامَةٍ ولمْ تَرَ نَاراً تِمَّ حَوْلٍ مُجَرَّمِ (١)

وقيل للغائب عن أهله : عازب ، حتى قالوه لمن لا زوجة له ، وفي السير أَن بيت سعد بن خيثمة كان يقال له : بيت العزاب . وقرأَ جمهور السبعة ، والناس : [يَعْزُب] بضم الزاي ، وقرأَ الكسائي وحده منهم : [يَعْزِب] بكسرها ، وهي قراءَة ابن وثاب ، والأَعمش ، وطلحة بن مصرف . قال أَبو حاتم : القراءَة بالضم والكسرُ لغة . والْمِثْقَالُ : الوزن ، وهو اسم لا صفة كمعطار ومضراب . والذَّرّ : صغار النمل ، جعلها الله مثالا إذ لا يُعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أَصغر منه . وقرأَ جمهور الناس ، وأَكثر السبعة : ﴿وَلَا أَصْغَرَ﴾ ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ بفتح الراءِ عطفاً على [ذَرَّةٍ] في موضع خفض لكن منع من ظهوره امتناع الصرف . وقرأَ حمزة وحده : ﴿وَلَا أَصْغَرُ﴾ ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ عطفا على موضع قوله : [مِثْقَال] لأَن التقدير : وما يعزب عن ربّك مثقالُ ذرّة . والكتاب المبين : اللَّوح المحفوظ ، كذا قال بعض المفسرين ، ويحتمل أَن يريد تحصيل الكتبة ، ويكون القصد ذكر الأَعمال المذكورة قبلُ ، وتقديم الأَصغر في الترتيب جرْيٌ على قولهم : القمريْن والعمريْن ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا يُغَادِرُ

(١) البيت لطُفَيْل ، قال ذلك في أساس البلاغة ، والعوازبُ : البعيدة ، والنُّبُوح : ضجّةُ الحيّ وأصواتُ كلابهم ، وتِمُّ الشيءِ بكسر التاءِ : تمامه وكماله ، والحول المُجرَّمُ : الذي كمل وانقضى ، يقول : إنها لبعدها الشديد لم تعرف شيئاً عن ضجيج الحياة ونباح الكلاب في الحيّ ولم تر ناراً ولا علامة من علامات الحياة المألوفة مدة عام كامل .

صغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[١] ، والقصد بذلك كله تنبيه الأَقل ، وأَن الحكم المقصود إذا وقع على الأَقل فأَحرى أَن يقع على الأَعظم .

و [أَلَا] استفتاح وتنبيه ، وأَولياءُ الله هم المؤمنون الذين والُوه بالطاعة والعبادة ، وهذه الآية يعطي ظاهرها أَن من آمن واتقى فهو داخل في أَولياءِ الله ، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الوليّ ، وإنما نبّهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الوليّ[٢] ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه سُئِل : من أَولياءُ الله ؟ فقال : (الذين إذا رأَيتهم ذكرت الله)[٣] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا وصف لازم للمتقين لأَنهم يخشعون ويخشعون ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَيضاً أَنه قال : (أَوْلياءُ الله قوم تحابُّوا في الله واجتمعوا في ذاته ، لم تجمعهم قرابة ولا مالٌ يتعاطونه)[٤] .

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الكهف) .

(٢) يشير بذلك إلى ما يرويه بعض الناس من أن الوليّ أفضل من النبي ، وهناك عبارات نقلت عن بعض المتصوفين تحمل مثل هذه المعاني .

(٣) أخرجه ابن المبارك ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه : (قيل : يا رسول الله من أولياءُ الله ؟ قال : الذين إذا رُؤوا ذُكر الله) ، وروى ابن الشيخ مثله عن سهل بن الأسد . وتعددت رواياته من طرق عدة في صيغ قريب بعضها من بعض .

(٤) أخرج ابن أبي شيبة عن العلاء بن زياد رضي الله عنه عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : (عباد من عباد الله ليسوا بأنبياء ولا شهداءَ ، يغبطهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة بقربهم من الله على منابر من نور ، يقول الأنبياءُ والشهداءُ : من هؤلاءِ ؟ فيقول : هؤلاءِ كانوا يتحابون في الله على غير أموال يتعاطونها ولا أرحام كانت بينهم)

وقوله : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يحتمل أن يكون في الآخرة ، أَي : لا يهتمون بهمّها ، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك . ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا ، أَي : لا يخافون أحداً من أَهل الدنيا ولا من أَعراضها ، ولا يحزنون على مافاتهم منها ، والأَول أَظهر ، والعموم في ذلك صحيح ، لا يخافون في الآخرة جملة ، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي الذي هو في فوت آمالها ، وزوال منازلها ، وكذلك في الحزن ، وذكر الطبري عن جماعة من العلماءِ مثل ما في الحديث في الأَولياءِ الذين إذا رآهم أَحدٌ ذكر الله ، وروي فيهم حديث : (إن أَولياءَ الله هم قوم يتحابون في الله ، وتجعل لهم يوم القيامة منابر من نور ، وتنير وجوههم ، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون)(١) . وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن من عباد الله عباداً ما هم بأَنبياءَ ولا شُهداءَ ، يغبطهم الأَنبياءُ والشهداءُ بمكانهم من الله ، قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : قومٌ تحابوا بروح الله على غير أَرحام ولا أَموال) الحديث ، ثم قرأَ : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يصح أَن يكون في موضع نصب على البدل من (الأَولياءِ) ، ويصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ على تقدير : «هم الذين» ، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه

---

(١) الحديث مروي من عدة طرق مع اختلاف في بعض الألفاظ باختلاف الرواة .

(٢) رواه بن جرير عن أبي زرعة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأخرجه أبو داود ، وهناد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر رضي الله عنه . (تفسير ابن جرير ، والدر المنثور) .

(إِنَّ) إذا جاءَ بعد خبرها ، ويصح أَن يكون [ٱلَّذِينَ] ابتداءً وخبره في قوله : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ ، وقوله : ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أَما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولًا واحداً ، وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللهِ فَضْلًا كَبِيراً﴾ [(١)] ، وأَما بشرى الدنيا فتظاهرت الأَحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنها الرؤْيا الصالحة يراها المؤمن أَو تُرَى له . ورَوَى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَبو الدرداءِ ، وعمران بن حُصَين ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهم جميعاً - ، وغيرهم على أَنه سُئل عن ذلك ففسّره بالرُؤْيا [(٢)] ، وعن النبي صلى الله عليه

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب) .

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي ، وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال: سألتُ أبا الدرداء رضي الله عنه عن قول الله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى =

وسلم في صحيح مسلم أنه قال: (لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة)(١)، وروت عنه أم كند الكعبية أنه قال: (ذهبت النبوة وبقيت المبشرات)(٢)، قال قتادة، والضحاك: البشرى في الدنيا هي ما يُبَشر به المؤمن عند موته وهو حيٌّ عند المعاينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن تكون بشرى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشرات، ويَقْوَى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾ وإن كان ذلك كله يعارضه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (هي الرُّؤْيا) إلا إن قلنا: إن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى مثالًا من البشرى، وهي تعم جميع الناس. وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾ يريد: لا خلف لمواعيده ولا ردّ في أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد أخذ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما على نحو غير هذا، وجعل التبديل المنفي في الألفاظ، وذلك أنه رُوي أن الحجاج بن يوسف

= في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: (ما سألني عنها أحد منذ أُنزلت، هي الرُّؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، فهي بشراه في الحياة الدنيا، وبشراه في الآخرة الجنة). الدر المنثور.

(١) أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كشف النبي صلى الله عليه وسلم الستارة في مرضه الذي مات فيه والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنه فقال: (إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له)، المرجع السابق.

(٢) أخرجه ابن ماجه، وابن جرير. (المرجع السابق).

خطب فأطال خطبته حتى قال : إن عبد الله بن الزبير قد بدّل كتاب الله ، فقال له عبد الله بن عمر : إنك لا تطيق ذلك أنت ولا ابن الزبير ، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ﴾ ، فقال له الحجاج : لقد أُعطيت علماً ، فلما انصرف إليه في خاصته سكت عنه ، وقد رُوي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقاولة الحجاج ، ذكره البخاري . وقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ الآية . هذه آية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ولا يحزنك يا محمد ويهمك قولهم ، أي قول كفارقريش،ولفظة «القول» تعم جحودهم واستهزاءهم وخداعهم وغيرذلك.

ثم ابتدأ بوجوب أن العزة لله جميعاً ، أي : فهم لا يقدرون لك على شيءٍ ولا يؤذونك إلا بما شاءَ الله ، وهو القادر على عقابهم ، لا يُعَازُّه شيءٌ ، ففي الآية وعيد لهم . وكسر [إنَّ] في الابتداءِ ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها . وقال ابن قتيبة : لا يجوز فتح إن في هذا الموضوع وهو كفر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله : «وهو كفر» غُلُوّ . وكأَن ذلك خرج على تقدير : لأَجل أَن العزة لله [1] . وقوله : ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أَي لجميع ما يقولونه ، [ٱلْعَلِيم] بما في نفوسهم من ذلك ، وفي ضمن هذه الصفات تهديد .

(١) معنى هذا أن قوله تعالى : ﴿إنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ تعليل ، أي : لا يقع منك حزن لما يقولون لأجلأن العزَّة لله ، ولكن هذا المعنى لا يتضح إلا في قراءة فتح (إنَّ) ، أما إذا كسرت الهمزة فالواضح الاستئناف . والذي قرأ بالفتح هو أبو حيوة .

ثم استفتح بقوله : ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَي بالمِلك والإِحاطة ، وغلب من يعقل في قوله : [مَنْ] إذْ لَهُ ملك الجميع ما فيها ومن فيها ، وإذا جاءَت العبارة بِمَا فذلك تغليب للكثرة ، إذ الأَكثر عدداً من المخلوقات لا يعقل ، فـ (مِنْ) تقع للصنفين بمجموعهما ، و (ما) كذلك ، ولا تقع لما يعقل إذا تجرد من الصفات والأَحوال ، أَلا ترى لو ذكرتُ لك قولة في مسأَلة فأَردت أَن تسأَل عن قائلها ، أَيجوز في كلام العرب أَن تقول : «ما قائل هذا القول» ؟ هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب . وقوله : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ . يصح أَن يكون [مَا] استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب ، ويعمل [يَدْعُونَ] في قوله : [شُرَكَاءَ] . ويصح أَن تكون نافية ويعمل [يَتَّبِع] في [شُرَكَاءَ] على معنى أَنهم لا يتبعون شركاءَ حقاً ، ويكون مفعول [يدْعُون] محذوفاً ، وفي هذا الوجه عندي تكلف[(١)] . وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلمي : [تَدْعُونَ] بالتاءِ ، وهي قراءَة غير متجهة[(٢)] ، وقوله :

---

(١) يظهر من كلام أبي حيان أنه لا تكلف ، لأن التقدير : إن الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاءَ حقيقة ، إذ الشركة في الألوهية مستحيلة . ولو لم نقدر (حقيقة) أو (حقاً) لدلّ التعبير على نفي اتباعهم الشركاءَ مع أنهم اتبعوهم فعلا .

(٢) قراءة التاء هي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيضاً كما قال الزمخشري ، قال : ووجه هذه القراءة أن يحمل ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ على الاستفهام ، أي : وأيّ شيءٍ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيِّين ؟ إنهم يتبعون الله تعالى ويطيعونه ، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم ؟ كقوله : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ .

وفي إعراب [مَا] أجاز الزمخشري أن تكون موصولة عطفاً على (مَنْ) والعائد محذوف ، أي : والذي يتّبعه الذين يدعون من دون الله شركاءَ . وأجاز غيره أن تكون (ما) موصولة في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف ، والتقدير : والذي يتّبعه المشركون باطل .

[إِنْ] نافية ، و [يَخْرُصُونَ] معناه : يحسدون ويخمنون ، لا يقولون بقياس ولا نظر . وقرأت فرقة : ﴿وَلَا يُحْزِنْكَ﴾ من أحزن ، وقرأت فرقة : ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ من حزن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لما نصّ على عظمة الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة عقَّب ذلك في هذه بالتنبيه على أفعاله لتبيّن العظمة المحكوم بها قبلُ . وقوله : [لِتَسْكُنُوا] دال على أن النهار للحركة والتصرف ، وكذلك هو في الوجود ، وذلك أن حركة الليل متعذرة بفقد الضوء . وقوله : ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ مجازٌ ، لأن النهار لا يُبصر ، ولكنه ظرف للإبصار ، وهذا موجـود في كلام العرب ، إذ المقصود من ذلك مفهـوم ، فمن ذلك

قول ذي الرمّة :

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونِمْتِ وما لَيْلُ المَطِـيِّ بِنَائِمِ (١)

وليس هذا من باب النسب كعيشة راضية ونحوها ، وإنما ذلك مثل قول الشاعر :

أَمَّا النَّهَارُ فَفي قَيْدٍ وسِلْسِلَـــــةٍ واللَّيْلُ في بَطْنِ مَنحوتٍ من السَّاج (٢)

فجعل الليل والنهار بهاتين الحالتين ، وليس يريد إلَّا أَنه هو فيهما كذلك ، وهذا البيت لمسجون كان يبيت في خشبة السجن ، وعلى أَن هذا البيت قد ينشد : «أَما النهارَ» بالنصب ، وفي هذه الأَلفاظ إيجاز وإحاطة على ذهن السامع لأَن العبرة هي في أَن الليل مظلم يُسكن فيه ، والنهار مبصر يُتصرف فيه . فذُكر طرف من هذا والطرف الآخر من الجهة الثانية ، ودلَّ المذكوران على المتروكين ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ (٣).

---

(١) البيت لجرير لا لذي الرمّة ، وهو البيت رقم (٦) من قصيدة له يجيب بها الفرزدق ، ومطلعها :

لا خَيْرَ في مُسْتَعْجَلات المَلاوِمِ ولا في خليلٍ وصْلُهُ غَيْرُ دائِم

وأُم غَيْلان : ابنة جرير ، والسُّرى : السَّيْر بالليل ،وقد أسند النوم إلى الليل على سبيل المجاز العقلي وأراد أنه هو نفسه لا ينام ، والإسناد إلى ظرف زمان هو الليل ، والنوم يقع فيه .

(٢) السّاج : خشب أسود لا تكاد الأرض تبليه يُجْلَب من الهند ، وواحدته : ساجة ، وقد جعل الشاعر النهار مقيداً بالسلاسل ، والليل محبوساً في بيت من الخشب الأسود المتين ، وهو يريد أن يصف نفسه بذلك ، ولم نقف على قائله فيما لدينا من المراجع .

(٣) من الآية (١٧١) من سورة (البقرة) .

وقوله : [يسْمَعُونَ] يريد : ويَعُون . والضمير في [قَالُوا] للكفار العرب ، وذلك قول طائفة منهم : «الملائكة بنات الله» ، والآية بعدُ تعُمّ كل من قال نحو هذا القول كالنصارى ومن يمكن أن يعتقد ذلك من الكفرة . و [سُبْحَانَهُ] مصدر معناه : تنزيهاً له وبراءَة من ذلك ، فسّره بهذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿هُوَ ٱلْغَنِـيُّ﴾ صفة على الإطلاق ، أي : لا يفتقر إلى شيءٍ بجهة من الجهات ، والولد جزءٌ مما هو غني عنه ، والحق هو قول الله تبارك وتعالى : ﴿أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ﴾(١) ، وقوله : ﴿مَافي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾ بالمِلْك والإحاطة والخلق ، و [إِنْ] نافية ، والسلطان : الحجة ، وكذلك معناه حيث تكرر من القرآن(٢) ، ثم وقفهم موبّخاً بقوله : ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ﴾ الآية . هذا توعد لهم بأنهم لا يظفرون ببغية ولا يبقون في نعمة ، إذ هذه حال من يصير إلى العذاب وإن نُعّم في دنياه يسيرا ، وقوله : [مَتَاعٌ] مرفوع على خبر ابتداءٍ ، أي : ذلك متاع ، أَو هو متاع ، أَو على الابتداءِ بتقدير : لهم متاع . وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُم﴾ إلى آخر الآية توعّد بحق .

---

(١) من الآية (١٥) من سورة (فاطر) .

(٢) [بِهـٰذَا] من قوله سبحانه : ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ من سُلْطَانٍ بِهـٰذَا﴾ متعلق بمعنى الاستقرار وهو الذي تعلق به الظرف ، قال ذلك الحوفي ، وتبعه الزمخشري فقال : «الباءُ حقها أن تتعلق بقوله : ﴿إِنْ عِندَكُمْ﴾ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان ، والتقدير : إن عندكم فيما تقولون سلطان» . وقال أبو البقاء : «[بِهـٰذَا] متعلق بـ [سُلْطَانٍ] أو نعتٌ له» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾

تقدم في (الأَعراف) الكلام على لفظة نوح ، والمَقَام : وقوف الرجل لكلام أَو لخطبة أَو نحوه ، والمُقَام بضم الميم : إِقامته ساكناً في موضع أَو بلد ، ولم يُقرأ هنا بضم الميم[(١)] ، وتذكيرُه : وعظه وزجْرُهُ ، والمعنى : يا قوم ، إِن كنتم تستضعفون حالي ودعائي لكم إِلى الله فإِني لا أُبالي عنكم[(٢)] لتوكلي على الله تعالى ، فافعلوا ما قدرتم عليه .

وقرأَ السبعة ، وجمهور الناس : الحسن ، وابن أَبي إِسحق ، وعيسى : [فَأَجْمِعُوا] من أَجمع الرجل على الشيءِ إِذا عزم عليه ، ومنه قول الشاعر :

. . . . هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْماً وأَمْري مُجْمَعُ ؟[(٣)]

---

(١) قال أبو حيّان : «وليس كما ذكر ، بل قرأ [مُقَامِي] بضم الميم أبو مجلز ، وأبو رجاءٍ ، وأبو الجوزاءِ » .

(٢) تتعدى (بالَى) بنفسها أو بالباء فيقال : ما أباليه ، وما أبالي بالأمر ، ولم يسمع أنها تتعدى بعن .

(٣) هذا عجز بيت أورده صاحب « اللسان » في (جَمَعَ) ، وهو من شواهد الفراء في « معاني القرآن » ، وذكره القرطبي وأبو حيان في « البحر المحيط »، وهو كذلك في « الصحاح » =

ومنه قول الآخر :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّـــا أَصبَحوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ[١]

ومنه الحديث : (ما لم يُجْمِـعْ مُكْثاً)[٢] ، ومنه قول أَبي ذُوَيب :

ذَكَرَ الْوُرُودَ بها فَأَجْمَعَ أَمْـــرَهُ شَـــوْقاً وأَقْبَلَ حيْنُهُ يَتَتَبَّـعُ[٣]

وقرأَ نافع – فيما روى عنه الأَصمعي – وهي قراءَة الأَعرج ، وأَبن أَبي رجاءٍ ، وعاصم الجحدري ، والزهري ، والأَعمش : [فَاجْمَعُوا] بفتح الميم من جَمَع إذا ضمَّ شيئاً إلى شيءٍ . و [أَمْرَكُمْ] يريد به : قدرَتكم وحياتكم ، ويؤيد هذه القراءَة قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾[٤] ، وكل هؤلاءِ نصب (الشركاءَ) ، ونَصْب قوله : [شُرَكَاءَكُمْ] يحتمل أَن يعطف على قوله : [أَمْرَكُمْ] ، وهذا على قراءَة

= و « التاج » ، والبيت بتمامه :

يا ليْتَ شِعْرِي والمُنَى لا تَنْفَعُ هلْ أغْدُونْ يوْماً وأمْرِي مُجْمَعُ ؟

قال في « اللسان » : « وجمع أمره ، وأجْمعه ، وأجمع عليه : عزم عليه كأنه جمع نفسه له ، والأمر مُجْمَع ، ويقال أيضاً : أجْمِـعْ أمْرَك ولا تَدَعْه مُنْتَشِراً » .

(١) هذا البيت من شواهد النحويين ، ولم يذكره من المفسرين غير ابن عطية والبحر المحيط ، وأجمعوا أمرهم : عزموا عليه واتفقوا ، والشاعر في البيت يصور اتفاقهم على أمرهم بالليل ، فلما جاء الصباح كان لهم ضجيج وضوضاءُ ، هذا ينادي ، وذاك يجيب ، وبين الإجابة والنداء يرتفع الرغاءُ والثغاءُ .

(٢) هذا جزءٌ من حديث عن صلاة المسافر رواه في الموطأ ، ولفظه : (أُصلّي صلاة المسافر ما لم أجْمع مُكْثاً) ، أي أعْزم إقامة . هكذا في « النهاية » ، وفي « الموطأ » ، وراجع أيضاً « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي – مكث » .

(٣) وَرَدَ المكان : أشرف عليه سواءٌ دخل أو لم يدخل ، والمعنى هنا : « تذكر الوصول إلى غايته » ، وأجمع أمره : عزم وصمم من شدة شوقه ، والحيْنُ : الهلاك . يصور شوقه ورغبته في ورود الماء وسعيه إليه ومن ورائه الهلاك .

(٤) من الآية (٦٠) من سورة (طه) .

[فَاجْمَعُوا] بالوصل(١) ، وأما من قرأ : [فَأَجْمِعُوا] بقطع الألف فنصب «الشركاءَ» بفعل مضمر كأنه قال : «وادعوا شركاءَكم» ، فهو من باب قول الشاعر :

* شرَّابُ أَلْبَانٍ وتَمْرٍ وأَقِط * (٢)

ومن قول الآخر :

ورأَيْتُ زوْجَكِ في الْوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحا (٣)

ومن قول الآخر :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارداً حتَّى شَتَتْ همَّالَةً عيناها (٤)

وفي مصحف أُبي بن كعب : «فأَجمعوا أَمركم وادعوا شركاءَكم» ، قال أَبو علي : وقد ينتصبُ «الشركاءُ» بواو مَعْ ، كما قالوا : «جاءَ

---

(١) ويحتمل أن يكون منصوباً على أنه مفعول معه ، أو على حذف مضاف ، أي : ذوي الأمر منكم ، فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف لو ثبت . قاله أبو حيان في البحر نقلا عن أبي علي الفارسي ، وقد نقل المؤلف احتمال النصب على المعية عن الفارسي .

(٢) لأن التمر لا يشرب وكذلك الأقِط فلابد من فعل محذوف تقديره : «وأكّال» ، لأن في المذكور من الكلام دليل على المحذوف . والأقِط : لبن محمّض يجمّد حتى يستحجر ويطبخ ، أو يطبخ به .

(٣) والرمح لا يُتَقَلّد بل يحمل ، ولهذا يقدر الناصب : «وحاملا» ، وقائل البيت هو عبد الله بن الزبعري كما في الكامل للمبرد ، ويروى : «ياليت زوجك قد غدا» . هذا وقد سبق الاستشهاد به في الجزء الأول ص ١٥٧ .

(٤) والماءُ لا يعلف ، ولهذا يقدر الناصب : «وَسَقَيْتُهَا» ، ويروى : (بدت) و (غدت) بدلا من (شتت) والمعنى واحد ، والبيت في ابن عقيل والعيني . وقد روي البيت بلفظ آخر سبق أن ذكرناه في الجزء الأول ص ١٥٧ وهو :

لما حطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وارداً عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارداً

والبيت مجهول القائل ، وقيل : إنه لذي الرمّة .

البريد والطيالسة » . وقرأ أبو عبد الرحمن ، والحسن ، وابن أبي إسحق ، وعيسى ، وسلام ، ويعقوب ، وأبو عمرو فيما رُوي عنه : [وشُرَكَاؤُكُم] بالرفع عطفاً على الضمير في : [أَجْمِعُوا] ، وعطف على الضمير قبل تأكيده لأن الكاف والميم في [أَمْرَكُم] ناب مناب « أنتم » المؤكد للضمير ، ولطول الكلام أيضاً ، وهذه العبارة أحسن من أن يطول الكلام بغير ضمير[1] ، ويصح أن يرتفع بالابتداء والخبر مُقدّر ، تقديره : « وشركاؤُكم فليجمعوا » ، وقرأت فرقة : [وَشُرَكَائِكُم] بالخفض على العطف على الضمير في قوله تعالى : [أَمْرَكُمْ] ، والتقدير : « وَأَمْر شركائكم » فهو كقول الشاعر :

أَكُلَّ امْرِئٍ تحْسَبِينَ امرءًا ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيْلِ نارا ؟[2]

أي : وكل نار ، والمراد بالشركاءِ في هذه الآية الأَنْداد من دون الله ، فأضافهم إليه إذ يجعلونهم شركاءَ بزعمهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي ملتبساً مُشْكلا . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الهلال : (فإنْ غُمّ عليكم) ، ومنه

---

(١) وقد جاز العطف على الضمير بدون تأكيد لطول الكلام بـ (لا) في قوله تعالى : ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ (١٤٨ — الأنعام) وذلك مع وقوعها بعد الواو ، فمن باب أولى يجوز هنا للفصل بالكاف والميم الواقعين قبل الواو . ولكن ذلك ليس في قوة التأكيد نحو قوله تبارك وتعالى : ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ ، وذلك لأن التوكيد فيه معنى لا يوجد في الفصل بغيره ، إذ هُوَ يُثْبِّت معنى الاسمية للمضمر المتصل الذي ما زج الفعل وصار كجزء منه فضعف الفعل عن أن يعطف عليه ، لكنه إذا أُكِّد صار في حيِّز الأسماء ولحق بما يحسن العطف عليه . قاله أبو الفتح في كتابه « المحتسب » .

(٢) نسب هذا البيت لجارية بن الحجاج ، ولحارثة بن حمران ، ولعدي بن زيد ، ولكن المشهور أنه لأبي دؤاد ، وهو في الكتاب لسيبويه ، وفي الكامل للمبرد ، وفي ابن عقيل .

قول الراجز :

بَلْ لَوْ شهِدْتِ النَّاسَ إِذْ تُكُمُّــوا بِغُمَّةٍ لوْ لمْ تَفَرَّجْ غُمُّــوا (١)

وقوله : ﴿ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ﴾ معناه : أَنفذوا قضاءَكم نحوي ، وقرأ السَّرِيُّ بن ينْعُم : ﴿ثُمَّ أَفْضُوا﴾ بالفاءِ وقطع الأَلف ، ومعناه : أَسرعوا ، وهو مأْخوذ من الأَرض الفضاءِ ، أَي : اسلكوا إِلَيَّ بكيدكم واخــرجوا معي وبي إلى سعة (٢) ، وقــوله : ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أَي : ولا تؤخرون ، والنَّظِرة : التأْخير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

---

(١) الراجز هو العجاج ، والبيت في ديوانه ، ونسبه له ابن منظور في « اللسان » والقرطبي في تفسيره ، ونسبه الطبري إلى رؤبة ، وهذا غير صحيح ، والبيت مطلع أرجوزة للعجاج يذكر مسعود بن عمرو العتكي من الأزد ، و تُكُمّوا بضم التاء والكاف : أُلْبسوا كمة فتغطوا بها ، والأصل : تكمموا بميمين من كمَمْتُ الشيءَ إذا سترته ، ثم أبدلت الميم الأخيرة ياء فصار في التقدير : تكميوا ، ثم حذفت الياءُ فصارت : تُكُمّوا ، نقل ذلك « التاج » عن الفراء ، والغَمُّ والغُمَّةُ : الكرب ، والمعنى : تغطّوا بالكرب والهم .

(٢) قال أبو الفتح : هو أفعَلْتُ من الفضاءِ ، وذلك أنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع ، ولام أفضيت والفضاءُ وما تصرف منهما واوٌ لقولهم : فضا الشيءُ يفْضُوا فُضُواً إذا اتَّسع ، وقولهم : أفضيت : صرت إلى الفضاء ، مثل أنجدت : صرت إلى نجد .

المعنى : فإن لم تقبلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليتم عنها ، والتولِّي أَصله بالبدن ، ويستعمل في الإعراض عن المعاني ، يقول : فأَنا لم أَسأَلكم أَجراً على ذلك ولا مالًا فيقع منكم قطع لي وتقصير بإرادتي وإنما أَجري على الذي بعثني . وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو – بخلاف عنه – : [أَجْري] بسكون الياءِ ، وقرأَ : [أَجْرِيَ] بفتح الياءِ الأَعرجُ ، وطلحة بن مصرف ، وعيسى ، وأَبو عمرو . وقال أَبو حاتم : هما لغتان ، والقراءَة بالإسكان في كل القرآن . ثم أَخبرهم بأَن الله أَمره بالإسلام والدين الحنيف الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإعداد للقائه .

وقوله تعالى : [فَكَذَّبُوهُ] الآية . إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن حال قوم نوح المكذبين له ، وفي ضمن ذلك الإخبار توعّد للكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم وضرب المثال لهم ، أَي : أَنتم بحال هؤلاءِ من التكذيب فستكونون بحالهم من النقمة والتعذيب ، و [ٱلْفُلْكِ] : السفينة ، والمفسرون وأَهل الآثار مجمعون على أَن سفينة نوح كانت واحدة ، والفلك لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستو ، وليس به ، وقد مضى شرح هذا في (الأَعراف) ، و [خَلَائِفَ] جمع خليفة ، وقوله : [فَانْظُرْ] مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم يشاركه في معناها جميع الخلق ، وفي هذه الآية أَنه أَغرق جميع من كذَّب بآيات الله التي جاءَ بها نوح عليه السلام ، وهي مقتضية أَيضاً أَنه أَنذرهم فكانوا منذرين ، فلو كانوا جميع أَهل الأَرض كما قال بعض الناس لاستوى نوحٌ ومحمدٌ عليهما الصلاة والسلام في البعث إلى أَهل الأَرض ،

ويردّ ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أُعطيت خمْساً لم يُعطهن أَحدٌ قبلي) الحديث [١] ، ويترجح بهذا النظر أَن بعثة نوح عليه السلام والغرق إنما كان [٢] في أَهل صقع لا في جميع الأَرض .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

الضمير في قوله : [مِنْ بَعْدِهِ] عائد على نوح عليه السلام ، والضمير في [قَوْمِهِمْ] عائد على الرسل ، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : كما حلَّ بهؤلاءِ يحِلُّ بكم ، والبَيِّنَات : المعجزات والبراهين الواضحة ، والضمير في قوله : [كانُوا] وفي [لِيُؤْمِنُوا] عائد على قوم الرسل ، والضمير في [كَذَّبُوا] عائد على قوم نوح عليه السلام ، وهذا قول بعض المتأَولين ،

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان البخاري ومسلم ، ورواه النسائي ، وتمامه : (نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وتربتَها طهوراً فأيما رجل من أُمّتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحِل لأحد قبْلي ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة) .

(٢) هكذا في جميع النسخ .

وقال بعضهم : بل يَعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أَنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاءَ رسول ، ثم لجّوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم . وقال يحي بن سلاَّم(١) : [مِنْ قَبْلُ] معناه : من قبل العذاب ،

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا القول بُعد ، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أَن تكون [ما] مصدرية ، والمعنى : فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أَن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل ، أَي من سببه ومن جرائه(٢) . ويؤيد هذا التأْويل قوله : ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ . وقال بعض العلماءِ : عقوبة التكذيب الطبْعُ على القلوب . وقرأَ جمهور الناس : [نَطْبَعُ] بالنون ، وقرأَ العباس بن الفضل : [يَطْبَعُ] بالياءِ ، وقوله : [كَذَلِكَ] أَي : هذا فِعلنا بهؤلاءِ ، ثم ابتدأَ : [كَذَلِكَ نطْبَعُ] أَي كفعلنا هذا . و [ٱلْمُعْتَدِينَ] هم الذين تجاوزوا طورهم ، واجترحوا مالا يجوز لهم ، وهي ها هنا في الكفر .

والضمير في [بَعْدِهِمْ] عائد على الرسل ، والضمير في [مَلَئِهِ] عائد على فرعون ، والملأُ : الجماعة من قبيلة وأَهل مدينة ، ثم يقال

---

(١) يحيى بن سلاّم بن أبي ثعلبة ،التيمي بالولاء ، البصري ثم الأفريقي ، مفسِّر ، فقيه ، عالم بالحديث واللغة ، ولد بالكوفة ورحل طويلا ثم توفي بمصر سنة ٢٠٠ هـ . ومن كتبه « تفسير القرآن » خ . و « اختيارات في الفقه » و « الجامع » ، وله مصنفات كثيرة في العلم .

(٢) قال أبو حيان : « والظاهر أن [ما] موصولة ، ولذلك عاد الضمير عليها في قوله : ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ ، ولو كانت مصدرية لبقي الضمير غير عائد على مذكور فتحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير » .

للأَشراف والأَعيان من القبيلة أَو البلد ملأٌ ، أَي : هم يقومون مقام الملأ ، وعلى هذا الحدّ هي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في قريش بدر : (أُولئك الملأُ)، وكذلك هي في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾(١) ، وأَما في هذه الآية فهي عامة لأَن بعثة موسى وهارون كانت إلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف ، وقد مضى في [الٓمٓصٓ] ذكرهما وما بُعثا إليهم فيه . والآيات : البراهين والمعجزات وما في معناها ، وقوله : [فَاسْتَكْبَرُوا] أَي : تعظموا وكفروا بها ، و [مُجْرِمِين] معناه : يرتكبون ما لم يُبح الله ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يريد بالحق آيتَي العصا واليد، ويدل على ذلك قولهم عندهما : «هذا سحر» ، ولم يقولوا ذلك إلا عندهما ، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المعارض .

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (القصص) .

وقرأ جمهور الناس : ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ، وقرأ سعيد بن جُبَيْر ، والأَعمش : ﴿لَسَاحِرٌ مُبِين﴾(١) .

ثـم اختلف المتأَولون في قوله : ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ - فقالت فرقة : هو حكاية من موسى عنهم على معنى أَن قولهم كان : «أَسِحْرٌ هَذَا» ؟ ثـم اختلف في معنى قول قوم فرعون : «أَسحرٌ هذا» ؟ فقال بعضهم : قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأَمر فهو يسأَل عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا التأْويل يضعفه ما ذكر الله قبلُ عنهم من أَنهم صمموا على أَنه سحرٌ بقولهم : ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِين﴾ . وقال بعضهم : بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأَوه بزعمهم ، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري : «أَفرسٌ هذا» ؟ على معنى التعجب منه والاستغراب وأَنت قد علمت أَنه فرس . وقالت فرقة غير هاتين : ليس ذلك حكاية من موسى عنهم ، بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره : أَتقولون للحق لما جاءَكم سحرٌ ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَو نحو هذا من التقدير ، ثم ابتدأَ يوقفهم بقوله : «أَسحرٌ هذا» ؟ على جهة التوبيخ ، ثم أَخبرهم عن الله تعالى أَن السَّاحرين لا يفلحون

---

(١) على قراءة الجمهور تكون [هـٰذَا] إشارة إلى الفعل الذي حدث للعصا . وعلى قراءة سعيد الأعمش تكون [هـٰذَا] إشارة إلى موسى عليه السلام .

ولا يظفرون ببغية ، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأْويل موجود في كلام العرب ، ومنه قول ذي الرمّة :

فَلَمَّا لَبِسْنَ اللَّيْلَ أَوْ حينَ نصَّبَتْ   لهُ مِنْ خَذا آذانِهَا وهو جَانحُ (١)

يريد : أَو حين قاربن ذلك ، ومنه قول الله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُوُءوا وُجُوهَكُمْ﴾ (٢) ، المعنى : بعثناهم لِيَسوُءوا ، ومثل هذا كثير شائع .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ الآية . المعنى : قال قوم فرعون لموسى : أَجئتنا لتصرفنا وتلْوينا وتردّنا عن دين آبائنا ؟ يقال : « لفت الرجل عن الآخر » إذا لواه ، ومنه قولهم : الْتفت ، فإِنه افتعل من لفت عنقه ، ومنه قول رؤْبة :

. . . .   لفْتاً وتَهْزيعاً سـواءَ اللَّفْتِ (٣)

وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو ـ فإِنه اختلف عنه ـ : [وَتَكُونَ] بالتاءِ من فوق ، وهي قراءَة جمهور الناس ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ـ

(١) البيت في الديوان ، وقوله : « لبسن الليل » : أَدْلَجْن فيه وسَتَرهُنّ حتى صار لباساً لهنّ ، و « خذا آذانها » : استرخاؤُها ، والأخذى : المسترخي الأذن ، والجانح هو الليل ، يقال : جنَح الليْلُ بمعنى : مال للذهاب أو المجيء .

(٢) من الآية (٧) من سورة (الإسراء) .

(٣) هذا بيت لرؤبة قاله ضمن قصيدة عن نفسه جاء في مطلعها :

يا بنْتَ عمْروٍ لا تَسُبِّي بِنْـتي   حَسْبُكِ إحْسَانُكِ إنْ أحْسَنْتِ

وبعده يقول : . . . .   وطامِح النَّخْوَةِ مُسْتَكِتّ

واللَّفْتُ : اللّيّ ، يقال : لفتَه يَلْفِتُه لفتاً إذا لواه وصرفه ، والتهزيع : التكسير أو دقّ العنق ، وسواء اللفت : سِوَى اللَّفْتِ . يقول : التّهزيع غير اللّفْت . ومن اللفت قول الشاعر :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتّى رَأيْتُني   وَجِعْتُ مِن الإصْغَاء لِيتاً وأخْدَعَا

فيما زعم خارجة وإسماعيل ـ : [وَيَكُونَ] بالياءِ من تحت ، ورويت عن أَبي عمرو ، وعن عاصم ، وهي قراءَة ابن مسعود . و [ٱلْكِبْرِيَاءُ] مصدر مبالغ من الكبر ، والمراد به ـ في هذا الموضع ـ الملك ، وكذلك قال فيه مجاهد ، والضحاك ، وأَكثر المتأَولين ، لأَنه أَعظم تكبر الدنيا ، ومنه قول الشاعر :

سُؤْدُداً غيْرَ فاحِشٍ لا يُــــدا نيهِ تَجْبارُهُ ولا كبْريـــاءُ (١)

وقوله : [بِمُؤْمِنِينَ] أَي : بمصدقين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يخبر أَن فرعون قال لخدمته ومتصرفيه : ائتوني بكل ساحر ، هذه قراءَة جمهور الناس ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، ويحيي بن وثاب ، وعيسى : ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ على المبالغة ، قال أَبو حاتم : لسنا نقرأُ :

(١) السُّؤْدد : المجد والشرف والسيادة ، غير فاحش : ليس فيه بغي ولا تجبر ولا عدوان ولا تخالطه الكبرياءُ ، والتَّجْبار : مصدر بمعنى الجبر والقهر ، والكبرياءُ بوزن فعلياءٍ هي العظمة إذا كانت وصفاً لله سبحانه ، فإذا كانت وصفاً للمخلوقين فهي التكبر والاستعلاء على الناس مع الظلم لهم .

[سَحَّار] إلا في سورة الشعراءِ ، فروي أَنهم أَتوه بسحرة الفرما وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذكر قبل في غير هذه الآية ، فلما ورد السحرة باستعدادهم للمعارضة خيّروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية ، فقال لهم عن أمر الله ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ الآية . المعنى : فلما أَلقوا حبالهم وعصيهم وخيّلوا بها وظنوا أَنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة . وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو . ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ وهي قراءَة جمهور الناس ، وقرأَ أَبو عمرو ، ومجاهد ، وأَصحابه ، وابن القعقاع : ﴿به آلسّحر﴾ بأَلف الاستفهام ممدودة قبل «السحر» ، فأَما من قرأَ [السّحْر] بغير أَلف استفهام قبله فـ [ما] في موضع رفع على الابتداءِ ، وهي بمعنى الذي وصلتها قوله : ﴿جِئْتُم بِهِ﴾ ، والعائد : الضمير في [بِهِ] ، وخبرها [السِّحْرُ] ، ويؤيد هذه القراءَة والتأْويل أَنَّ في مصحف ابن مسعود : «ما جئتم به سحرٌ» ، وكذلك قرأَها الأَعمش ، وهي قراءَة أُبي بن كعب : «مَا أَتَيْتُمْ به سِحْرٌ» ، والتعريف هنا في [السِّحر] أَرتب لأَنه تقدم مُنكراً في قولهم : «إِنَّ هذا لَسِحْر» فجاءَ هنا بلام العهد . كما يقال في أَول الرسالة : «سلام عليك» ، وفي آخرها : «والسلام عليك»[2] ،

(١) راجع تفسير سورة الأعراف ابتداءً من قوله تعالى في الآية (١٠٣) : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ وما بعد ذلك من آيات نزلت في قصة موسى عليه السلام . (الجزء السادس صفحة ٢٤) .

(٢) قال أبو حيان في «البحر» تعقيباً على ذلك : «وهذا أخذه من الفراء ، قال الفراء : وإنما قال : [السِّحْرُ] بالألف واللام لأن النكرة إذا أُعيدت أُعيدت بالألف واللام ، ولو قال له : مَن رَجُلٌ ؟ لم يقع في وهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذكره له اهـ. وما ذكراه هنا في السحر ليس هو من باب تقدم النكرة ثم الإخبار عنها بعد ذلك، لأن شرط هذا أن يكون المعرف =

ويجوز أن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ ، و [جِئْتُمْ بِهِ] الخبر ، و [السحْرُ] خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : «هو السحر إن الله سيبطله» ، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ . ويجوز أن تكون [ما] في موضع نصب على معنى : «أيَّ شيءٍ جئتم به» ، و [السِّحْرُ] مرفوع على خبر الابتداءِ ، وتقدير الكلام : «أيَّ شيءٍ جئتم به هو السحر إن الله سيبطله» . وأما من قرأ بـألف الاستفهام والمدّ قبل [السِّحْر] ف [ما] استفهام رفع بالابتداءِ ، و ﴿جِئْتُمْ بِهِ﴾ الخبر ، وهذا على جهة التقرير ، وقوله : [ٱلسِّحْرُ] استفهام أيضاً كذلك ، وهو بدل من الاستفهام الأول ، ويجوز أن تكون [ما] في موضع نصب بمضمر تفسيره في قوله : ﴿جِئْتُمْ بِهِ﴾ ، وتقديره : «أي شيءٍ جئتم به السحر» ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ إيجاب عن عِدَةٍ من الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ الآية . يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام ، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عزَّ وجلَّ ، وكون ذلك كله من كلام موسى عليه السلام أقرب ، وهو الذي ذكره الطبري ، وأما قوله : [بِكَلِمَاتِهِ] فمعناه : بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك ، قال ابن سلّام : [بكَلِمَاتِهِ] : بقوله : [لَا تَخَفْ] ، ومعنى ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ : وإن كره المجرمون . والمجرم : المجترم الراكب للخطر .

= بالألف واللام هو النكرة المتقدم لا غيره، كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ ، والسحر هنا ليس هو السحر الذي في قولهم : ﴿إن هَذَا لَسِحْرٌ﴾ لأنهم أخبروا عن الأمر الذي فعله موسى عليه السلام ، والسحر الذي في قول موسى عليه السلام إنما هو سحرهم الذي جاءوا به ، فقد اختلف المدلولان» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المعنى : فما صدّق موسى ، ولفظة [آمَنَ] تتعدى بالباءِ ، وتتعدى باللام وفي ضمن المعنى الباءُ ، واختلف المتأَولون في عود الضمير الذي في [قَوْمِهِ] - فقالت فرقة : هو عائد على موسى عليه السلام ، وقالت فرقة : هو عائد على فرعون ، فمن قال إن العود على موسى عليه السلام قال : معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أَول مبعثه أَنه لم يؤمن به إلا فتيان وشباب أَكثرهم أُولوا آباءٍ كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملإِ بني إسرائيل ، فالضمير في « الملَإِ » عائد على الذرية ، وتكون الفاءُ - على هذا التأْويل - عاطفة جملة على جملة لا مرتبة . وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى عليه السلام : إن معنى الآية أَن قوماً أَدركهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا به ، وإنما آمن ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان ، قاله مجاهد ، والأَعمش ، وهذا قول غير واضح ، وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية ، وأَيضاً فما روي من أَخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا ،

وهيئة قوله : ﴿فَمَا آمَنَ﴾ تعطي تقليل المؤمنين به ، لأَنه نفى الإِيمان ثم أَوجبه للبعض ، ولو كان الأَكثر مؤمنا لأَوجب الإِيمان أَولًا ثم نفاه عن الأَقل ، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما في الذرية : «إِنه القليل» ، لا أَنه أَراد أَن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكي وغيره . وقالت فرقة : إِنما سمّاهم ذُرّية لأَن أُمهاتهم كانت من بني إِسرائيل وآباءَهم من القبط ، فكان يقال لهم : الذُّرّية كما قيل لِفُرْس اليمن : الأَبناءُ ، وهم الفُرْس المنتقلون من وهرز بسعاية سيف بن ذي يزن[١] ، والأَمر بكماله في السِّير . وقال السُّدي : كانوا سبعين أَهل بيت من قوم فرعون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أَن المعروف من أَخبار بني إِسرائيل أَنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات ، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذلٌّ مفرط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم يكون نبياً ، فلما جاءَهم موسى عليه السلام أَصفقوا عليه[٢] واتبعوه ، ولم يحفظ قط أَن طائفة من بني إِسرائيل كفرت به ، فكيف تعطي هذه الآية أَن الأَقل منهم كان الذي آمن ؟ فالذي يترجح – بحسب هذا – أَن الضمير عائد على فرعون ، ويؤيد ذلك

(١) وهْرز : كان سجيناً عند كسرى ، وكان ذا حسب ونسب وفضل وسِنّ بين قومه، فلما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى ليساعده ضد مسروق بن أبرهة ملك الحبشة بعد أن غلب وتسلط على أرض اليمن أمده كسرى بجيش ، واختار وهرز ليضعه على رأس هذا الجيش لفضله وسنه وحسبه . (راجع كتب السيرة ، وبخاصة سيرة ابن هشام) .

(٢) يقال أَصْفَق القوم على كذا ، أَوْلَهُ : أطبقوا عليه واجتمعوا (المعجم الوسيط) .

أَيضاً ما تقدم من محاورة موسى عليه السلام وردّه عليهم وتوبيخهم على قولهم : « هذا سحر » ، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال : فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أَقوالهم ، وروي في ذلك أَنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأَة خازنه وشباب من قومه — قاله ابن عباس رضي الله عنهما — والسَّحرةُ أَيضاً فإِنهم معدودون في قوم فرعون ، وتكون القصة — على هذا التأْويل — بعد ظهور الآية والتعجيز بالعصا ، وتكون الفاءُ مرتبة للمعاني التي عطفت (١) .

ولاعتقاد الفراءِ وغيره عود الضمير على موسى عليه السلام تخبطوا في عود الضمير فى [مَلَئِهِمْ] فقال بعضهم : ذِكْر فرعون وهو الملك يتضمن الجماعة والجنود ، كما تقول : «جاءَ الخليفة ، وسافر الملك» وأَنت تريد جيوشه معه ، وقال الفراءُ : المعنى : «على خوف من آل فرعون وملَئِهم» ، وهو من باب : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (٢) .

(١) يظهر من كلام ابن عطية أنه يؤيد الرأي القائل بأن الضمير في قوله تعالى : [قَوْمِهِ] يعود على فرعون ، وأن القول بعوده على موسى ضعيف ، ولكن الطبري ومن وافقه يؤيدون رأيهم بعود الضمير على موسى بأُمور ، منها : أنه أقرب مذكور والحديث عنه ، وقد مضى الحديث عن فرعون من مدة ، فالأولى عود الضمير على أقرب مذكور وهو موسى . ومنها أنه لو كان عائداً على فرعون لما ذكر بعد ذلك في قوله : ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ﴾ بل لقيل : « على خوف منه » . ومنها أنه يمكن أن يكون المعنى ﴿فَمَآ آمَنَ﴾ أي : ما أظهر إيمانه وأعلنه إلا ذرية من قوم موسى عليه السلام ، فلا يدل ذلك على أن طائفة من بني إسرائيل كفرت بموسى . وقد ردّ ابن عطية على بعض ما تقدم وهو الإظهار لاسم فرعون بدلا من الإضمار .

(٢) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التنظير غير جيد لأَن إِسقاط المضاف في قوله : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ هو سائغ بسبب ما يعقل من أَن القرية لا تسأَل ، ففي الظاهر دليل على ما أُضمر ، وأَما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إِلى إِضمار ، أَما إِنه ربما احتج بأَن الضمير المجموع في [مَلَئِهِمْ] يقتضي ذلك ، والخوف إِنما يكون من الأَفعال والأَحداث التي للجثة ، ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإِيجاز أُضيف إِلى الأَشخاص .

وقوله : ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ بدل من [فِرْعَوْنَ] وهو بدل الاشتمال ، ف [أَنْ] في موضع خفض ، ويصح أَن تكون في موضع نصب على المفعول من أَجله ، وقرأَ الحسن ، والجراح : ﴿أَنْ يُفْتِنَهُمْ﴾ بضم الياءِ . ثم أَخبر عن فرعون بالعلوّ في الأَرض والإِسراف في الأَفعال والقتل والدعاوي ليتبيّن عذر الخائفين .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ﴾ إِلى ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ . ابتداءُ حكاية قول موسى عليه السلام لجماعة بني إسرائيل المؤمنين منهم مؤنساً لهم ونادباً إِلى التوكل على الله الذي بيده النصر ، ومسأَلة التوكل متشعبة للناس فيها خوضات ، والذي أَقول : إِن التوكل الذي أُمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع ، وهو الذي في قوله صلى الله عليه وسلم : (قَيِّدها وتَوَكَّلْ)[1] ، فقد جعله متوكلا

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » عن عمرو بن أُمية الضمري ، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أُمية أيضاً بلفظ : (اعقلها وتوكل) ، وبنفس اللفظ رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن خزيمة والطبراني من طريق عمرو بن أُمية الضمري بإسناد جيد =

مع التقييد ، والنبي صلى الله عليه وسلم رأس المتوكلين ، وقد تسبَّب عمره كله ، وكذلك السلف كله ، فإن شذَّ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يُسرف بها إلى حد قتل نفسه وإهلاكها ، كمن يدخل غاراً خفياً يتوكل فيه فهذا أو نحوه مكروه عند جماعة من العلماءِ ، وما رُوي من إقدام عامر بن قيس على الأَسد ونحو ذلك كله ضعيف ، وللصحيح منه قرائن تسهله ، وللمسلمين أَجمعين قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾(١) ، ولهم قال : ﴿وَعَلَى ٱللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾(٢) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في مدح السبعين ألفاً من أمته : ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٣) ليس فيه أَنهم يتركون التَّسَبُّب جملة واحدة ، ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التَّسبب ، بل كان يغزو ويأْخذ سهامه(٤) . وأَعني بذلك ترك التسبب في الغذاءِ ، وأَما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جُبِل

= بلفظ (قيدها وتوكل). ورمز له السيوطي في « الجامع الصغير » بالضعف ، غير أن المناوي نقلا عن الزركشي قال : إن القطّان إنما أنكره من حديث أنس ، هذا وقد سبق الاستشهاد به في الجزء الثالث ص ٤٠٠ من هذا التفسير .

(١) من الآية (١٩٨) من سورة (البقرة) .

(٢) من الآية (٢٣) من سورة (المائدة) .

(٣) من الآية (٢) من سورة (الأنفال) .

(٤) عُكاشة بن مِحْصن صحابي جليل ، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقُتل في حرب الردّة ، وقد ذكر في الصحيحين في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، فقال عكاشة حين سمع ذلك : ادع الله أن يجعلني منهم (فقال صلوات الله وسلامه عليه : أنت منهم) — ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بشره بالجنة ، فإنه ما تأخر عن الأخذ بالأسباب ، فاشترك في كل الحروب والغزوات ، وهذا عند ابن عطية دليل على أن التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب .

عليه دون نيّة وحسبة ، فكيف بمن يحتسب ؟ وقال لهم : ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾ مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأَنفس وإثارة الأَنفة ، كما تقول : «إن كنت رجلا فقاتل» تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة نفسه . وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يريد : أَهل طاعة منضافة إلى الإيمان المشروط ، فَذِكْرُ الإسلام فيه زيادة معنى . ثم ذَكَرَ أَنه أَجاب بنو إسرائيل بنيّة التوكل على الله والنطق بذلك ، ثم دعوا في أَلا يجعلهم فتنة للظَّلَمة ، والمعنى : لا تنزل بنا بلاءً بأَيديهم أَو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفْتنون ويعتقدون أَن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوءِ ديننا وصلاح دينهم ، وأَنهم أَهل الحق . قاله مجاهد وغيره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا الدعاءُ – على هذا التأْويل – يتضمن دفع فصلين ، أَحدهما : القتل والبلاءُ الذي توقعه المؤمنون ، والآخر : ظهور الشرك باعتقاد أَهله أَنهم أَهل الحق ، وفي ذلك فساد الأَرض ، ونحو هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (بئس الميت أَبو أُمامة ليهود والمشركين ، يقولون : لو كان نبيًّا لم يمت صاحبه)[1] ، ويحتمل اللفظ من التأْويل ،

(١) حديث أبي أُمامة هذا رواه الإمام أحمد في مسنده (٤–١٣٨) ، عن زمعة بن صالح قال : سمعت ابن شهاب يُحدث أن أبا أُمامة بن سهل بن حنيف أخبره عن أبي أُمامة أسعد بن زرارة ، وكان أحد النُّقباء يوم العقبة أنه أخذته الشَّوْكَةُ فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده فقال : (بئس الميت ليهود) مرَّتين ، (سيقولون : لولا دَفَعَ عن صاحبه ، ولا أملك له ضرًّا ولا نَفْعاً ولأتمحلَنَّ له) فأمر به وكوي بخطَّيْن فوق رأسه فمات . اهـ. قال ابن الأثير في «النهاية» : «الشَّوْكَة : حُمْرَةٌ تعلو الوجه والجسد ، يقال منه : شيك الرجلُ فهو مشوك» . وقد اختلفت النسخ الخطية في كلمة (بئس) فكتبت مرَّة (لَيْس) ومرَّات (بئس) .

وقد قالته فرقة : إن المعنى : لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة ، وفي هذا التأويل قلق بيّن

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

روي أَن فرعون أَخاف بني إِسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو هذا ، فأَوحى الله إلى موسى وهارون أَن اتّخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر ، قال مجاهد : مصر في هذه الآية : الإِسكندرية ، ومصرُ ما بين البحر إلى أَسوان ، والإِسكندرية من أَرض مصر ، و[تَبَوَّءَا] معناه كما قلنا : تخيّرا واتّخذا ، وهي لفظة مستعملة في الأَماكن وما يشبه بها ، ومن ذلك قول الشاعر :

لَهَا أَمْرُهَا حَتَّى إِذَا ما تَبَوَّأَتْ لأَقْحَافِهَا مَرْعًى تبوَّأَ مَضْجَعاً (١)

---

(١) البيت للراعي كما قال ابن عطية ، واسمه عبيد بن الحصين ، وهو من فحول الشعراء ، عدّه ابن سلام الجمحيّ في كتابه « الطبقات » من فحول الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين ، وكان يفضل الفرزدق على جرير ، وله في ذلك قصة مشهورة ، وقد روي البيت بلفظ : « لأمحالها » و « لأخفَافها » جمع خفّ بدلا من « لأقْحافها » ، والأقحاف : جمع قِحْف ، والقِحْف واحد من أقحاف ثمانية تُكَوِّن الجمجمة ، والمعنى واضح على روايتي الأخفاف والأقحاف .

وهذا البيت للراعي ، وبه سُمِّي الراعي ، ومنه قول امرئ القيس :

يَتَبَوَّءُونَ مَقَاعِداً لِقِتَالِكُـــــمْ كَلُيُوثِ غَابٍ لَيْلُهُنَّ زَئِيرُ [١]

وقرأ الناس : [تَبَوَّءَا] بهمزة على تقدير (ـــــ) [٢] ، وقرأ حفص في رواية هبيرة : [تَبَوَّيَا] ، وهذا تسهيل ليس بقياسي ، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف ، وقوله : [قِبْلَةً] معناه : مساجد ، قاله ابن عباس ، والربيع ، والضحاك ، والنخعي ، وغيرهم ، قالوا : خافوا فأُمروا بالصلاة في بيوتهم ، وقيل : يقابل بعضها بعضا ، قاله سعيد بن جبير ، والأَول أصوب . وقيل : معناه : موجهة إلى القبلة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ومن هذا حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (خير بيوتكم ما استقبل به القبلة) ، وقوله : ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ خطاب لبني إسرائيل ، وهذا قبل نزول التوراة لأَنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر [٣] ، وقوله : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَمرٌ لموسى عليه السلام . وقال مكي ، والطبري : هو أَمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا غير متمكن .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ الآية . غضبٌ من موسى عليه السلام على القبط ودعاءٌ عليهم ، فقدم للدعاء تقرير نعم الله عليهم وكفرهم

---

(١) في (اللسان) : «تَبَوَّأَ فلانٌ منزلا : اتخذه ، وتَبَوَّأت منزلا : نزلته ، وعليه قوله تعالى : ﴿والَّذينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمَانَ﴾ فمعنى يتبوءُون في البيت : ينزلونها ويتخذونها مقاعد للقتال . والزئير : صوت الأسد يكون من صدره .

(٢) يوجد بياض بالأصل في أكثر النسخ ، وفي نسخة واحدة : «على تقدير : تبوعاً» .

(٣) يقال : جاز الموضع وبه : سار فيه وقطعه ، ويقال : أجاز الموضع : جازه . (المعجم الوسيط) .

بها . و [آتَيْتَ] معناه : أَعطيت وملَّكت ، وتكرر قوله [رَبَّنا] استغاثة ، كما يقول الداعي بالله . وقوله : [لِيُضِلُّوا] يحتمل أَن يكون لام كي على بابها ، على معنى : آتيتهم الأَموال إملاءً لهم واستدراجاً ، فكان الإِيتاءُ كي يضلوا ، ويحتمل أَن تكون لام الصيرورة والعاقبة ، كما قال : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾(١) ، والمعنى : آتيتهم ذلك فصار أَمرهم إِلى كذا ، ورُوي عن الحسن أَنه قال : هو دعاءٌ ، ويحتمل أَن يكون المعنى على جهة الاستفهام ، أَي : ربنا ليضلوا فعلت ذلك ؟ وفي هذا تقرير الشنعة عليهم .(٢)

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، والحسن ، والأَعرج ، وشيبة ، وأَبو جعفر ، ومجاهد ، وأَبو رجاءٍ ، وأَهل مكة : [لِيَضِلُّوا] بفتح الياءِ على معنى : لِيَضِلُّوا في أَنفسهم . وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، والأَعمش ، وقتادة ، وعيسى ، والحسن ، والأَعرج ــ بخلاف عنه ــ : [لِيُضِلُّوا] بضم الياءِ ، على معنى : لِيُضِلُّوا غيرهم ، وقرأَ الشعبي : ﴿لِيِضِلُّوا﴾ بكسر الياءِ .

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص) .

(٢) قال بعض النحويين : هذه اللام في [لِيَضِلُّوا] وما أشبهها بتأويل الخفْضِ ، أي : آتيتهم ما آتيتهم لضلالهم ، والعرب تجعل لام (كي) في معنى لام الخفض ، ولام الخفض في معنى لام (كي) لتقارب المعنى ، قال الله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لإعراضكم ، ولم يحلفوا لإعراضهم ، وقال الشاعر :

سَمَوْتَ ولَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِتَسْمُو ولَكِنَّ المُضَيَّعَ قَدْ يُصَابُ

وقرأ الشعبي أيضاً ، وغيره : [اطْمُسْ] بضم الميم ، وقرأت فرقة : [اطْمِسْ] بكسر الميم ، وهما لغتان ، يقال : طَمَس يطمِس ويطمُس ، قال أبو حاتم : وقراءة الناس بكسر الميم ، والضم لغة مشهورة ، ومعناه : عفَّ وغيَّر ، وهو من طموس الأَثر والعين وطمْس الوجوه ، ومنه قول كعب بن زهير :

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَي إِذَا عَرِقَتْ عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَام مجْهولُ (١)

وروي أنهم حين دعا موسى عليه السلام بهذه الدعوة رجع سكرهم حجارة ، وزادهم ودنانيرهم وحبوبهم من الأَطعمة رجعت حجارة ، قاله محمد بن كعب القرظي ، وقتادة ، وابن زيد . وقال مجاهد وغيره : معناه : أَهلكها ودمرها ، وروي أن الطمسة كانت من آيات موسى عليه السلام التسع . وقوله : ﴿واشْدُدْ علَى قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى : اطبع واختم عليهم بالكفر ، قاله مجاهد والضحاك ، ولما أَشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أَسرى بدر شبَّهه بموسى عليه السلام في دعائه على قومه الذين بعث إِليهم في هذه

(١) النَّضَّاخَةُ : كثيرة رشح العرَق . والذِّفْرَى : النُّقْرَة خلف أُذن الناقة ، أو العظم الشَّاخص خلف الأذن ، أو من لدُن المَقَذّ إلى نصف القَذَال ، وكلها أماكن قريبة من غُدَّة العرق . وعُرْضَتُها : همَّتُهَا ، والأعلام : العلامات تكون في الطريق ليهتدي بها السائر في الصحراء كالأحجار والآبار والتلال ونحوها ، وطامِسُ الأعلام : الدارس منها . يقول : هذه الناقة كثيرة العرق لنشاطها في سيرها وإجهادها نفسَها ، وهي تعرف الطريق وتمضي فيه مُسْرِعَة مجدَّة ــ وإن طمست أعلامه وتغيرت ــ لكثر ة ما سافرت فيه .

الآية ، وبنوح عليه السلام في قوله : ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(١). وقوله : ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ مذهب الأخفش وغيره أن الفعل منصوب عطفاً على قوله : [لِيُضِلُّوا] ، وقيل : هو منصوب على جواب الأمر ، وقال الفراءُ والكسائي : هو مجزوم على الدعاءِ ، ومنه قول الشاعر :

فَلَا يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ ما انْزَوَى وَلَا تَلْقَنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمُ(٢)

وجعل رؤية العذاب نهاية وغاية ، وذلك لِعِلْمِه من قِبَل الله تعالى أن المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرجه من كفره ، ثم أجاب الله هذه الدعوة في فرعون نفسه (٣) ، قال ابن عباس : العذاب هنا : الغرق ، وقرأ الناس : [دَعْوَتُكُما] ، وقرأ السُّدي ، والضحاك : [دَعَوَاتكُمَا] ، وروي عن ابن جريج ، ومحمد ابن علي ، والضحاك أن الدعوة لم تظهر إجابتها إلا بعد أربعين سنة ، وحينئذ كان أمر الغرق .(٤)

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (نوح) .

(٢) البيت للأعشى ، وهو من ميميته التي يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني ، ولذلك يقول قبلــــه :

يزيدُ يَغُضُّ الطَّرْفَ دُوني كَأَنَّمَا زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَلَيَّ الْمَحَاجِمُ

يقال : زوى ما بين عينيه فانزوى بمعنى : جمعه فاجتمع ، يقول : إن يزيد ينفر مني حين يلقاني ، ويتجهم لي مُقَطِّباً وجهه كأنما وضعت بين عينيه المحاجم ، وما أُبالي أن يستمر غضبه عليّ وإعْراضه عني وأن أكون شجاً في حلقه .

(٣) وذلك حين أدركه الغرق فقال : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأُجيب بقول الله سبحانه : ﴿ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

(٤) جاءت هذه الجملة في إحدى النسخ بلفظ : « وحينئذ كان الغرق » .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأُعلما أَن دعاءهما صادف مقدوراً ، وهذا معنى إجابة الدعاء . وقيل لهما : ﴿لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، أَي في أَن تستعجلا قضائي فإن وعدي لا خلف له . وقوله : [دَعْوَتُكُمَا] ولم يتقدم الدعاءُ إلا لموسى عليه السلام ، وروي أَن هارون كان يُؤَمِّن على دعاءِ موسى عليه السلام ، قاله محمد بن كعب القرظي ، فلذلك نسب الدعوة إليهما ، وقيل : كنى عن الواحد بلفظ التثنية ، كما قال :

قِفَا نَبْكِ . . . . (١)

ونحو هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لأَن الآية تتضمن بعْدُ مخاطبتهما من غير شيءٍ ، قال علي بن سليمان : قول موسى عليه السلام : [رَبَّنَا] دالٌّ على أَنهما دعوا معاً ، (٢) وقوله : [فَاسْتَقِيمَا] أَي على ما أُمِرْتُمَا بِهِ من

---

(١) هذا أول البيت الذي افتتح به امرؤُ القيس معلقته المشهورة ، وفيه يقول :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

وقد خاطب الشاعر صاحبيه على عادة العرب في المخاطبة بالمثنى .

(٢) نقل أبو حيان في « البحر » أن ابن السميفع قرأ : ﴿قَدْ أجبْتُ دَعْوَتَكُمَا﴾ خبراً عن الله تعالى ، وبنصب « دعوة » ، وأن الربيع قرأ : [دَعْوَتَيْكُمَا] ، ثم قال : « وهذا يؤيد قول من قال: إن هارون دعا مع موسى . وقراءة : [دَعْوَتَيْكُمَا] تدل على =

الدعاءِ إلى الله . وأُمِرا بالاستقامة وهما عليها للإدامة والتمادي .

وقرأَ نافع والناس : [تَتَّبِعَانِّ] بتشديد التاءِ والنون على النهي ، وقرأَ ابن عامر ، وابن ذكوان : [تَتْبعانِّ] بتخفيف التاءِ وشدّ النون ، وقرأَ ابن ذكوان أَيضاً : [تَتَّبعانِ] بتشديد التاءِ وتخفيف النون وكسرها ، وقرأَت فرقة : [تَتْبعانْ] بتخفيفها وسكون النون ، رواه الأَخفش الدمشقي عن أَصحابه عن ابن عامر . فأَما شدّ النون فهي النون الثقيلة حذفت معها نون التثنية للجزم . كما تحذف معها الضمة في «لتفعلنَّ» حيث بُني الفعل معها على الفتح ، وإنما كسرت هذه النون الثقيلة بعد أَلف التثنية . وأَما تخفيفها فيصح أَن تكون الثقيلة خففت ، ويصح أَن تكون نون التثنية ويكون الكلام خبراً معناه الأَمر ، أَي : لا ينبغي أَن تتَّبعا ، قال أَبو علي : إِن شئت جعلته حالًا من [اسْتَقِيمَا] كأَنه قال : غير متَّبعين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والعطف يمانع في هذا فتأَمله .

= أنه قرأ : ﴿قَدْ أَجَبْتُ﴾ على أنه فعل وفاعل » . « البحر المحيط ٥–١٨٧ » . وقال أبو الفتح في « المحتسب » : « ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن : ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَاتُكُمَا﴾ ، وهذه جَمْع دعوة ، وبهذهالقراءة تعلم أن قراءة الجماعة : [دَعْوَتُكُمَا] يراد فيها بالواحد معنى الكثرة ، وساغ ذلك لأن المصدر جنس ، والأجناس يقع قليلها موقع كثيرها ، وكثيرها موضع قليلها » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قرأ الحسن بن أبي الحسن : [وَجَوَّزْنَا] بشد الواو وطرح الأَلف ، ويشبه عندي أن يكون [جاوَزْنَا] كتب في بعض المصاحف بغير ألف . وتقدم القول في صورة جوازهم البحر في البقرة والأَعراف .

وقرأ جمهور الناس : [فَأَتْبَعَهُمْ] لأَنه يقال : تَبِـعَ وأَتْبع بمعنى واحد ، وقرأ قتادة ، والحسن : [فَاتَّبَعَهُمْ] بشد التاءِ ، قال أَبو حاتم : القراءَة «أَتْبع» بقطع الأَلف لأَنها تتضمن الإِدراك ، «واتَّبع» بشد التاءِ هي طلب الأَثر سواءٌ أَدرك أَو لم يُدرك .

وروي أَن بني إِسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة أَلف ، وكان يعقوب قد استقر أَولًا بمصر في نيف على السبعين أَلفاً من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور ، ورُوي أَن فرعون كان في ثمانمائة أَلف أَدهم حاشا ما بقي من أَلوان الخيل ، وروي أَقل من هذه الأَعداد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، والذي تقتضيه أَلفاظ القرآن أَن بني إِسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإِضافة إِلى قوم فرعون المتبعين .

وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، والكوفيون ، وجماعة : [عَدْواً] على مثال : غزا غَزْواً ، وقرأَ الحسن ، وقتادة : : [وعُدُوًّا] على مثال : علا عُلُوًّا . وقوله : ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أَي في البحر ، وروي في ذلك أَن فرعون لما انتهى إِلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إِسرائيل قال لقومه : إِنما انفلق بأَمري ، وكان على فرس ذكر ، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام على فرس أُنثى وديق[1] فدخل بها البحر ، فولج فرس فرعون وراءَه وحثت الجيوش خلفه ، فلما رأَى الانفراق يثبت له استمر ، وبعث الله تعالى ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر ، فانطبق عليهم حينئذ ، فلما عاين فرعون قال ما حُكي عنه في هذه الآية .

وقرأَ جمهور الناس : [أَنَّهُ] بفتح الأَلف ، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب ، ويحتمل أَن تكون في موضع خفض على إِسقاط الباءِ . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وأَبو عمرو : [إِنَّهُ] بكسر الأَلف ، إِما على إِضمار الفعل ، أَي : «آمنت فقلت : إِنه » ، وإِما على أَن يتم الكلام في قوله : [آمَنْتُ] ثم يبتدئ إِيجاب : [إِنَّهُ] ، ورُوي

---

(١) يريد : استسلمت للفرس الذي يركبه فرعون واستأنست به ، يقال : ودَقَ إِلى الشيء : دنا من الشيء وأمكنه ، ووَدَقَ له الصيد ، وبه : استأنَسَ ، وفي المثل : « وَدَقَ العيْرُ إلى الماء » أي دنا منه ، يضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه . (المعجم الوسيط ، والصحاح) .

عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن جبريل عليه السلام قال : (ما أَبغضت أَحداً قط بغضي لفرعون ، ولقد سمعته يقول : [آمنت] الآية ، فأَخذت من حال البحر[١] فملَأْت فمه مخافة أَن تلحقه رحمة الله)[٢] ، وفي بعض الطرق (مخافة أَن يقول لا إِلٰه إِلَّا الله فتلحقه رحمة الله)[٣] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فانظر إِلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم ، ولا عذر لأَحد في جهل هذا ، وإِنما العذر فيما لا سبيل إِلى علمه ، كقول علي رضي الله عنه : «أَهللت بإِهلال كإِهلال النبي صلى الله عليه وسلم والحال الطين» ، كذا في الغريب المصنف وغيره ، والأَثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد . وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أَن يكون لأَنه اعتقد تجويزه المغفرة للتائب وإِن عاين ، ولم يكن عنده قبلُ إِعلام من الله تبارك وتعالى أَن التوبة بعد المعاينة غير نافعة .

وقوله تعالى : ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ الآية ، قال أَبو علي : اعلم أَن لام المعرفة إِذا دخلت على كلمة أَولها الهمزة فخففت الهمزة فإِن

---

(١) حالُ البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه ، قاله القرطبي نقلا عن أهل اللغة .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه «حمأة البحر» ، وأخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك عنه أخرجه الطيالسيّ ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في «شعب الإيمان» ، (الدر المنثور) .

(٣) أشار أبو حيان في البحر إلى هذه الزيادة فقال : «وأما ما يضم إليه من قولهم : «خشيت أن تدركه رحمة الله تعالى» فمن زيادات الباهتين لله تعالى وملائكته ، وفيها جهالتان ، إحداهما : أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه ، والأخرى : أنّ مَنْ كره إيمان الكافر وأحَبَّ بقاءه على الكفر فهو كافر ، لأن الرضا بالكفر كفر .

في تخفيفها وجهين ، أحدهما : أن تحذف وتُلْقَى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيه فيقال : « أَلَحْمَر » ، وقد حكى ذلك سيبويه ، وحكى أبو عثمان عن أبي الحسن أن ناساً يقولون : « لَحْمَر » ، فيحذفون الهمزة التي للوصل ، فمن ذلك قول الشاعر :

وَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ حقْبَةً فَبُحْ لَانَ مِنْهَا بالَّذِي أَنْتَ بَائِحُ(١)

قرأ نافع في رواية ورش لم يُختلف عنه : [آلاَنَ] بمد الهمزة وفتح اللام ، وقرأ الباقون بمدّ الهمزة وسكون اللام وهمز الثانية ، وقرأت فرقة : [أَلَانَ] بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية . وقرأ جمهور الناس : [أَلْآنَ] بقصر الأُولى وسكون اللام وهمز الثانية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقراءات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أبو علي ، فتأمله ، فإن الأُولى على لغة من يقول : « الْحَمر » ، وهذا على جهة التوبيخ

(١) البيت غير منسوب ، والشاهد فيه كلمة (الْآنَ) التي تنطق (لَانَ) على النحو الذي وضحه أبو علي الفارسي ، وقد نقل ابن خالويه عن اللغويين السبب في بناء (الآن) مع أن فيه الألف واللام ، قال سيبويه : (الآن) إشارة إلى وقت أنت فيه بمنزلة (هذا) والألف واللام تدخل لعهد قد تقدم ، فلما دخلت هاهنا لغير عهد ترك مبنياً . وقال المبرد : معرفته وقعت قبل نكرته وليس يشركه غيره في التسمية ، فتكون الألف واللام مُعَرِّفَة له ، وإنما تعني به الوقت الذي أنت فيه من الزمان ، فلذلك بُني . وقال الفراء : أصله أوان ، فقلبت الواو ألفاً فصار (أآن) ودخلت الألف واللام على مبني فلم تغيره عن بنائه . (راجع الحجة في القراءات لابن خالويه ، ومعاني القرآن للفراء) .

له والإعلان بالنقمة منه ، وهذا اللفظ يحتمل أن يكون مسموعاً لفرعون من قول مَلَك مُوَصِّلٍ عن الله وكيف شاءَ الله ، ويحتمل أن يكون معنى هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه ، وهذه الآية نصٌّ في ردّ توبة المُعَاين .

وقوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ الآية . يُقَوّي ما ذكرناه من أنها صورة الحال ، لأَن هذه الأَلفاظ إنما يظهر أَنها قيلت بعد غرقه . وسبب هذه المقالة – على ما رُوي – أن بني إسرائيل بَعُدَ عندهم غرق فرعون وهلاكه لِعِظَمِهِ عندهم ، وكذَّب بعضهم أَن يكون فرعون يموت ، فنُجِّي على نجوة من الأَرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأَنه ثور أَحمر ، وتحققوا غرقَه[1] ، وقرأت فرقة : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ ، وقالت فرقة : معناه : من النجاة ، أَي من غمرات البحر والماءِ ، وقال جماعة : معناه : نلقيك على نجوة من الأَرض وهي ما ارتفع منها ، ومنه قول أَوس بن حجر :

فَمَنْ بِعَقْوَتِهِ كمن بِنَجْوَتِهِ والمُسْتَكِنُّ كمَنْ يَمْشي بِقِرْوَاح[2]

---

(١) يقال : تحقَّقَ الأمْرُ : صحَّ ووقع ، ويقال أيضاً : تحقَّقَ الأمْرَ : عرف حقيقته .

(٢) البيت منسوب في « اللسان » إلى عبيد بن الأبرص ، في (عقا) وفي (قرح) . والمعروف أنه لأوس ، وهو من قصيدة له مشهورة يصف فيها المطر ، وهي قصيدة فريدة تغنى بها الموصلي لالتحام مقاطعها ، ومطلعها :

ودِّع لَميسَ وَداعَ الصَّارِمِ اللاَّحِي إذْ فَنَّكَتْ في فَسَادٍ بَعْدَ إصْلاح

ورواية الديوان :

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بمَحْفِلِهِ والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشي بِقِرْوَاح

والعَقْوَة : الساحة وما حول الدار والمحلة ، والجمع : عِقَاءٌ ، والنَّجْوَة : ما ارتفع من الأرض. =

وقرأ يعقوب : [نُنْجِيكَ] بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأ أُبي ابن كعب : [نُنَحِّيكَ] بالحاءِ المشددة من التنحية ، وهي قراءة محمد ابن السميفع اليماني ، ويزيد البريدي[١]. وقالت فرقة : معنى [بِبَدَنِكَ] : بدرعك[٢] ، وقالت فرقة : معناه : بشخصك ، وقرأت فرقة : [بِندائك] أي : بقولك : [آمنت] إلى آخر الآية ، ويشبه أن يكتب [بندائك] بغير ألف في بعض المصاحف ، ومعنى الآية : إنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع[٣]. وقرأت فرقة : [خَلَفَكَ] أيْ : مَنْ أتى بعدك ، وقرأت فرقة : [خَلْفَك] والمعنى : يجعلك الله آية له في عباده[٤] .

ثم بين عزَّ وجلَّ العظة لعباده بقوله : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ ، وهذا خبر في ضمنه توعّد .

= والمحْفِل : مستقر الماءِ ووسطه . والكِنُّ : الوقاءُ والسِّتْر ــ وهو أيضاً : البيت ، والقِرْواحُ : الأرض البارزة للشمس . يقول : إن المطر عمَّ الأرض وغمر كل شيءٍ فمن كان في مرتفع تساوى مع من كان في محلّ مستو من الأرض ، ومن كان في كِنٍّ تساوى مع من كان على ظهر الأرض بارزاً للشمس .

(١) وفي معنى التنحية يقول الحطيئة لأمّه : (سامحه الله) :

تَنَحَّيْ فاقْعُدي مِنِّي بعيداً ... أراحَ اللهُ مِنْكِ العَالَمِينَا

(٢) من معاني البَدَن في اللغة : الدرع القصيرة ، أنشد أبو عبيد لعمرو بن معديكرب :

ومَضَى نِساؤُهُمُ بِكُلِّ مُفَاضَةٍ ... جَدْلاءَ سَابِغَةٍ وبالأَبْدانِ

المُفَاضة : الدرع الواسعة ، والجدلاءُ : المحكمة النسج ، والأبدان : الدروع القصيرة .

(٣) قال القرطبي : « هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين ، والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أول ، وفي معناها نقص عن تأويل قراءتنا » .

(٤) معنى قراءة [خَلْفَكَ] بسكون اللام : أي لبنى إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم يبلغه الخبر . ومعنى قراءة فتح اللام : أي لمن يخلفك في أرضك ، وربما كانت عبارة ابن عطية لا توضح الفرق بالدقة المطلوبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المعنى : لقد اخترنا لبني إسرائيل أَحسن اختيار ، وأَحللناهم من الأَماكن أَحسن محل ، و ﴿مُبوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي : يصدق فيه ظن قاصده وساكِنِه وأَهله ، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس . قاله قتادة ، وابن زيد ، وقيل : بلاد مصر والشام ، قاله الضحاك ، والأَول أَصح بحسب ما حُفظ من أَنهم لن يعودوا إلى مصر ، على أَن في القرآن : ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[(1)] ، يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك ، وقد يحتمل أَن يكون [أَوْرَثْنَاهَا] معناه : الحالة من النِّعمة وإنْ لم يكن في قطر واحد .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يحتمل معنيين ، أَحدهما : فما اختلفوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حتي جاءَهم وبان علمُه وأَمْرُه ، فاختلفوا حينئذ .

(١) من الآية (٥٩) من سورة (الشعراء) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأَولين ، وهذا تأْويل يحتاج إلى سند . والتأْويل الآخر الذي يحتمله اللفظ : أَن بني إسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى عليه السلام في أَول حاله ، فلما جاءَهم العلم والأَوامر وغرق فرعون اختلفوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فمعنى الآية مذمة ذلك الصدر من بني إسرائيل . ثم أَوجب الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك أَنه يقضي بينهم ويفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ الآية . قال بعض المتأَولين — ورُوي ذلك عن الحسن — إِنَّ [إِنْ] نافية بمعنى (ما) ، والجمهور على أَنَّ [إِنْ] شرطية . والصواب في معنى الآية أَنها مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بها سواه مِن كل مَن يمكن أَن يشك أَو يعارض . وقال قوم : الكلام بمنزلة قولك : «إِن كنتَ ابني فبِرَّني»[1] .

---

(١) قال أبو حيان : «إن الشرطية تقتضي تعليق شيء على شيء ، ولا تستلزم تحقق وقوعه ولا إمكانه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلا ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾ (الزُخْرُف ٨١) ، ومستحيل أن يكون له ولد، وكذلك مستحيل أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام في شك ، وقد يكون في المستحيل عادة كقوله تعالى: =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس هذا المثال بجيد ، وإنما مثال هذه قوله تعالى لعيسى : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾[1] ، وروي أن رجلا سأل ابن عباس رضي الله عنهما عما يحيك في الصدر من الشك فقال له : ما نجا من ذلك أحد ولا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أُنزل عليه : ﴿فَإِنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذكر الزهراوي أن هذه المقالة أنكرت أن يقولها ابن عباس ، وبذلك أقول ، لأن الخواطر لا ينجو منها أحد ، وهي خلاف الشك الذي يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال . و ﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم من أسلم من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : (أنا لا أشك ولا أسأل)[2] .

= ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي فافعل ، ولكن وقوع (إن) للتعليق على المستحيل قليل ، وهذه الآية من ذلك ، ولما خفي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية » .

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير عن قتادة بدون كلمة (أنا) ، وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما — والعبارة فيه على لسان ابن عباس لا من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم . (الدر المنثور) .

وقرأ : [فَسَلْ] دون همز الحسنُ ، وأَبو جعفر ، وأَهل المدينة ، وأَبو عمرو ، وعيسى ، وعاصم . وقرأ جمهور عظيم بالهمز . ثم جزم الله تبارك وتعالى الخبر بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ . واللام في [لقد] لام قَسَم ، و [الْمُمْتَرِينَ] معناه : الشَّاكِّين الذين يحتاجون في اعتقادهم إلى المماراة فيها ، وقوله : ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يريد به : من أَن بني إِسرائيل لم يختلفوا في أَمره إِلَّا مِن بعد مجيئه ، وهذا قول أَهل التأْويل قاطبة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الذي يشبه أَن ترتجى إِزالة الشك فيه من قبل أَهل الكتاب . ويحتمل اللفظ أَن يريد : بما أَنزلنا جميع الشرع ، ولكنه بعيد بالمعنى لأَن ذلك لا يعرف ويزول الشك فيه إِلا بأَدلة العقل لا بالسماع من مؤمني بني إِسرائيل . وقوله : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية ، مما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد سواه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولهذا فائدة ليست في مخاطبة الناس به ، وذلك شِدَّة التخويف ، لأَنه إِذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من مثل هذا فغيرُه من الناس أَولى أَن يحذر ويتقي على نفسه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

جاءَ هذا تحذيراً مُرَدَّداً وإعلاماً بسوءِ حال المحتوم عليهم ، والمعنى : إن الله أَوجب لهم سخطه في الأَزل وخلقهم لعذابه ، فلا يؤمنون ولو جاءَهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان ، كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق ، وذلك وقت المعاينة ، وفي ضمن الأَلفاظ التحذير من هذه الحال ، وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان ، والفرار من سخط الله .

وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، والحسن ، وأبو رجاءٍ : [كَلِمَةُ] بالإفراد . وقرأ نافع ، وأهل المدينة : [كَلِمَات] بالجمع . وقد تقدم ذكر هذه الترجمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ الآية . في مصحف أُبيّ ، وابن مسعود : « فَهَلَّا » ، والمعنى فيهما واحد . وأَصل (لَوْلَا) في الكلام التحضيض أَو الدلالة على منع أَمر لوجود غيره ، فأَما هذه فبعيدة عن هذه الآية ، لكنها من جملة التي هي للتحضيض ، وحقيقة التحضيض بها أَن يكون المحضِّض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيءِ الذي يحضه

عليه . وقد تجيءُ (لولا) وليس من قصد المخاطِب أن يحضّ المخاطَبَ على فعل ذلك الشيءِ فيكون حينئذ المعنى توبيخاً ، كقول جرير :

. . . . لَوْلَا الكَمِيَّ المقَنَّعَا[1]

وذلك أنه لم يقصد حضّهم على عقر الكميّ ، كقولك لرجل قد وقع في أمر صعب : «لولا تحرَّزْتَ» ، وهذه الآية من هذا القبيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومفهوم من معنى الآية نفيُ إيمان أهل القُرى ، ومعنى الآية : فَهَلَّا آمن أهل القرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحالة ، ثم استثنى قوم يونس عليه السلام ، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع ، وكذلك رسمه النحويون أجمع ، وهو بحسب المعنى متصل لأن تقديره : ما آمن مِنْ أهل قرية إلا قوم يونس عليه السلام ، والنصب في قوله : [إِلَّا قَوْمَ] هو الوجْهُ ،

---

(١) هذا جزءٌ من آخر بيت قاله جرير ضمن قصيدة يجيب بها الفرزدق ، وهي من النقائض يقول في مطلعها :

أقَمْنَا وربَّتْنَا الدِّيَارُ ولا أرى كَمَرْبَعِنَا بَيْنَ الْحِنِيَّيْن مَرْبَعَا

والبيت بتمامه كما جاء في الديوان (دار المعارف ٢–٩٠٧) :

تَعُدُّون عقرَ النِّيبِ أفْضَلَ سَعْيِكُمْ بَنِي ضَوْطَرَى هَلاَّ الكَميَّ المُقَنَّعَا

ويروى : «أفضل مجدكم» و «لَوْلا الكَميّ» . والنِّيب : جمع أنيَب ، وهو الذي غلُظ نابه لأنه كبر وصار ضخماً «من الإبل» ، والكَمِيُّ : الشُّجاع المقدام الجريءُ ، كان عليه سلاح أو لم يكن ، والمقنّع : الذي لبس القناع في الحرب استعداداً لها . والمعنى فعلا فيه توبيخ لأنهم يعدون ذبح الإبل الضخمة غاية مجدهم وفضلهم ، ويقول لهم : هلا تحدثتم عن الشجاعة وعددتم الشجعان منكم ؟

ولذلك أَدخله سيبويه في باب «مالا يكون فيه إلا النصب» ، وكذلك مع انقطاع الاستثناء ، ويشبه الآية قول النابغة :

إِلَّا الأَرَارِيَّ . . . . (١)

وذلك هو حكم لفظ الآية . وقالت فرقة : يجوز فيه الرفع وهذا مع اتصال الاستثناءِ(٢) ، وقال المهدوي : والرفعُ على البدل من [قَرْيَة] .

ورُوِي في قصة يونس عليه السلام أَن القوم لما كفروا أَوحى الله إليه أَن أَنذرهم بالعذاب لثلاثة ، ففعل فقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإِن أَقام بين أَظهُركم فلا عليكم ، وإِن ارتحل فهو نزول العذاب لاشك ، فلما كان الليل تزود يونس عليه السلام وخرج عنهم ، فأَصبحوا فلم يجدوه ، فتابوا ودعوا الله وآمنوا ولبسوا الْمُسُوح

(١) هذا أول البيت الثالث من الدالية التي قالها النابغة يمدح النعمان ويعتذر إليه ، وفيها يقول :

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أقوَتْ وطالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأبَدِ

وقَفْتُ فيها أُصَيْلاناً أُسَائِلُهَا عَيَّتْ جَوَاباً ومَا بالرَّبْعِ مِنْ أحَدِ

إلا الأوَارِيَّ لأْياً مَا أُبَيِّنُهَـــا والنُّؤْيَ كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ

والأوَارِيّ مستثنى منصوب لأنه من غير جنس السابق وهو (أحد) ، والأوَاري : جمع أرِيّ وهو عود أعْلاه معوج يُدَق لتشدّ فيه حبال الخيمة ، ولأْياً : تعباً أو بُطْئاً ، و (ما) زائدة للتوكيد ، أي لا أُبيِّنها لعيني إلا بيانا تعبا . والنُّؤي : الحفير الذي يحيط بالخيمة ليمنع ماء المطر ، والباءُ للظرفية ، والمظلومة : صفة لموصوف محذوف تقديره : بالأرض المظلومة وهي اليابسة التي انحبس عنها المطر ، والجَلَد : الصلبة اليابسة التي يصعب فيها الحفر . والنؤْيَ بالنصب معطوفة على الأواري . يقول : لا أرى بالدار من أحد إلا هذه الأوتاد التي لا أكاد أتبينها تحت التراب ، وهذا النؤي الجاف الذي يشبه الحوض في الأرض الجافة الصلبة .

(٢) قال الزجاج : ويكون المعنى : غير قوم يونس ، فلما جاء بإلاّ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب (غير) كما قال :

وكُلُّ أخ مُفَارِقُهُ أخوهُ لعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدَانِ

وفرّقوا بين الأُمّهات والأَولاد من الناس والبهائم ، والعذاب منهم ـ فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ على ثُلُثي ميل . ورُوي : عَلَى ميل ، وقال ابن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر ، فرفع الله عنهم العذاب ، فلما مضت الثلاثة وعلم يونس عليه السلام أَن العذاب لم ينزل قال : كيف أَتصرف وقد وجدوني في كذب ؟ فذهب مغاضباً كما ذكر الله تعالى في هذه الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذهب الطبري إلى أَن قوم يونس عليه السلام خُصُّوا من بين الأُمم بأَن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ، ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين ، وليس كذلك ، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أَو الموت بشخص الإِنسان كقصة فرعون . وأَما قوم يونس عليه السلام فلم يصلوا هذا الحدّ .

وقرأَ الحسن ، وطلحة بن مصرف ، وعيسى بن عمر ، وابن وثاب ، والأَعمش : [يُونِس] بكسر النون ، وفيه للعرب ثلاث لغات : ضم النون وفتحها وكسرها ، وكذلك في (يوسف) . وقوله : ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد : إِلى آجالهم المفروضة في الأَزل .

وروي أَن قوم يونس عليه السلام كانوا بِنِينَوَى من أَرض الموصل ، ويقتضي ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لِعَدَّاس حين قال له إِنه من أَهل نينَوَى : (مِن قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى ؟) الحديث الذي في السيرة لابن إِسحق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

المعنى : إن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم ، ولو شاءَ الله لكان الجميع مؤمناً ، فلا تأْسف أَنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك ، وادع ولا عليك ، فالأَمر محتوم ، أَفتريد أَنت أَن تُكْرِه الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله عزَّ وجلَّ قد شاءَ غيره ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا التأْويلُ الآيةُ عليه محكمة ، أَي : ادع وقاتل من خالفك ، وإيمانُ من آمن مصروف إلى المشيئة .

وقالت فرقة : المعنى : أَفأَنت تُكْرِه الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان ؟ وزَعَمَت أَن هذه الآية في صدر الإسلام وأَنها منسوخة بآية السيف ، والآية – على كلا التأْويلين – رادَّة على المعتزلة [1] .

(١) الذين يقولون : « إن الله لا يريد الشَّر » . ذلك لأنها أثبتت مشيئة الإيمان والكفر لله سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ تـأْكيد وهو من فصيح الكلام ، و [جَمِيعاً] حال مؤكدة ، ونحوه قوله سبحانه : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية . ردّ إلى الله تعالى ، وأن الحول والقوة في إيمان من يؤمن لله ، وكون الرجس على الكفار . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿وَنَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ بنون العظمة ، وقرأ الباقون ، وحفص عن عاصم : ﴿وَيَجْعَل﴾ بالياءِ ، وقرأ الأعمش : «ويَجْعَلُ اللهُ الرجْسَ» ، والرِّجْس يكون بمعنى العذاب كالرجز ، ويكون في معنى القذر والنجاسة كالركْس ، ذكره أبو علي هنا وغيره ، وهو في هذه الآية بمعنى العذاب ، و [لَا يَعْقِلُونَ] يريد : آيَاتِ الله وحجج الشرع ، ومعنى الإذن في هذه الآية : الإرادةُ والتقديرُ لذلك ، فهو العلم والتمكين .

وقوله تعالى : ﴿قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه الآية أَمْرٌ للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير ذلك من آيات السمٰوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك ، والأَرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك ، المعنى : انظروا في ذلك بالواجب يُنَبِّهكم إلى المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته . وقرأ أبو عبد الرحمن والعامّةُ بالبصرة : ﴿قُلِ ٱنْظُرُوا﴾ بكسر اللام ، وقرأ نافع وأَهلُ المدينة : ﴿قُلُ ٱنْظُرُوا﴾ بضم اللام . ثم أَعلَم في آخر الآية أَن النظر في الآيات والسماع من «النُّذر» وهم الأَنبياءُ لا يُغني إلا بمشيئة الله ، وأَن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أَنهم لا يؤمنون ، وهذا على أَن تكون [ما]

(١) من الآية (٥١) من سورة (النحل) .

نافية ، ويجوز أَن تُعَدّ استفهاماً على جهة التقرير الذي ضمنه نفْيُ وقوع الغَناءِ ، وفي الآية ـ على هذا ـ توبيخ لحاضري رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ، وقوله : ﴿ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده . ويحتمل أَن تكون [ما] في قوله : [وَمَا تُغْنِي] مفعولة بقوله : [ٱنْظُرُوا] معطوفة على قوله : [مَاذَا] ، أَي : تـأَمَّلُوا قدر غَناءِ الآيات والنذر عن الكفار إِذ قبلوا ذلك كفعل قوم يونس عليه السلام فإِنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة ، ويُنَجِّي من الهلكات . فالآية ـ على هذا ـ تحريض على الإِيمان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتجوز اللفظ ـ على هذا التـأْويل ـ إِنما هو في قوله : [لَا يُؤْمِنُونَ] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

هذا وعيد وحضّ على الإِيمان ، أَي : إِذا لجوا في الكفر حلَّ بهم العذاب ، وإِذا آمنوا نجوا ، هذه سنة الله في الأُمم الخالية ، فهل عند هؤلاءِ غير ذلك ؟ وهو استفهام بمعنى التوقيف .

وفي قوله تعالى : ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ مهادنة مّا ، وهي من جملة ما نسخه القتال .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ الآية . لما كان العذاب لم تحصر مدته وكان النبي والمؤمنون بين أَظهر الكفرة وقع التصريح بأَن عادة الله عزَّ وجلَّ سلَفَت بإِنجاءِ رسله ومُتَّبعيهم ، فالتخويف – على هذا – أَشد ، وكلُّهم قرأَ : [نُنَجِّي] مشددة الجيم إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإِنهما قرآ : [نُنْجِي] بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأَ عاصم في سورة الأَنبياءِ في بعض ما روي عنه : [نُجِّى] بضم النون وحذف الثانية وشد الجيم ، كأَن النون أُدغمت فيها ، وهي قراءَة لا وجه لها ، ذكر ذلك الزجاج[1] ، وحكى أَبو حاتم نحوها عن الأَعمش ، وخط المصحف في هذه اللفظة [نُنَجِّ] بجيم مطلقة دون ياءٍ ، وكذلك قرأَ الكسائي في سورة مريم : ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[2] بسكون

(١) الآية المقصودة من سورة الأنبياء هي قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ . ومع أن ابن عطية نقل عن الزجاج أن هذه القراءة لا وجه لها فقد قال ابن خالويه في كتاب «الحجة» : «ولعاصم في قراءته وجه من النحو ، لأنه جعل (نُجِّي) فِعْلَ مالم يُسَمَّ فاعله ، وأرسل الياء بغير حركة ، لأن الحركة لاتدخل عليها في الرفع ، وهي ساقطة في الجزم إذا دخلت في المضارع ، وأضمر مكان المفعول الأول المصدر لدلالة الفعل عليه ، ومنه قولهم : «من كذب كان شرّاً له» ، يريدون : كان الكذب ، فلما دلّ (كَذَبَ) عليه حذف ، فكأنه هنا قال : «وكذلكَ نُجِّي النجاءُ المؤمنين» ، وأنشد شاهداً لذلك :

ولَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بذلك الجِرْوِ الكلابا

قال في «الخزانة» : «وقفيرة : اسم أم الفرزدق ، والجَرو : مثلث الجيم ، والبيت لجرير» والشاهد في البيت كما جاء في «الدُّرر اللوامع» : نيابة غير المفعول به مع وجوده ، فـ (بذلك) جار ومجرور وناب عن فاعل (سُبَّ) مع وجود المفعول وهو الكلاب» .

(٢) من الآية (٧٢) .

النون وتخفيف الجيم ، والباقون بفتح النون وشدّ الجيم ، والكاف في قوله : [كَذَلِكَ] يصح أن تكون في موضع رفع ، ويصح أن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية . مخاطبة عامة للناس أَجمعين إلى يوم القيامة ، يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام ، وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز ، والمعنى : إنْ كنتم في شك من ديني فأَنتم لا تعبدون الله ، كذلك فليس هو بأَهل أَن يُشك فيه ، وإنما يُشَكُّ في دينكم ويُرفض ، وأَنا لا أَعبد أَحَداً غيره ، فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا كله ، ثم صرّح بمعبوده وخصّ من أَوصافه ﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ لما فيها من التذكير بالموت وفزع النفوس به ، والمصير إلى الله بعده ، والنقد للأَصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

المعنى : قيل لي : كن من المؤمنين وأَقم وجهك للدين ، ثم جاءَت العبارة بهذا الترتيب ، والوَجْهُ في هذه الآية بمعنى المنْحَى والمقصد ،

أي : اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع ، و [حَنِيفاً] معناه : مستقيماً على قول من قال : الحنف : الاستقامة ، وجعل تسمية المعوج القدم أَحنف على جهة التفاؤُل ، ومن قال «الحنف : الميل» جعل [حَنِيفاً] ها هنا : مائلاً عن حال الكفرة وطريقهم . و [حَنِيفاً] نصب على الحال. وقوله : ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ معناه : قيل لي ، ولا تدع ، فهو عطف على [أَقِمْ] ، وهذا الأَمر والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم إذا كانت هكذا فأَحرى أَن يتحرز من ذلك غيرُه ، و«مالا ينفع ولا يضر» هو الأَصنام والأَوثان ، والظالم : الذي يضع الشيءَ في غير موضعه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية . مقصد هذه الآية أَن الحول والقوة لله . ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أَنفسهم . والضُّر لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أَو في بدنه ، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأَصنام ، لكن كل مُمَيِّزٍ أَدنى ميز يعرف يقيناً أَنها لا تكشف ضراً ولا تجلب نفعاً .

وقوله : ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لفظ تام العموم [1] ، وخصص النبي صلى الله عليه وسلم الفقه بالذكر في قوله : (مَنْ يرد الله به خيراً

---

(١) أَتَى في (الضُّر) بلفظ (المَسّ) وفي الخير بلفظ (الإرادة) ، وطابق بين الخير والضر مطابقة معنوية لا لفظية ، لأن مقابل الضُّر النفعُ ، ومقابل الخير الشرُّ ، فجاءت لفظة الضرّ ألطف وأخص من لفظة الشرّ ، وجاءت لفظة الخير أتَمّ من لفظة النفع ، ولفظة المسّ أوجز من لفظة الإرادة وأنَصّ على الإصابة وأنسب لقوله : ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ ، ولفظة الإرادة أدل على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره ، وأنسب للفظ الخير ، قاله في البحر .

يفقهه في الدين)(١) ، وهذا على جهة التشريف للفقه . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية وبسط ووعد مّا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر ، و [ٱلْحَقُّ] هو القــرآن والشرع الذي جاءَ به محمد صلى الله عليه وســلم(٢) ، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أَي اتبع الحق وأَذْعَن له فإنما يسعى لنفسه لأَنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه ، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أَي حادَ عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة ، وكفر بالله عزَّ وجلَّ فبِضِدِّ ذلك . وقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أَي : لست بآخذكم ولابُدّ بالإِيمان ، وإِنما أَنا مبلغ ، وهذه الآية منسوخة بالقتال(٣) .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم عن معاوية ، ورواه الإمام أحمد ، والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود بلفظ : (مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويُلْهمه رشده) ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن .

(٢) وقيل : الحقُّ هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) وذهب بعض العلماء إلى أن الآية محكمة غير منسوخة ، وكذلك الآية التي بعدها ، وحملوا قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ على أنه ليس بحفيظ على أعمالهم ليجازيهم عليها ،=

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ الآية . معناه : اتَّبع ما رسمه لك شرعك ، وما أَعلمك الله به من نُصْرَته لك ، واصبر على شقاءِ الرسالة وما ينالك في الله من الأَذى . وقوله : ﴿حَتَّى يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ وعدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم بأَن يغلبهم - كما وقع - تقتضيه قوة اللفظ . وهذا الصبر منسوخ بالقتال . وهذه السورة مكيّة ، وقد تقدم ذكْر هذا في أَولها [(١)] .

انتهى تفسير سورة يونس بعون الله وتوفيقه

والحمد لله رب العالمين

= بل ذلك لله ، وكذلك حملوا قوله : ﴿وَاصْبِرْ﴾ على الصبر على طاعة الله وحَمْل أثقال النبوة وأداءِ الرسالة ، وعلى هذا لا تعارض بين الآيتين وبين آية السيف . قال أبو حيان في البحر : « وإلى هذا مال المحققون » .

(١) روي أنه لما نزلت : ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال : (إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١١) سورة هود مكية
وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

تفسير سورة هود عليه السلام *

هذه السورة مكية إلَّا قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ ، وقوله : ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ونزلت في ابن سلام وأصحابه ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ الآية[1] ، نزلت في شأن الثمار . وهذه الثلاث مدنية ، قاله مقاتل[2] ، عَلَى أَنَّ الأُولى تشبه المكي .

(*) أسند أبو محمد الدارمي في مسنده وأبو داود في مراسيله ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اقرءُوا سورة هود يوم الجمعة) ، وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شِبْتَ ! قال : (شَيَّبَتْني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كوِّرت) ، قال : هذا حديث حسن غريب .

(١) الآية الأولى رقمها (١٢) ، والثانية رقمها (١٧) ، والثالثة رقمها (١١٤) من السورة .

(٢) وعن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وجابر بن زيد أن هذه السورة مكيَّة كلها .

وإذا أَردت بـ (هود) اسم السورة لم ينصرف ، كما تفعل إذا سميت امرأةً بـ (عمرو) و (زيْد) ، وإذا أَردت سورة (هود) صرفت (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

تقدم استيعاب القول في الحروف المقطعة في أَوائل السور ، وتختص هذه بأَن قيل : إن (ٱلرَّحْمَٰن) فرقت حروفه فيها ، وفي ﴿حمٓ﴾ وفي ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ .

و [كِتَابٌ] مرتفع على خبر الابتداءِ ، فمن قال : « الحروف إشارة إلى حروف المعجم » كانت الحروف المبتدأ ، ومن تأَول الحروف غير ذلك كان المبتدأ : هذا كتاب ، والمراد بالكتاب القرآن .

و [أُحْكِمَتْ] معناه : أُتقنت وأُجيدت شبه ما تحكم من الأُمور المتقنة الكاملة ، وبهذه الصفة كان القرآن في الأَزل ، ثم فصل

---

(١) عيسى بن عمر يقول : « هذه هودٌ » بالتنوين على أنه اسم للسورة ، وكذا إن سميتَ امرأة بـ (زيد) ، لأنه لما سكن وسطه خفّ فصرف .

بتقطيعه وتبيين أَحكامه وأَوامره على محمد صلى الله عليه وسلم في أَزمنة مختلفة ، فـ [ثُمَّ] على بابها ، وهذه طريقة الإِحكام والتفصيل ، إذ الإِحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يُفصَّل له ، والكتاب بأَجمعه مُحْكم ومُفَصل ، والإِحكامُ الذي هو ضد النسخ والتفصيلُ الذي هو خلاف الإِجمال إنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك . وحكى الطبري عن بعض المتأَولين : أُحْكمت بالأَمر والنهي ، وفُصّلت بالثواب والعقاب ، وعن بعضهم : أُحكمت من الباطل ، وفُصّلت بالحلال والحرام ، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ . وقال قوم : [فُصّلت] معناه : فُسّرت . وقرأَ عكرمة ، والضحاك ، والجحدري ، وابن كثير فيما رُوي عنه : (ثُمَّ فَصَلَت) بفتح الفاءِ والصاد واللام ، ويحتمل ذلك معنيين ، أَحدهما : فَصَلَتْ أَي : نزلت إلى الناس ، كما تقول : « فَصَلَ فلان » لسفره ونحو هذا من المعنى ، والثاني : فَصَلَت بين المُحِقِّ والمُبْطِل من الناس .

و ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ معناها : من حيث ابتدئت الغاية ، كذا قال سيبويه ، وفيها لغات . يقال : (لَدْن) ، و (لُدْن) بسكون الدال ، وقرئ بهما ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ ، ويقال : (لَدُ) بفتح اللام وضم الدال دون نون ، ويقال : (لَدًى) بدالٍ منونة مقصورة ، ويقال : (لَدٍ) بدال مكسورة منونة . حكى ذلك أَبو عبيدة .

و [حَكِيم] أَي : مُحْكِم ، و [خَبِيرٍ] أَي : ذو خبرة بالأُمور أَجمع .

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ، [أن] في موضع نصب ، إما على إضمار فعل ، وإمَّا على تقدير : «بأَنْ» وإسقاط الخافض ، وقيل : على البدل من موضع «الآيات» ، وهذا معترض ضعيف لأنه لا موضع للآيات ، وإن نظر موضوع الجملة فهو رفع ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير : «تفصيله ألا تعبدوا» ، وقيل : على البدل من لفظ «الآيات» .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي : من عقابه وبثوابه ، وإذا أُطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب ، وقدم «النذير» لأن التحذير من النار هو الأهم ، و [أَنْ] معطوفة على التي قبلها ، ومعنى الآية : استغفروا ربكم ، أي : اطلبوا مغفرته لكم وذلك بطلب دخولكم في الإسلام ، ثم توبوا من الكفر ، أي : انسلخوا منه واندموا على سالفه ، و [ثُمَّ] مرتِّبة لأن الكافر أول ما ينيب فإنه في طلب مغفرة ربه ، فإذا تاب وتجرد من الكفر تمَّ إيمانه . وقرأ الجمهور : [يُمَتِّعْكُمْ] بشد التاء ، وقرأ ابن محيصن : [يُمْتِعْكُمْ] بسكون الميم وتخفيف التاء . وفي كتاب أبي حاتم : «إن هذه القراءات بالنون» ، وفي هذا نظر . و [مَتَاعاً] مصدرٌ جارٍ على غير الفعل المتقدم مثل : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً﴾[1] ، وقيل : نصب بتعدي [يُمَتِّعْكُمْ] لأنك تقول : متَّعتُ زيداً ثوباً . ووَصْف المتاع بالْحُسْن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عزَّ وجلَّ وفي ثوابه ، وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته ، والسرور بمواعيده ، والكافرُ ليس في شيءٍ

---

(١) الآية (١٧) من سورة (نوح) .

من هذا . وأَما من قال بـأَن المتاع الحسن هو فوائد الدنيا وزينتها ـ فيضعف بـأَن الكفرة يشاركون في ذلك أَعظم مشاركة . والأَجل المسمّى هو أَجل الموت ، معناه : إلى أَجل مسمّى لكل واحد منكم ، وهذا ظاهر الآية ، والأَجل الكبير ـ على هذا ـ هو يوم القيامة . وتحتمل الآية أَن يكون التوعد بتعجيل العذاب إن كفروا ، والوعد بتمتيعهم إن آمنوا ، فتشبه ما قاله نوح عليه السلام ، واليوم الكبير ـ على هذا ـ كيوم بدر ونحوه ، والمجهلة ـ في أَي الأَمرين يكون ـ إنما هي بحسب البشر ، والأَمر عند الله تعالى معلوم مُحَصّل ، والأَجل واحد .

وقوله تعالى : ﴿ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَي كل ذي إحسان بقوله أَو بفعله أَو بقوّته أَو بماله أَو غير ذلك مما يمكن أَن يتقرب به ، و [فَضْلَهُ] يحتمل أَن يعود الضمير فيه على [ذِي] أَي : ثواب فضله وجزاءه . ويحتمل أَن يعود الضمير فيه على الله عزَّ وجلَّ ، أَي : يؤتي الله فضْلَه كلَّ ذي فضل وعمل صالح من المؤمنين ، ونحو هذا المعنى ما وعد به الله تبارك وتعالى من تضعيف الحسنة بعشر أَمثالها ، ومن التضعيف الغير محصور(١) لمن شاءَ . وهذا التأْويل تأَوله ابن مسعود وقال : «ويلٌ لمن غلبت آحاده عشراته» ، ويحتمل أَن يكون قول ابن مسعود موافقاً للمعنى الأَول(٢) .

(١) الأَصح أن يقال : غير المحصور .

(٢) نص كلام ابن مسعود كما رواه الطبري هو : « قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له =

وقرأ الجمهور : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ بفتح التاء واللام ، فبعضهم قال : معناه : الغيبة ، أي : فقل لهم : إني أخاف عليكم ، وقال بعضهم : معناه : « فإن تَتَولّوا » فحذفت التاءُ ، والآية كلها على مخاطبة الحاضر ، وقرأ اليماني ، وعيسى بن عمر : [وَإِنْ تُوَلُّوَ] بضم التاءِ واللام وفتح الواو [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ توعُّد بيوم القيامة ، ويحتمل أن يريد به يوماً من الدنيا كبدر وغيره .

وقوله تعالى : ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ توعُّد ، وهو يؤيد أن اليوم الكبير يوم القيامة لأنه توعَّد به ، ثم ذكر الطريق إليه من الرجوع إلى الله . والمعنى : إلى عقابه وجزائه رجوعُكم ، وهو القادر الذي لا يضره شيءٌ ، ولا يجير عليه مجير ، ولا تنفع من قضائه واقية . وقوله : ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم يراد به الخصوص ، دون مالا يوصف الله بالقدرة عليه من المحالات وغيرها التي هي أشياءُ . والشيءُ في اللغة : الموجود ، وما يتحقق أنه يوجد كزلزلة الساعة وغيرها .

= عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات » ، ثم يقول : « هلك من غلب آحاده أعشاره » .

(١) قال أبو حيان في « البحر » : « وفي كتاب « اللوامع » : اليماني وعيسى : ﴿وَإِنْ تُوُلُّوا﴾ بثلاث ضمات مرتباً للمفعول به ، وهو ضد التبرِّي ، وقرأ الأعرج بضم التاءِ واللام وسكون الواو مضارع (أولى) » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾

قيل : إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تطامنوا وثَنَوْا صدورهم كالمستتر(١) ، وردُّوا إليه ظهورهم ، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً منه وكراهة للقائه ، وهم يظنون أَن ذلك يخفى عليه وعلى الله عزَّ وجلَّ ، فنزلت الآية في ذلك . و [صُدُورَهُم] منصوبة ـ على هذا ـ بـ [يَثْنُونَ] .

وقيل : هي استعارة للغل والحقد الذي كانوا ينطوون عليه ، كما تقول : « فلان يطوي كشحه على عداوته ويثني صدره عليها » . فمعنى الآية : أَلا إنهم يُسرون العداوة ويتكتمون بها لتخفى ـ في ظنهم ـ عن الله ، وهو تعالى ـ حين تغشيهم بثيابهم وإبلاغهم في التَّستُّر ـ يعلم ما يُسرون .

وقرأَ سعيد بن جبير : [يُثْنُونَ] بضم الياءِ والنون ، من أَثْنَى . وقرأَ ابن عباس : [لَيَثْنون] ، وقرأَ ابن عباس أَيضاً ، ومجاهد ،

---

(١) ثَنَى الشيءَ ثنياً : عَطَفه وردَّ بعضه على بعض ، ويقال : ثنى صدره على كذا : طواهُ عليه وستَره . (المعجم الوسيط) .

وابن يَعْمَر [١] ، وابن أَبزى ، ونصر بن عاصم ، والجحدري ، وابن إِسحق ، وأَبو رزين [٢] ، وعليّ بن الحسين ، وأَبو جعفر محمد بن عليّ ، ويزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد ، وأَبو الأَسود [٣] ، والضحاك : ﴿تَثْنَوْني صُدُورُهُمْ﴾ برفع الصدور ، وهي تحتمل المعنيَيْن المتقدمين في [يَثْنُون] ، وزنها تَفْعَوْعِلُ على بناءِ مبالغة لتكرار الأَمر ، كما تقول : اعشَوْشَبَت الأَرض ، واحْلَوْلَت الدنيا ، ونحو ذلك [٤] ، وحكي الطبري عن ابن عباس – على هذه القراءَة – أَن هذه الآية نزلت في أَن قوماً كانوا لا يأْتون النساءَ والحدث إِلا ويتغَشَّون ثيابهم كراهية أَن يفضوا بفروجهم إِلى السماءِ . وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما – فيما روى ابن عُيَيْنة – : [تَثْنَوي] بتقديم الثاءِ على النون وبغير نون بعد الواو [٥] ،

(١) اسمه يحيى بن يَعْمَر بفتح الياء والميم وسكون العين بينهما ، أبو سليمان العدواني البصري ، تابعي جليل ، عرض على عمر ، وابن عباس ، وأبي الأسود الدؤلي ، وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء ، توفي سنة ٩٠ هـ – (طبقات ابن الجزري) .

(٢) هو مسعود بن مالك ، (ويقال : ابن عبد الله) أبو رزين الكوفي ، روى عن ابن مسعود ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وروى عنه الأعمش . (طبقات ابن الجزري) .

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلي ، ثقة جليل ، أول من وضع مسائل في علم النحو بإشارة من علي بن أبي طالب ، أخذ القراءة عرضاً عن عثمان بن عفان ، وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهما ، وروى القراءة عنه أبنه أبو حرب ، ويحيى بن يَعْمَر ، توفي بالبصرة سنة ٦٩ هـ . (المصدر السابق) .

(٤) كقولهم : « اخْلَوْلَقَت السماءُ للمطر » ، إذا قويت أمارة ذلك ، و « اغْدَوْدَن الشَّعْر » إذا طال واسترخى ، وأنشد أبو علي لِحَسَّان :

وقَامَتْ تُرَائِيك مُغْدَوْدِنـــاً إذا ما تَنُــوءُ بِهِ آدهــا

ومنه قول الشاعر :

لَوْ كُنْتَ تُعْطِي حينَ تُسْأَلُ سَامَحَتْ لكَ النَّفْسُ واحْلَوْلاكَ كلُّ خَليـل

(٥) قال أبو حيان في « البحر » : على وزن تَرْعَوي .

قال أَبو حاتم : هذه القراءَة غلط لا تتَّجه[١] . وقرأَ نصر بن عاصم ، ويحيي بن يَعْمَر ، وابن أَبي إِسحق : [تَنْثَوِي] بتقديم النون على الثاءِ ، وقرأَ عروة ، وابن أَبزى ، والأَعمش : [تَثْنَوِنّ] بثاءٍ مثلثة بعدها نون مفتوحة بعدها واو مكسورة . وقرآ أَيضاً هما[٢] ومجاهد فيما روي عنه : [تَثْنَئِنّ] بهمزة بدل الواو ، وهاتان مشتقتان من « الثِّنّ » وهو العشب المثني بسهولة[٣] ، فشبه صدورهم به إِذ هي مجيبة إِلى هذا الانطواءِ على المكر والخداع . وأَصل [تَثْنَوِنّ][٤] : « تَثْنَوْنِن » ، سكنت النون المكسورة ، ونقلت حركتها إِلى الواو التي قبلها ، وأُدغمت في النون التي بعدها . وأَما [تَثْنَئِنُّ] فأَصلها : « تَثْنَانّ » مثل « تَحْمَارّ » ، ثم قالوا : « اثْنَأَنَّ » كما قالوا : احْمَأَرَّ وابْيَأَضَّ .[٥]

---

(١) إنما قال ذلك لأنه لاحظ الواو في هذا الفعل ، لا يقال : ثنوتُه فانثوى ، كما يقال : رعوته فارعوى ، أي : كففتُه فانكفّ . قاله في « البحر المحيط » .

(٢) تأمل قوله : « هما » ، والمتقدم ذكرهم ثلاثة هم : عروة ، وابن أبزى ، والأعمش ، ولعلَّه أراد الأخيرين فقط .

(٣) قال أبو الفتح في المحتسب : وتَثْنَوِنّ وتَثْنَئِنّ من لفظ الثِّنّ ومعناه ، وهو ما هش وضعف من الكلأ ، وأنشد أبو زيد ، ورويناه عنه :

يأَيُّهَـــا الفُصَيِّـــلُ المُعَنِّي
إنَّكَ ريَّـــانُ فصَمِّتْ عَنِّي
يكفي اللَّقُوحَ أكْلَةٌ مِنْ ثِنِّ

والأبيات في (اللسان – ثَنَنَ) ، وشرح ابن عطية للثِّنّ يلتقي مع هذا المعنى فهو العشب المثني بسهولة ، وقد جاءت الكلمة في بعض النسخ : « العسيب » بدلا من « العشب » ، وهي بعيدة في معناها عن المراد .

(٤) يعني على قراءة عروة ، وابن أبزى ، والأعمش .

(٥) قال أبو الفتح : « أصله (تَثْنَانّ) فحركت الألف لسكونها وسكون النون الأولى ، فانقلبت همزة ، وعليه قول دُكَيْن : =

والضمير في [منه] عائد على الله تعالى ، هذا هو الأفصح الأَجزل في المعنى ، وعلى بعض التأْويلات يمكن أَن يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ، و [يَسْتَغْشُونَ] معناه : يجعلونها أَغشية وأَغطية ، ومنه قول الخنساءِ :

أَرْعَى النُّجومَ وما كُلِّفتُ رعْيَتَهَا وتارَةً أَتَغَشَّى فضْلَ أَطْمَارِي[1]

وقرأَ ابن عباس : «عَلَى حينَ يَسْتَغْشونَ» ، ومن هذا الاستعمال قول النابغة :

عَلَى حِينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ علَى الصبَا وقلْتُ أَلمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ ؟[2]

= راكِدَةٌ مِخْـــلاتُه ومحلَبُــه وجُلُّــه حتَّى ابيـأَض ملْبَبُه

يريد : ابْيَاضَّ فحرّك الألف فهمزها ، والمَلْبَب : موضع اللبّة ، وهو وسط الصدر » . ثم قال أبو الفتح : « ذهب أبو إسحق إلى أن « تَثْنَئِنّ » أصلها : « تَثْنَوِنّ » فهمزت الواو لانكسارها ، ومذهب أبي إسحق هذا مردود » .

(١) أنشد صاحب اللسان هذا البيت في (رعى) قال : ورعَى النجوم رعْياً وراعاها : راقَبها وانتظر مغيبها ، قالت الخنساءُ : أرعى النجوم ... البيت . واستَغْشَى بثوبه وتغَشّى : تغطّى ، والأطمار : جمع طِمْر وهو الثوب الخلق ، ومنه الحديث (رُبَّ ذي طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأبَرَّهُ) .

(٢) البيت من قصيدة للنابغة يمدح فيها النعمان ، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيع ، ومعنى (عَلى) هنا : (في) ، لأنه في البيت السابق يقول :

فكَفْكَفْتُ مِنّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا على النَّحْر مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ ودامِـعُ

فهي مثل (عَلى) في قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ، والمعنى : كَفْكَفْتُ الدمع في وقت عتابي لنفسي عند مشيبها ، وقد جعل العتاب للمشيب على سبيل المجاز ، و (على الصبا) متعلق بـ (عاتبتُ) ، أي : عاتبته على فعل التصابي الذي لا يليق به ، وقد تقدم الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية (١١٩) من سورة (المائدة) .

و « ذات الصدور » : ما فيها ، والذّات تتصرف في الكلام على وجوه هذا أَحدها ، كقول العرب : « الذئب مغبوط بذي بطنه »[١] ، أَي بالذي فيه من النفخ ، وكقول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه : « إنما هو ذو بطن بنت خارجة » . والذاتُ التي هي حقيقة الشيءِ ونفسه قلقة في هذا الموضع ، ويحتمل أَن يفرق بين « ذي بطنه » وبين « الذات » ، وإنما يجمع بينهما المعنى .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ ...﴾ الآية . تماد في وصف الله تبارك وتعالى بنحو قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ . والدَّابة : ما دبَّ من الحيوان ، والمراد جميع الحيوان الذي يحتاج إلى رزق ، ويدخل في ذلك الطائر والهَوَامّ وغير ذلك ، كلها دواب . وقد قال الأَعشى :

نِيَافٌ كغُصْنِ البَانِ تَرْتَجُّ إنْ مَشَتْ دَبِيبَ قَطَا البَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ[٢]

---

(١) ويروى : « الذئب يغبط بغير بطنة » ، و « ذو بطنه » : ما في بطنه ، ويقال : ذو البطن : اسم للغائط ، يقال : ألقى ذا بطنه إذا أحدث ، قال أبو عبيد : وذلك أنه ليس يظن به أبداً الجوع ، إنما يظن به البطنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

ومَنْ يَسْكُنِ البَحْرين يَعْظُمْ طُحَالُه ويُغْبَط ما في بَطْنِهِ وهُوَ جَائِعُ

وقال غيره : إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، وقال الشاعر :

* لكا لذّئب مَغْبُوطُ الْحَشَا وهْوَ جَائِعُ *

(مجمع الأمثال للميداني . ج ١ ص ٣٨٧ — الحياة . بيروت) .

(٢) من قصيدة له يقول في مطلعها :

صَحَا القَلْبُ مِنْ ذِكْرَى قُتَيْلَةَ بَعْدَمَا يكونُ لَهَا مثْلَ الأسير المُكَبَّـــلِ

والنياف : الطويلة التامة الحسن . والقطا : جمع قطاةٍ ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراءِ ، ويتخذ أُفْحوصةً في الأرض ، ويطير في جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مرقّط ، ومشيته رشيقة ، والمنْهل : المورد ، أي الموضع الذي فيه المشرب .

وقال علقمة بن عبدة لطير:

. . . . لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ (١)

وفي حديث أَبي عبيدة : (فإِذا دابة مثل الظَّرِب)(٢)، يريد : من حيوان البحر. وتخصيصه بقوله : ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إنما هو لأَنه الأَقرب لِحِسِّهِم . والطائر والعائم إِنما هو في الأَرض ، وما مات من الحيوان قبل أَن يتغذى فقد اغتذى في بطن أُمه بوجه مّا .

وهذه الآية تعطي أَن الرزق : كل ما صحّ الانتفاع به خلافاً للمعتزلة في قولهم : «إِنه الحلالُ الممتلك» .

وقوله تعالى : ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ إِيجابُ تفضُّلٍ لأَنه تعالى لا يجب عليه شيءٌ عقلا ، والْمُسْتَقَرّ : صلْب الأَب ، والمُسْتَوْدَع : بطن الأُم .

---

(١) هو علقمة بن عبدة الفحل ، أحد كبار الشعراء المعاصرين لامرئ القيس ، والجملة جزء من بيت قاله ضمن قصيدته : طحَا بكَ قلبٌ في الحسان طروب » ، وهو بتمامه :

كأنّهُمُ صابَتْ علَيْهِمْ سحابَةٌ صواعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

وصابت : أمطرت ، والدبيب : المشي الضعيف الخفيف . والمعنى : إن الممدوح إذا هجم على أعدائه كان كالسحابة التي تتفجر بالصواعق وتتهاطل كالطير عجزت عن التحليق فدبت تطلب النجاة ، وفي البيت حركة تصور الجيش في كرّه ، والطبيعة في صواعقها ، والطّير في دبيبها على الأرض .

(٢) الحديث في البخاري «شركة ومغازي» ، وفي الموطأ «صفة النبي» ، وفي مسند الإمام أحمد ٣–٣٠٦ ، ولفظه كما جاء في المسند عن جابر : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية ثلاثمائة ، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فنفذ زادنا ، فجمع أبو عبيدة زادهم فجعله في مزود ، فكان يقيتنا حتى كان يصيبنا كل يوم تمرة ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، وما كانت تغني عنكم تمرة ؟ قال : قد وجدنا فقدها حين ذهبت حتى انتهينا إلى الساحل ، فإذا حوتٌ مثْلُ الظّرِب العظيم ، قال : فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنصبهما ثم أمر براحلته فرحلت فمر تحتهما فلم يصبها شيءٌ) . والظَّرِبُ : الجبل المنبسط ، أو الجُبَيْل (بالتصغير) كما قال في أساس البلاغة .

وقيل : المسْتَقَر : المأْوى ، والمُسْتَوْدَع : القبر ، وهما ـ على هذا ـ ظرفان . وقيل : المُسْتَقَر : ما حصل موجوداً من الحيوان ، والمُسْتَوْدَع : ما يوجد بعْدُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والمُسْتَقَرّ ـ على هذا ـ مصدر استَقَرّ ، وليس بمفعول كمُسْتَوْدع ، لأَن استَقَرّ لا يتعدى . وقوله : ﴿في كِتَابٍ﴾ إشارةٌ إلى اللوح المحفوظ ، وقال بعض الناس : هذا مجازٌ ، وهي إشارة إلى علم الله .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وحَمْلُه على الظاهر أَولى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قال أَكثر أَهل التفسير : الأَيام هي من أَيام الدنيا ، وقالت فرقة : هي من أَيام الآخرة ، يومٌ من أَلف سنة ، قاله كعب الأَحبار ، والأَول

أَرجح . وأَجزأَ ذكر [السَّمٰواتِ] عن كل ما فيها ، إذ كل ذلك خُلِقَ في تلك الستة الأَيام .

واختلفت الأَحاديث في يوم بداية الخلق – فروى أَبو هريرة – فيما أَسند الطبري – أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَخذ بيده وقال : (خلق الله التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأَحد ، والشجر يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاءِ ، والنور يوم الأَربعاءِ ، وبث الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة) ، ونحو هذا من أَن البداءَة يوم السبت في كتاب مسلم ، وفي الدلائل لثابت : «وكان خلق آدم في يوم الجمعة ، لا يعتَدّ به إذ هو بشر كسائر بنيه ، ولو اعتُدّ به لكانت الأَيام سبعة خلاف ما في كتاب الله» . وروي عن كعب الأَحبار أَنه قال : «بدأَ الله خلق السموات والأَرض يوم الأَحد ، وفرغ يوم الجمعة ، وخلق آدم في آخر ساعة منه» ، ونحو هذا في جل الدواوين أَن البدأَة يوم الأَحد ، وقال قوم : خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أَيام مع قدرته على خلقها في لحظة ، نهجاً إلى طريق التؤدة والمهلة في الأَعمال لِيُحكم البشر أَعمالهم . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «كان العرش على الماءِ ، وكان الماءُ على الريح»(١) .

(١) الثابت في البخاري عن عمران بن حُصَين قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء قوم من بني تميم فقال : (اقبلوا البشرى يا بني تميم) ، قالوا بشرتنا فأعطنا ، (مرتين) ، فدخل ناس من أهل اليمن فقال : (اقبلوا البشرى يأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم) ، قالوا : قبِلْنا ، جئنا لنتفقه في الدين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : (كان الله ولم يكن شيءٌ غيره ، وكان عرشه على الماءِ ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيءٍ) ، ثم أتاني رجل فقال : يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطع دونها السرابُ ، وأَيْمُ الله لَوَدِدْتُ أنها ذهبت ولم أقم .

وقوله تعالى : [لِيَبْلُوَكُمْ] متعلق بـ [خَلَقَ] ، والمعنى أَن خلقه إياها كان لهذا ، وقال بعض الناس : هو متعلق بفعل مضمر تقديره : أَعلم بذلك ليبلوكم ، ومقصد هذا القائل أَن هذه المخلوقات لم تكن لسبب البشر .

وقرأَ عيسى الثقفي (١) : ﴿ولَئِنْ قُلْتُ﴾ بضم التاءِ ، وقرأَ الجمهور : [قلْتَ] بفتح التاءِ .

ومعنى الآية : إن الله عزَّ وجلَّ هذه صفاته ، وهؤلاءِ بكفرهم في حيز إن قلت لهم : « إنهم مبعوثون » كذبوا وقالوا : « هذا سحر » ، أَي : فهذا تناقض منكم ، إذ كل مفطور يقر بأَن الله خالق السموات والأَرض ، فهم من جملة المقربين بهذا ، ومع ذلك ينكرون ما هو أَيسر منه بكثير ، وهو البعث من القبور ، إذ البداءَة أَعسر من الإِعادة ، وإذ خلق السموات والأَرض أَكبر من خلق الناس . واللام في [لَئِن] مؤذنة بأَن اللام في [لَيَقُولَنَّ] لام قسم لا جواب شرط .

وقرأَ الأَعرج ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وفرقة من السبعة : [سِحْرٌ] ، وقرأَت فرقة : [سَاحِرٌ] ، وقد تقدم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية . المعنى : ولئن تأَخر العذاب الذي توعدتم به عن الله قالوا : ما هذا الحابس لهذا العذاب ؟ على جهة التكذيب . و [الأُمَّةُ] في هذه الآية : المُدّة ، كما قال : ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (٢) ، قال الطبري : سميت بذلك المدّةُ لأَنها

(١) هو عيسى بن مروان أبو عمر الثقفي النحوي البصري ، مؤلف الجامع والإكمال ، مات سنة ١٤٩ هـ (طبقات الفقراء) .

(٢) من الآية (٤٥) من سورة (يوسف) .

تمضي فيها أُمة من الناس وتحدث فيها أُخرى ، فهي – على هذا – المدة الطويلة . ثم استفتح بالإخبار عن أن هذا العذاب يوم يأْتي لا يردّه شيءٌ ولا يصرفه ، و [حَاقَ] معناه : حلَّ وأَحاط ، وهي مستعملة في المكروه ، و [يَوْمَ] منتصب بقوله : [مَصْرُوفاً] (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

[أَذَقْنَا] ها هنا مستعارة ، لأَن الرحمة ها هنا تعم جميع ما يُنتفع به من مطعوم وملبوس وجاهٍ وغير ذلك ، و [ٱلْإِنْسَانَ] ها هنا اسم الجنس . والمعنى : إن هذا الخُلُق في سجية الناس ، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر والعمل الصالح . و [يَئُوسٌ] و [كَفُورٌ] بناءَان للمبالغة . و [كَفُورٌ] ها هنا من كُفْر النعمة ، والمعنى : إنه ييأَس ويتحرج ويتسخط ، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه في

(١) فهو معمول لخبر [ليس] ، وقد استدل به على جواز تقديم خبر ليس عليها قالوا : لأن تقدم المعمول يؤذن بتقدم العامل ، ونُسب هذا المذهب لسيبويه ، وعليه أكثر البصريين ، وذهب الكوفيون والمبرد إلى أنه لا يجوز ، ولا يدل جواز تقدم المعمول على جواز تقدم العامل ، وأيضاً فإن الظرف والمجرور يتوسع فيهما مالا يتوسع في غيرهما ، ويقعان حيث لا يقع العامل فيهما .

عقله وحواسه وغير ذلك ، ولم يكفرها ، لم يكن ذلك ، فإن اتفق هذا أَن يكون في كافر أَيضاً بالشرع صحّ ذلك ولكن ليس من لفظ الآية .

وقال بعض الناس في هذه الآية : [ٱلْإِنْسَانُ] إنما يراد به الكافر ، وحَمَلَه على ذلك لفظة [كَفُور] ، وهذا عندي مردودٌ ، لأَن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإِنسان .

والنَّعْمَاءُ : تشمل الصحة والمال ونحو ذلك ، والضَّرَّاءُ من الضُّر ، وهو أَيضاً شامل ، وقد يكثر استعمال الضراءِ فيما يخص البدن . ولفظُ ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ تقتضي بطراً وجهلا أَن ذلك بإِنعام من الله تعالى ، واعتقاد أَن ذلك باتِّفاق أَو بعقد من الاعتقادات الفاسدة ، وإلا فلو قالها من يعتقد أَن ذهابها بإِنعام من الله وفضل لم يقع ذلك . و [ٱلسَّيِّئَاتُ] ها هنا : كلُّ ما يسوءُ في الدنيا .

وقرأَت فرقة : [لَفَرِحٌ] بكسر الراءِ ، وقرأَت فرقة : [لَفَرُحٌ] بضمها . وهذا الفرح مطلق ، ولذلك ذُمّ ، إِذ الفرح انهمال النفس ، ولا يأْتي الفرح في القرآن ممدوحاً إلا إذا قُيّد بأَنه في خير .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الآية . هذا الاستثناءُ متصل على ما قدمناه من أَن [الإِنسان] عام يراد به الجنس ، ومن قال «إِنه مخصص بالكافر» قال ها هنا : إن الاستثناءَ منقطع ، وهو قول ضعيف من جهة المعنى ، وأَما من جهة اللفظ فجيّد ، وكذلك قاله من النُّحاة قومٌ ، واستثنى الله من الماشين على سجيّة الإِنسان هؤلاءِ الذين حملتهم الأَديان على الصبر على المكاره ومثابرة عبادة الله ، وليس شيءٌ من ذلك في سجية البشر ، وإنما حَمَل على ذلك حب الله وخوفُ الدار الآخرة

والصبر ، والعملُ الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان . ثم وعدَ تبارك وتعالى أهل هذه الصفة ـ تحريضاً عليها وحضًّا ـ بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأجر والنعيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

سبب هذه الآية أن كفار قريش قالوا : يا محمد لو تركت سبّ آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتَّبعناك . وقالوا : إيتِ بقرآن غير هذا أو بدله ، ونحو هذا من الأقوال ، فخاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم على هذه الصورة من المخاطبة ، ووقفه بها توقيفاً راداً على أقوالهم ومبطلا لها ، وليس المعنى أنه صلى الله عليه وسلم همّ بشيءٍ من هذا فزجر عنه ، فإنه لم يرد قط ترك شيءٍ مما أُوحي إليه ، ولا ضاق صدره ، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعدهم عن الإيمان .

و [لَعَلَّكَ] ها هنا بمعنى التوقيف والتقرير ، و ﴿مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ هو القرآن والشريعة والدعاءُ إلى الله تعالى ، كان في ذلك سب آلهتهم وتسفيه آبائهم أو غيره . ويحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم

قد عَظُم عليه ما يلقى من الشدة فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذْنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة ، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به صلى الله عليه وسلم كما جاءت آيات الموادعة . وعبّر ب [ضَائِق] دون (ضَيّق) للمناسبة في اللفظ مع [تارِكٌ] ، وإن كان (ضيّق) أكثر استعمالا لأنه وصف لازم ، و [ضَائِقٌ] وصف عارض ، فهو الذي يصلح هنا . والضمير في [بِه] عائد على «البعض» ، ويحتمل أن يعود على [مَا] . و [أَنْ] في موضع نصب على تقدير : «كراهة أَنْ» ، والكنزُ ها هنا : المالُ ، وهذا هو طلبهم آية تضطر إلى الإيمان ، والله تبارك وتعالى لم يبعث الأنبياءَ بآيَات اضطرار ، وإنما بعثهم بآيَات النظر والاستدلال ، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأُمم التي قدّر تعذيبها بكفرها بعد آية الاضطرار ، كالناقة لثمود .

ثم آنَسَهُ تعالى بقوله : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ، أَي : هذا القدر هو الذي فُوّض إليك ، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاءَ وكفر من شاءَ .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الآية . هذه «أَمْ» التي عند سيبويه بمعنى «بل وألف الاستفهام» ، كأَنه أَضرب عن الكلام الأَول واستفهم في الثاني على معنى التقرير ، كقولهم : «إنها لَإِبلٌ أَمْ شَاءٌ ؟» . والافتراءُ أَخصّ من الكذب ، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرءُ وكابر وجاءَ بأَمر عظيم منكر . ووقع التحدي في هذه الآية بعشر لأَنه قيدها بالافتراءِ ، فوسَّع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام ، إذْ قَدْ عَجَّزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد ، فهذه مماثلة تامة في غيوب

القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيده ، وَعُجِّزوا في هذه الآية بأَنْ قيل لهم : عارضوا القدر منه بعشر أَمثاله في التقدير والغرض واحد ، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه ، فهذه غاية التوسعة ، وليس المعنى : عارضوا عشر سور بعشر ، لأَن هذه إنما كانت تجيءُ معارضة سورة بسورة مفتراة ولا يُبالي عن تقديم نزول هذه على هذه . ويؤيد هذا النظر أَن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب ، ولا يُزيل الريب إلا العلم بأَنهم لا يقدرون على المماثلة التامة ، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم : «افتراه» ، فكلفوا نحو ما قالوا ، ولا يطرد هذا في آية «يونس» . وقال بعض الناس : هذه مقدمة في النزول على تلك ، ولا يصح أَن يُعَجّزوا في واحدة فيكلفوا عشراً والتكليفان سواءٌ ، ولا يصح أَن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة ، وآية سورة «يونس» في تكليف سورة متركبة على قولهم : «افتراه» ، وكذلك آية البقرة ، إنما ريْبُهم بأَن القرآن مفترى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين ، في كمال المماثلة مرة ، ووقوفها على النظم مرة .

و [مَنْ] في قوله : ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ يراد بها الآلهة والأَصنام والشياطين وكل ما كانوا يعظمونه ، وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يريد : في أَن القرآن مفترى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

لهذه الآية تأْويلان :

أَحدهما : أَن تكون المخاطبة من النبي صلى الله عليه وسلم للكفار ، أَي : فإِن لم يستجب من تدعونه[1] إِلى شيءٍ من المعارضة ولا قدر جميعكم عليها فأَذعِنُوا حينئذ واعلموا أَنه من عند الله ، ويأْتي قوله ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ متمكناً .

والثاني : أَن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين ، أَي : فإِن لم يستجب الكفار إِلى ما دُعوا إِليه من المعارضة فاعلموا أَن ذلك من عند الله . وهذا على معنى : دوموا على علمكم ، فإِنهم كانوا عالمين بذلك . قال مجاهد : قوله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هو لأَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿بِعِلْمِ اللهِ﴾ يحتمل معنيين . أَحدهما : بإِذنه وعلى علم منه . والثاني : أَنه أُنزل بما علمه الله تعالى من الغيوب ، فكأَنه أَراد : «المعلموات له» ، وقوله : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تقرير .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية . قالت فرقة :

(١) في بعض النسخ زيادة : «من دون الله» .

ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة . هذا قول قتادة والضحاك[١] ، وقال مجاهد : هي في الكفرة وفي أَهل الرياءِ من المؤمنين ، وإلى هذا ذهب معاوية حين حدثه سَيَّافُه شُفي بن ماتع الأَصبحي[٢] عن أَبي هريرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرجل المتصدق ، والمجاهد المقتول ، والقائم بالقرآن ليله ونهاره - وكل ذلك رياءً - أَنهم أَول من تُسَعَّر به النار يوم القيامة ، فلما حدّثه شُفي بهذا الحديث بكى معاوية وقال : صدق الله ورسوله ، وتلا : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ الآية إلى قوله : ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣] .

---

(١) قال القرطبي : « واختاره النحاس ، بدليل الآية التي بعدها ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ ، فمن أتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا بصحة الجسم وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة له في الآخرة » .

(٢) شُفَي بن ماتع هذا كان سيافاً لمعاوية ، ومات سنة ١٠٥ هـ .

(٣) الحديث رواه مسلم بمعناه ، والترمذي أيضاً ، وهو في ابن جرير ، وفيه أن أبا هريرة قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم وكل أُمة جاثية ، فأول من يُدْعى به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يا ربّ ، قال: فماذا عَمِلتَ فيما عُلِّمتَ؟ قال: كنتُ أقوم آناءَ الليل وآناءَ النهار ، فيقول الله له : كذبتَ ، وتقول الملائكة : كذبتَ ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : « فلانٌ قارئٌ » فقد قيل ذلك . ويُؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أُوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا ربّ ، قال : فماذا عملتَ فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبتَ ، وتقول الملائكة : كذبتَ ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : « فلان جواد » ، فقد قيل ذلك . ويُؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقال له : في ماذا قُتلت ؟ فيقول : أُمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبتَ ، وتقول له الملائكة : كذبتَ ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : « فلان جريءٌ » ، وقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال : يا أبا هريرة ، أُولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَعّر لهم النار يوم القيامة) .

فأَما من ذهب إلى أنها في الكفرة فمعنى قوله : [يُريدُ] : يقصد ويعتمد ، أَي : هي وجهُهُ ومقصدُه لا مقصد له غيرها ، فالمعنى : من كان يريد بأَعماله الدنيا فقط إذ لا يعتقد الآخرة فإن الله يجازيه على حُسْن أَعماله - في الدنيا - بالنعم والحواسّ وغير ذلك ، فمنهم مُضَيّق عليه ، ومنهم مُوَسَّع له ، ثم حكم عليهم بأَنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا النار ، ولا تكون لهم حالٌ سواها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية ، وهو عندي أَرجح التأْويلات بحسب تقدم ذكر الكفار والمناقضين في القرآن ، فإنما قصد بهذه الآية أُولئك (١) .

وأَما من ذهب إلى أَنها في العصاة من المؤمنين فمعنى [يُريدُ] عنده : يُحب ويُؤْثر ويُفَضّل ويقصد وإن كان له مقصد آخر بإِيمانه ، فإن الله يجازيه على تلك الأَعمال الحسان - التي لم يعملها لله - بالنِّعم في الدنيا ، ثم يأْتي قوله : ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ بمعنى : ليس يجب لهم أَو يحق لهم إلَّا النار ، وجائز أَن يتغمدهم الله برحمته ، وهذا هو ظاهر أَلفاظ ابن عباس وسعيد بن جبير (٢) .

وقال أَنس بن مالك : هي في أَهل الكتاب .

---

(١) ولقوله تعالى بعد ذلك : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إلا النَّارُ﴾ كما سبق أن ذكرنا .

(٢) وهذا الرأي يلتقي مع قوله صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنِّيَّات) ، فالمرءُ إنما يعطى على وجه قصده ، وبحكم ضميره ونيَّته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا أن أهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية ، لا أنها ليست في غيرهم .

وقرأ جمهور الناس : [نُوَفِّ] بنون العظمة ، وقرأ طلحة (١)، وميمون بن مهران : [يُوَفِّ] بياء الغائب (٢) .

و [يُبْخَسُونَ] معناه : يعطون أقل من ثوابهم ، و [حَبِطَ] معناه : بطل وسقط ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يقتل حبطا أو يُلِمّ) (٣)، وهي مستعملة في فساد الأعمال . والضمير في قوله : [فيهَا]

---

(١) هو طلحة بن ميمون كما ذكر ذلك في البحر ، وإلا فهناك طلحة بن مصرف مثلا ، وغيره .

(٢) في إعراب هذه الآية : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ..﴾ إلخ ذكر عن الفراء أن (كانَ) زائدة ولهذا جزم الجواب وهو [نُوَفِّ] ، قال أبو حيان : « ولعَلَّه لا يصح ، إذْ لوْ كانت زائدة لكان (يُرِيدُ) هو فعل الشرط ، وكان يكون مجزوماً » . وهذا التركيب من مجيء فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً ليس مخصوصاً بكان ، بل هو جائز في غيرها ، كما روي في بيت زهير بن أبي سلمى :

ومَنْ هابَ أسْبَابَ المنَايا يَنَلْنَـــهُ ولوْ رامَ أنْ يَرْقَى السَّمَـــاءَ بِسُلَّم

(٣) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه والإمام أحمد ، ولفظه كما في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : (إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض) ، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، قلنا : يوحَى إليه ، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحَضَاءَ ، فقال : أين السائل آنفاً ؟ أوَ خَيْرٌ هو ؟ ثلاثاً ، إن الخير لا يأتي إلا بالخير ، وإنه كلما يُنبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلِمُّ كلما أكلت ، إلا آكلة الخُضَر حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، =

عائد على الدنيا في الأُولَيَيْن ، وفي الثالثة عائد على الآخرة ، ويحتمل أَن يعود في الثلاثة على الدنيا ، ويحتمل أَن تعود الثانية على الأَعمال . وقرأَ جمهور الناس : [وَبَاطِلٌ] بالرفع على الابتداءِ والخبر ، وقرأَ أُبيّ ، وابن مسعود : [وَبَاطلاً] بالنصب ، قال أَبو حاتم : ثبتت في أَربعة مصاحف ، والعامل فيه [يَعْمَلُونَ] ، و [مَا] زائدة ، والتقدير : وباطلاً كانوا يعملون ، والباطل : كل ما تقتضي ذاته أَلَّا تُنَال به غاية في ثواب ونحوه ، وبالله التوفيق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

اختلف المتأَولون في المراد بقوله : [أَفَمَنْ] ـ فقالت فرقة : المراد بذلك المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد محمد صلى الله عليه وسلم خاصة . وقال علي بن أَبي طالب ، والحسن ،

=وإن هذا المال خضِرَةٌ حُلوة، ونعم صاحب المسلم لِمَنْ أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين ، ومن لم يأخُذْه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع ، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة) .

وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن عباس : المراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون جميعاً .

وكذلك اختلف في المراد بـ «البيِّنة» ـ فقالت فرقة : المراد بذلك القرآن ، أي : على جَلِيَّة بسبب القرآن . وقالت فرقة : المراد محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : على جليَّة بسبب محمد صلى الله عليه وسلم ، والهاءُ في «البيّنة» للمبالغة كهاءِ علَّامة ونسّابة .

كذلك اختلف في المراد بـ «الشَّاهد» ـ فقال ابن عباس ، وإبراهيم النَّخَعي ، ومجاهد ، والضحاك ، وأبو صالح ، وعكرمة : هو جبريل عليه السلام . وقال الحسن بن علي : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال مجاهد أيضاً : هو ملَك وكَّلَه الله بحفظ القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يريد بهذه الألفاظ : جبريل عليه السلام[1]. وقال علي ابن أبي طالب ، والحسن ، وقتادة : هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروي ذلك عنه . وقالت فرقة : هو الإنجيل ، وقالت فرقة : هو القرآن ، وقالت فرقة : هو إعجاز القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتصرف قوله : [ويَتْلُوهُ] على معنيين . بمعنى : يقرؤُه ، وبمعنى : يتْبَعه . وتصرفه بحسب الخلاف المذكور في «الشاهد» ، ولْنُرَتِّب الآن اطراد كل قول وما يحتمل :

(١) فاعل «يريد» يعود على مجاهد في قوله قبل ذلك : «هُوَ ملَك» .

فإذا قلنا : إن قوله : [أَفَمَنْ] يراد به المؤمنون ، فإذا جعلت - بعد ذلك - « البَيِّنَة » محمداً صلى الله عليه وسلم ، صحَّ أَن يترتب « الشَّاهد» الإنجيل ، ويكون [يَتْلُوهُ] بمعنى : يقرؤُه ، لأَن الإنجيل يُقرأُ ، شأْن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأَن يترتب جبريل عليه السلام ، ويكون [يَتْلُوه] بمعنى : يَتْبَعه ، أَي في تبليغ الشرع والمعونة فيه . وأَن يترتب الملَك ، ويكون الضمير في [مِنْهُ] عائداً على « البيِّنة » التي قدرناها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأَن يترتب القرآن ، ويكون [يَتْلُوهُ] بمعنى : يتْبَعه ، ويعود الضمير في [مِنْهُ] على الربّ .

وإن جعلنا « البيِّنة » القرآن على أَن [أَفَمَنْ] هم المؤْمنون - صح أَن يترتب « الشَّاهد» محمد صلى الله عليه وسلم ، وصح أَن يترتب الإنجيل ، وصح أَن يترتب جبريل والملَك ، ويكون [يَتْلُوهُ] بمعنى : يقرؤُه ، وصحّ أَن يترتب « الشَّاهد» الإعجاز ، ويكون [يَتْلُوه] بمعنى : يتْبَعه ، ويعود الضمير في [مِنْهُ] على القرآن .

وإذا جعلنا [أَفَمَنْ] للنبي صلى الله عليه وسلم ، كانت « البَيِّنَة » القرآن ، وترتب « الشَّاهد» لسان محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، وترتب الإنجيل ، وترتب جبريل والملَك ، وترتب عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وترتب الإعجاز ، ويُتَأَول [يَتْلُوهُ] بحسب « الشاهد» كما قلنا ، ولكن هذا القول يضعفه قوله : [أُولَئِكَ] ، فإنا إذا جعلنا قوله : [أَفَمَنْ] للنبي صلى الله عليه وسلم وحده لم نجد في الآية مذكورِينَ يشارُ إليهم

بذلك ، ونحتاج في الآية إلى تجوُّز وتشبيهٍ بقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(١) ، وهو شبه ليس بالقوي .

والأَصح في الآية أَن يكون قوله : [أَفَمَنْ] للمؤمنين ، أَو لهم وللنبي صلى الله عليه وسلم معهم بـأَلا يترتب «الشاهد»(٢) ـ بعد ذلك ـ يراد به النبي صلى الله عليه وسلم داخلاً في قوله : [أَفَمَنْ] ، وما تركناه من بَسْطِ هذا الترتيب يخرجه التدبر بسرعة فتأَمله .

وقرأَ جمهور الناس : [كِتَابُ] بالرفع ، وقرأَ الكلبي ، وغيره : [كِتَابَ] بالنصب . فمن رفع قدَّر «الشاهد» الإنجيل(٣) ، معناه : يقرأُ القرآن ، أَو محمد صلى الله عليه وسلم ـ بحسب الخلاف ـ . والإنجيل ، ومِنْ قبل الإنجيلِ كتابُ موسى ، إذ في الكتابين ذكْرُ القرآن وذكْرُ محمد صلى الله عليه وسلم .

ويصحُّ أَن يُقَدِّرَ الرافعُ «الشاهدَ» القرآنَ ، وتطرد الأَلفاظ بعد ذلك .

ومن نصب [كتابَ] قدّر «الشاهدَ» جبريل عليه السلام ، أَي : يتلو القرآنَ جبريلُ ، ومن قبلِ القرآن كتابَ موسى(٤) .

---

(١) من الآية (١) من سورة (الطلاق) .

(٢) معنى كلامه هنا : أن نجعل [أفَمَنْ] للمؤمنين ، أو لهم وللنبي صلى الله عليه وسلم على ألا يكون المرادُ «بالشاهد» النبيّ لأنه داخل في (أفَمَنْ) .

(٣) لَعَلَّ الصواب «جبريل» بدلا من «الإنجيل» ، لأنه هو الذي يقرأ ، ولكن جميع النسخ كانت هكذا بلفظ «الإنجيل» .

(٤) [كتابَ] في قراءة النصب معطوف على مفعول [يَتْلُوهُ] ، أو منصوب بإضمار فعل يفسره المذكور وتقديره : يَتْلُو .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهنا اعتراض . يقال : إذا قال : ﴿مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ أو [كتابَ] بالنصب على القراءتين ، والضمير في [قَبْلِهِ] عائد على القرآن ، فلِمَ لمْ يذكر الإنجيل - وهو قبله - بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال أنه خصَّ التوراة بالذكر لأن المِلَّتين مجتمعتان أنهما من عند الله ، والإنجيل ليس كذلك ، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الطائفتين أَوْلى ، وهذا يجري مع قول الجنِّ : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾[(١)] ، ومع قول النجاشيّ : «إِنَّ هذا والذي جاءَ به موسى لَيَخْرُجُ من مشكاةٍ واحدة» ، فإنما اختصر «الإنجيل» من جهة أن مذهبهم فيه مخالف لحال القرآن والتوراة .

ونصب [إماماً] على الحال من ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ .

و [الأَحْزَاب] هاهنا يراد به جميعُ الأُمم ، وروى سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما من أَحد يسمع بي من هذه الأُمة ، ولا من اليهود والنصارى ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)[(٢)] ، فقلت : [(٣)] أين مصداق هذا من كتاب الله؟ حتى وجدته في هذه الآية ، وكنت إذا سمعت حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم طلبت مصداقه في كتاب الله .

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الأحقاف) .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ، من حديث شعبة عن أبي بشر . (قال ذلك ابن كثير في تفسيره) .

(٣) هذا من كلام سعيد بن جبير . فقد قال ابن كثير في تفسيره عقب الحديث مباشرة : «وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث ... الخ» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والراجح عندي من الأقوال في هذه الآية أن يكون [أَفَمَنْ] للمؤمنين ، أولهم وللنبي صلى الله عليه وسلم معهم ، إذ قد تقدم ذكر الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، فعقَّب ذكرهم بذكر غيرهم ، و « البَيِّنَة » : القرآن وما تضمن ، و « الشاهد » محمد صلى الله عليه وسلم أو جبريل عليه السلام إذا دخل النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : [أَفَمَنْ] ، أو الإنجيل ، والضمير في [يَتْلُوهُ] للبَيِّنَة ، وفي [مِنْهُ] للربّ تبارك وتعالى ، والضمير في [قَبْلِهِ] للبَيِّنَة أيضاً ، وغير هذا مما ذكرته آنفاً محتمل .

وقرأ الجمهور : ﴿ في مِرْيَة ﴾ بكسر الميم ، وقرأ السلمي ، وأبو رجاءٍ ، وأبو الخطاب السَّدُوسي : ﴿ في مُرْيَة ﴾ بضم الميم ، وهما لغتان في الشَّكِّ ، والضمير في [مِنْه] عائد على كون الكفرة موعدهم النار ، وسائر الآية بيّن .

وفي هذه الآية معادلة محذوفة يقتضيها ظاهر اللفظ تقديرها : أَفَمَنْ كان على بَيِّنة من ربّه كمن كفر بالله وكذَّب أنبياءه ؟ ونَحْوُ هذا ـ في معنى الحذف ـ قولُه عزَّ وجلَّ ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَى ﴾[1] لكان هذا القرآن ـ

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد) .

ومن ذلك قول الشاعر :

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رسولُهُ سِواكِ ، ولكِنْ لم نَجِدْ لَكِ مَدْفَعَا (١)

التقدير : لردَدْناهُ ولم نُصغ إليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾

(١) البيت من قصيدة لامرئ القيس مطلعُها :

جزَعْتُ ولمْ أجزَعْ منَ البَيْنِ مَجزَعا وعزَّيْتُ قَلْباً بالكواعبِ مُولَعَا

والرواية « وجدِّكِ لَوْ شَيْءٌ » بدلا من « فَأُقسِمُ » ، وهو من شواهد النحويين على أن الجواب فيه محذوف ، وهو جواب القسم لا جواب (لو) عملا بالقاعدة عند اجتماع قسم وشرط ، وتقدير الجواب : « لدفعناه » ، ذكر ذلك الفراءُ أخذاً من قوله : « مَدْفَعاً » . والصواب أن الجواب مذكور في البيت الذي بعده وهو :

إذاً لرَدَدْنَاهُ ولَوْ طالَ مُكْثُهُ لدَيْنَا ، ولكِنَّا بِحُبِّكِ وُلَّعَا

وابن عطية تبع الطبري في استشهاده بالبيت ، والطبري تبع الفراءَ الذي قال في كتابه « معاني القرآن » : « وربما تركت العر ب جواب الشيء والمعروف معناه ... قال الشاعر : فأقسم ... الخ البيت ، وقال تعالى وهو أصدق من قول الشاعر : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ .. ﴾ فلم يؤتَ له بجواب » . قال البغدادي في « خزانة الأدب » : « والصواب أن الجواب في البيت الذي بعده ، وعلى هذا يكون قوله : « ولكِنْ لم نَجِدْ لَكِ مَدْفَعاً » جملة اعتراضية ، وعذرهم في تقدير الجواب أن البيت الثاني ساقط في أكثر الروايات ، وقد ذكره الزجاجي في أماليه الصغرى والكبرى ضمن ثمانية أبيات رواها المبرد» .

قوله : [وَمَنْ] استفهام بمعنى التقرير ، وكأنه قال : لا أحد أظلم ممن افترى كذباً ، والمراد بـ [مَنْ] الكفرة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ، ويفترون في غير ما شيءٍ ، وقوله : ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الإشادة عليهم(١) والتشهير بخزيهم ، وإلا فكل بشر يعرضون على الله يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ . قالت فرقة : يريد الشهداءَ من الأنبياءِ والملائكة ، فيجيءُ قوله : ﴿هَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ إخباراً عنهم وشهادة عليهم . وقالت فرقة : [الْأَشْهَادُ] بمعنى الشاهدين ، ويريد جميعَ الخلائق ، وفي ذلك إشارة عليهم ، وروي في نحو هذا حديث : (إنَّه لا يخزى أحدٌ يوم القيامة إلَّا ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر)(٢) ، فيجيءُ قوله : [هَؤُلَاءِ] ـ على هذا التأويل ـ استفهاماً عنهم وتثبتاً فيهم ، كما تقول إذا رأيت مجرماً قد عوقب : «هذا هو الذي فعل كذا وكذا» ؟ وإن كنت قد علمت ذلك ، [ويحتمل الإخبار عنهم](٣) .

وقوله : [أَلَا] استفتاحُ كلام ، و «اللَّعْنَةُ» : الإبعاد ، و [الذينَ] نعت لـ [الظَّالِمِينَ] . ويحتمل الرفع على تقدير : «هم الذين» . و [يَصُدُّونَ] يحتمل أن يقدر متعدياً على معنى : يَصُدّون الناس ويمنعونهم من سبيل الله ، ويحتمل أن يقدر غير متعد على معنى : يصُدّون هم ،

(١) يقال : أشاد بالشيء : رفع صوته به ـ وبذكره : أثنى عليه ـ وعليه : شَهَّرَ به . (المعجم الوسيط) .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) الجملة التي بين القوسين المعقوفين ساقطة في أكثر النسخ التي بين أيدينا .

أَي : يُعْرِضون . و [سَبِيلِ اللهِ] : شريعتُه ، و [يَبْغُونَهَا] معناه : يطلبون لها ، كما تقول : بغيتك خيراً أَو شراً ، أَي : طلبت لك ، و [عِوَجاً] ـ على هذا ـ مفعول ، ويحتمل أَن يكون المعنى : ويبغون السبيل على عِوَج ، أَي : فهم لا يهتدون أَبداً ، ف [عِوَجاً] ـ على هذا ـ مصدر في موضع الحال . والعِوَج : الانحراف والميل المؤَدّي إلى الفساد ، وكرر قوله : [هُمْ] على جهة التأْكيد ، وهي جملة في موضع خبر الابتداءِ الأَول ، وليس هذا موضع الفصل لأَن الفصل إنما يكون بين معرفتين ، أَو معرفة ونكرة تقارب المعرفة ، لأَنها تفصل ما بين أَن يكون ما بعدها صفة أَو خبراً وتخلِّصه للخبر .

و [مُعْجِزِينَ] معناه : مُفْلتين لا يُقدر عليهم ، وخصَّ ذكر الأَرض لأَن تصرف ابن آدم وتمتعه إنما هو فيها ، وهي قصاراه لا يستطيع النفوذ منها . وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل معنيين ، أَحدهما : أَنه نفى أَن يكون لهم ولي أَو ناصر كائناً من كان . والثاني : أَن يقصد وصف الأَصنام والآلهة بأَنهم لم يكونوا أَولياءَ حقيقة ، وإن كانوا هم يعتقدون أَنهم أَولياءُ . ثم أَخبر أَنه يُضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، أَي يُشَدَّدُ حتى يكون ضعفيْ ما كان ، و [يُضَاعَف] فعل مستأْنف وليس بصفة .

وقوله : ﴿ما كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ يحتمل خمسة أَوجه :

أَحدها : أَن يصف هؤلاءِ الكفار بهذه الصفة على معنى أَن الله ختم عليهم بذلك ، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به ولا يبصرون كذلك .

الثاني : أَن يكون وصفهم بذلك من أَجل بغضتهم في النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم لا يستطيعون أَن يحملوا أَنفسهم على السمع منه والنظر إليه ، وينظر إلى هذا حشو الطفيل بن عمرو أُذنيه بالكُرْسُف[1] ، وإباية قريش وقت الحديبية أَن يسمعوا ما نقل إليهم من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ردّهم عن ذلك مشيختهم .

والثالث : أَن يكون وصف بذلك الأَصنام والآلهة التي نفى عنها ـ على التأْويل المتقدم ـ أَن تكون أَولياءَ ، و[مَا] في هذه الوجوه الثلاثة نافية.

والرابع : أَن يكون التقدير : يضاعف لهم العذاب بما كانوا ، بحذف الجار[2] ، وتكون [مَا] مصدرية ، وهذا قولٌ فيه تحامل ، قاله الفراءُ وقرنه بقوله : «أُجازيك ما صنعت بي» .

والخامس : أَن تكون [مَا] ظرفية ، أَي أَن العذاب يضاعف لهم مدة استطاعتهم السمع والبصر ، وقد أَعلمت الشريعة أَنهم لا يموتون فيها أَبداً ، فالعذاب إذاً مُتمادٍ أَبداً .

---

(١) الكُرْسُف : القُطْن .

(٢) والعرب تقول : جزيته ما فعل ، وبما فعل ، فيحذفون الباءَ مرة ويثبتونها أُخرى ، وأنشد سيبويه قول عمرو بن معديكرب :

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ   فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذا مـالٍ وَذَا نَشَبِ

أراد : «أمرتك بالخير» فحذف ووصل الفعل ونصب ، والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها ، وقيل : جميع المال ، فيكون عطفه على الأول من قبيل المبالغة والتـأكيد . (شواهد سيبويه) .

وقدم السمع على البصر في هذه الآية لأن حاسَّته أشرف من حاسة البصر ، إذ عليه تبنى في الأطفال مَعْرِفَة دلالات الأَسماءِ ، وإذ هو كاف في أكثر المعقولات دون البصر ، إلى غير ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بوجوب العذاب عليهم ، ولا خسران أَعظم من خسران النفس[1] . و [ضَلَّ] معناه : تلِفَ ولم يجدوه حيث أَمَّلوه . و ﴿لا جَرَمَ﴾ لفظة مركبة من «لا» ومن «جَرَمَ» بُنِيَتَا معاً ، ومعنى «لا جَرَمَ» : حقٌّ . هذا مذهب سيبويه والخليل . وقال بعض النحويين : معناها : لا شكَّ ولا بُدّ ولا مَحَالة ، وقد رُوي هذا عن الخليل . وقال الزجاج : [لَا] ردٌّ عليهم ولِمَا تقدم من كل ما قبلها ، و [جَرَمَ] معناه : كَسَبَ ، أَي : كَسَب فعْلُهم ﴿أَنَّهُم في ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسرُونَ﴾ . فموضع [أَنَّ] — على مذهب سيبويه — رفعٌ ، وموضعها — على مذهب الزجاج — نصب ، وقال الكسائي : معناها : لا صدَّ ولا مَنْع .

(١) قال أبوحيان في «البحر» : « وهو على حذف مضاف ، أي : راحةَ أوْ سعادةَ أنفسهم ، وإلا فأنْفُسُهُم باقية معذبة » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأن [جَرَمَ] - على هذا - من معنى القطع ، تقول : جرَمْتُ أي قطعت . وهي على منزع الزجاج من الكَسْب ، ومنه قول الشاعر :

جَرِيمَةُ ناهِضٍ في رَأْسِ نِيقٍ تَرَى لِعِظامِ ما جَمَعَتْ صَلِيبا (١)

وجريمةُ القوم كاسِبُهم . وأما قول الشاعر :

ولقَدْ طعنْتُ أَبا أُمَيْمَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزارَةُ بَعْدَها أَنْ يَغْضَبُوا (٢)

فيحتمل الوجهين ، ويختلف معنى البيت . وفي « لَا جرَمَ » ثلاث لغات : يقول بعض العرب : « لا ذَا جَرَمَ » ، وبعضهم : « لا أَنْ ذَا جَرَمَ » ،

(١) البيت لأبي خراش الهُذَليّ يصف عُقاباً ترزُق فرْخَها وتكسبُ له ، فهي تقدم له ما يأكله من لحم طير أكلته ، وبقيت عظامه يسيل منها الدهن ، وجريمة بمعنى : كاسبة ، قاله في اللسان . والنِّيق : الطويل من الجبال ، ورأسُ النِّيق : أعلى موضع فيه . هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية (٢) من سورة (المائدة) .

(٢) البيت منسوب في « اللسان » و « الصحاح » لأبي أسماء بن الضَّريبة . وقيل : إن البيت لعطيَّة بن عفيف ، والصواب فيه : « ولَقَدْ طعنتَ » بفتح التاء ، لأنه يخاطب كُرْزاً العُقَيْلي ويرْثيه ، وقبل البيت :

يا كُرْزُ إنَّكَ قَدْ قُتِلْتَ بِفارسٍ بطَلٍ إذا هابَ الكُمَاةُ وجَبَّبُوا

وكان كُرْز قد طعن أبا عُيَيْنَة ، وهو حِصْن بنُ حُذَيْفَة بن بدْرٍ الفَزَاريُّ . قال ذلك ابن برّي ، ونقله في اللسان عنه . وجَرَمَ في هذا البيت تحتمل المعنيين كما قال ابن عطية رحمه الله . قال الأخفش : ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ معناها : حقّ أن لهم النار ، وأنشد : « جَرَمَت فزارةُ » ، يقول : حقّ لها ، وفزارةُ مرفوعةٌ ، وقال الفراءُ : « وليس قول من قال : « جرمْتُ : حقَقْتُ » بشيءٍ ، وإنما لبَّس عليهم الشاعر بقوله : « جرمَتْ فزارةُ » ، فرفعوا « فزارة » كأنه حقّ لها الغضب ، قال : وفزارة منصوبة ، أي : جرَمَتهم الطعنة أن يغضبوا ، قال أبو عبيدة : أحَقَّتْ عليهم الغضَب ، أي : أحَقَّتِ الطَّعْنَةُ فزارةَ أن يغضبوا » . (راجع التاج واللسان والصحاح) .

وبعضهم: «لا عَنْ ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم: «لَا جَرَ» ، حذفوا الميم لكثرة استعماله.

و [أَخْبَتُوا] ، قيل : معناه : خشعوا ، قاله قتادة . وقيل : أنابوا ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : اطمأَنوا ، قاله مجاهد ، وقيل : خافوا ، قاله ابن عباس أيضاً . وهذه الأَقوال بعضها قريب من بعض ، وأَصل اللفظ من «الخَبْت» وهو البراحُ القَفْر المستوي من الأَرض ، فكأَن المُخْبت في القفر قد انكشف واستسلم وبقي دون منعة ، فشبه المتذلل الخاشع بذلك ، وقيل : إنما اشتق منه لاستوائه وطمأْنينته . وقوله : ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ ، قيل : هي بمعنى اللام ، أَي : اخبتوا لربهم ، وقيل : المعنى : جعلوا قصدهم بإخباتهم إلى ربهم[(١)] .

والفريقان : الكافرون والمؤمنون ، شبه الكافر بالأَعمى وبالأَصم ، وشبه المؤمن بالبصير وبالسميع ، فهو – على هذا – تمثيل بمثالَيْن . وقال بعض المتأَولين : التقدير : كالأَعمى الأَصم ، والبصير السميع ، ودخلت واو العطف ، كما تقول : جاءَني زيد العاقل والكريم ، وأَنت تريده بعينه ، فهو – على هذا – تمثيل بواحد[(٢)] . و [مَثَلًا] نصب على التمييز ، ويجوز أَن يكون حالا[(٣)] .

---

(١) قيل : إن «أخبت» يتعدى بإلى وباللام ، ويقال : أَخْبَتَ : دخل في الخَبْت . كأَنْجَد : دخل نَجْداً ، وَأَتْهَمَ : دخَلَ تِهامة ، ثم توسع فيه فقيل : خبت ذكره : خمد .

(٢) إذا كان من تشبيه اثنين بإثنين فقد قوبل الأعمى بالبصير ، والأصم بالسميع. وإذا كان تمثيلا بواحد فمعناه أنه تشبيه واحد بوصفيه بواحد بوصفيه فيكون من عطف الصفات ، كما قال الشاعر :

إلى الملِكِ القِرْنِ وابنِ الهُمَام وليْثِ الكَرِيهَةِ في المزْدَحَمْ

(٣) قال أبو حيان : وفي كونه حالا بُعْد، والظاهر التمييز ، وأنه منقول من الفاعل ، وأصله : هل يستوي مثلاهما ؟ – ولم يذكر القرطبي في إعرابه غير التمييز .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب ، وإعلام أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرسل ، وروي أن نوحاً عليه السلام أَول رسول إلى الناس ، وروي أن إدريس أَول نبي من بني آدم إلا أَنه لم يرسل ، فرسالة نوح إنما كانت إلى قومه كسائر الأَنبياءِ ، وأَما الرسالة العامة فلم تكن إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة : [إِنِّي] بكسر الأَلف ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، والكسائي : [أَنِّي] بفتح الأَلف ، فالكسر على إضمار القول ، والمعنى : قال لهم : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ، ثم يجيءُ قوله : ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ معمولًا لِـ [أَرْسَلْنَا] ، أَي : أَرسلنا نوحاً بأَلَّا تعبدوا إلا الله ، واعترض أَثناءَ الكلام بقوله : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ . والفتح على إعمال [أَرْسَلْنَا] في [أَنِّي] ، أَي : بأَني لكم نذير . قال أَبو علي : وفي هذه القراءَة خروج من الغيبة إلى المخاطبة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية مخاطبته لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى خطاب ، ولو كان الكلام «أَن أَنذرهم» أَو نحوه لصحّ ذلك . و «النذير» للتحفظ من المكاره بأَن يُعَرفها ويُنَبِّه عليها ، و [مُبِينٌ] من : أَبان يُبين.

وقوله تعالى : ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ظاهر في أَنهم كانوا يعبدون الأَوثان ونحوها ، وذلك بيِّن في غير هذه الآية ، و [أَلِيمٌ] معناه : مؤلم ، ووصف به «اليوم» وحقه أَن يوصف به «العذاب» تجوّزاً ، إذ العذابُ في اليوم ، فهو كقولهم : «نهارٌ صائم وليلٌ قائم» .

و [ٱلْمَلَأُ] الجمع والأَكثر من القبيلة والمدينة ونحوه ، ويُسَمى الأَشراف ملأً إذْ هم عمدة الملإِ والسَّادُّون مسَدَّه في الآراءِ والأُمور ، وكل جماعة كبيرة ملأٌ . ولمَّا قال لهم نوح : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا : ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ ، أَي : واللهُ لا يبعث رسولًا من البشر ، فأَحالوا الجائز على الله . و «الأَراذل» جمع أَرْذَل ، وقيل : جمع أَرْذُل ، وأَرْذَال جمع رَذْل[1] ، وكان اللازم – على هذا – أَن يقال : أَراذيل ،

(١) يقول أكثر أهل اللغة : أراذل : جمع أَرْذُل : وأَرْذُل : جمع رَذْلٍ ، فهو مثل : كلْبٍ وأَكْلُب وأَكالِب . وقد نقل ذلك القرطبي والبحر ، وقال في «البحر» : «والظاهر أنه جمع أَرْذَل التي هي أفعل التفضيل ، وجاءَ جمعاً كما جاءَ : ﴿أَكابِرَ مُجْرِميها﴾ و (أَحاسِنُكم أخلاقاً) . ويقال : إن الأراذل هي جمع الأَرْذَل كالأَساوِد جمع الأَسْود من الحيّات .

وإذا ثبتت الياءُ في جمع «صَيْرف» فأَحرى أَلا تُزال في موضع استحقاقها وهم سفلة الناس ومَن لا خَلَاقَ له ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له .

وقرأَ الجمهور : ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بياءٍ دون همز ، من : «بَدَا يَبْدُو» ، ويحتمل أَن يكون من «بدأَ» مسَهَّلًا ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعيسى الثقفي ﴿بَادِئَ الرَّأْيِ﴾ بالهمز مِن «بدأَ يبدأُ» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبين القراءَتين اختلاف في المعنى يعطيه التدبّر(١) فتركتُ التطويل ببسطه . والعرب تقول : «أَما بادِئَ بدْءٍ فإِنِّي أَحمد الله» ، و «أَمّا باديَ بدْيٍ» ، بغير همز فيهما ، وقال الراجز :

أَضْحَى لِخالي شَبَهي بادِي بَدِي وصارَ لِلْفَحْلِ لِسَاني وَيَدِي (٢)

وقال الآخر :

* وقَدْ عَلَتْني ذُرْأَةٌ بادِي بَدِي * (٣)

---

(١) إذا كانت من «بَدَا يبدو» فالمعنى المراد هو الظهور ، أي : فيما يظهر لنا — وإن كانت من «بدأ يبدأ» — سواءٌ بقيت الهمزة أو سُهّلت — فالمعنى يكون من بدأتُ ، أي : من أوّل الرأي . قال ذلك الفراءُ والجوهري .

(٢) البيت في «اللسان» و «القاموس» ، وهو من شواهد أبي عبيدة في تفسيره «مجاز القرآن» ، ولم ينسبه أحد منهم ، قال في «اللسان» : «أراد به : ظاهري في الشبه لخالي ، والمعنى : خرجتُ عن شرخ الشباب إلى حدّ الكهولة التي معها الرأي والحجا ، فصرت كالفحولة التي بها يقع الاختيار ، ولها بالفضل تكثّر الأوصاف» . والفراءُ ينشد البيت شاهداً لعدم الهمز . وتأمل الهامش التالي فالشّطر الثاني للبيت هنا مثبت فيه على رواية «اللسان» .

(٣) هذا بيت من مشطور الرجز ، وهو لأبي نُخَيْلَة السعدي ، وأنشده الجوهري شاهداً على أن أصله الهمز وإنما تُرِك لكثرة الاستعمال ، قال : وربما جعلوه اسماً للداهية، =

وقرأ الجمهور بهمز [الرَّأْي] ، وقرأ أبو عمرو بترك الهمز ، و [بَادِيَ] نصب على الظرف ، وصحّ أن يكون اسم الفاعل ظرفاً كما يصحّ في «قريب» ونحوه ، وفعيلٌ وفاعلٌ متعاقبان أبداً على معنى واحد في المصدر ، كقولك : جهد نفسي محبٌّ كذا وكذا .

وتعلق قوله : ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ يحتمل ستة أوجه :

أحدها : أن يتعلق بـ [نَرَاكَ] ، أي : وما نراك بأول نظر وأقل فكرة ـ وذلك هو بادئ الرأي ـ أي : إلّا ومُتَّبعوك أراذلنا .

والثاني : أن يتعلق بقوله : [اتَّبَعَكَ] ، أي : وما نراك اتَّبعك بادي الرأي إلا الأراذل ، ثم يحتمل ـ على هذا ـ قوله : ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ معنيين : أحدهما : أن يريد : اتَّبعك في ظاهر أمرهم ، وعسى أنَّ بواطنهم ليست معك ، والثاني : أن يريد : اتَّبعوك بأول نظر وبالرأْي البادي دون تعقب ، ولو تثبتوك لم يتبعوك ، وفي هذا الوجه ذمٌّ الرأْي الغير المروي[1] .

= كما قال أبو نُخَيْلَة :

وقَدْ عَلَتْني ذُرْأَةٌ بادِي بَــدِي
ورَيْثَــةٌ تَنْهَضُ بالتَّشَـدُّدِ
وصَارَ لِلفَحْلِ لِسَاني وَيَــدِي

قال : و «بادي بدى» اسمان جعلا اسماً واحداً مثل : «قالي قلا» و«معد يكرب» ، ومن الرأي في «اللسان» أيضاً أنه قد يكون من : بَدا يبدو بمعنى : ظهر . والذُّرْأة : الشيب في مقدم الرأس ، ويقال : عَلَتْه ذُرْأةٌ أي شيبٌ ، وهي بضم الذال ، والرَّيْثَةُ : انحلال الركب والمفاصل .

(١) الأفصح في اللغة أن يقال : «غير المروي» لأن الألف واللام لا تدخل على (غير) إذ الهدف من إدخالها على النكرة تخصيصها بشيءٍ معيَّن، وليس لإدخالها على (غير) فائدة =

والوجه الثالث من تعلق قوله : ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أَن يتعلق بقوله : [أَرَاذِلُنَا] ، أَي : الذين هم أَراذلنا بأَول نظر فيهم ، وببادي الرأْي يُعلم ذلك منهم .

ويحتمل أَن يكون قولهم : «بادي الرأْي» وصفاً منهم لنوح ، أَي : تَدَّعي عظيماً وأَنت مكشوف الرأْي لا حصافة لك ، ونصبه على الحال وعلى الصفة .

ويحتمل أَن يكون اعتراضاً في الكلام مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويجيءُ جميع هذا ستة معان ، ويجوز التعلق في هذا الوجه بـ [قالَ] .

ومعنى ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ ، أَي : ما ثَمَّ شيءٌ تستحقون به الاتباع والطاعة . ثم قال : ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فيحتمل أَنهم خاطبوا نوحاً ومن آمن معه من قومه ، أَي : أَنتم كاذبون في تصديقكم هذا الكاذب ، وقولكم : إنه نبيٌّ مرسل . ويحتمل أَنهم خاطبوا نوحاً وحده فيكون من باب قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُم﴾ [1] .

= لأنها لا تتعرف بها وتشتمل على مالا يحصى . وهناك من اللغويين من يجيز إدخال الألف واللام عليها لأنها تشبه المعرفة ، فهي تضاف إلى المعرفة ويجوز أن يدخل عليها ما يعاقب الإضافة وهو الألف واللام . (راجع «المصباح المنير ــ غير» ، والصبان ، وحواشي الكشاف وغيرها) .

(١) من الآية (١) من سورة (الطلاق) ، وهي من باب الآية في أن المخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم والمراد هو ومن معه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذه الآية كأَنه قال : أَرأَيتم إِن هداني اللهُ وأَضلكم ، أَأُجبِركم على الهدى وأَنتم كارهون له معرضون عنه ؟ واستفهامه في هذه الآية أَولا وثانياً على جهة التقرير ، وعبارة نوح عليه السلام كانت بِلُغَتِهِ دالة على المعنى القائم بنفسه ، وهذا هو المفهوم من هذه العبارة العربية ، فبهذا استقام أَن يقال كذا وكذا ، إِذ القولُ ما أَفاد المعنى القائم بنفسه .

وقوله : ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ، أَي : على أَمر بيّن جليّ ، والهاءُ في [بَيِّنَةٍ] للمبالغة كعلَّامة ونسَّابة . و «إِيتاؤُه الرَّحْمَةَ» هو هدايته للبيّنة ، والمشار إِليه بهذا كله النبوةُ والشرعُ . وقوله : ﴿مِنْ عِندِهِ﴾ تأْكيد ، كما قال : ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[1] ونحوه ، وفائدته رفع الاشترك ولو بالاستعارة .

(١) من الآية (٣٨) من سورة (الأنعام) .

وقرأ جمهور الناس : [فَعَمِيَتْ] ، ولذلك وجهان من المعنى : أَحدهما : خفِيَتْ ، ولذلك يقال للسحاب : العماءُ لأَنه يخفي ما فيه ، كما يقال له : الغمام لأَنه يغمه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (كان الله قبل أَن يخلق الأَشياءَ في عماءٍ)(١). والمعنى الثاني أَن تكون الإرادة : «فعَميتُم أَنتم عنها» لكنه قَلَب ، كما تقول العرب : «أَدخلتُ القلنسوةَ في رأْسي» ، ومنه قول الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها يُدْخِلُ الظِّلَّ رأْسَهُ وسائره بادٍ إلى الشَّمْس أَجْمَعُ (٢)

قال أَبو عليّ : وهذا مما يقلب إِذْ ليس فيه إِشكال ، وفي القرآن : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾(٣)

وقرأ حَفْصٌ ، وحمزة ، والكسائي : [فَعُمِّيَتْ] بضم العين وتشديد الميم على بناءِ الفعل للمفعول ، وهذا إنما يكون من الإِخفاءِ ، ويحتمل

---

(١) رواه الترمذي في تفسير سورة (هود) ، وابن ماجه في المقدمة ، والإمام أحمد في مسنده (٤-١١ ، ١٢) ولفظه كما في المسند : عن أبي رزين قال : قلت : يارسول الله ، أين كان ربنا عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : (كان في عماءٍ ، ما تحته هواءٌ ، وما فوقه هواءٌ ، ثم خلق عرشه على الماءِ) .

(٢) البيت غير منسوب ، وقد استشهد به في «البحر» ، وعلّق على رأي أبي علي بقوله : «وأما قول الشاعر فليس من باب القلب ، بل من باب الاتساع في الظرف» .

(٣) من الآية (٤٧) من سورة (إبراهيم) ، وأبو حيان لا يوافق أيضاً على أنها من باب القلب ، ويقول : «فأَخْلَفَ يتعدي إلى مفعولين ، ولك أن تضيف إلى أيهما شئت فليس من باب القلب» . وهو يرى أيضاً أن آيتنا هنا ليست من باب القلب ، ويقول : ولو كان ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ مِن باب القلب لكان التعدي بـ (عن) دون (على) ، ألا ترى أنك تقول : «عميتُ عن كذا» ولا تقول : «عميتُ على كذا» . (البحر المحيط ٥-٢١٦) .

القلب المذكور . وقرأ الأعمش ، وغيره : ﴿فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ﴾ ، قال أَبو حاتم : روى الأَعمش عن ابن وثاب : [وَعمِيَتْ] بالواو خفيفة[١].

وقوله : [أَنُلْزِمُكُمُوهَا] يريد إلزام جبر كالقتال ، وأَما إلزام الإِيجاب فهو حاصل . وقال النحاس : معناه : أَنُوجبها عليكم ؟ وقوله في ذلك خطأٌ . وفي قراءَة أُبي بن كعب : « أَنُلْزِمُكُمُوها من شطر أَنفسنا » ، ومعناه من تلقاءِ أَنفسنا ورُوي عن أَبن عباس أَنه قرأَ ذلك « من شطر قلوبنا » .

وقوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ الآية . الضمير في [عَلَيْهِ] عائد على التبليغ ، وقوله : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقتضي أَنهم طلبوا منه طرد الضعفاءِ الذين بادروا إلى الإِيمان به نظير ما اقترحت قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرد أَتباعه بمكة الذين لم يكونوا من قريش . وقوله : ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ تنبيه على العودة إلى الله ولقاءِ جزائه ، المعنى : فيوصِّلهم إلى حقهم عندي إن ظلمتهم بالطرد ، ثم وصفهم بالجهل في مثل هذا الاقتراح ونحوه .

وقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللهِ﴾ الآية . هو استفهام بمعنى تقرير وتوقيف ، أَي : لا ناصر يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم بالطرد عن الخير الذي قبلوه ، ثم وقفهم بقوله : ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، وعرض عليهم النظر المؤدي إلى صحة هذا الاحتجاج .

---

(١) يريد بالواو بدلا من الفاء ، والكلمة خفيفة الميم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله : ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ عطف على قوله : ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ ، ومعنى هذه الآية : إنِّي لا أُمَوِّه عليكم ، ولا أتعاطى غير ما أَهَّلني الله له ، فلست أَقول : عندي خزائن الله ، يريد : القدرة التي يوجد بها الشيء بعد حال عدمه . وقد يمكن أَن يكون من الموجودات كالرياح والماءِ ، ونحوه كثير باختراع الله له [1] ، فإِن سمّي ذلك ـ على جهة التجوز ـ مختزناً فيشبه ، أَلا ترى المروي في أَمر ريح عادٍ أَنه فتح عليهم من الريح قدر حلقة الخاتم ، ولو كان على قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض ، ورُوي أَن الريح عتت على الملائكة الموكلين بتقديرها فلذلك وصفها الله تعالى بالعتو ، وقال ابن عباس ، وغيره : عَتَتْ على الخُزَّان ، فهذا ونحوه يقتضي أَن ثم خزانين . ثم قال : ﴿وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ، ثم انحط عن هاتين فقال : ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ، وظاهر هذه

(١) في إحدى النسخ : «كثير بإبداع الله تعالى له» .

الآية فضل المَلَك على البشر وعلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مسأَلة اختلاف ، وظاهر القرآن على ما قلنا . وإن أَخذنا قوله : ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ على حدّ أَن لو قال : «ولا أَقول إِني كوكب أَو نحوه» زالت طريقة التفضيل ، ولكن الظاهر هو ما ذكرنا .

و [تَزْدَري] أَصله : «تزتري» – تفتعل – من : زرى يزري (١) ، ومعنى [تَزْدَري] : تحتقر ، و «الخَيْر» هنا يظهر فيه أَنه خير الآخرة ، اللَّهم إلا أَن يكون ازدراؤُهم من جهة الفقر ، فيكون الخير : المال ، وقد قال بعض المفسرين : حيثما ذكر الله الخير في القرآن فهو المال ، وفي هذا الكلام تحامل ، والذي يشبه أَن يقال : إِنه حيثما ذكر الخير فإِن المال يدخل فيه .

وقوله : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ تسليم لله تعالى ، أَي : لست أَحكم عليهم بشيءٍ من هذا ، وإنما يحكُم عليهم بذلك ويَخْرج حكمُه إلى حيّز الوجود اللهُ تعالى الذي يعلم ما في نفوسهم ويجازيهم بذلك ، وقد قال بعض المتأَولين : هي ردّ على قولهم : «اتَّبعك أَراذلنا على ما يظهر منهم» حسب ما تقدم في بعض تأْويلات تلك الآية آنفاً .

---

(١) القاعدة أن التاء تبدل بعد الزاي دالا ، لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها ، ويقال : أزريْتُ عليه إذا عبته ، وزريْتُ عليه إذا حقَّرته ، وأنشد الفراءُ :

يُبَاعِـدُه الصّـديقُ وتَزْدريه ... حليلَتُـهُ وينْهَـرُهُ الصغيـر

والأصل أن يقال : «تزدريهم» ، ولكن حذفت الهاءُ والميم لطول الاسم .

فالمعنى : لستُ أَنا أَحكم عليهم بأَلَّا يكون لهم خير لِظنكم بهم أَن بواطنهم ليست كظواهرهم ، الله أَعلم بما في نفوسهم . ثم قال : ﴿إِنِّي إِذاً﴾ لو فعلتُ ذلك ﴿لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الشيء في غير موضعه .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ الآية . معناه : قد طال منك هذا الجدال ، وهو المراجعة في الحُجَّة والمخاصمة والمقابلة بالأَقوال حتَّى تقع الغلبة ، وهو مأْخوذ من الجَدْل ، وهو شدة الفتل . ومنه : حبْلٌ مجدولٌ ، أَي : مُمَرّ[1] ، ومنه قيل للصقر : أَجدل ، لشدة بِنْيته وفتل أَعضائه ، والجدالُ : فِعالٌ مصدر فاعَلَ ، وهو يقع من اثنين ، ومصدر فاعَلَ يأْتي على فِعَالٍ وفِيعَالٍ ومفاعلة ، فتركت الياءُ من فِيعَال ورفضت . ومن الجدال ما هو محمود ، وذلك إذا كان مع كافر حربي في منعته ويطمع بالجدال أَن يهتدي ، ومن ذلك هذه الآية ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] ، إلى غير ذلك من الأَمثلة . ومن الجدال ما هو مكروه ، وهو ما يقع بين المسلمين بعضهم في بعض في طلب علل الشرائع ، وتصور ما يخبر به الشرع من قدرة الله ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكرهه العلماءُ ، والله المستعان . وقرأَ ابن عباس : ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا﴾ بغير أَلف ، وبفتح الجيم ، ذكره أَبو حاتم[3] .

---

(١) يقال : أَمَرَّ الحَبَل بمعنى فتَله وأَحكم فتْلَه ، فهو مُمَرّ .

(٢) من الآية (١٢٥) من سورة (النحل) .

(٣) كقوله تعالى : ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ من الآية (٥٤) من سورة (الكهف) .

والمراد بقولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ العذاب والهلاك . والمفعول الثاني لـ [تَعِدُنَا] مضمر تقديره : بما تعدناه . ولما كان الكلام يقتضي العذاب جاز أَن يستعمل فيه الوعد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

المعنى : ليس ذلك بيدي ولا إِليَّ توفيته ، وإِنما ذلك بيد الله ، وهو الآتي به إِن شاءَ وإِذا شاءَ ، ولستم من المنعة بحال من يفلت أَو يعتصم بمُنْج ، وإِنما أَنتم في قبضة القدرة وتحت ذِلَّة التملك ، وليس نصحي بنافع ، ولا إِرادتي الخير لكم مغنية إِذا كان الله تعالى قد أَراد بكم الإِغواءَ والإِضلال والإِهلاك . والشرط الثاني اعتراضٌ بين الكلام ، وفيه بلاغة في اقتران الإِرادتين ، وأَن إِرادة الشر غير مغنية ، وتعلق هذا الشرط هو بـ [نُصْحي] ، وتعلق الآخر هو بـ [لَا يَنْفَعُ] والنُّصْحُ هو سَدُّ ثَلْم الرأْي للمنصوح وترقيعُه ، وهو مأْخوذ من :

نَصَحَ الثوبَ إذا خَاطَهُ . والمِنْصح : الإبرة ، والخَيْط يقال له : مِنْصَحٌ ونِصَاحٌ (١) .

وقالت فرقة : معنى قوله [يُغْوِيَكُمْ] : يُضِلكم ، من قولهم : غَوَى الرجل يَغْوَى ، ومنه قول الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ علَى الغَيِّ لائِماً (٢)

وإذا كان هذا معنى اللفظة ففي الآية حجة على المعتزلة القائلين : إن الضلال إنما هو من العبد . وقالت فرقة : معنى قوله : [يُغْوِيَكُمْ] : يُهلككُم ، والغَوَى : المرض والهلاك ، وفي لغة طيْ : أَصبح فلان غاوياً ، أَي مريضاً ، والغَوَى : بَشَمُ الفصيل ، قاله يعقوب في الإصلاح ، وقيل : فَقْده اللبن حتى يموت جوعاً ، قاله الفراءُ وحكاه الطبري ، يقال : غَوِيَ يَغْوَى (٣) . وحكى الزهراوي أَنه الذي قطع عنه اللبن حتى كاد يهلك ولمَّا يهلِك بعد . فإذا كان هذا معنى اللفظة زال موضع النظر بين أَهل السُّنَّة والمعتزلة ، وبقي الاحتجاج عليهم بما هو أَبْيَن

---

(١) يقال : نَصَح الخيَّاطُ الثوبَ إذا أنعم خياطته ولم يترك فيه فتقا ولا خللا ، شبَّه ذلك بالنصح (أساس البلاغة — نصح) .

(٢) البيت للمرقش الأصغر ، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد ، وهو من قصيدة غزلية في حبيبته فاطمة يقول في مطلعها :

ألا يا اسْلَمي ، لا صَرْمَ لي اليَوْمَ فَاطِما ولا أَبَداً ما دامَ وصْلُكِ دائِماً

والغَوَى هنا هو الضلال والخيبة .

(٣) قال في « اللسان » : « الجوهري : والغَوَى مصدر قولِكَ : غَوِيَ الفَصيلُ والسَّخْلة بالكسر يغوى ... قال ابن السِّكِّيت : هو ألا يَرْوَى من لَبَإِ أُمه ، ولا يَرْوَى من اللبن حتى يموت » . وقال : « قال ابن شُمَيْل : غَوَى الصبيُّ والفصيل إذا لم يجد من اللبن إلا عُلْقة » .

من هذه الآية كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية[١] ونحوها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واعتقد مكي أن للمعتزلة تعلقاً وحجة بالغة بهذا التأويل ، فردَّ عليه وأفرط حتى أنكر أن يكون الغوى بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب.

وقوله : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ تنبيه على المعرفة بالخالق . وقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيد وتخويف .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾ الآية . قال الطبري وغيره من المتأولين والمؤلفين في التفسير[٢] : إن هذه الآية اعترضت في قصة نوح عليه السلام ، وهي في شأن محمد صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش ، وذلك أنهم قالوا : افترى القرآن وافترى هذه القصة على نوح ، فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لو صحّ بسند وجب الوقوف عنده ، وإلا فهو يحتمل أن يكون في شأن نوح عليه السلام ويبقى اتساق الآية مطرداً ، ويكون الضمير في قوله : [ٱفْتَرَاهُ] عائد إلى العذاب الذي توعدهم به ،

---

(١) من الآية (١٢٥) من سورة (الأنعام) .
(٢) في بعض النسخ : «والمؤلفين في السّير» .

أَو على جميع أَخباره ، وأُوقع الافتراءُ على العذاب من حيث يقع على الإِخبار به ، والمعنى : أَم يقول هؤلاءِ الكفرة : افترى نوح هذا التَّوعُّد بالعذاب وأَراد الإِرهاب علينا بذلك[١] . ثم يطرد باقي الآية على هذا .

و [أَمْ] هي التي بمعنى « بل » ، و « الإِجْرَامُ » مصدر أَجْرَمَ يُجْرِمُ إذا جَنَى ، يقال : جَرَمَ وأَجْرَمَ بمعنى ، ومن ذلك قول الشاعر :

طَرِيدُ عَشِيرَةٍ ورَهِينُ ذنْبٍ بِمَا جَرَمَتْ يَدي وجَنَى لِسَانِي[٢]

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قرأَ أَبو البَرَهْسَم[٣] : [وَأَوْحَى] بفتح الهمزة على إسناد الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ ، [إِنَّهُ] بكسر الهمزة ، وقيل لنوح هذا بعد أَن طال

(١) أرهب تتعدى بنفسها ، ولهذا جاءت العبارة في إحدى النسخ : « وزاد الإرهابَ علينا بذلك » .

(٢) جاء في « اللسان » — جرَمَ — : « وأنشد أبو عُبَيدة للهَيْرُوَانِ السَّعْدِي أحد لصوص بني سعدٍ : (طريدُ عشيرة ..) الخ البيت ، وفيه : « ورهين جُرْم » بدلا من « ذَنْب » ، وقال : وجَرَمَ يَجْرِمُ : كَسَبَ ، وهو يَجْرُمُ لأهله : يتكَسَّب » .

(٣) « قال الصاغاني : هو عمران بن عثمان الزبيدي الشامي ذو القراءات الشواذ ، هكذا في العباب ، وقد أكثر عنه ابن جني في كتابه المحتسب » . هكذا قال الزبيدي في تاج العروس ، ثم قال : « وقرأت في حاشية الإكمال للمزّي في ترجمة شريح بن زيد المؤذن ما نصه : رَوَى عن أبي البَرَهْسَم حُدَيْر بن معدان بن صالح الحضرمي المقري ... فلعل هذا غير ما قاله الصاغاني » . (تاج العروس — برهم) .

عليه كفر القرن بعد القرن به ، وكان يـأتيه الرجل بابنه فيقول : يا بُنَيّ لا تُصَدق هذا الشيخ فهكذا عَهِدَه أَبي وجدي كذاباً مجنوناً ، رواه عبيد بن عمير وغيره . وهذه الآية هي التي أَيْأَسَتْ نوحاً عليه السلام من قومه ، فروي أنه لما أُوحي إليه ذلك دعا فقال : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[١] .

و [تَبْتَئِسْ] من البؤس تَفْتَعل ، ومعناه : لا تحزن نفسك ، ومنه قول الشاعر ، وهو لبيد بن ربيعة :

في مَأْتَمٍ كَنِعَاجِ صَـــــا رَةَ يَبْتَئِسْنَ بِمَا لَقِينَا[٢]

صَارَة : موضع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي أمر نوح عليه السلام تدافع في ظاهر الآيات والأَحاديث ينبغي أَن نلخص القول فيه ، وذلك أَن ظاهر أَمره أَنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأُمم ، ولم يخص قومه دون غيرهم ،

(١) من الآية (٢٦) من سورة (نوح) .

(٢) البيت من قصيدة قالها عند ما حضرته الوفاة ، وهي في الديوان ، ورواه اللسان ، والرواية فيهما : « في رَبْرَبٍ » وهو القطيع من البقر الوحشية ، والنعاج : جمع نعجة وهي الأنثى من الضأن أو الظباء أو البقر الوحشي ، والعرب تكني بها عن المرأة ، وصارة : ماءٌ بين فَيَد وضريّة ، وخصّ نعاجه لحسنهن بما توافر لهن من مرعى وماءٍ ، والابتئاس : الحزن والغم عند الخبر المحزن . يتحدث عن نساء جميلات كنعاج البقر الوحشي وقفن في مأتمه متشحات بالسواد كما يقول في البيت الذي بعده .

وتظاهرت الروايات وكتب التفاسير بأَن الغرق نال جميع أَهل الأَرض، وعمَّ الماءُ جميعها ، قاله ابن عباس وغيره ، ويوجب ذلك أَمر نوح بحمل الأَزواج من الحيوان ، ولولا خوف فناءِ أَجناسها من جميع الأَرض ما كان ذلك ، فلا يتفق لنا أَن نقول : إِنه لم يكن في الأَرض غير قوم نوح في ذلك الوقت ، لأَنه يجب أَن يكون نوح بعث إِلى جميع الناس ، وقد صح أَن هذه الفضيلة خاصة لمحمد عليه الصلاة والسلام بقوله : (أُوتيت خمْساً لَمْ يُؤْتَهُنَّ أَحدٌ قبلي)[1] ، فلا بدَّ أَن نقدر كثيراً من الأُمم كان في ذلك الوقت ، وإِذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح عليه السلام لم يبعث إِلى كلهم ؟ وكنَّا نقدّر هنا أَن الله تبارك وتعالى بعث إِليهم رسلا قبل نوح عليه السلام فكفروا بهم واستمر كفرهم لولا أَنَّا نجد الحديث ينطق بأَن نوحاً هو أَول الرسل إِلى أَهل الأَرض ، ولا يمكن أَن نقول : « عُذبوا دون رسالة » ونحن نجد في القرآن : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] .

(١) الحديث رواه البخاري في التَّيَمُّم وفي الصلاة وفي الغُسل ، ورواه الدارميّ في السِّير ، ولفظه كما في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أُعطيت خمساً لم يُعْطهُنَّ أحدٌ قبلي ، نصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أُمتي أَدركته الصلاة فَلْيُصل ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قَبْلي ، وأُعْطيتُ الشَّفاعة ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة) ، وزاد في الجامع الصغير أن النسائي رواه ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحـة .

(٢) من الآية (١٥) من سورة (الإسراء) .

والتأْويل المخلّص من هذا كله هو أَن نقول : إِن نوحاً عليه السلام هو أَول رسول بعث إِلى كفار من أَهل الأَرض ليصلح الخلق ويبالغ في التبليغ ويتحمل المشقة من الناس - بحسب ما ثبت في الحديث - ثم نقول : إِنه بُعث إِلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاءِ والتنبيه ، وبقي أُمم في الأَرض كثير لم يكلف القول لهم ، فتصح الخاصة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نقول : إِن الأُمم التي لم يُبعث ليخاطبها إِذا كانت بحال كفر وعبادة أَوثان ، وكانت الأَدلة على الله تعالى منصوبة معرضة للنظر ، وكانوا متمكنين من النظر من جهة إِدراكهم ، وكان الشرع - ببعث نوح - موجوداً مستقراً ، فقد وجب عليهم النظر ، وصاروا بتركه بحال من يجب تعذيبه ، فإِن هذا رسول مبعوث وإِن كان لم يبعث إِليهم معينين ، أَلا ترى أَن لفظ الآية إِنما هو : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ، أَي : حتى نوجده ، لأَن بعثة الأَنبياءِ إِلى قوم مخصوصين إِنما هو في معنى القتال والشدة ، وأَما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن فالناسُ أَجمع في ذلك سواءٌ ، ونوح عليه السلام قد لبث أَلف سنة إِلا خمسين عاماً يدعو إِلى الله ، فغير ممكن أَن لم تبلغ نبوءَته للقريب والبعيد ، ويجيءُ تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح صلى الله عليه وسلم . ولا يعارضنا مع هذه التأْويلات شيءٌ من الحديث ولا الآيات ، والله الموفق للصواب .

وقوله تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ عطف على قوله : ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ . والْفُلْك : السفينة ، وجمعها أَيضاً فُلْك ، وليس هو لفظاً للواحد والجمع ،

وإنما هو فُعْل وجمع على فُعْل ، ومن حيث جاز أن يجمع فَعَل على فُعْل كأَسد وأُسْد جاز أن يجمع فُعْل على فُعْل ، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ الواحد وليس به ، تدل على ذلك درجة التثنية التي بينهما ، لأَنك تقول : فُلْك وفُلْكان وفُلْك ، فالحركة في الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت : «يا منصُو» ، تريد : يا منصور ، فرخمت على لغة من يقول : «يا حارُ» بالضم ، فإن ضمة الصاد هي في اللفظ كضمة الأَصل ، وليست بها في الحكم .

وقوله : [بِأَعْيُنِنَا] يمكن – فيما يُتأَول – أن يريد به : بمرأى مِنَّا وتحت إدراك ، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ ، ويكون جمع الأَعين للعظمة لا للتكثير ، كما قال تعالى : ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ﴾(١) ، فرجع معنى الأعين في هذه وفي غيرها إلى معنى (عَيْن) في قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾(٢) ، وذلك كله عبارة عن الإدراك وإحاطته بالمدركات ، وهو تبارك وتعالى مُنَزَّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف لَا رَبّ غيره . ويحتمل قوله : [بِأَعْيُنِنَا] أَي : بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك ، فيكون الجمع – على هذا – للتكثير . وقرأَ طلحة بن مصرف : [بِأَعْيُنَّا] مدغماً .

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (المُرْسَلات) ، ومثلها قوله تعالى : ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ .

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .

وقوله : [وَوَحْيِنَا] معناه : وتعليمنا لك صورة العمل بالوحي ، وروي في ذلك أن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أوحى الله إليه أن اصنعها على مثال جؤجؤ الطير ، إلى غير ذلك مما علمه نوح من عملها ، فقد روي أيضاً أنها كانت مربعة الشكل طويلة في السماء ضيقة الأعلى ، وأن الغرض منها إنما كان الحفظ لا سرعة الجري ، والحديث الذي تضمن أنها كجؤجؤ الطائر أصح ومعناه أظهر ، لأنها لو كانت مربعة لم تكن فُلْكاً ، بل كانت وعاءً فقط ، وقد وصفها الله تعالى بالجري في البحر ، وفي الحديث : (كان رَازُ سفينة نوح عليه السلام جبريل عليه السلام)، والرّاز : القَيِّم بعمل السفن[1] ، ومن فسّر قوله : [وَوَحْيِنَا] أي : «بِأَمرنا لك» ، فذلك ضعيف ، لأن قوله : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ مُغْنٍ عن ذلك .

و ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾ هم قومه الذين أعرضوا عن الهداية حتى عمَّتهم النقمة . قال ابن جريج : وهذه الآية تقدم الله [2] فيها إلى نوح أَلَّا يشفع فيهم .

---

(١) في «اللسان» : «الرَّازُ : رأس البنَّائين ، لأنه يروز الحجر واللبِن ، والجمع الرّازة ، وقد يستعمل ذلك لرأس كل صناعة ، من : راز يروز إذا امتحن عمله فحذقه». وأصل «الراز» : الرائز . (وراجع النهاية لابن الأثير) .

(٢) يقال : تقدم إلى فلان بكذا : أمَرَه به أو طلب منه . (المعجم الوسيط)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

التقدير : فشرع يصنع ، فحكيت حال الاستقبال إذ في خلالها وقع مرورهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : صنع نوح عليه السلام الفلك بيفاع دمشق(١) ، وأَخذ عودَها من لبنان ، وعودُها من الشمشاد وهو البقص(٢) ، ورُوي أَن عودها من الساج ، وأَن نوحاً عليه السلام اغترسه حتى كبر في أَربعين سنة ، ورُوي أَن طول السفينة أَلف ذراع ومائتان ، وعرضها ستمائة ذراع ، ذكره الحسن بن أَبي الحسن . وقيل : طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماءِ

---

(١) اليَفَاع : المرتفِعُ من كل شيءٍ ، يكون في المشرف من الأرض ، والجبل ، والرمل ، وغيرها . (المعجم الوسيط) .

(٢) هكذا بالنسخ التي بأيدينا ، والموجود في المعاجم البَقْسُ (بالسين لا بالصاد) . قال في المعجم الوسيط : « البقس : شجر يشبه الآس خشبه صلب يعمل منه بعض الأدوات » ، وقال في القاموس : « أو هو شجر الشّمْشاذ (بالذال المعجمة) ، منابته بلاد الروم ، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته » .

ثلاثون ذراعاً ، ذكره قتادة ، ورُوي غير هذا مما لم يثبت فاختصرت ذكره ، وذكر الطبري حديث إحياءِ عيسى بن مريم لِسام بن نوح وسؤاله إياه عن أَمر السفينة ، فذكر أَنها ثلاث طبقات : طبقة للناس ، وطبقة للبهائم ، وطبقة للطير ، إلى غير ذلك في حديث طويل (١) .

و « الملأُ » هنا : الجماعة ، و [سَخِرُوا] معناه : استجهلوه ، وهذا الاستجهال ـ إن كان الأَمر كما ذكر أَنهم لم يكونوا قبْلُ رأَوا سفينة ولا كانت فوجه الاستجهال واضح ، وبذلك تظاهرت التفاسير ، وإن كانت السفائن حينئذ معروفة فاستجهلوه في أَن صَنَعها في قرية لا قرب لها من البحر . ورُوي أَنهم كانوا يقولون له : صرتَ نجاراً بعد النبوة ؟

وقوله : ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ قال الطبري : يريد : في الآخرة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويحتمل الكلام ـ بل هو الأَرجح ـ أَن يريد : إنا نسخر منكم الآن ، أَي نستجهلكم لعلمنا بما أَنتم عليه من الغَرَر والكون بمدرج عذابه. ثم جاءَ قوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديداً . والسُّخْر : الاستجهال مع استهزاءٍ ، ومصدره : « سُخْرِيّ » بضم السين ، والمصدر من السُّخرة والتَّسَخُّر « سِخْرِيّ » بكسرها (٢) .

---

(١) الحديث طويل ، وقد أورده الطبري في تفسيره .

(٢) في « اللسان » : « سخر منه وبه سَخْراً ، وسَخَراً ، ومَسْخَراً ، وسُخْراً بالضم ، وسُخْرَةً ، وسِخْرِيّاً ، وسُخْرِيّاً ، وسُخْرِيَّةً : هزئ به » وفيه : « والاسم السُّخْرِيَّةُ ، والسُّخْرِيُّ » . تأمل هذا وكلام ابن عطية رحمه الله .

والعذاب «المخزي» هو الغَرق ، و «المقيم» هو عذاب الآخرة . وحكى الزهراوي أنه يُقرأُ : [ويحُلُّ] ، ويُقرأُ : [ويَحِلُّ] بكسرها بمعنى : ويجب . و [مَنْ] في موضع نصب بـ [تَعْلَمونَ] ، وجائز أن يكون [تَعْلَمُونَ] بمثابة «تعرفون» في التعدي إلى مفعول واحد ، وجائز أَن تكون التعدية إلى مفعولين واقتصر على الواحد.(١)

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الآية . الأَمْر ها هنا يحتمل أَن يكون واحد الأُمور ، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمَرَ ، فمعناه : أَمْرُنا للماءِ بالفوران ، أَو للسّحاب بالإرسال ، أَو للملائكة بالتصرف في ذلك . ونحو هذا مما يقدر في النازلة . و [فَارَ] معناه : انبعث بقوة ، واختلف الناس في [التَّنُّور] - فقالت فرقة - وهي الأَكثر - منهم ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : هو تنور الخبز الذي يوقد فيه . وقالت فرقة : كانت هذه أَمارة جعلها الله لنوح ، أَي : إِذا فار التَّنُّور فاركب في السفينة ، ويشبه أَن يكون وجه الأَمارة أَن مستوقد النار إِذا فارَ بالماءِ فغَيْرُه أَشَدُّ فوراناً وأَحرى بذلك . ورُوي أَنه كان تَنُّور آدم خَلَص إلى نوح عليهما السلام فكان يوقد فيه . وقال النقاش : اسم المستوقد التَّنُّور بكل لغة ، وذكر نحو ذلك ابن قتيبة في الأَدب عن ابن عباس رضي الله عنهما .

---

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك : «ولا يجوز حذف الثاني اقتصاراً لأن أصله خبر مبتدأ ، ولااختصاراً هنا لأنه لا دليل على حذفه» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد .

وقيل : إن موضع تنُّور نوح عليه السلام كان بالهند ، وقيل : كان في موضع مسجد الكوفة ، وقيل : كان في ناحية الكوفة ، قاله الشعبي ، ومجاهد ، وقيل : كان في الجهة الغربية من قبلة المسجد بالكوفة ، وقال ابن عباس ، وعكرمة : التَّنُّور : وجه الأَرض ، ويقال له : تنُّور الأَرض . وقال قتادة : التَّنُّور : أَعالي الأَرض ، وقالت فرقة : التَّنُّور : عين بناحية الجزيرة . وقال الحسن بن أَبي الحسن : التَّنُّور : مجتمع ماءِ السفينة فار منه الماءُ وهي بعد في اليبس . وقالت فرقة : التَّنُّور هو الفجر ، المعنى : إذا طلع الفجر فاركب في السفينة ، وهذا قولٌ روي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، إلَّا أَن التصريف يضعفه ، وكان يلزم أَن يكون التنوير[1] ، وقالت فرقة : الكلام مجاز ، وإنما أَراد غلبة الماءِ وظهور العذاب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لشدة الحرب : (حمي الوطيس)[2] والوَطيسُ أَيضاً مستوقد النار ،

---

(١) الكلمة في جميع النسخ « التَّنُّور » ، والمعنى المراد لا يستقيم بها إذ لا فرق بينها وبين الكلمة الموجودة فعلا ، وبالرجوع إلى أصل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي جُحيفة عن عليّ رضي الله عنه وجدنا نصّه . (قوله : ﴿حَتَّى إذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّور﴾ قال : هو تنوير الصبح) ، ومن هنا جاء اختيارنا لكلمة « التنوير » بدلا من كلمة « التنور » لأنها هي المنسوبة للإمام علي كرّم الله وجهه .

(٢) لفظ الحديث كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن كثير بن عباس قال : (كان عباس وأبو سفيان معه — يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فخطبهم وقال : الآن حمي الوطيس ، وقال : ناديًا : يا أصحاب سورة البقرة) . ومن رواية أُخرى للحديث أطول من هذه يتضح أن ذلك كان في (حنين) . والحديث رواه مسلم أيضاً في الجهاد .

فلا فرق بين «حَمِيَ» و «فَار» إذ يستعملان في النار ، قال الله تعالى : ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُور﴾(١) فلا فرق بين الوطيس والتَّنُّور .

وقرأ حفص عن عاصم : ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْن﴾ بتنوين [كُل] وقرأ الباقون : ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْن﴾ بإضافة [كُل] إلى [زَوْجَيْن] ، فمن قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه ، التقدير : من كل حيوان أو نحوه ، وأعمل «الحَمْلَ» في [زَوْجَيْن] ، وجاءَ قوله : [اثْنَيْن] تأْكيداً ، كما قال : ﴿إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾(٢) . ومن قرأ بالإضافة فأَعمل «الحَمْلَ» في قوله : [اثْنَيْن] ، وجاءَ قوله : [زَوْجَيْن] بمعنى العموم ، أي : من كل ماله ازدواج ، هذا معنى قوله : ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْن﴾ ، قاله أبو علي وغيره . ولو قدرنا المعنى : احمل من كل زوجين حاصلين اثنين لوجب أن يحمل من كل نوع أربعة . والزوج يقال - في مشهور كلام العرب - للواحد مما له ازدواج ، فيقال : هذا زوج هذا ، وهما زوجان ، وهذا هو المهيع في القرآن في قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾(٣)، ثم فسَّرها ، وكذلك هو في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَى﴾(٤). قال أَبو الحسن الأَخفش

---

(١) من الآية (٧) من سورة (المُلْك) .
(٢) من الآية (٥١) من سورة (النَّحْل) .
(٣) من الآية (١٤٣) من سورة (الأنعام) .
(٤) من الآية (٤٥) من سورة (النَّجْم) .

في كتابه «الحجة» : وقد يقال في كلام العرب للاثنين : زَوْجٌ ، ومن ذلك قول لبيد :

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ زَوْجٌ عليه ، كِلَّةٌ وقِرَامُهَا (١)

وهكذا يـأْخذ العدديون . والزوج أَيضاً في كلام العرب : النوع ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(٢) ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾(٣) .

وروي في قصص هذه الآية أَن نوحاً عليه السلام كان يـأْتيه الحيوان فيضع يمينه على الذكر . ويساره على الأُنثى ، وروي أَن أَول ما دخل في السفينة الذَّرّ وآخر ما دخل الحمار ، فتمسك الشيطان بذنبه ، فزجره نوح عليه السلام فلم ينبعث ، فقال له : «ادخل ولو كان معك الشيطان» ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : زلت هذه الكلمة على لسانه فدخل الشيطان حينئذ ، وكان في كوثل السفينة ـ أَي عند مؤخرها ـ وقيل : كان على ظهرها ، ورُوي أَن نوحاً عليه السلام آذاه

(١) البيت رواه في اللسان على أن معنى « الزّوج » : النّمط أو الديبَاج . و « المحفوف» : الهودج الذي ستّر بالثياب ، و « عصيّ » : مفعول به مقدم ، والفاعل كلمة « زوجٌ » والمراد بها النّمط الذي يطرح على الهودج ، وسمّي بذلك لاشتماله على ما تحته اشتمال الرجل على المرأة ، قاله في اللسان ثم عقّب عليه بقوله : « وهذا ليس بقوي » ، ثم فسّر الشاعر « النّمط » بأنه كِلّةٌ وقرام ، والكِلّة : الستر الرقيق المثقب الذي يتقى به من البعوض وغيره ، والقِرَامُ : السّتْر يكون فيه نقوش ، أو الكساءُ الغليظ من الصوف ذي الألوان يتخذ ستْراً ويتخذ فِرَاشاً في الهودج .

(٢) من الآية (٧) من سورة (ق) .

(٣) من الآية (٣٦) من سورة (يس) .

نتن الزبل والعذرة ، فأَوحى الله إِليه أَن امسح على ذنب الفيل ففعل ، فخرج من الفيل – وقيل : من أَنفه – خنزير وخنزيرة ، فكفيا نوحاً وأَهله ذلك الأَذى ، وهذا يجيءُ منه أَن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك ، ورُوي أَن الفأْر آذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك ، فأَمر الله نوحاً أَن يمسح على جبهة الأَسد ففعل ، فعطس فخرج منه هرٌّ وهرَّة ، فكفياهم الفأْر ، ورُوي أَيضاً أَن الفأْر خرج من أَنف الخنزير .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله قصص لا يصح إِلا لو استند ، والله أَعلم كيف كان .

وقوله : [وَأَهْلَكَ] عطف على ما عمِل فيه [احْمِلْ] ، والأَهل هنا : القرابة ، وبشرط من آمن منهم خُصصوا تشريفاً ، ثم ذكر من آمن وليس من الأَهل ، واختلف في الذي ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ – فقيل : هو ابنه يام ، وقال النقاش : اسمه كنعان ، وقيل : هي امرأَته «والعة» ، هكذا اسمها بالعين غير منقوطة ، وقيل : هو عموم في من لم يؤمن من أَهل نوح وعشيرته . و [ٱلْقَوْلُ] ها هنا معناه : القول بأَن يعذب ، وقوله : ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ عطف على قوله : [وأَهْلَكَ] . ثم قال إِخباراً عن حالهم : ﴿وَمَا آمنَ معَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلف في ذلك القليل – فقيل : كانوا ثمانين رجلًا وثمانين امرأَة ، وقيل : كان جميعهم ثلاثة وثمانين ، وقيل : كانوا ثمانين في الكل ، قاله السُّدي ، وقيل : عشرة ،

وقيل : ثمانية ، قاله قتادة ، وقيل : سبعة ، والله أعلم . وقيل : كان في السفينة جُرْهُم ، وقيل : لم ينج من الغرق أحد إلا عوج بن عنق ، وكان في السفينة مع نوح عليه السلام ثلاثة من بنيه : سام ، وحام ، ويافث ، وغرق يام ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

المعنى : وقال نوح - حين أُمر بالحمل في السفينة - لمن آمن معه : ﴿ٱرْكَبُوا فِيهَا﴾ ، فأَنَّث الضمير إذ هي سفينة ، لأَن «الفُلْك» المذكور مذكَّر ، وفي مصحف أُبيّ : «على اسْم الله» ، وقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يصحُّ أَن يكون في موضع الحال من الضمير الذي في قوله : [ٱرْكَبُوا] ، كما تقول : «خرج زيد بثيابه وبسلاحه» ، أَي : اركبوا متبرِّكين بالله تعالى ، ويكون قوله ﴿مُجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ ظرفين ، أَي : وقْتَ إجرائها وإرسائها ، كما تقول العرب : «الحمد لله سَرارُك وإِهْلالُك[1] ،

(١) السِّرارُ بالفتح والكسر : وسَرارُ الشهر : آخر ليلة فيه . (القاموس والمعجم الوسيط) . وفي التاج عن الأزهري أن الكسر لغة ليست بجيدة . وأَهَلَّ الشهرُ : ظهر هلالُه ، وأَهَلَّ فلانٌ : رفع صوته وصاح ، ويقال : أَهَلَّ الصبيُّ ، وأَهَلَّ الملبّي . وغيرها .

وخفوق النجم ، ومقدم الحاج » ، فهذه ظرفية زمان ، والعامل في هذا الظرف ما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ من معنى الفعل . ويصح أَن يكون قوله : [بِسْمِ ٱللَّهِ] في موضع خبر ، و ﴿مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا﴾ ابتداءٌ مصدران كأَنه قال : « اركبوا فيها فإن ببركة الله إجراءَها وإرساءَها » ، وتكون هذه الجملة – على هذا – في موضع حال من الضمير في قوله : [فِيهَا] ، ولا يصح أَن يكون حالًا من الضمير في قوله : [ٱرْكَبُوا] لأَنه لا عائد في الجملة يعود عليه ، وعلى هذا التأْويل قال الضحاك : إن نوحاً كان إذا أَراد جري السفينة قال : « بسم الله » فتجري ، وإذا أَراد وقوفها قال : « بسم الله » فتقف .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم – في رواية أَبي بكر – وابن عامر : ﴿مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بضم الميمين على معنى : إجرائها وإرسائها ، وهي قراءة مجاهد ، وأَبي رجاءٍ ، والحسن ، والأَعرج ، وشيبة ، وجمهور الناس ، ومنه قول لبيد :

وَعمرتُ حَرْساً قَبْلَ مُجْرَى داحِسٍ لوْ كان لِلنَّفْسِ اللَّجُوج خُلُودُ (١)

---

(١) البيت من قصيدة للبيد يتحدث فيها عن طول عمره وسأمه من الحياة ، ويتحدث عن مآثره ، وقبله البيت المشهور :

ولَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحيَاةِ وطُولِهَا وسُؤَالِ هذا النَّاسِ كَيْفَ لبيدُ

والبيت في الديوان : « وغَنِيتُ سَبْتاً » ، ويروى : و « غَنيت حَرْساً » ، ويروى : « بعد مُجْرى » . « وعمَرْتُ وغَنِيتُ » معناهما : عِشْتُ . ومُجْرى : إجراءُ ، وداحس والغبراءُ : فرسان جرّ الرهان عليهما إلى الحرب المشهورة بين عبْسٍ وذبيان في أواسط القرن السادس الميلادي ، والسَّبْتُ والحرْس بمعنى : الدهر ، وقدرهما قوم بعدد من السنين ، ولكن المقصود الحقيقي محض حقبة طويلة من الزمن .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [مَجْرِيهَا] بفتح الميم وكسر الراءِ ، وكلهم[١] ضم الميم من [مُرْساها] ، وقرأ الأعمش ، وابن مسعود : ﴿مَجْراها ومَرْساها﴾ بفتح الميمين ، وذلك من الجري والرسوّ ، وهذه ظرفية مكان ، ومن ذلك قول عنترة :

فَصَبَرْتُ نَفْساً عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً ... تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ[٢]

واختار الطبري قراءة ﴿مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بفتح الميم الأُولى وضمّ الثانية ، ورجحها بقوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾ ولم يقرأ أَحد «تُجْري» ، وهي قراءة ابن مسعود أَيضاً ، رواها عنه أَبو وائل ، ومسروق .

وقرأ ابن وثاب ، وأَبو رجاءٍ العطاردي ، والنَّخَعي ، والجحدري ، والكلبيّ ، والضحاك بنُ مُزاحم ، ومسلم بن جُندب ، وأَهل الشام : ﴿مُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا﴾ ، وهما ـ على هذه القراءة ـ صفتان لله تعالى عائدتان على ما ذكره في قوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾[٣] .

---

(١) يريد الثلاثة : حمزة ، والكسائي ، وحفصا في قراءته عن عاصم .

(٢) البيت في «اللسان» ، ذكره بعد قوله : «ولو حَبَسَ رجلٌ نفسه على شيءٍ يريده قال : «صَبَرْتُ نفسي» ، قال عنترة يذكر حرباً كان فيها : فَصَبَرْتُ عارفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً ...» وبهذه الرواية جاء البَيت في شعر عنترة كما قال أبو عُبَيْد ، ومعنى «صَبَرْتُ عَارِفَةً» : حَبَسْتُ نفساً عارفة أي : صابرة ، تصبر للشدائد ولا تنكرها ، وترسُو : تثبت وتستقر ولا تتطلع إلى الخلق جُبْناً وفزعا كما تتطلع نفسُ الجبان . والشاهد في البيت أن (مَرْسَاهَا) تكون من الفعل : رَسَا يَرْسُو .

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية : «ولا يكونان صفتين إلا على تقدير أن يكونا معرفتين ، وقد ذهب الخليل إلى أن ما كانت إضافته غير محضة قد يصح أن تجعل محضة فتعرّف ، إلا ما كان من الصفة المشبهة فلا تتمحّض إضافتها فلا تعرّف» ، ومعنى هذا أن كلام ابن عطية صحيح على مذهب الخليل .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تنبيه لهم على قدر نعم الله عليهم ورحمته لهم وستره عليهم وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإنابتهم.

وقوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ الآية . رُوي أَن السماءَ أَمطرت بأَجمعها حتى لم يكن في الهواءِ جانب لا مطر فيه ، وتفجرت الأَرض كلها بالنبع ، فهكذا كان التقاءُ الماءِ ، ورُوي أَن الماءَ علَا على الجبال وأَعالي الأَرض أَربعين ذراعاً ، وقيل : خمسة عشر ذراعاً . وأَشار الزجاج وغيره إِلى أَن الماءَ انطبق ، ماءُ الأَرض وماءُ السماءِ فصار الكل كالبحر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وأَين «كان الموج كالجبال» على هذا ؟ وكيف استقامت حياة من في السفينة على هذا ؟

وقرأَت فرقة : [ٱبْنِهِ] على إِضافة «الابن» إِلى [نوح] ، وهذا قول من يقول : هو ابنه لصلبه ، وقد قال قوم : إِنه ابن قريب له ، ودعاه بالبنوة حناناً منه وتلطفاً ، وقرأَ ابن عباس : [ٱبْنَهْ] بسكون الهاءِ ، وهذا على لغةٍ لأَزْد السَّرَاةِ[1] . ومنه قول الشاعر :

. . . . وِمِطْوَايَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أَرِقَانِ[2]

---

(١) جاء في «الصّحاح» : أزْدٌ : أبو حَيٍّ من اليمن ، وهو أزْد بن غوث ... بن سبأ ، وهو بالسين أفصح ، يقال : أزْد شَنوءَة ، وأزْد عُمَان ، وأزْدُ السّراة ، قال الشاعر النجاشي — قيس بن عمرو — :

وكنْتُ كذِي رِجْلَيْن رِجْلٍ صَحيحَةٍ ورِجْلٍ بها ريْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ
فَأمَّا الَّتي صحَّتْ فأزْدُ شَنُوءَةٍ وأمَّا الَّتي شلَّتْ فَأزْدُ عُمَانِ

(٢) هذا عجز بيت، نقل صاحب اللسان عن ابن بري أنه لرجل من أزْد السَّرَاة يصف =

وقرأ السُّدّي : «ابْنَاه» ، قال أبو الفتح : ذلك على النداءِ ، وذهبت فرقة إلى أن ذلك على جهة النُّدْبة مَحْكِيَّةً . وقرأ عروة بن الزبير ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : «ابْنَها» ، وتأَوَّلوا ذلك على أنه دعا ابن امرأته الكافرة إذْ قد تقدم ذكرها في قوله : [وَأَهْلَكَ] ، وعلى هذه القراءَة يدخل تأْويل من قال : «كانت خائنة» فيه ، وسيأْتي ذكر هذا بعد ، وقرأ علي بن أبي طالب ، وعروة بن الزبير أيضاً ، وأبو جعفر ، وجعفر بن محمد : «ابْنَهَ» على تقدير : «ابْنَهَا» فحذف الأَلف تخفيفاً ، وهي لغة ، ومنها قول الشاعر :

إمَّا تَقودُ به شاةً فَتأْكُلها أَوْ أَنْ تَبيعَهَ في بعْضِ الأَرَاكِيبِ (١)

= برقاً ، ثم قال : وذكر الأصبهاني أنه ليعْلَى بن الأحول ، والبيت بتمامه :

فَظَلْتُ لَـدَى البَيْتِ العَتيقِ أُخيلُهُ ومِطْـوايَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أرقـانِ

ويروى «البيت الحرام» ، ويروى الشطر الأخير : «ومِطْوَايَ مِنْ صدْقٍ لَهُ أرِقَانِ» ، ومعنى أُخيلُهُ : أنظر إلى مَخيلَتِه ، والهاءُ عائدة على البرق في بيت قبله وهو :

أَرِقْتُ لِبَـرْقٍ دُونَـهُ شَـرَوان يمانٍ ، وأهْوَى البَرْقَ كلَّ يَمَـانِ

ومِطْوَايَ : مُثَنَّى مِطْو ، ومِطْوُ الرجل : صديقه وصاحبه ونظيره ، وقيل : في السفر خاصة . (خزانة الأدب ، والخصائص) .

(١) أراد «تَبيعَهَا» فحذف الألف تشبيها لها بالواو والياء لما بينهما وبينها من النسبة ، وهذا شاذٌّ – قال ذلك في «اللسان» ، والأراكيب : جمع أُركوب بضم الهمزة ، وهو أكثر من الرَّكْب ، والرَّكْبُ في الأصل هو راكب الإبل خاصة ، ثم اتسع فأُطلق على كل من ركب دابّة ، قالوا وأنشد ابن جني :

أعْلَقْتَ بالذِّئْبِ حبْلا ثمَّ قُلْتَ لَهُ الْحَقْ بأَهْلِكَ واسْلَمْ أيُّهَا الذِّيبُ

إمَّا تقولُ بِهِ شَاةٌ فتأكُلُهَـا أوْ أنْ تَبيعَـهَ في بَعْضِ الأرَاكيبِ

هكذا باللام في «تقولُ» ورفع «شاة» على رواية اللسان . =

وأَنشد ابن الأَعرابي على هذا :

فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ ما فَاتَ مِنِّي ... بِلَهْفَ ولَا بِلَيْتَ ولَا لَوَانِّي (١)

يريد : بِلَهْفَا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وخطَّأَ النحاس أَبا حاتم في حذف هذه الأَلف ، وليس كما قال . وقرأَ وكيع بن الجراح : ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ بضم التنوين ، قال أَبو حاتم : هي لغة سوءٍ لا تعرف .

وقوله : ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ ، أَي : في ناحية ، فيمكن أَن يريد : في معزل في الدين ، ويمكن أَن يريد : في معزل في بُعْده عن السفينة ، واللفظ يعمهما . وقال مكي في « المشكل » : « ومن قال « مَعْزِل » بكسر الزاي أَراد الموضع ، ومن قال : « مَعزَل » بفتحها أَراد المصدر» . فلم يصرح بأَنها قراءَة ، ولكن يقتضي ذلك لفْظُه .

وقرأَ السبعة : [يابُنَيِّ] بكسر الياءِ المشددة ، وهي ثلاث ياءَات : أُولاها : ياءُ التصغير ، وحقها السكون . والثانية : لام الفعل ، وحقها

= قال في القرطبي : « فأما قراءَة : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهَ وَكَانَ﴾ فقراءَة شاذة ، وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنَهَا » فحذف الألف ، كما تقول : « ابنهُ » فتحذف الواو ، وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ، لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها » . اهـ .

(١) قال في « اللسان » : أنشده الأخفش ، وابن الأعرابي ، وغيرهما . واللَّهْف واللَّهَف : الأسى والحزن والغيظ على شيءٍ يفوتك بعد ما تشرف عليه . وأراد الشاعر : لا أدرك ما فاتني بأن أقول : « والَهفا » ، فحذف الألف .

أن تكسر بحسب ياءِ الإضافة ، إذا ما قبل ياءِ الإِضافة مكسور ، والثالثة : ياءُ الإِضافة ، فحذفت ياءُ الإِضافة إما لسكونها وسكون الراءِ[١] ، وإما إذ هي بمثابة التنوين في الأَعلام وهو يحذف في النداءِ ، فكذلك ياءُ الإِضافة ، والحذف فيها كثير في كلام العرب ، تقول : يا غلامِ ، ويا عبيدِ ، وتبقى الكسرة دالة ، ثم أُدغمت الياءُ الساكنة في الياءِ المكسورة . وقد رَوى أَبو بكر ، وحفصٌ عن عاصم أَيضاً : [يَا بُنَيَّ] بفتح الياءِ المشددة ، وذكر أَبو حاتم أَن المفضل رواها عن عاصم ، ولذلك وجهان : أَحدهما : أَن يبدل من ياءِ الإِضافة أَلفا ، وهي لغة مشهورة ، تقول : يا غلامَا ، ويا عيْنَا ، فانفتحت الياءُ قبل الأَلف ، ثم حذفت الأَلف استخفافاً[٢] ، أَو لسكونها وسكون الراءِ من قوله : [ارْكَبْ] . والثاني : أَن الياءَات لما اجتمعت استثقل اجتماع المماثِلَة[٣] ، فخفف ذلك الاستثقال بالفتح إذ هو أَخف الحركات ، هذا مذهب سيبويه ، وعلى هذا حمل قوله صلى الله عليه وسلم : (وحواريَّ الزُّبير)[٤] ، وروي عن ابن كثير أَنه قرأَ في سورة لقمان :

---

(١) يريد الراءَ في قوله تعالى بعدها : [ارْكَبْ] .
(٢) أي : طلباً للخفة ، يقال : استَخَفّه : طلب خفته .
(٣) يريد : اجتماع الحروف التي يماثل بعضها بعضا .
(٤) رواه البخاري في الجهاد ، وفي فضائل الصحابة ، وفي المغازي ، ورواه مسلم في فضائل الصحابة ، وابن ماجه في المقدمة . والإمام أحمد في مواطن كثيرة في مسنده ، ولفظه كما في المسند عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن لكل نبيّ حواريّ ، وحواريّ الزبير) .

(يا بُنَيْ لا تُشْرِكْ باللهِ)[١] بحذف ياءِ الإضافة ويُسَكن الياءَ خفيفة ، وقرأَ الثانية : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾[٢] كقراءَة الجماعة ، وقرأَ الثالثة : ﴿يَا بُنَيْ أَقِم﴾[٣] ساكنة كالأُولى .

وقوله : ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ يحتمل أَن يكون نهياً محضاً مع علمه أَنه كافر ، ويحتمل أَن يكون خفي عليه كفره فناداه أَلا يبقى – وهو مؤمن – مع الكفرة فيهلِك بهلاكهم . والأَول أَبيَن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ظن ابن نوح أَن ذلك المطر والماء على العادة . وقوله : ﴿لا عَاصِمَ﴾ ، قيل فيه : إِنه على لفظة «فاعل» . وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ يريد : إِلا الله الراحم ، ف [مَنْ] كناية عن اسم الله تبارك وتعالى ، المعنى : لا عاصم اليوم إِلا الذي رحمنا ، ف [مَنْ] في موضع رفع . وقيل :

(١) من الآية (١٣) .
(٢) من الآية (١٦) .
(٣) من الآية (١٧) .

قوله : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ استثناءٌ منقطع كأَنه قال : لا عاصم اليوم موجود ، لكن من رحم اللهُ موجود (١) ، وحَسَّن هذا من جهة المعنى أَنَّ نفي العاصم يقتضي نفي المعصوم فهو حاصل بالمعنى ، وأَما من جهة اللفظ فـ [مَنْ] في موضع نصب على حد قول النابغة :

إِلَّا الْأَوَارِيَّ . . . . (٢)

ولا يجوز أَن تكون في موضع رفع على حدّ قول الشاعر :

وبَلْدةٍ لَيْسَ بهـــا أَنيس إِلَّا الْيَعَافيرُ وإِلَّا الْعِيسُ (٣)

إِذْ هذان أَنيس ذلك الموضع القفر ، والمعصوم هنا ليس بعاصم بوجه . وقيل : [عاصِم] معناه : ذو اعتصام ، فـ «عَاصِمٌ» ـ على هذا ـ في معنى «معصوم» ، ويجيءُ الاستثناءُ مستقيماً ، و [مَنْ] في موضع رفع ، و [الْيوْمَ] ظرف ، وهو متعلق بقوله : ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ، أَو بالخبر الذي تقديره : كائن اليوم ، ولا يصح تعلقه بـ [عاصم] لأَنه كان

---

(١) أي : من رحمهُ اللهُ موجود .

(٢) هذا مطلع بيت سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية (٩٨) من سورة (يونس) . والبيت بتمامه :

إلا الأوَارِيَّ لأياً مَّا أُبَيِّنُهَـــا والنُّؤْيَ كالْحَوْضِ بالمظْلُومَةِ الْجَلَدِ

(٣) البيت لِجِران العَوْد النُّمَيْري ، وهو من شواهد النحويين (خزانة الأدب للبغدادي) على أن الاستثناءَ في البيت منقطع لأن اليَعَافير والعِيس ليسا من نوع المستثنى منه وهو «الأنيس» . وللعرب في هذا مذهبان : فالحجازيون ينصبون المنقطع على الاستثناء ، وبنو تميم يرفعونه على أنه بدلٌ مما قبله . والبلْدَة هنا : القطعة من الأرض ، والأنيس : المؤنس من الناس وهو الذي يذهب ما بك من وحشة ، واليعافير : جمع يَعْفور وهو ولد الظبية أو البقرة الوحشية ، أو هو تيس الظباء ، والعيس : إبل بيض يخالط بياضها شقرة ، والجمع : أعْيُس وعيساءُ .

يجيءُ منوناً : «لا عاصماً اليوم» ، يرجع إلى أَصل النصب لئلا يرجع ثلاثة أَشياءٍ واحدا ، وإنما القانون أَن يكون الشيئان واحداً : «لا» وما عملت فيه ، ومثال النحويين في هذه المسأَلة : «لا أَمراً يوم الجمعة لك» ، فإن أَعملت في «يَوْمَ» لَكَ ــ قلتَ : لا أَمْرَ .(١)

و [بَيْنَهُما] يريد : بين نوح وابنه ، فكان الابن ممن غرق .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾ الآية . بناءُ الفعل للمفعول أَبلغ في التعظيم والجبروت ، وكذلك بناءُ الأَفعال ــ بعد ذلك ــ في سائر الآية . وروي أَن أَعرابياً سمع هذه الآية فقال : «هذا كلام القادرين» . والبَلْعُ هو تجرّع الشيءِ وازدرادُه ، فشبَّه قبض الأَرض للماءِ وتسَرُّبه فيها بذلك ، وأُمرت بالتشبيه ، وأَضاف الماءَ إليها إذْ هو عليها وحاصل فيها . والسماءُ في هذه الآية : إما السماءُ المُظِلَّة ، وإما السحاب . والإقلاع عن الشيءِ : تركه . والمعنى : أَقلعي عن الإمطار .

---

(١) أفضل ما قيل في الآراء التي ذكرها ابن عطية رحمه الله أن [مَنْ] في موضع رفع ، والمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ، أي : إلا الله ، وهذا هو الذي اختاره الطبري ، ومال إليه القرطبي ، قال : لأنك لم تجعل « عاصماً » بمعنى « معصوم » فتخرجه من بابه ، ولا « إلا » بمعنى « لكن » . والذين جعلوا « عاصماً » بمعنى « معصوم » قاسوها على قوله تعالى : ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ فهو والله أعلم بمعنى « مَدْفُوق » ، وعليه جاء قول الشاعر :

بَطِيءُ القِيَـام رَخِيمُ الْكَـلا م أَمْسَى فُؤَادي به فاتِنَـا

أي : « مفتوناً » ، وعليه أيضاً قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر :

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فَإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسي

أي : المطعوم المكْسُوّ .

و [غِيضَ] معناه : نقص ، وأكثر ما يجيءُ فيما هو بمعنى : جفوف[١] ، كقوله : ﴿وغِيضَ ٱلْمَاءُ﴾ ، وكقوله : ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[٢] ، وأكثر المفسرين على أن ذلك في الحيض ، وكذلك قول الأسود بن يَعْفُر :

. . . . مَا غِيضَ مِنْ بصَرِي ومِنْ أَجْلَادي؟[٣]

وذلك أن الإِنسان الهرم إنما تَنَقُّصه بجُفوفٍ وقَضَافَة[٤] .

وقوله : ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إشارة إلى جميع القصة : بعْثُ الماءِ ، وإهْلاكُ الأُمم ، وإنجاءُ أهل السفينة . وروي أن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عين وردة بالشام أول يوم من رجب ، وقيل : في العاشر منه ، وقيل : في الخامس عشر ، وقيل : في السابع عشر ، واستوت السفينة في ذي الحجة ، وأقامت على الجوديّ شهراً ، وقيل له : اهبط يوم عاشوراءَ ، فصامه وصامه من معه من أُناس ووحوش .

---

(١) مصدر جَفَّ ، يقال : جَفَّ الشيءُ جفوفاً وجفافا . (اللسان) .

(٢) من الآية (٨) من سورة (الرعد) .

(٣) الشاعر من بني تميم ، ويطلق عليه أعْشى بني نَهشل ، وهو جاهلي ، مقدم ، فصيح ، فحل ، كان ينادم النعمان ، والبيت بتمامه :

إمَّا تَرَيْني قَدْ بَلِيتُ وغاضَني ما نِيلَ مِنْ بَصَري ومِنْ أجْلادِي

هكذا بلفظ «نِيلَ» بدلا من «غِيضَ» . وغاضني : نقصني . وأجلادي : خُلقي وشخصي ، يريد أن الدهر قد حطمه ، فقد كفّ بصره ، وأنهكت الأيام جسمه ، فأصبح ضعيفاً لا يقوى على شيء .

(٤) قَضُفَ قَضَافَة : دقّ ونَحُف لا عن هُزال . (المعجم الوسيط) .

وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أَقام على الماء نحو السنة ، وذكر أَيضاً حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام : (إن نوحاً ركب في السفينة أَول يوم من رجب ، وصام الشهر أَجمع ، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراءَ ، ففيه أَرست على الجوديّ فصامه نوح ومن معه)[١]. ورُوي أَن نوحاً لما طال مقامه على الماء بعث الغراب ليأْتيه بخبر كمال الغرق ، فوجد جيفة طافية ، فبقي عليها فلم يرجع بخبر ، فدعا عليه نوح فاسودّ لونه وخُوّف من الناس ، فهو لذلك مستوحش ، ثم بعث نوح الحمام فجاءَته بورق زيتونة في فمها ولم تجد تراباً تضع رجليها عليه ، فبقي أَربعين يوماً ثم بعثها فوجدت الماءَ قد انحسر عن موضع الكعبة ، وهي أَول بقعة انحسر الماءُ عنها ، فمسّت الطين برجليها وجاءَته ، فعلم أَن الماءَ قد أَخذ في النضوب ، ودعا لها فطوّقت وأنست ، فهي لذلك تأْلف الناس ، ثم أَوحى الله إلى الجبال أَن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت كلها وبقي الجوديّ ـ وهو جبل بالموصل في ناحية الجزيرة ـ ولم يتطاول تواضعاً لله ، فاستوت السفينة ـ بأَمر الله ـ عليه ، وبقيت عليه أَعوادها ، وفي الحديث أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لقد بقي منها شيءٌ أَدركه أَوائل هذه

(١) الحديث بنصه وسنده موجود في تفسير الطبري ، وكذلك كل الأخبار التي نقلها ابن عطية عن قصة السفينة والغراب والحمامة ، وستجد في آخر كلامه عن هذه الأخبار ما يشير إلى شكه فيها ، وإلى أنها يدخلها الاختلاف .

الأُمة) (١) ، وقال الزجاج : الجوديّ هو بناحية آمِد(٢) ، وقال قوم : هو عند باقِرْدَى(٣) ، وروي أَن السفينة لما استقلت من «عين وردة» جرت حتى جاءَت الكعبة فوجدتها قد نَشَزَت من الأَرض فلم ينلها غرق فطافت بها أُسبوعاً ، ثم مضت إِلى اليمن ، ورجعت إِلى الجوديّ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والقصص في هذه المعاني كثير صعب أَن يستوفى ، فأَشرت منه إِلى نُبذ ، ويدخله الاختلاف كما ترى في أَمر الكعبة ، والله أَعلم كيف كان . و [ٱسْتَوَتْ] معناه : تمكنت واستقرت . وقرأَ جمهور الناس : ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ بكسر الياءِ وشدها ، وقرأَ الأَعمش وابن أَبي عبلة : ﴿عَلَى ٱلْجُودِي﴾ بسكون الياءِ ، وهما لغتان . وقوله : ﴿وَقِيلَ بُعْداً﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالى عطفاً على : [وقِيلَ] الأَول ، ويحتمل أَن يكون من قول نوح والمؤمنين . والأَول أَظهر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه .

(٢) آمِد : بلدٌ قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نَشَز ودجلةُ محيطة بأكثره، مستديرة به كالهلال ، يُسقى من عيون بقُربه ، قال في التاج : «ونقل شيخنا عن بعض أنه ضبطه بضم الميم» .

(٣) باقِرْدَى : بكسر القاف وفتح الدال : كورة في شرقي دجلة ، وبالقرب منها جبل الجوديّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذه جملة معطوفة على التي قبلها دون ترتيب ، وذلك أَن هذه القصة كانت في أَول ما ركب نوح في السفينة ، ويظهر من كلام الطبري أَن ذلك كان بعد غرق الابن ، وهو محتمل ، والأَول أَليق .

وهذه الآية احتجاج (١) من نوح عليه السلام ، وذلك أَن الله أَمره بحمل أَهله ، وابنُه من أَهله ، فينبغي أَن يحمل ، فأَظهر الله له أَن المراد مَنْ آمن مِنَ الأَهل . ثم حسَّن المخاطبة بقوله : ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ، وبقوله : ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ ، فإن هذه الأَقوال مُعينة في حُجّته ، وهذه الآية تقتضي أَن نوحاً عليه السلام ظن أَن ابنه مؤمن ، وذلك أَشد الاحتمالين .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ يَا نُوحُ﴾ الآية . المعنى : قال الله تعالى : يا نوح ، وقالت فرقة : المراد بقوله : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ : ليس

---

(١) يريد أن هذه الآية حجّة من نوح يقدمها في استعطافه لله ، ولا يريد الاحتجاج بمعنى المعارضة أو إقامة الحجة .

بولد لك ، وزعمت أنه كان لِغَيَّة (١) ، وأن امرأته الكافرة خانته فيه ، هذا قول الحسن ، وابن سيرين ، وعُبَيد بن عُمَير ، وقال أَبزى : إنما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالولد للفراش من أَجل ابن نوح (٢) ، وحلف الحسن أَنه ليس بابنه ، وحلف عكرمة والضحاك أَنه ابنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

عوّل الحسن على قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ، وعوّل الضحاك وعكرمة على قوله تعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾ .

وقرأَ الحسن ومنْ تأَوّل تأْويله : ﴿إِنَّهُ عمَلٌ غيْرُ صَـالِحٍ﴾ على هذا المعنى ، وهي قراءَة السبعة سوى الكسائي ، وقراءَة جمهور الناس ،

(١) ولَدُ الغَيَّة وولد الزنْية : من يأتي نتيجة للغواية والزنى ، ويقال في نقيضهما : هو ولد رَشْدَة .

(٢) حديث : (الولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وهو في الموطأ ، وفي مسند الإمام أحمد ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان عتبة بن أبي وقاص عَهِد إلى أخيه سعد ابن أبي وقاص أن ابنَ وليدَةِ زَمْعَة مِنِّي فاقبضه ، قالت : فلما كان عام الفتح أخذه سعد ابن أبي وقاص وقال : ابن أخي ، قد عهد إلي فيه ، فقام عَبْدُ بن زمْعَةَ فقال : أخي وابن وليدَةِ أبي ، ولد على فراشه ، فتساوقا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سعد : يا رسول الله ، ابن أخي كان قد عهد إليّ فيه ، فقال عَبْدُ بن زمْعَة : أخي وابن وليدَةِ أبي ولد على فراشه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لك يا عَبْدُ بن زَمْعَة، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : الولَد للفراش وللعاهر الحَجَر ، ثم قال لسَوْدَة بنت زمْعَة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : احتجبي منه يا سودة — لما رآه من شَبَهِهِ بِعُتْبَة ، فما رآها حتى لقي الله) . ومعنى « الحَجَر » أي : الرَّجم بالحَجَر، أو الخيبة .

وقال من خالف الحسن بن أَبي الحسن : المعنى : ليس من أَهلك الذين عمَّهم الوعدُ ، لأَنه ليس على دينك وإن كان ابنك بالولادة(١) ، فمن قرأَ من هذه الفرقة : ﴿إِنَّهُ عمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على جهة المبالغة فوصفه بذلك ، كما قالت الخنساءُ تصفُ ناقةً ذهب عنها ولدها :

تَرْتَعُ مارتَعَتْ حتَّى إذا ادّكَرَتْ فَإِنَّما هــيَ إِقْبالٌ وإِدْبارُ (٢)

أَي : ذات إِقبال وإِدبار .

وقرأَ بعض هذه الفرقة : ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ ، وهي قراءَة الكسائي ، وروت هذه القراءَة أُمُّ سَلَمة وعائشةُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذكره أَبو حاتم ، وضعَّف الطبري هذه القراءَة ، وطعن في الحديث بأَنه من طريق شهر بن حوشب . وهي قراءَة علي ، وابن عباس ، وعائشة ، وأَنس بن مالك ، ورجَّحها أَبو حاتم . وقرأَ بعضهم : «إِنَّه عَمِلَ عَملاً غيْرَ صَالحٍ» . وقالت فرقة : الضمير في قوله : ﴿إِنَّهُ عمَلٌ غيرُ صالِحٍ﴾ على قراءَة جمهور السبعة عائد على سؤال نوح

---

(١) في بعض الأصول : (وإن كان ابنك بالولاء) . وفي بعضها : (ابنك بالولاد) .

(٢) البيت للخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخرا ، وفيه تصف ناقة ذهب عنها ولدها ، وترتع : ترعى كيف شاءت في خصب وسعة ، وادّكرت : تذكرت وليدها ، يقول : إنها في حركة دائمة تذهب وترجع باستمرار من شدة القلق .

الذي يتضمنه الكلام ، وقد فسَّره آخر الآية ، ويُقَوِّي هذا التأْويل أَن في مصحف ابن مسعود : «إِنَّه عمَلٌ غيْرُ صــالِح أَنْ تَسْأَلَني مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» ، وقالت فرقة : الضمير عائد على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح ، المعنى : إِن ركوب الكافر مع المؤمنين عملٌ غَيرُ صالح . وقال أَبو علي : ويحتمل أَن يكون التقدير : إِن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غيْرُ صالح .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تـأْويل لا يتَّجه من جهة المعنى .

وكل هذه الفرق قال : إِن القول بـأَن الولَد كان لِغَيَّةٍ وَوَلَدَ فراشٍ خطأٌ محض ، وقالوا : إِنه رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه ما زنت امرأَة نبي قط .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الحديث ليس بالمعروف ، وإِنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنهما ، ويُعضِّده شرف النبوة ، وقالوا في قوله عزَّ وجلَّ : [فَخَانَتَاهُمَا][1] : إِن الواحدة كانت تقول للناس : هو مجنون ،

(١) من قوله تعالى في الآية (١٠) من سورة (التحريم) : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وامْرَأَة لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ .

والأُخرى كانت تنبه على الأَضياف ، وأَمَّا غير هذا فلا [١] . وهذه منازع ابن عباس وحُجَجُه ، وهو قوله وقول الجمهور من الناس [٢].

وقرأَ ابن أَبي مليكة : ﴿فَلَا تَسَلْنِي﴾ بتخفيف النون وإثبات الياءِ وسكون اللام دون همز ، وقرأَت فرقة بتخفيف النون وإسقاط الياءِ وبالهمز ﴿فَلَا تَسْأَلنِ﴾ ، وقرأَ أَبو جعفر ، وشيبة بكسر النون وشدها والهمز وإِثبات الياءِ ﴿فَلَا تَسْأَلنِّي﴾ ، وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر : ﴿فَلَا تَسْأَلَنَّ﴾ بفتح النون المشددة ، وهي قراءَة ابن عباس ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿فَلَا تَسَلْنِ﴾ خفيفة النون ساكنة اللام ، وكان أَبو عمرو يثبت الياءَ في الوصل ، وحذفها عاصم وحمزة في الوصل والوقف . ومعنى قوله : ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ، أَي : إذا وعدتك فاعلم يقيناً أَنه لا خُلْف في الوعد ، فإذا رأَيتَ ولدك لم يُحْمل فكان الواجب عليك أَن تقف وتعلم أَن ذلك واجب بحق عند الله .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البَشَر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير ، وعلى هذا القدر وقع عتابه ،

---

(١) في إحدى النسخ : « وأما خيانة غير هذا فلا » .

(٢) قال الزمخشري : « فإن قُلْتَ : فهلا قيل : « إنه عَمَل فاسد » ؟ قلتُ : لما نفاهُ من أهله نَفَى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستنفي معها لفظ المنفي ، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهلِه بصلاحهم لا لأنهم أهلك وقرابتك ، وأن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أُبوتك » . وهذا هو سرّ التعبير بكلمة الصلاح منفية عن ابن نوح عليه السلام .

ولذلك جاءَ بتلَطف وترفيع في قوله : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ ، وقد قال الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾[١] ، وذلك هنا بحسب الأَمر الذي عوتب فيه وعظمته ، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة ، وإِلَّا فمتقرر أَنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم أَفضل البشر وأَولاهم بلين المخاطبة ، ولكن هذا بحسب الأَمرين لا بحسب النبيَّيْن . وقال قوم : إنما وقَّر نوح لِسِنِّه ، وقال قوم : إنما حمل اللفظ على محمد صلى الله عليه وسلم كما يحمل الإِنسانُ على المختص به الحبيب إليه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف .

ويحتمل قوله : ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَي : لا تطلب مني أَمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين . ونحا إلى هذا أَبو علي الفارسي وقال : إن [به] يجوز أَن يتعلق بلفظة [علْم] كما قال الشاعر :

كَانَ جَزَائي بالْعَصَا أَنْ أُجْلَدَا[٢]

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة (الأنعام) : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

(٢) البيت للعجاج ، وهو آخر ثلاثة أبيات يقول فيها :

وَرَبَّيْتُه حتَّى إذا تَمَعْدَدَا

وآضَ نَهْداً كالحِصَانِ أجْرَدَا

كانَ جَزَائي بالْعَصَا أنْ أُجْلَدَا

=

ويجـوز أَن يكون [به] بمنـزلة «فيه» فتتعلق البـاءُ بالمستقر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي ، والمعنى في الآية واحد . ورُوي أن هذا الابن إنما كان ربيبه ، وهذا ضعيف . وحكى الطبريّ عن ابن زيد أن معنى قوله : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ من ٱلْجَاهِلِينَ﴾ في أَن تعتقد أَني لا أَفي لك بوعْدٍ وعدتك به .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تـأْويل بشع ، وليس في الأَلفاظ ما يقتضي أَن نوحاً اعتقد هذا ، وعياذاً بالله(١). وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أَن رأَي ترك ابنه معارضاً للوعد فذكر به ، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى .

= وتَـمَعْدَدَ الغلامُ : شبَّ وغلظ جسمه ، وآضَ: صار ، والنهد: الجسم الجهير ، ومنه قولهم : «فرسٌ نَهْدٌ» ، أي : جميل جسيم ، والأجرد من الخيل : القصير الشعر ويكون سباقاً . راجع «اللسان ــ وشواهد الشافية ، وديوان العجاج» .

(١) تعفف أبو حيّان في «البحر» عن ذكر هذا الرأي وقال : «وذكر الطبري عن ابن زيد تأويلا في قوله : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لا يناسب النبوة ، تركناه . ويوقف عليه في تفسير ابن عطية» ا.هـ. وابن عطية نقله ولكن وصفه بأنه بشع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمُه لأَمر الله تعالى واستغفاره ، والسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحّة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه ، وأَما السؤال في الأُمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا ، وظاهر قوله : ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لكَ به عِلْم﴾ يعم النحويْن من السؤال ، فلذلك نبّهت على أَن المراد أَحدهما دون الآخر . والخاسرون : هم المغبونون حظوظَهم من الخير .

وقوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ ٱهبطْ بِسَلَام﴾ ، كان هذا عند نزوله من السفينة مع أَصحابه للانتشار في الأَرض ، و «السَّلَام» هنا : السلامة والأَمن ونحوه ، و «البركات» : الخير والنمو في كل الجهات . وهذه العِدَةُ تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة ، قاله محمد بن كعب

القرظي[١]. وقوله : ﴿مِمَّنْ مَعَكَ﴾ أي : منْ ذرية من معك ومِنْ نسلهم ، فـ [مِنْ] - على هذا - هي لابتداءِ الغاية ، أَي : مِنْ هؤلاءِ تكون هذه الأُمم ، و [مَنْ] موصولة ، وصلتُها [مَعَكَ] وما يتَقَدَّر معها نحو قولك : مِمَّن استقَرَّ معك ، ونحوه . ثم قطع قوله : [وَأُمَمٌ] على وجه الابتداءِ إذ كان أَمرهم مقطوعاً من الأَمر الأَول ، وهؤلاءِ هم الكفار إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية . إشارة إلى القصة ، أَي : هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إلا عند الله تبارك وتعالى ، ولم يكن علمها أَو علم أَشباهها عندك ولا عند قومك ، ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأُسوة فيما لقيه غيرك من الأَنبياءِ ، وتكون لقومك مثالا وتحذيراً ، لئلا يصبهم إذا كذبوك مثل ما أَصاب هؤلاءِ وغيرهم من الأُمم المعذبة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، أَي : فاجتهد في التبليغ وجِدَّ في الرسالة واصبر على الشدائد ، واعلم

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم بن عمرو أبو حمزة ، ويقال : أبو عبد الله ، القُرَظِيّ ، تابعي ، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : رآه . نزل الكوفة ، ثم رجع إلى المدينة ، روى عن عائشة وأبي هريرة وغيرهما - رضي الله عنهم - ، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن ، قال عَوْنُ بن عبد الله : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القُرَظي ، توفي سنة ١٠٨ هـ . (طبقات القراء) .

أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة ، وفي مصحف ابن مسعود : «منْ قَبْلِ هَذَا القُرْآنِ» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ عطف على قوله : ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ في قصة نوح [(١)] ، و «عاد» قبيلة ، وكانت عرباً فيما يذكر ، و «هودٌ» عليه السلام منهم ، وجعله [أَخَاهُم] بحسب النسب والقرابة ، فإن فرضناه ليس منهم فالأُخوة بحسب المنشإِ واللسان والجيرة ، وأما قول من قال : «هي أُخوة بحسب النسب الآدمي» فضعيف .

وقرأ جمهور الناس : [يَاقَوْمِ] بكسر الميم ، وقرأ ابن محيصن : [يَا قَوْمُ] برفع الميم ، وهي لغة حكاها سيبويه . وقرأ جمهور الناس : [غَيْرُهُ] بالرفع على النعت أو البدل من موضع قوله : ﴿مِنْ إِلٰهٍ﴾ ،

---

(١) يجوز أن يكون من عطف الجُمل ، وعليه يكون هناك فعل محذوف تقديره : «وأرسلنا» إلى عادٍ أخاهم ، ويجوز أن يكون من عطف المفردات بأن نعطف المجرور على المجرور ، والمنْصوب على المنصوب ، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب في قولك : «ضربَ زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً» .

وقرأ الكسائي وحده بكسر الراء حملاً على لفظ [إلٰهٍ] ، وذلك أيضاً على النعت أو البدل ، ويجوز [غيرَه] نصباً على الاستثناء .

و [مُفْتَرُونَ] معناه : كاذبون أفحش كذب في جعلكم الأُلوهية لغير الله تعالى . والضمير في قوله : [عَلَيْهِ] عائد على الدعاءِ إلى الله تبارك وتعالى ، والمعنى : ما أجري وجزائي إلَّا عند الله تعالى ، ثم وصفه بقوله : ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، فجعلها صفة رادَّةً عليهم في عبادتهم الأَصنام ، واعتقادهم أنها تفعل ، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه منبهاً على أفعال الله تعالى ، وأنه هو الذي يستحق العبادة ، و [فَطَرَ] معناه : اخترع وأنشأ ، وقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيف على مجال القول بأن غير الفاطر إلٰهٌ ، ويحتمل أن يريد : أفلا تعقلون إذا لم أطلب عرضاً من أعراض الدنيا أنّي إنما أُريد النفع لكم والدَّار الآخرة . والأَول أظهر . والاستغفار : طلب المغفرة ، وقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بإنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة الواضحة[1] ، وهذه أحوال يمكن أن تقع من الكفار ، فكأنه قال لهم : اطلبوا غفران الله بالإنابة وطلب الدليل في نبوتي ، ثم توبوا بالإيمان من كفركم ، فيجيءُ الترتيب - على هذا - مستقيماً ، وإلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إلى تحيّل كثير ، فإما أن يكون [تُوبُوا] أمراً بالدوام ، و «الاستغفار» طلب المغفرة بالإيمان ،

(١) المَحَجَّةُ : الطريق المستقيم ، وجمعه : محاجٌّ . وفي إحدى النسخ : «الحُجَّة الواضحة» .

وإلى هذا ذهب الطبري ، وقال أَبو المعالي في «الإرشاد» : التوبة في اصطلاح المتكلمين هي الندم ، بعد أَن قال : إنها في اللغة الرجوعُ ، ثم ركَّبَ على هذا أَن قال : إن الكافر إذا آمن ليس إيمانه توبة ، وإنما توبته ندمُه بعْدُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والذي أَقول : «إن التوبة عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إليه ، ويقترن بها ندمٌ على فارط المتوب منه لا ينفك منه ، وهو من شروطها» ، فأَقول : إن إيمان الكافر هو توبته من كفره لأَنه هو نفسه رجوعه .

و «تاب» في كلام العرب معناه : رجع إلى الطاعة والأَمثل من الأُمور ، وتصَرُّفُ اللفظة في القرآن بـ «إلى» يقتضي أَنها الرجوع لا الندم ، وإنما الندم لاحق لازم للتوبة كما قلنا ، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تِيب منه عن عزْمة معتقدة على ما فسرناه ، والله المستعان .

و [مِدْرَاراً] هو بناءُ تكسير ، وكان حقه أَن تلحقه هاءٌ ولكن حذفت على نية النسب ، وعلى أَن السماءَ المطرُ نفسه ، وهو من : درَّ يَدُرُّ ، ومِفْعال قد يكون من اسم الفاعل الذي هو من ثُلاثيّ ، ومن اسم الفاعل الذي هو رباعيّ ، وقول من قال : «إنه أَلزمُ للرباعيّ» غير لازم [1].

---

(١) قال القرطبي : «وأكثر ما يأتي مِفْعَال من أفْعل ، وقد جاء ها هنا من فَعَل ، لأنه من درَّت السماءُ تدِرُّ وتَدُرُّ فهي مدرارٌ . و [مِدْرَاراً] نصب على الحال ، وفيه معنى التكثير ، أي : يرسل السماءَ بالمطر متتابعاً يتلو بعضُه بعضاً .

ويُروى أن «عَاداً» كان الله تعالى قد حبس عنها المطر ثلاث سنين ، وكانوا أهل حرثٍ وبساتين وثمارٍ ، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب ، فلهذا وعدهم بالمطر ، ومن ذلك فرحهم حين رأَوا العارض وقولهم : ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[(١)] ، وحضهم على استنزال المطر بالإيمان والإنابة ، وتلك عادة الله في عباده ، ومنه قول نوح عليه السلام : ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾[(٢)] ومنه فعل عمر رضي الله عنه حين جعل جميع قوله في الاستسقاءِ ودعائِهِ استغفاراً فَسُقي ، فسُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد استنزلت المطر بمجاديح السماءِ»[(٣)] .

وقوله : ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ظاهره العموم في جميع ما يُحسن الله تعالى فيه إلى العباد ، وقالت فرقة : كان الله تعالى قد حبس نسلهم ،

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (الأحقاف) .

(٢) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة (نوح) .

(٣) أخرج ابن سعد في «الطبقات» ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة في «المصنف» ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في «سُنَنه» عن الشعبي رضي الله عنه قال : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع (هكذا) فقيل له : ما رأيناك استسقيت ، قال : لقد طلبتُ المطر بمجاديح السماءِ التي يُستنزل بها المطر ، ثم قرأ : ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ و ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ (الدر المنثور) . وقال في «النهاية» : «والمَجاديح : واحدها مِجْدَح ، والياءُ زائدةٌ للإشباع ، والمِجْدح : نجم من النجوم ، قيل : هو الدَّبَران ، وقيل : ثلاثة كواكب كالأثَافيِّ تشبيها لها بالمِجْدَح الذي له ثلاث شعب ، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مُشَبَّهاً بالأنواءِ مخاطبة لهم بما يعرفونه ، لا قولا بالأنواءِ ، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر» . وفي «المعجم الوسيط» : المِجْدَح : خشبة في رأسها خشبتان معترضتان يُسَاطُ بها الشراب ، والجمع مجاديح .

فمعنى قوله : ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي : الولد . ويحتمل أن خصّ القوة بالذكر إذ كانوا أقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه . ثم نهاهم عن التولّي عن الحق والإعراض عن أمر الله ، و [مُجْرِمينَ] حالٌ من الضير في [تَتَوَلَّوْا] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

المعنى : ما جئتنا بآية تضطرنا إلى الإيمان بك ، ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق ، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَا من نبي إلا وقد أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ...) الحديث[1] ، وهذا يقتضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يُعَيّن لنا بعضها.

(١) رواه الشيخان : البخاري في « فضائل القرآن » ، و مسلم في « الإيمان » ، ولفظه كما في البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاهُ الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) .

وقولُهم : ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ ، أَي : لا يكون قولك سبب تركنا إِذْ هو مجرد عن آية . وقولُهم : ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ الآية ، معناه : ما نقول إلا أَن بعض الآلهة لما سَبَبْتَها وضَلَّلْتَ عبدتها أَصابك بجنون .

يقال : عَرَّ يَعُرُّ ، واعْتَرى يعتَري إِذا أَلَمَّ بالشيءِ(١) ، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أَوثانهم ، وحضَّهم على كيده هم وأَصنامُهم، ويُذكر أَن هذه كانت له معجزة، وذلك أَنه حرَّض جماعتهم عليه مع انفراده وقوّتهم وكفرهم فلم يقدروا على نيله بسوءٍ . و [تُنظِرُونِ] معناه : تؤخروني ، أَي : عاجلوني بما قدرتم عليه .

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية . المعنى : إني توكلت على الله الذي هو ربِّي وربكم مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم يمنعني منكم ويحجز بيني وبينكم ، ثم وصف قدرة الله تبارك وتعالى وعظم ملكه بقوله : ﴿مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ، وعبّر عن ذلك بالناصية إذ هي في العرف حيث يقبض القادر المالك ممن يقدر عليه ، كما يقاد الأَسير والفرس ونحوه حتى صار الأَخذ بالناصية

---

(١) في الصحاح : « يقال : به عرَّة وهو ما اعتراه من الجنون ، والعُرَّة : أيضاً : البَعْر والسِّرْجين وسَلْح الطير ، وفلانٌ عُرَّة : قَذِر ، وهو يَعُرُّ قومه : أي يُدخل عليهم مكروهاً يلطخهم به » . وفي اللسان : « وعراني الأمر يعروني عَوْراً واعْتراني : غَشِيَني وأصابني ، قال الراعي :

قالت خُلَيْدَةُ : ما عَراكَ ؟ ولمْ تَكُنْ بعْدَ الرُّقَادِ عنِ الشُّؤُونِ سَؤُولا

وابن عطية يسوّي في المعنى بين المادتين ، فمعناهما عنده : ألَمَّ به ، وقد يكون النزول في (اعترى) لطلب المعروف ، وكان الأحسن أن يقول : « عرَّ يعُرّ ، واعترى يعتَري إذا أصابه بسوءٍ . راجع التاج أيضاً وغيره من المعاجم .

عُرْفاً في القدرة على الحيوان ، وكانت العرب تجزّ ناصية الأَسير المنون عليه لتكون تلك علامة أَنه قُدِر عليه وقُبض على ناصيته . والدَّابة : جميع الحيوان ، وخُص بالذكر إذ هو صنف المخاطبين والمتكلم . وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ يريد أَن أَفعال الله عزَّ وجلَّ هي في غاية الإحكام ، وقوله الصدق ، ووعده الحق ، فجاءت الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عزَّ وجلَّ ، فعبّر عن ذلك بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ على تقدير مضاف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

قرأَ الجمهور : [تَوَلَّوْا] بفتح اللام والتاء على معنى «تَتَوَلَّوا» ، وقرأَ عيسى الثقفي ، والأَعرج : [تُوَلُّوا] بضم التاء واللام ، و [إِنْ]

شرط والجواب في الفاء وما بعدها من قوله : ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾(١) ، والمعنى : إنه ما عليَّ كبيرُ هَمٍّ منكم إن توليتم ، فقد برئت ساحتي بالتبليغ ، وأنتم أَصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان ، ويحتمل أَن يكون [تَوَلَّوا] فعلا ماضياً ويجيءُ في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب ، أي فقل : قد أبلغتكم .

وقرأَ الجمهور : [وَيَسْتَخْلِفُ] بضم الفاء على معنى الخبر بذلك ، وقرأَ عاصم - فيما روى هُبيرة عن حفص - : [وَيَسْتَخْلِفْ] بالجزم عطفاً على موضع الفاءِ من قوله : [فَقَدْ] ، وقوله : ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ يحتمل من المعنى وجهين :

أَحدهما : ولا تضُرُّونَهُ بذهابكم وهلاككم شيئاً ، أَي : لا ينتقص ملكه ولا يختل أَمره ، وعلى هذا المعنى قرأَ عبد الله بن مسعود : «ولا تنقصونه شيئاً» .

والمعنى الآخر : ولا تضرونه ، أَي : ولا تقدرون - إذا أَهلككم - على إضراره بشيءٍ ، ولا على الانتصار منه ، ولا تقابلون فعله بكم بشيءٍ يضره(٢) .

---

(١) وصحَّ أن يكون جواباً لأن في إبلاغه إليهم رسالتَه تَضَمُّن ما يحل بهم من العذاب المستَأصِل ، فكأنه قيل : فإن تتولوا استُؤْصلتم بالعذاب ، ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله : ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُم﴾ .

(٢) قال أبو حيّان : « وهذا فعل منفي ومدلوله نكرة فينتفي جميع وجوه الضرر ، ولا يتعين واحد منها » .

ثم أخبرهم أن ربه حفيظ على كل شيءٍ ، عالم به . وفي ترديد هذه الصفات ونحوها تنبيه وتذكير .

والأمر : واحد الأمور ، ويحتمل أن يكون مصدر أمر يأمُر ، أي : أمْرُنا للريح أو لخزنتها ونحو ذلك ، وقوله : [بِرَحْمةٍ] إما أن يكون إخباراً مجرداً عن رحمة من الله لحقتهم ، وإما أن يكون قصداً إلى الإعلام أن النجاة إنما كملت بمجرد رحمة الله لا بأعمالهم ، فتكون الآية ـ على هذا ـ في معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخُل أحدٌ الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه وبرحمته)[1]. وقوله : ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتمل أن يريد عذاب الآخرة ، ويحتمل أن يريد : وكانت النجاة المتقدمة من عذاب غليظ ، يريد : الريح ، فيكون المقصود ـ على هذ ـ تعديد النعمة . ومشهور عذابهم بالريح هو أنها كانت تحملهم وتهدم مساكنهم وتنسفها ، وتحمل الظعينة كما هي ، ونحو هذا ، وحكى الزجاج أنها كانت تدخل في أبدانهم وتخرج من أدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً .

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، وغيرهما : ونصه كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة في كتاب المرضى : (لن يُدْخِل أحداً عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني اللهُ بفضل ورحمة ، فسَدّدوا وقاربوا ، ولا يتَمَنَّيَنّ أحدكم الموت ، إمّا مُحسناً فلعلّه أن يزداد خيراً ، وإمّا مُسيئاً فلعلّه أن يَسْتَعْتِب) ـ قال في «النهاية» : أي يرجعُ عن الإساءة ويَطْلُب الرضا .

و تعدَّى : [جحدُوا] بحرف جر لما نُزِّل منزلة «كفروا» ، وانعكس ذلك في الآية بعد هذا(١) ، وقوله : ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ شُنعة عليهم ، وذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم ، إذ النُّبُوءَات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته ، ويحتمل أَن يراد هودٌ وآدم ونوح عليهم السلام .

و «الْعَنِيدُ» فَعِيل من عَنَد إذا عتَا ، ومنه قول الشاعر :

إنِّي كبيرٌ لَا أُطيقُ العُنَّدَا (٢)

أَي الصعاب من الإبل ، وكان التجبُّر والعناد من خُلُق عاد لقوتهم .

وقوله تعالى : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ الآية . حُكِمَ عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلَّ العذاب بهم ، واللعنة : الإبعادُ والخِزْي ، وقد تيقَّن أَن هؤلاءِ وافوا على الكفر ، فيلعن الكافر الموافي على كفره ، ولا يلعن معيّن حيّ ، لا مِنْ كافر ولا مِن فاسق ولا مِن بهيمة ، كل ذلك مكروهٌ بالأَحاديث ، و [يَوْمَ] ظرف معناه

---

(١) أي في قوله سبحانه : ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ حيث تعدّى (كَفَر) بنفسه .

(٢) العانِدُ : البعير الذي يحور عن الطريق ويعدل عن القصد ، وناقة عَنُودٌ : لا تخالط الإبل ، تُباعد عنهن فترعى ناحيةً أبداً ، والجمع : عانِدٌ وعُنُدٌ ، وجمعها كلها : عوانِدُ وعُنَّدٌ ، وعليه جاء قوله :

إذا رَحَلْتُ فاجْعَلُوني وسَطاً إنّي كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدَا

وقد جمع الراجز بين الطاء والدال وهو إكفاءٌ . والشطران في التاج واللسان ، وكذلك في الجمهرة لابن دريد (٢١–٢٣٨) وفي الاقتضاب مع أشطار أخرى (٥–٤٢) ، والرجز كله غير منسوب في أي مرجع من هذه المراجع .

أن اللعنة عليهم في الدنيا وفي يوم القيامة ، ثم ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي كفرهم بربّهم ، وتعدّى « كَفَرَ » بغير الحرف إذ هو بمعنى جَحدُوا ، كما تقول : شكرت لك وشكرتك . وكفر نعمته وكفر بنعمته ، و [بُعْداً] منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك الفعل (١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾

التقدير : وأرسلنا إلى ثمود ، وقد تقدم القول في مثل هذا وفي معنى الأُخوة في قصة هود . وقرأ الجمهور : ﴿وَإِلَى ثمودَ﴾ بغير صرف ، وقرأ ابن وثاب ، والأعمش : ﴿وَإِلَى ثَمودٍ﴾ بالصرف حيث وقع ، فالأُولى على إرادة القبيلة ، والثانية على إرادة الحيّ ، وفي هذه الألفاظ الدالة على الجموع ما يكثر فيه إرادة الحيّ كقُريش وثقيف وما لا يقال فيه : بنو فلان ، وفيها ما يكثر فيه إرادة القبيلة كتميمَ

(١) الضمير (هُوَ) يعود على المصدر (بُعْداً) ، يريد أن المصدر قائم مقام فعله .

وتغلبَ ، ألا ترى أنهم يقولون : «تغلب ابنة وائل» ، وقال الطِّرِمَّاح :

. . . . إذا نَهَلَتْ مِنْهُ تَمِيمٌ وعَلَّتِ (١)

وقول الآخر * تَميمُ بن مُرٍّ وَأَشْياعُهَا *

وفيها ما يكثر فيه الوجهان كثمود وسبأ ، فالقراءتان هنا فصيحتان مستعملتان . وقرأت فرقة : [غَيْرُه] برفع الراء ، وقرأ الكسائي :[غَيْرِه] بكسر الراء ، وقد تقدم آنفاً (٢) .

و ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَي : اخترعكم وأوجدكم ، وذلك باختراع آدم عليه السلام ، فكأن إنشاءَ آدم إنشاءٌ لبَنيه ، [واسْتَعْمَرَكُمْ] أَي : اتخذكم عُمّارا ، كما تقول : استكتب واستعمل ، وذهب قوم إلى أنها من العُمْر ، أي عَمَّركم (٣) ، وقد تقدم مثل قوله : ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ

---

(١) هذا عجز بيت قاله الطرماح من قصيدة يهجو بها الفرزدق ، والبيت بتمامه :

فَخَرْتَ بِيَــــوْمٍ لمْ يكُنْ لَكَ فَخْرُهُ إذا نَهَلَتْ مِنْهُ تَميـــــمٌ وعلَّتِ

والنَّهَلَ : الشُّرْبُ الأول ، يقال : نَهِلَ نَهَلا ومَنْهلا ، والعَلَلُ : الشُّرْبُ الثاني ، يقال : شَرِبَ عَلَلا بَعْدَ نَهَل، والمعنى على الاستعارة ، يريد أن (تَميمَ) أخذت أول المجد وآخره في هذا اليوم الذي لم تنل أنت فيه شيئاً ومع ذلك تفخر به .

(٢) خلاصة ما تقدم أن الرفع يكون على النعت أو البدل من موضع ﴿مِنْ إلهٍ﴾ ، وأن الجرَّ يكون حملا على لفظ (إلهٍ) وهو أيضاً على النعت أو البدل . على أنه يجوز النصب على الاستثناء كما قال ابن عطية ، ولكن لم يذكر أحد أنه قرئ بالنصب .

(٣) أي : أطال أعماركم ، وهذا هو رأي الضحاك . وقال مجاهد : هي من «العُمْرَى» ، فيكون «اسْتَعْمَرَ» في معنى «أعْمَرَ» ، والمعنى : أعْمَرَكُم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم ، أي : جعلكم مُعَمّرين دياركم فيها لأن من ورَّثَ داره مَنْ بَعده فإنه أعْمره إيّاها ، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره . وللعلماء في معنى «العُمْرَى» آراءٌ كثيرة ، أشهرها أنها تمليكٌ لمنافع الرّقبة حياةَ الْمُعْمَر مُدَّةَ عمره ، فإن مات المعْمَرُ رجعت إلى الذي أعطاها .

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ . ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أَي : إِجابته وغفرانه قريب ممن آمن وأَنَابَ ، و [مُجِيبٌ] معناه : بشرط المشيئة .

والظاهر الذي حكاه جمهور المفسرين أَن قوله : [مرْجُوًّا] معناه : مُسَوّدا ، نؤمل فيك أَن تكون سيداً سادًّا مسَدّ الأَكابر . ثم قرَّروه - على جهة التوبيخ في زعمهم - بقولهم : [أَتَنْهانَا] ، وحكى النقاش عن بعضهم أَنه قال : معناه : حقيراً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فأَما أَن يكون لفظ [مَرْجُوًّا] بمعنى حقير فليس ذلك في كلام العرب ، وإِنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى ، وذلك أَن القصد بقولهم : [مَرْجُوًّا] يكون: لقد كنت فينا سهلا مرامك قريباً ردُّ أَمرك ، مِمَّن لا يظن أَن يستفحل من أَمره مثل هذا ، فمعنى «مرجُوّ» أَي : مرجُوّ اطِّراحه وغلبته ونحو هذا ، فيكون ذلك على جهة الاحتقار ، فلذلك فُسّر بحقير ، ويشبه هذا المعنى قول أَبي سفيان بن حرب «لَقَدْ أَمِر أَمْرُ ابنُ أَبي كَبْشة ...» الحديث ، ثم يجيءُ قولهم : [أَتَنْهَانَا] على جهة التوعُّد والاستشناع لهذه المقالة منه .

و ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ يريدون به الأَوثان والأَصنام ، ثم أَوجبوا أَنهم في شك من أَمْرِه وأَقاويله ، وأَن ذلك الشك يرتابون به زائداً إِلى مرتبته من الشك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة التصميم على الكفر . و [مُريب] معناه : مُلْبس مُتَّهم ، ومنه قول الشاعر :

يا قَوْمِ مَالي وأَبَا ذُؤَيْبِ كُنْتُ إذا أَتَيْتُهُ مِنْ غيْبِ
يَشَمُّ عِطْفِي وَيبزُّ ثَوْبِي كَأَنَّنِي أَربْتُهُ بِرِيْبِ (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله : [أَرَأَيْتُمْ] هو من رؤْية القلب ، أَي : أَتدبَّرتم ؟ والشرط الذي بعده وجوابُه يسُدّ (٢) مَسَدّ مفعوليْن لِ [أَرأَيْتُمْ] ، والبيِّنَةُ : البرهان

---

(١) البيتان لخالد بن زُهَيْر الهُذَليّ ، وعِطْف كلّ شيءٍ : جانبه ، وهو من الإنسان من لدُن رأسه إلى وركه ، وبَزَّ : انتزع بجفاءٍ وغلظة ، و « أراب » بالألف قد يكون متعدياً فيكون بمعنى « رَابَ » ، وعليه قول خالد هذا ، وقد يكون غيرُ مُتَعَدٍّ ومعناه : أتَى بِرِيبَةٍ ، كما تقول : أَلامَ إذا أتَى بما يُلامُ عليه . ويروى : « أَتَوْتُه » ، وهي لغة في « أَتَيْتُه » ، وبها جاءَ الشعر في القرطبي والطبري . ورواه « اللسان » في (أتى) : « أَتَوْتُه » ، وفي (راب) : « أتيْتُه » .

(٢) هكذا ، وكأنه يريد أن يقول : « يَسُدُّ مع جوابه » .

واليقين ، والهاءُ في [بَيِّنَة] للمبالغة ، ويحتمل أَن تكون هاءَ تأْنيث ، والرحمة في هذه الآية : النُّبُوَّة وما انضاف إليها ، وفي الكلام محذوف تقديره : أَيضُرُّني شكُّكُم ؟ أَو : أَيُمْكنني طاعتكم ؟ ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية [١] .

وقوله : ﴿فَما تزِيدُونَني غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ معناه : فما تُعطونني فيما أَقتضيه منكم من الإِيمان وآمُرُكم بِهِ من الإِنابة غير تخسير لأَنفسكم ، وهو من الخسارة ، وليس التخسير في هذه الآية إلا لهُم وفي حيّزهم . وأَضاف الزِّيادة إليه من حيث هو مقتض لأَقوالهم مُوَكَّلٌ بإِيمانهم ، كما تقول لمن توصيه : « أَنَا أُريد بك خيراً وأَنت تُريد بي شرًّا » [٢] ، فكان الوجه البيّن : « وأَنت تُريد شرًّا » ولكن من حيث كنت مُريد خير ومُقْتَضٍ ذلك ـ حسُن أَن تضيف الزيادة إلى نفسك .

وقوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الآية . اقتضب في هذه الآية ذكْر أَوّل أَمر الناقة ، وذلك أَنه رُوِي أَنَّ قومه طلبوا منه آية

---

(١) قال في « البحر » تعقيباً على كلام ابن عطية : « وهذا التقدير الذي قدره استشعارٌ منه بالمفعول الثاني الذي يقتضيه [أَرَأَيْتُمْ] وأن الشرط وجوابه لا يقعان ولا يسُدّان مسَدّ مفعولي [أَرَأَيْتُمْ] ، والذي نقدره نحن هو أنه حين خاطب الجاحدين قال : قَدّروا أَنّي على بيِّنَة مِنْ رَبِّي ، وانظروا إن تابعتكم وعصيْتُ ربِّي في أوامره فمن يمنعني من عذابه ؟ ويدل عليه قوله : ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ .

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في هذه العبارة ، واختلف المفسرون في نقلها عن ابن عطية كالألوسي وأبي حيان ، فهي مرة بالراء ، ومرة بالزاي ، مع التعدية إلى المفعول الثاني مرة بنفس الفعل ، ومرة بحرف الجر ، ولعلّ الصواب ما أثبتناه .

تضطرهم إلى الإيمان فأخرج الله جلَّت قدرتُه لهم الناقة من الجبل ، ورُوي أنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة ، فرُوي أن الجبل تمخَّض كالحامل وانصدع الحجر وخرجت منه ناقة بفصيلها ، ورُوي أنها خرجت عُشراءَ ووضعت بعد خروجها فوقفهم صالح وقال لهم : ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ ، ونصب [آيَةً] على الحال .

وقرأت فرقة : [تَأْكُلْ] بالجزم على جواب الأمر ، وقرأت فرقة : [تَأْكُلُ] على طريق القطع والاستئناف ، أو على أنه الحال من الضمير في [ذَرُوهَا] ، وقوله : ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عامٌّ في العقْر وغيره ، وقوله : ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ هذا بوحي من الله إليه أن قومك إذا عقروا الناقة جاءهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية ، وهي الأيام الثلاثة التي فهمها صالح عليه السلام من رُغَاءِ الفصيل على جبل القارة ، وأضاف العَقْر إلى جميعهم لأن العاقر كان منهم ، وكان عن رضًى منهم وتمالُؤ ، وعاقرها «قدار» ، ورُوي في خبر ذلك أن صالحاً أُوحي إليه أن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك ، فأخبرهم بذلك فقالوا : عياذًا بالله أن نفعل ذلك ، فقال : إن لم تفعلوا أنتم ذلك أوشك أن يولد فيكم من يفعله ، وقال لهم : صفة عاقرها أحمر أزرق أشقر ، فجعلوا الشُّرط مع القَوَابِلِ وأمروهم بتفقد الأطفال ، فمن كان على هذه الصفة قُتل ، وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان ، وكان لهذا ابن ولهذا بنت ، فتصاهروا

فوُلد بين الزوجين «قدار» على الصفة المذكورة ، فهمَّ الشُّرطة بقتله فمنع منه جدّاه حتى كبر فكان الذي عقرها بالسيف في عراقيبها ، وقيل : بالسهم في ضرعها ، وهرب فصيلها عند ذلك ، فصعد على جبل يقال له : القارة ، فرَغا ثلاثاً ، فقال صالح : هذا ميعاد ثلاثة أَيام للعذاب ، وأَمرهم قبل رُغاءِ الفَصيل أَن يطلبوه عسى أَن يصلوا إِليه فيردّ عنهم العذاب به ، فراموا الصعود إِليه في الجبل فارتفع الجبل إِلى السماءِ حتى ما تناله الطير ، وحينئذ رغا الفصيل .

وقوله : ﴿في دَارِكُمْ﴾ هي جمع «دارة» كما تقول : ساحةٌ وساحٌ وسوحٌ ، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصَّلْتِ :

لَهُ داعٍ بِمكَّةَ مُشْمِلّ وآخَرُ عِنْدَ دَارَتِهِ يُنَادِي(١)

ويمكن أَن يُسمى جميع مسكن الحيّ داراً ، والثلاثة الأَيام تعجيزٌ قاسَ الناس عليه الإِعذارَ إِلى المحكوم عليه ونحوه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك عندي مفترق ، لأَنها في المحكوم عليه والغارم في الشُّفعة ونحوه توسعة ، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب . وروى قتادة

---

(١) قال في «الصحاح» ، ونقله عنه في «اللسان» : «قال أُمية بن أَبي الصَّلْت يمدح عبد الله بن جُدْعان : له داع ... البيت» . والدَّارَةُ : أَخَصّ من الدارِ ، والمُشْمَعِلُّ : الوصف من اشْمَعَلّ ، واشْمَعَلّ الرجل : ارتفع وأَشرف وخفّ وطرب ، قاله في «المعجم الوسيط» واستشهد بهذا البيت .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «لو صعدتم على القارة لرأيتم عظام الفصيل» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الأَمر جائز أَن يراد به المصدر من أَمر ، وجائز أَن يراد به واحد الأُمور . وقوله ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ يحتمل أَن يقصد أَن التَّنْجية إنما كانت بمجرد الرحمة ، ويحتمل أَن يكون وصف حالٍ فقط ، أَخبر أَنه رحمهم في حال التَّنْجية . وقوله : [مِنَّا] الظاهر أَنه متعلق بـ [رَحْمة] ، ويحتمل أَن يتعلق بقوله : [نَجَّيْنَا] .

وقرأَت فرقة : ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوين [خِزْيٍ] وفتح الميم من [يَوْمَئِذٍ] ، وذلك يجوز فيه أَن تكون فتحة الميم إعراباً ، ويجوز أَن يكون ببناءِ الظرف لما أُضيف إلى غير متمكن ، فأَنت مُخيّر في الوجهين ، والروايتان في قول الشاعر :

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشِيبَ علَى الصِّبَا وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِع؟[1]

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى في الآية رقم (٥) من هذه السورة : ﴿ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ .

وقرأ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإِضافة [خِزْيِ] وكسر الميم من [يَوْمِئِذٍ] ، وهذا توسع في إِضافة المصدر إلى الظرف ، كما قال : ﴿مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[1] ، ونحو هذا . وقياسُ هذه القراءَة أَن يقال : «سير عليه يومُئذ» برفع الميم ، وهذه قراءَتهم في قوله تعالى : ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[2] ، و﴿مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ﴾[3] . وقرأَ عاصم ، وحمزة كذلك إلا في قوله : ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ فإِنهما نَوَّنا العين وفتحا الميم ، واختلفت عن نافع في كسر الميم وفتحها ، وهو يضيف في الوجهين ، وقرأَ الكسائي : ﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ بترك التنوين وفتح الميم من [يَوْمَئِذٍ] ، وهذا جمعٌ بين الإِضافة وبناءِ الظرف ، وقرأَ : ﴿وَمِنْ فَزَعِ﴾ كعاصم وحمزة ، وأَما (إِذٍ) فكان حقها [إِذْ] ساكنة إِلا أَنها من حقَّها أَن تليها الجمل ، فلما حذفت لها ها هنا الجملة عُوضت بالتنوين[4] ، والإِشارة بقوله : [يَوْمِئِذٍ] إلى يوم التعذيب.

---

(١) من الآية (٣٣) من سورة (سبأ) .
(٢) من الآية (١١) من سورة (المعارج) .
(٣) من الآية (٨٩) من سورة (النمل) .
(٤) قال ابن خالويه في كتابه : «الحُجّة في القراءات السبع» : «الحُجّة لمن نوَّن ونَصَب أنه أراد بالنصب خلاف المضاف ، لأن التنوين دليل ، والإضافة دليل ، ولا يجتمع دليلان في اسم واحد ، والحُجّة لمن ترك التنوين وأضاف أنه أتى به على قياس ما يجب للأسماء ، والحجة لمن بناه مع ترك التنوين وجهان : أحدهما : أنه جعل (يومَ) مع (إذ) بمنزلة اسمين جُعلا اسماً واحداً ، فبناه على الفتح كما بُني خمسةَ عشرَ ، والثاني : أنه لما كانت (إذْ) اسماً للوقت الماضي ، و «اليوم» من أسماء الأوقات أضَفْتَهما إضافة الأوقات إلى الجُمل ، كقولك: =

وقوله تعالى : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآية . رُوي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل : ستصفر وجوهكم في اليوم الأَول ، وتحمر في الثاني ، وتسْوَدّ في الثالث ، فلما كان كذلك تكفنوا في الأَنطاع[1] واستعدوا للهلاك ، وأَخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول ، صدّعت قلوبهم وأَصابت كل من كان منهم في شرق الأَرض وغربها ، إلا رجلا كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك ، ثم هلك بعد ذلك ، ففي مصنف أَبي داود : قيل : يا رسول الله منْ ذلك الرجل ؟ قال : أَبو رُغال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، وخلافه في السِّير ، وذُكِّر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى الصياح ، وتأْنيثها غير حقيقي ، وقيل : جاز ذلك وهي مؤنثة لما فصل بين الفعل وبينها ، كما قالوا : «حضر القاضي اليوم امرأَةٌ» ، والأَول أَصوب ، والصيحة إنما تجيءُ مستعملة في ذكر العذاب لأَنها فَعْلة تدل على مرّة واحدة شاذة ، والصياح مصدر متطاول ، وشذَّ في كلامهم قولهم : «لقيته لقاءَة واحدة» ، والقياس : لَقْية .

= جئتك يوم قام زيد، فيكون كقولك: جئتك إذ قام زيد ، فلما كانت (إذْ) بهذه المثابة بُني اليومُ معها على الفتح لأنه غير متمكن من الظروف ، وجُعل تنوين (إذْ) عوضاً من الفعل المحذوف بعدها ، لأن معناه : «يومَ إذْ قدم الحاج» ، وما شاكل ذلك .

(١) الأنْطاع : جمع نِطْع ، وفي نونه الفتح والكسر ، وفي طائه السكون والكسر والفتح ، وأشهرها كسر النون وسكون الطاء ، وهو بساطٌ من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل ، ويجمع النِّطْع أيضاً على نُطوع وأنْطُع . (المعجم الوسيط) .

و [جَاثِمِينَ] أي : باركين قد صعق بهم ، وهو تشبيه بجثوم الطير ، وبذلك يشبه جثوم الأَثافيّ[١] وجثوم الرماد .

و [يَغْنَوْا] مضارع من غَنِـــي في المكان إذا أَقام فيه في خفض عيش[٢] ، وهي المغاني ، وقرأ حمزة وحده : ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ﴾ وكذلك في «الفرقان ، والعنكبوت ، والنجم»[٣] ، وصرفها الكسائي كلَّها وقولَه ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُود﴾ ، واختلف عن عاصم ، فروى عنه حفص ترك الإجراءِ[٤] كحمزة ، ورَوَى عنه أَبو بكر إجراءَ الأَربعة وتَرْكَه في قوله : ﴿أَلَا بُعْداً لِثَمُود﴾ ، وقرأَ الباقون : ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُوداً﴾ فصُرِفَت ، ﴿أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ غير مصروف ، والقراءتان فصيحتان ، وكذلك صرفوا في «الفرقان ، والعنكبوت ، والنجم»[٥] .

---

(١) الأثافيّ : جمع أُثْفِيَّة ، وهي أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القِدْرُ . وثالثة الأثافي : حرف الجبل يجعل إلى جنبه أُثْفِيتَانِ .

(٢) خفض العيش : لينه وسهولته .

(٣) أما في « الفرقان » ففي الآية (٣٨) ، وأما في « العنكبوت » ففي الآية (٣٨) ، وأما في « النَّجم » ففي الآية (٥١) .

(٤) الإجراءُ هو : الصَّرْف ، قال في القاموس : « المجاري : أواخر الكلم » ، قال الشارح : وذلك لأن حركات الإعراب والبناءِ إنما تكون هنالك ، فسميت بذلك لأن الصوت يبتدئُ بالجريان في حروف الوصل منها .

(٥) حُجَّة من صرف أمران : أحدهما : أنه جعل (ثمود) اسم حيّ أو رئيس فصرفه ، والآخر : أنه جعله « مفعولا » من الثَّمد وهو الماءُ القليل فصرفه . وحُجّة من لم يصرفه أنه جعله اسماً للقبيلة ، فاجتمع فيه علَّتان فرعيَّتان منعتاه من الصرف : إحداهما : التأنيث الذي هو فرع للتذكير ، والأخرى : التعريف الذي هو فرع للتنكير .

والقراءُ مختلفون في « ثمود » وما شاكله من الأسماءِ الأعجمية ، وأكثرهم يتبع سواد النحويِّين ، فما كان فيه ألف صرفوه ، وما كان بغير ألف منعوه من الصرف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

الرُّسُل : الملائكة ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وقالت فرقة بدل إسرائيل : عزرائيل ملك الموت . ورُوي أن جبريل منهم كان مختصاً بإهلاك قرية لوط ، وميكائيل كان مختصاً بتبشير إبراهيم بإسحق ، وإسرافيل مختصاً بإنجاء لوط ومن معه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإسحق . وقالت فرقة – وهي الأكثر – : البُشرى هي بإسحق ، وقالت فرقة : البُشرى هي بإهلاك قوم لوط . وقوله : [سَلَاماً] نصب على المصدر ، والعامل فيه فعل مضمر من لفظه كأنه قال : اسلم سلاما ، ويصح أن يكون [سَلَاماً] حكاية لمعنى ما قالوه لا للفظهم ، قاله مجاهد والسدي . فلذلك عمل فيه القول ، كما تقول لرجل قال «لا إِلٰه إِلَّا ٱللهُ» : «قلت حقًّا أو إخلاصاً» ، ولو حكيت لفظه لم يصح أن تُعمل فيه القول ، وقوله

تبارك وتعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ حكاية لِلَفْظه . و [سَلَامٌ] مرتفع إما على الابتداء والخبر محذوف تقديره : عليكم ، وإما على خبر ابتداءٍ محذوف تقديره : أَمْرِي سلامٌ ، وهذا كقوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جمِيلٌ﴾[(١)] ، إما على تقدير : فأَمري صبر جميل ، وإما على تقدير : فصبر جميل أَجمل[(٢)] .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ ، وقرأَ حمزة ، والكسائي : ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سِلْمٌ﴾ وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات[(٣)] ، وذلك على وجهين : يحتمل أَن يريد به السلام بعينه ، كما قالوا : حلٌّ وحلالٌ وحرمٌ وحرامٌ ، ومن ذلك قول الشاعر :

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كما اكْتَلَّ بالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِــحُ[(٤)]

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (يوسف) .

(٢) في بعض النسخ : فصبر جميلٌ أَمْثَلُ .

(٣) في قوله تعالى في الآية (٢٥) : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ .

(٤) البيت في (اللسان — كَلَلَ) غير منسوب ، وكذلك في (التاج) ، بل أنشده ابن الأعرابي شاهداً على أن معنى « انْكَلَّ السحاب واكْتَلَّ » : تَبَسَّم . و « اكْتَلَّ الغمام بالبرق » : لَمَعَ ، وفي (اللسان — سلم) بيت آخر غير منسوب أيضاً أنشده الفراءُ عن بعض الأعراب ، وفيه اختلاف عن هذا البيت ، قال الجوهري : وسِلْم بالكسر : السلام . وقال :

وقَفْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْــمٌ فَسَلَّمَتْ فمــا كان إلا وَمْؤُهَا بالحَوَاجِبِ

ومما يؤيد أنه بيت آخر أن صاحب اللسان عقَّب روايته للبيت برأي لابن برّي قال فيه : والذي رواه القناني : =

اكْتَلَّ : اتَّخذ إِكْليلا أَو نحو هذا ، قال الطبري : ورُوي : « كَمَا انْكَلَّ » ، ويحتمل أَن يريد بالسلم : ضد الحرب ، تقول : نحن سِلْمٌ لكم . وكان سلام الملائكة دعاءً مرجُواً ، فلذلك نصب ، وحيًّا الخليلُ بأَحسن مما حُيِّي وهو الثابت المتقرر ، ولذلك جاءَ مرفوعاً .(١)

وقوله : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ ، يصح أَن تكون [مَا] نافية ، وفي [لَبِثَ] ضمير إِبراهيم ، و [أَنْ جاءَ] في موضع نصب ، أَي : بأَن جاءَ . ويصح أَن تكون [ما] نافية ، و [أَنْ جَاءَ] بتأْويل المصدر في موضع رفع بـ [لَبِث] ، أَي : ما لبث مجيئُه ، وليس في [لَبِثَ] - على هذا - ضمير إِبراهيم ، ويصح أَن تكون [ما] بمعنى الذي ، وفي [لَبِثَ] ضمير إِبراهيم ، و ﴿أَنْ جَاءَ﴾ خبر [مَا] ، أَي : فلبث إِبراهيم مجيئه بعجلٍ حنيذ(٢) ، وفي أَدب الضيف أَن يُعَجِّل قِرَاه من هذه الآية .

والْحَنِيذُ بمعنى المحنوذ ، ومعناه : بعجل مشويٍّ نضج يقطر ماؤُه ، وهذا القطر يفصل الحنيذ من جملة المشويات ، ولكن هيئة المحنوذ

= فَقُلْنَا السَّلامُ فَاتَّقَتْ مِنْ أَسِيرِهَـــا وَمَـــا كان إلا ومْؤُهَا بالحَوَاجِبِ

وعلى رواية القناني هذه لا يكون في البيت شاهد .

هذا ومن المعاني التي وردت في قوله تعالى : ﴿قَالُوا سَلاماً﴾ ما ذكره ابن عرفة : «أي قالوا قولا يتسلمون فيه ، ليس فيه تَعَدّ ولا مأثم»، وقيل: ﴿قَالُوا سَلاماً﴾ أي سداداً من القول وقصداً لا لَغْوَ فيه .

(١) يريد أن سلام الملائكة كان متجدّداً فناسبه النصب ، وأن سلام إبراهيم الخليل كان ثابتاً فناسبه الرفع .

(٢) قال الزمخشري : التقدير : فما لبث مجيئه . وقال أبو حيّان : التقدير : فالذي لَبِثَهُ ، والخبر : مجيئُه .

في اللُّغة الذي يُغَطَّى بحجارة أَو رمل محمي أَو حائل بينه وبين النار يُغَطَّى به ، والمُعَرَّضُ[١] من الشواءِ : الذي يصفف على الجمر ، والمُهَضَّبُ[٢] : الشواءُ الذي بينه وبين النار حائل يكون الشواءُ عليه لا مدفوناً به ، والتحنيذ في تضمير الخيل هو أَن يُغَطَّى الفرسُ بِجُلٍّ على جُلٍّ[٣] ليتصَبَّب عَرَقُهُ.

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية ، رُوي أَنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أَيديهم في اللحم ولا تصل أَيديهم إِليه ، وفي هذه الآية من أَدب الطعام أَن لصاحب الضيف أَن ينظر من ضيفه هل يأْكل أَم لا ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك ينبغي أَن يكون بتلَفُّت ومُسارقة لا بتحديد النظر ، فروي أَن أَعرابياً أَكل مع سليمان بن عبد الملك ، فرأَى سليمان في لقمة

---

(١) قال في الصّحاح: « المُعَرَّض من اللّحم : يقال للذي لم يُبالغ في إنضاجه ، قال الشاعر « سُلَيك بن السُّلكة » :

سَيَكْفيكَ صَرْبُ القَوْم لَحْمٌ مُعَرَّضٌ وماءُ قُدُورٍ في القِصَـــاع مَشِيبُ

ويروى : « في الجفان » بدلا من « في القصاع » ، ويُرْوَى « صرب » بالصاد والضاد .

(٢) لحمٌ مُضَهَّبٌ : إذا شُوِيَ ولمْ يُبَالغ في نُضجه ، قال امرؤ القيس :

نَمُشُّ بأعْرَافِ الجيَادِ أكُفَّنَـــا إذا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ

(٣) الجُلُّ : كساءٌ تُغَطّى به الدابة وتصان ، كالثوب للإنسان ، والجمع : جِلالٌ وأجْلالٌ .

الأعرابي شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ، فقال له : أتنظر إليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي ؟ والله لا أكلت معك .(١)

و [نَكِرَهُمْ] - على ما ذكر كثير من الناس - معناه : أَنْكرهم ، واستشهد لذلك بالبيت الذي نَحلَه أبو عمرو بن العلاءِ الأعشى ، وهو :

وَأَنْكَرتْني وما كَانَ الَّذي نَكِرتْ مِنَ الْحَوَادِثِ إلَّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا(٢)

وقال بعض الناس : (نَكِرَ) هو مستعمل فيما يُري بالبصر فينكر ، (وَأَنْكَرَ) هي مستعملة فيما لا يقرر من المعاني ، فكأن الأعشى قال : وأنكرتني موَدَّتي وأُدْمَتي(٣) ونحوه ، ثم جاءَ بـ (نكر) في الشيب والصلع الذي هو مرئيٌّ بالبصر ، ومن هذا قول أبي ذُؤَيب :

فَنَكَرْنَه فَنَفَرْنَ وامْتَرَسَتْ بِهِ هوْجاءُ هادِيةٌ وهادٍ جُرْشُعُ(٤)

(١) ذكر أن هذه الحكاية كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول :

ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من زيارةِ باخِـلٍ يُلاحِظُ أطْرافَ الأكيلِ على عَمْـدِ

(٢) أورد صاحب اللسان هذا البيت في (نكر) شاهداً على أن العرب تقول : نكَرْتُ الشيءَ وأنكرتُه فأنا أنْكِرُهُ إنكاراً ، والبيت في ديوان الأعشى (طبعة القاهرة ص ١٠١) . (وطبعة دار صادر بيروت ص ١٠٥) . وقد قال بعض العلماء : البيت مصنوع ، قيل في الديوان : وضعه حمّاد . (ص ١٠٠) ، وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١-٢٩٣) قال أبو عبيدة : قال يونس ، قال أبو عمرو : أنا الذي زدت هذا البيت في شعر الأعشى... إلى آخره ، فأتوب إلى الله منه .

(٣) يريد : خُلْطتي وأُلْفَتي ومَوَدّتي .

(٤) البيت في ديوان الهُذَليّين (طبعة دار الكتب المصرية ١-٨) وفيه : (سطعاءُ) بدلا من (هوْجاءُ) ، قال شارح الديوان : يعني الحمير نكرنَ الصائد ، وامْتَرَسَتْ هوجاءُ : يعني الأتان امْتَرَسَت بالفَحْل أي تكاد تسير معه ، والهوجاءُ : التي ترفع رأسها لتتقدمه ، وهادٍ : هو الفحل ، وجُرْشع : مُنتَفخ الجنبَيْن ، يريد أنه أيضاً امْتَرَس بها .

والذي خاف منه إبراهيم عليه السلام ما يدل عليه امتناعهم من الأَكل ، فَعُرْفُ من جاءَ بِشَرّ أَلَّا يأْكل من طعام المنزول به ، و [أَوْجَسَ] معناه : أَحسّ في نفسه خيفة منهم ، والوجيس : ما يعتري النفس عند الحذر وأَوائل الفزع ، فأَمنوه بقولهم : [لا تَخَفْ] ، وعلم أَنهم الملائكة .

ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأة وبشارتها ، فقالت فرقة : معناه : قائمة خلف ستر تسمع محاورة إبراهيم مع أَضيافه ، وقالت فرقة : معناه : قائمة في صلاة . وقال السدي : معناه : قائمة تخدم القوم ، وفي قراءة ابن مسعود : «وهي قائمة وهو جالس» . وقوله : [فَضَحِكَتْ] ، قال مجاهد : معناه : حاضت ، وأَنشد على ذلك اللغويون :

وضِحْكُ الأَرَانبِ فَوْقَ الصَّفَا كَمِثْلِ دَم الجَوْفِ يومَ اللِّقَا(١)

---

(١) البيت في اللسان غير منسوب ، وقد ذكره عن ابن سيدة شاهداً على أن [ضحكت] بمعنى حاضت ، ونقل عن أبي عمْرو قولَه : «وسمعت أبا موسى الحامض يسأل أبا العباس عن قوله [فَضَحِكَتْ] أي حاضت ، وقال إنه جاء في التفسير ، فقال: ليس في كلام العرب ، والتفسير مُسَلَّم لأهل التفسير ، فقال له : فأنت أنشدْتَنا :

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلي هُذَيْلٍ وتَرَى الذِّئْبَ بها يَسْتَهِلّ

فقال أبو العباس : تَضْحك هنا : تَكْشِرُ،وذلك أن الذئب ينازعها فتكْشِر في وجهه وعيداً فيتركها مع لحم القتيل» . وقال ابن الأعرابي في هذا البيت وهو لِتَأَبَّطَ شراً : «إن الضبع إذا أكلت لحوم الناس أو شربت دماءهم طمثت وقد أضحكها الدَّمُ» . وكان ابن دُرَيْد يردُّ هذا ويقول : «من شاهد الضباع عند حيضها فيعلم أنها تحيض؟» ، ومما استشهد به اللغويون على أن ضحكت بمعنى حاضت البيت المشهور :

وإنّي لآتي العِرْسَ عِنْدَ طُهورهَا وأهْجُرهَا يوْماً إذَا تَكُ ضَاحِكَا

وهذا القول ضعيف قليل التمكن ، وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت ، وقرره بعضهم ، ويقال : ضحك الحوض إذا امتلأ وفاض ، وردّ الزَّجاج قول مجاهد ، وقال الجمهور : هو الضحك المعروف ، واختُلِف ، مِمَّ ضَحِكَتْ ؟ فقالت فرقة: ضحكت من تأمينهم لإبراهيم بقولهم : [لَا تَخَفْ] ، وقال قتادة : ضحكت هزؤًا من قوم لوط أن يكونوا على غفلة وقد نفذ من أمر الله تعالى فيهم ما نفذ ، وقال وهب بن مُنَبه : ضحكت من البشارة بإسحق ، وقال : هذا مقدم بمعنى التأخير ، وقال محمد بن قيس : ضحكت لظنها بهم أنهم يريدون عمل قوم لوط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول خطأ لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وقد حكاه الطبري ، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده .

وقالت فرقة : ضحكت من فزع إبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأربعين من الرجال ، وقيل : المائة ، وقال السدي : ضحكت من أن تكون تخدم وإبراهيم يحتد ويسعى والأضياف لا يأكلون ، وقيل : ضحكت سروراً بصدق ظنها ، لأنها كانت تقول لإبراهيم : إنه لابد أن ينزل العذاب بقوم لوط ، ورُوي أن الملائكة مسحت العجل فقام حيًّا فضحكت لذلك ، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي : [فَضَحَكَتْ] بفتح الحاء .

وامرأة إبراهيم هذه هي سارة بنت هارون بن ناحور، وهو إبراهيم ابن آزر بن ناحور ، فهي ابنة عمّه ، وقيل : هي أخت لوط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما أظن ذلك إلا أُخوة القرابة لأَن إبراهيم هو عمّ لوط فيما رُوي .

وذكر الطبري أَن ابراهيم لما قدّم العجل قالوا له : إنا لا نـأْكل طعاماً إلا بثمن، فقال لهم : ثمنه أَن تذكروا الله تعالى عليه في أَول وتحمدوه في آخر ، فقال جبريل لأَصحابه : بحقّ اتخذ الله هذا خليلا .

وقوله تعالى : [فَبَشَّرْنَاهَا] ، أَضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى إذ كان ذلك بـأَمره ووحيه ، وبشر الملائكة سارة بإِسحق وبأَن إسحق سيلد يعقوب ، ويُسَمّى ولَدُ الولِد الْوَلَدُ من الوراءِ ، وهو قريب من معنى (وراء) في الظرف ، إذْ هو ما يكون خلْف الشيءِ وبعدَه، ورأَى ابن عباس رجلا معه شاب ، فقال له : من هذا ؟ فقال له : ولد ولدي ، فقال : هو ولدك من الوراءِ فغضب الرجل فذكر له ابن عباس الآية .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والكسائي : [يعْقُوبُ] بالرفع على الابتداءِ والخبر المقدم ، وهو ـ على هذا ـ داخل في البشري، وقالت فرقة : رفعه على القطع بمعنى : ومن وراءِ إسحق يحدث يعقوب ، وعلى هذا لا يدخل في البشارة ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة : [يَعْقُوبَ]

بالنصب ، واختلف عن عاصم ، فمنهم من جعله معطوفاً على [إسحق] إلا أنه لم ينصرف ، واستسهل هذا القائل أَن فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور ، وسيبويه لا يجيز هذا إلا على إعادة حرف الجر ، وهو كما تقول : «مَرَرت بزيدٍ اليوم وأَمسِ عمروٍ» ، فالوجه عنده : «وأَمسِ بعمرو» ، وإذا لم يُعَد ففيه كبير قبح ، والوجه في نصبه أَن ينتصب بفعل مضمر تدل عليه البشارة وتقديره : ومِن وراءِ إسحق وهبنا يعقوب ، وهذا رجَّح أَبو عليّ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورُوي أَن سَارَة كانت في وقت هذه البشارة بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة .

وهذه الآية تدل على أَن الذبيح هو إسماعيل ، وأَنه أَسَنُّ من إسحق ، وذلك أَن سارَة كانت في وقت إخدام الملك الجائر هاجر أُم إسماعيل امرأَةً شابة جميلة حسبما في الحديث ، فاتخذها إبراهيم عليه السلام أُمَّ ولد فغارت لها سارَة ، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق ، وجاءَ من يومه مكة فتركها – حسبما في السير – وانصرف إلى الشام من يومه ، ثم كانت البشارة بإسحق وسارَة عجوز مُتَجَالَّة[1] ، وأَما وجه دلالة الآية على أَن إسحق ليس بالذبيح فهو أَن سارة وإبراهيم بُشِّرا بإسحق وأَنه يولد له يعقوب ، ثم أُمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي ، فكيف يؤْمر بذبح ولدٍ قد بُشِّر قبْلُ أَنه سيولد لابنه ذلك ؟

(١) أي : أَسَنَّت وكبِرَت ، وفي حديث أُمّ صُبَيَّة الجُهَنِيَّة : (كنا نكون في المسجد نسوةٌ قد تجالَلْنَ)، وفي حديث جابر : (تزوجتُ امرأة قد تجالَّت) أي : أَسَنَّت وكَبِرَتْ .

وأيضاً فلم يقع قط في أثر أن إسحق دخل الحجاز ، وإجماعٌ أنَّ أمْرَ الذبح كان بمنى ، ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا ابن الذبيحين)[١] يريد أباه عبد الله وأباه إسماعيل ، ويؤيده ما نزع إليه مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصافات فإنه بعد كمال أمر الذبيح قال : ﴿وبشَّرْناهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر : إنَّ الذَّبيح هو إسحق ، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأرجح ، والله أعلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

اختلف الناس في الألف التي في قوله : [ياوَيْلَتَى] ، وأظهر ما فيها أنها بدل ياءِ الإضافة ، أصلها : «يا وَيْلَتِي» ، كما تقول : يا غُلاما

(١) لم نعثر على هذا الحديث في مصدر صحيح ، وقد تكلم فيه كثير من العلماء ، والذي رُوي عن الصُّنابحي أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (يابن الذبيحين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وقال ابن كثير : هذا حديث غريب جداً ، وقد رواه الأموي في مغازيه – (راجع تفسير ابن كثير ٦–٣١) .

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (الصافات) .

ويا غوثا ، وقد تردف هذه الأَلف بهاءٍ في الكلام ، ولم يُقرأْ بها ، وأَمال هذه الأَلف عاصم ، والأَعمش ، وأَبو عمرو .

ومعنى [يَا وَيْلَتَى] في هذا الموضع : العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز ، وأَصل هذا الدعاءُ بالويل ونحوه في التَّفجع لشدَّةٍ أَو مكروه يهم النفس ، ثم استعمل بعْدُ في عجب يدهم النفس ، وقال قوم : إنما قالت : « يا وَيْلَتَى » لما مرّ بفكرها من أَلم الولادة وشدتها ، ثم رجعت بفكرها إلى التعجب ونطقت بقولها : ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ؟ الآية .

وقرأَت فرقة : [أَأَلِدُ] بتحقيق الهمزتين ، وقرأَت فرقة بتخفيف الأُولى وتحقيق الثانية ، وفي النطق بهذه عُسْرٌ ، وقرأَت فرقة بتحقيق الأُولى وتخفيف الثانية ، والتخفيف هنا مدُّها ، وقرأَت فرقة : [ءاأَلِدُ] بتحقيق الهمزتين ومدّة بينهما .

والعجوز : المُسِنَّة ، وقد حكى بعض الناس أَن العرب تقول : العجوزة [1]. و«البَعْل» [2] : الزوج ، و [شَيْخاً] نصب على الحال ،

---

(١) في اللسان : « والعَجوز والعَجوزة من النساء : الشيخة الهرمة ، الأَخيرة قليلة ، والجمع : عُجُز وعُجْز وعجائز » . وفي الصحاح : « والعَجُوز : المرأة الكبيرة ، قال ابن السِّكِّيت : ولا تَقُل عجوزة ، والعامة تقوله » .

(٢) البَعْل في الأَصل : كل شجر أَو زرع لا يُسقى ، وفي النَّخل : ما يشرب بعروقه من غير سقي ولا ماء سماءٍ ، فهو مستقل بنفسه ، ولهذا سَمُّوا مالك الشيء بعْلَه ُ ، ومن هذا البَعْلُ بمعنى الزَّوج ، وأقرب ما قيل فيه هو ما حكاه الأزهري : إنما سُمّي زوجُ المرأة بعلا لأنه سيدها ومالكها ، قال صاحب اللسان : « والأنثى بعلٌ وبعْلةٌ مثل زوج وزوجة ، قال الراجز :

شَــرُّ قرينٍ لِلْكَبيرِ بَعْلَتُــــهُ   تُولِــغُ كلباً سُؤْرَهُ أَوْ تَكْفِتُهْ »

وهي حالٌ من مُشار إليه لا يستغنى عنها لأَنها مقصودُ الإخبار ، وهي لا تصح إلَّا إذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال ، مثل أَن يكون المخاطب يعرفه ، وأَما إذا قصد التعريف به لزم أَن يكون التعريف في الخبر قبل الحال وتجيءُ الحال على بابها مستغنى عنها ، ومثال هذا قولك : « هذا زيد قائماً » إذا أَردت التعريف بزيد ، أَو كان معروفاً وأَردت التعريف بقيامه ، وأَما إن قصد المتكلم أَن زيديته إنما هي مادام قائماً فالكلام لا يجوز . وقرأَ الأَعمش : ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ﴾ ، قال أَبو حاتم : وكذلك في مصحف ابن مسعود ، ورفْعه على وجوه : منها : أَنه خبر بعد خبر كما تقول : « هذا حلو حامض » ، ومنها : أَن يكون خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : هو شيخ ، ورُوي أَن بعض الناس قرأَه : «« وهَذَا بَعْلي هَذَا شَيْخٌ » ، وهذه القراءَة شبيهة بهذا التأْويل ، ومنها : أَنه بدل من [بَعْلي] ، ومنها ، أَن يكون قولها : [بَعْلي] بدلًا من [هَذَا] أَو عطف بيان عليه ، ويكون [شَيْخٌ] خبر [هَذا] ، ويقال : شيخٌ وشيْخةٌ ، وبعض العرب يقول في المذكر والمؤنث : شيخ ، ورُوي أَن سَارَة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة ، وقيل : من تسعين ، قاله ابن إسحق ، وقيل : من ثمانين ، وكذلك قيل في سن إبراهيم : إنه كان مائة وعشرين سنة ، وقيل : مائة سنة ، وغير ذلك مما يحتاج إلى سند .

والضمير في قوله : [قَالُوا] للملائكة ، وقوله : ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يريد واحدَ الأُمور ، أَي من الولادة في هذه السن ، ويحتمل أَن يريد مصدر أَمر ، أَي مما أَمر الله به في هذه النازلة . وقوله : ﴿رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ ، يحتمل اللفظ أَن يكون دعاءً وأَن يكون إخباراً ، وكونه إخباراً أَشرف لأَن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم ، وكونه دعاءً إنما يقتضي أَنه أَمر يُتَرَجَّى ولم يتحصل بعد ، ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على الاختصاص ، هذا مذهب سيبويه ، ولذلك جعل هذا والنصب على المدح في بابين كأَنه ميّز النصب على المدح بأَن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه مدحاً ، كما تقول : « هذا زيد عاقلَ قومه » ، وجعل الاختصاص إذا لم يتضمن اللفظة ذلك ، كقوله : (إنَّا معاشرَ الأَنبياءِ)(١) :

إنَّا بني نَهْشَلٍ . . . . (٢)

(١) أشهر ما ورد من الأحاديث مبدوءًا بلفظ (إنَّا) قوله صلى الله عليه وسلم : (إنَّا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولاتنام قلوبنا)،رواه ابن سعد عن عطاءٍ مرسلا ، وقوله : (إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نعجل إفطارنا ، ونؤخر سحورنا ، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة)،رواه الطبراني في الكبير عن الطيالسي ، وقوله : (إنا معشر الأنبياء يضاعف علينا البلاءُ)،رواه الطبراني في الكبير عن أُخت حذيفة ، والأولان رمز لهما السيوطي بالصحة ، والثالث رمز له بأنه حديث حسن ، ولكن اللفظ فيهما (مَعْشر) ، أمَّا الحديث الذي ورد بلفظ (معاشر) فهو قوله صلى الله عليه وسلم : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢–٤٦٣) بلفظ : (إنا معشر الأنبياء لا نُورث ، ما تركتُ بعد مؤْنة عاملي ونفقة نسائي صدقة) ، ونلاحظ اختلاف الألفاظ بين (إنا) و (نحن) ، وبين (معشر) و (معاشر) .

(٢) يريد قول الشاعر :

إنَّا بَني نَهْشَلٍ لا نَدَّعي لأبٍ عنهُ ولا هُوَ بالأبْناءِ يَشْرِينَا =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يكون الاختصاص إلا بمدح أو ذم لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة .

وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خوطبت بهذا ، فيقوى القول في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بـأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس ، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة ، وقد قاله أيضاً بعض أهل العلم ، قالوا : «أهل بيته : الذين حُرموا الصدقة» ، والأول أقوى ، وهو ظاهر جَليّ من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله : ﴿يا نِسَاءَ ٱلنَّبِـيِّ﴾ ثم بقوله : ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ووقع في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «أَهْل بيته : الذين حرموا الصدقة بعده» ، فأراد ابن عباس : أهل بيت النسب

= وهو من أبيات رواها أبو تمام في أوائل ديوان الحماسة،ونسبوها لبشامة بن حزم النَّهْشَلي ، وأول هذه الأبيات قوله :

إنَّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمَى فَحَيِّينَـــا   وإنْ سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فاسْقِينَا

ومن الناس من ينسب هذه الأبيات لرجل من بني قيس بن ثعلبة من غير أن يُعَيِّنه ، ويَرْوي صدر بيت الشاهد : «إنَّا بني مالك» .

(١) الآيتان (٣٢ ، ٣٣) من سورة (الأحزاب) .

الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : (إن الصدقة لا تحل لأَهل بيتي ، إنما هي أَوساخ الناس) [١] .

والبيت - في هذه الآية ، وفي سورة الأَحزاب - بيتُ السكنى ، ففي اللفظ اشتراك ينبغي أَن يُتَحَسَّس إليه ، ففاطمة رضي الله عنها من أَهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم بالوجهين ، وعلي رضي الله عنه بالواحد ، وزوجاته بالآخر ، وأَما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها .

و [حميدٌ] أي : أَفعاله تقتضي أَن يُحْمد ، [مَجِيدٌ] أَي : متصف بأَوصاف العلوّ ، ومَجُد الشيءُ : إذا حسنت أَوصافه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

[الرَّوْعُ] : الفزع والخيفة التي تقدم ذكرها ، وكان ذهابه بإخبارهم إياه أنهم ملائكة ، و [الْبُشْرَى] : يحتمل أَن يريد الولد ، ويحتمل

(١) رواه مسلم في الزكاة والإمام أحمد (٤-١٦٦ ، ٦-٨) ، ولفظه كما رواه الإمام أحمد : عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث أنه هو والفضل أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجهما ويستعملهما على الصدقة فيصيبان من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس ، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد...). وللحديث بقية تجدها في المصدر المذكور .

أَن يريد البشرى بأَن المراد غيره ، والأَول أبين . وقوله : [يُجَادِلُنَا] فعل مستقبل جائز أَن يسُدّ مسَدَّ الماضي الذي يصلح لجواب [لَمَّا] ، لاسيما والإشكال مرتفع بمُضيّ زمان الأَمر ومعرفة السامعين بذلك ، ويحتمل أَن يكون التقدير : «ظلَّ أَو أَخذ ونحوه يجادلنا» ، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه ، ويحتمل أَن يكون قوله : [يُجَادِلُنَا] حالًا من إبراهيم ، أَو من الضمير في قوله : [جَاءَتْهُ] ، ويكون جواب [لَمَّا] في الآية الثانية : «قُلْنَا : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾» ، واختار هذا أَبو عليّ [1] . والمجادلة : المقابلة في القول والحُجج ، وكأَنها أَعم من المخاصمة ، فقد يجادل من لا يخاصم كإبراهيم .

وفي هذه النازلة وُصِف إبراهيم بالحلم ، قيل : إنه لم يغضب قط لنفسه إلا أَن يغضب لله ، والحلم : العقل إذا انضاف إليه أَناةٌ واحتمال . والأَوّاه معناه : الخائف الذي يكثر التأَوّه من خوف الله تعالى ، ويروى أَن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه من الخشية ، قيل : كما تُسمع أَجنحة النسور ، وللمفسرين في «الأَوّاه» عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته وتلزمه ، و «المُنيبُ» : الرَّجّاع إلى الله تعالى

---

(١) وقيل : جواب [لَمَّا] محذوف كما حُذف في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ...﴾ ، والتقدير هنا : اجْتَرَأَ على الخطاب إذ فطن للمجادلة ، أو قال كيت وكيت ، ودلّ على ذلك الجملة المستأنفة وهي ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ، وهذا هو رأي الزمخشري ، ونقله عنه أبو حيَّان الأندلسي .

في كل أَمره . وصورة جدال إِبراهيم عليه السلام كانت أَن قال إِبراهيم : إِن كان فيهم مائة مؤمن أَتعذبونهم ؟ قالوا : لا ، قال : أَفَتِسْعون ؟ قالوا: لا ، قال : أَفثمانون ؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك ، وقد عد في بيت لوط امرأته فوجدهم ستة بها فطمع في نجاتهم ولم يشعر أَنها من الكفرة ، وكان ذلك من إِبراهيم حرصاً على إِيمان تلك الأُمة ونجاتها . وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأَعداد في قول إِبراهيم عليه السلام ، والمعنى كله نحو مما ذكرته ، وكذلك ذكروا أَن قوم لوط كانوا أَربعمائة أَلف في خمس قرى . وقالت فرقة : المراد : يجادلنا في مؤمني قوم لوط ، وهذا ضعيف ، وأَمْرُهُ بالإِعراض عن المجادلة يقتضي أَنها إِنما كانت في الكفرة حرصاً عليهم ، والمعنى : قلنا : يا إِبراهيم أَعرض عن المجادلة في هؤلاءِ القوم والمراجعة فيهم ، فقد نفذ فيهم القضاءُ و ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ، والأَمر هنا : واحد الأُمور بقرينة وصفه بالمجيءِ ، فإِن جعلناه مصدر (أَمَرَ) قدرنا حذف مضاف ، أَي : جاءَ مقتضى أَمْر ربّك ونحو هذا ، وقوله : ﴿آتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ ابتداءٌ وخبر ، جملة في موضع خبر [إِنَّ] ، وقيل : [آتِيهِمْ] خبر [إِنَّ] فهو اسم فاعل معتمد ، و [عَذَابٌ] فاعل بـ [آتِيهِمْ] .

وهذه الآية مقتضية أَن الدعاءَ إِنما هو أَن يوفق الله الداعي إِلى طلب المقدور ، فأَما الدعاءُ في طلب غير المقدور فغير مُجْد ولا نافع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

الرسل هنا هم الملائكة الذين كانوا أَضياف إبراهيم عليه السلام ، وذلك أَنهم لما خرجوا إلى بلد لوط ـ وبيْنه وبيْن قرية إبراهيم ثمانية أَميال ـ وصلوه ، فقيل : وجدوا لوطاً في حرث له ، وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم ـ وهي أَكبر حواضر قوم لوط ـ فسأَلوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأَت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ، وذهبت إلى أَبيها فأَخبرته ، فخرج إليهم ، فقالوا له : نريد أَن تضيفنا الليلة ، فقال لهم : أَوماسمعتم بعمل هؤلاءِ القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال : أَشهد بالله لَهُمْ شرٌّ قوم في الأَرض ، وقد كان الله عزَّ وجلَّ قد قال للملائكة : لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أَربع شهادات ، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأَصحابه : هذه واحدة ، وتكرر القول بينهم حتى كرَّرَ لوط الشهادة أَربع مِرار ، ثم

دخل لوط بهم المدينة ، وحينئذ «سيءَ» بهم ، أي : أصابه سوءٌ . و «سيءَ» فعل بُني للمفعول .

والذَّرْعُ : مصدر مأْخوذ من الذراع ، ولما كان الذراع موضع قوة الإنسان قيل في الأَمر الذي لا طاقة له به : ضاق بهذا الأَمر ذِرَاعُ فلان ، وذَرْعُ فلان ، أي : حيلته بذراعه ، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا : «فلان رحبُ الذِّراع» إذا وصفوه بالقدرة ، ومنه قول الشاعر :

يا سيِّدًا ما أَنْتَ مِنْ سَيِّــــد مُوَطَّأَ الأَكْنَافِ رحْبَ الذِّراعِ (١)

وقوله : ﴿هَذَا يوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أشار به إلى ما كان يتخوفه من تعدّي قومه على أَضيافه واحتياجه إلى المدافعة مع ضعفه عنها ، و [عَصِيبٌ] بناءُ اسم فاعل معناه : يعصب الناس بالشَّرّ كما يعْصب الخابط السَّلمة (٢) إذا أَراد خبطها ونفض ورقها ، ومنه قول الحجاج في

---

(١) الأَكْنَاف : جمع كَنَف وهو الجانب والناحية ، وكَنَفَا الرجل : جانباه وناحيتاه عن يمينه وشماله ، وهما حِضْناهُ . والموطَّأُ : السَّهل اللَّين الدمث الأخلاق الكريم ، يقال : فلانٌ وطيءُ الخُلُق ، وفيه وطاءَةُ الخُلق ووضَاءَةُ الخلْق ، ويقال للمضياف : مُوَطأُ الأَكْنَاف إذا لَمْ يَنْبُ جانبه عن النُزَّل . وقد وضح ابن عطية معنى «رحب الذراع» .

(٢) السَّلَمة : شجرة من العَضَاه ذات شوك ، وورقها القرظ الذي يدبغ به الأديم ، ومن الصعب خَرْطُ ورقها لكثرة شوكها ، فتعصب أغصانها بأن تُجمع ويُشَدّ بعضها إلى بعض بحبْلٍ شداً شديداً ، ثم يهصرها الخابط إليه ويخبطها بعصاه فيتناثر ورقها للماشية ولمن أراد جمعه ، قال الشاعر يشبه الجهد الذي يصيب الأبطال في المعارك بعَصْب الرجل القويّ السَّلَمَ الطوال :

يَوْمٌ عَصيبٌ يَعْصِبُ الأَبْطَــالا عصْبَ الْقَوِيِّ السَّلَمَ الطِّــوَالا

خطبته : «ولأَعْصِبَنَّكُم عصْب السَّلَمة» ، فهو من العصابة ، ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب ، ومنه قول الشاعر وهو عديّ بن زيد :

وكنتُ لِزَازَ خَصْمِك لَمْ أُعَرِّدْ   وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبِ (١)

ومنه قول الآخر :

فَإِنَّكَ إِلَّا تُرْضِ بَكْرَ بْنَ وَائِلٍ   يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبُ (٢)

ف [عَصِيبٌ] بالجملة : في موضع شديد وصعب الوطأة ، واشتقاقه كما ذكرنا .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ الآية . رُوي أن امرأة لوط الكافرة لمّا رأت الأَضياف ورأت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت : إن لوطاً أضاف الليلة فتية ما رُئِـي مثلهم جمالا وكذا

---

(١) عديٌّ بن زيد شاعر جاهلي ، اتصل بكسرى وسَفَر بينه وبين ملك الروم ، وهو ربيب النعمة والحضارة لكنه بدوي اللفظ ، وهو في بيته هذا يخاطب النعمان في قصيدة اعتذار ، ويقول له فيه : لقد بقيت إلى جانبك أمنع عنك حتى في الأوقات العصيبة . ولِزَاز : أي كنتُ ملازماً لخصمك لا أدعه يخالف أو يعاند ، وأصل اللِّزاز : ما يترس به الباب . ولم أُعَرِّد : لم أحْجم ولم أتراجع ، والتَّعريد : الفِرار أو سرعة الذهاب في الهزيمة . وسَلَكُوك : أدْخلوك يقال : سلكتُ الشيءَ في الشيء فانْسَلَك ، أي أدخلته فيه فدخل ، والعصيب : الشديد ، وهو من عَصَبَ على وزن ضَرَبَ ، قال الراغب : يصح أن يكون بمعنى فاعل ، وأن يكون بمعنى مفعول ، أي : يومٌ مجموع الأطراف ، كقولهم : يومٌ كَكِفَّةِ حابِلٍ وحلْقَة خاتم .

(٢) بكر بن وائل قبيلة كانت تسكن العراق أو قريباً منه ، وهو مثل الشاهد السابق عليه في أن اليوم العصيب هو الشديد ، والمعنى : إذا لم تفعل ما ترضاه قبيلة بكر بن وائل فستلقى منهم بالعراق يوماً شديد الشَّرّ . هذا ومثل الشاهدين السابقين قول كعب بن جُعَيل :

ويُلْبُونَ بِالْحَضِيضِ فِئَامٌ   عارفاتٌ منْهُ بِيَوْمٍ عَصِيبِ

وكذا ، فحينئذ جاءُوا يهرعون إليه ، ومعناه : يسرعون ، والإهراع هو أن يسرع أمْر بالإنسان حتى يسير بين الخبب والجمز [١] ، فهي مشية الأَسير الذي يُسرع به ، والطامع المبادر إلى أمر يخاف فوته ، ونحو هذا ، يقال : هرع الرجل وأَهرعه طمع أَو عدو أَو خوف ونحوه . والقراءَة المشهورة : [يُهْرَعون] بضم الياءِ ، أَي : يُهرعهم الطمع . وقرأَت فرقة : [يَهْرعون] بفتح الياءِ ، من هَرَع ، ومن هذه اللفظة قول مهلهل :

فَجَاءُوا يُهْرَعونَ وهُمْ أُسَـــارَى تَقُودُهُــمُ عَلَى رَغْمِ الأُنوفِ [٢]

وقوله : ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ أَي : كانت عادتهم إتيان الفاحشة في الرجال ، فجاءُوا إلى الأَضياف لذلك ، فقام إليهم لوط مدافعاً وقال : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِــي﴾ . فقالت فرقة : أَشار إلى بنات نفسه

---

(١) الْخَبَبُ : ضربٌ من العَدْوِ ، تقول : خبَّ الفرسُ يَخُبُ (بالضم) خبّاً وخَبَباً وخَبيباً إذا راوَحَ بين يديه ورجليه ، أي : قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة ، ويقال : أخَبَّ الفرسَ صاحبُه ، وجاءُوا مُخبِّين . والجَمْزُ : سَيْرٌ سريعٌ قريبٌ من العَدْوِ ، وقد يكون فيه وثْبٌ ، أما الهَرَعُ والهُرَاع والإهْرَاعُ فهو شدَّة السَّوق وسرعة العَدْوِ . تأمل هذا وهو عن اللسان والصحاح والتاج وتأمل تفرقة ابن عطية بين الأنواع الثلاثة ، وانظر الهامش التـــالي .

(٢) الذي في اللسان أن الإهراع هو سرعة السير مع رِعْدَة أو خوف أو حرص أو غضب أو حُمَّى ، واستشهد بهذه الآية ، ونقل عن الكسائي قوله : الإهراع : إسراعٌ في رعدة ، وقال المهلهل : فجاءُوا ... البيت . ونقل عن الليث قوله : يُهرعون وهم أُسارى : يساقون ويُعجلون . والرَّغْمُ : الذِّلة ، وأصل الرَّغم : التراب ، ويقال في الكناية عن الذِّلَّة والإكراه : رَغِمَ أنفُه ، أي : ذلَّ ، وفي حديث معقل بن يسار : « رَغِمَ أنفِـي لأمر الله » . والعرب تقول : أُهْرِعوا وهُرِعوا فهم مُهْرَعون ومهْروعونَ .

وندبهم في هذه المقالة إلى النكاح ، وذلك على أن كانت سُنَّتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ، أَو على أن في ضمن كلامه أَن يؤْمنوا ، وقالت فرقة : إنما كان الكلام مدافعة لم يُرد إمضاءه ، رُوي هذا القول عن أَبي عبيدة ، وهو ضعيف ، وهذا كما يقال لمن يُنْهَى عن مال الغير : «الخنزير أَحَلُّ لك من هذا» ، وهذا التنطع ليس من كلام الأَنبياءِ صلى الله عليهم وسلم ، وقالت فرقة : أَشار بقوله : [بَنَاتِـــي] إلى النساءِ جملة إِذْ نبيُّ القوم أَبٌ لهم ، ويُقَوي هذا أَن في قراءة ابن مسعود : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم﴾[1] «وهو أَبٌ لهم» ، وأَشار أَيْضاً لوط - في هذا التأْويل - إلى النكاح[2].

وقرأَت فرقة هي الجمهور : ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ برفع الراءِ على خبر الابتداءِ . وقرأَ الحسن ، وعيسى بن عمر ، ومحمد بن مروان ، وسعيد بن جبير : [أَطْهَرَ] بالنصب ، قال سيبويه : «هو لَحْنٌ» ، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ : احتبى فيه ابن مروان في لحنه[3] ، ووجهه -

(١) من الآية (٦) من سورة (الأحزاب) .

(٢) أقوى الآراء في قول لوط : [بناتي] أنه على المجاز ، وذلك لأمور كثيرة ، منها أنه لم يكن له إلا بنتان على الحقيقة وهذا بلفظ الجمع ، ومنها أنه لا يمكن أن يزوج ابنتيه من جميع قومه ، ومنها أنه في منزلة الأب للقوم جميعاً وله أن يعبر عن هذه الأبوة ، والنبي الكريم لا يريد بعرض البنات إلا الزواج ، فهو يوجه أبناءَ قومه إلى الأسلوب الصحيح في التعامل مع الغريزة الجنسية .

(٣) معنى (احتبى) : أنه جلس في اللحن بكامله ، وتفسير البحر للكلمة أنه (تربّع في اللحن).

عند من قرأ بالنصب على الحال ـ بأن تكون [بَنَاتي] ابتـداءً ، و [هُنَّ] خبره ، والجملة خبر [هَؤُلاءِ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو إعراب مرويّ عن المبرد ، وذكره أبو الفتح ، وهو خطأٌ في معنى الآية ، وإنما قوم اللفظ فقط ، والمعنى إنما هو في قوله : [أَطْهَرُ] ، وذلك قصد أن يُخبر به ، فهي حالٌ لا يُستغنى عنها ، كما تقدم في قوله : ﴿وَهذَا بَعْلي شيْخاً﴾ . والوجه أن يقال : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِـي﴾ ابتداءٌ وخبر ، و [هُنَّ] فصْلٌ ، و [أَطْهرَ] حالٌ ، وإن كان شرط الفصل أن يكون بين معرفتين ليفصل الكلام من النعت إلى الخبر فمن حيث كان الخبر هنا في [أَطْهَرَ] ساغ القول بالفصل ، ولما لم يستسغ ذلك أبو عمرو ولا سيبويه لحنَّا ابن مروان ، وما كان ليذهب عليهما ما ذكر أبو الفتح .

والضَّيْف : مصدر يوصف به الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث[1] .
ثم وبَّخهم بقوله : ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ، أَي : يَزَعُكم ويردعكم.

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا في بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ الآية . رُوي أَن قوم لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط فردّهم ، وكانت سُنَّتهم

(١) وعليه قول الشاعر :
لا تَعْدِمي الدَّهْرَ شِفَارَ الْجَازِرِ للضَّيْفِ ، والضَّيْفُ أحَقُّ زائـر
وكلمة (ضَيْف) في ذلك مثل (عدْل) ، تقول : رجلٌ عَدْلٌ وقوم عَدْلٌ ، ومثل قولك : رجال صَوْمٌ وفِطْرٌ وزَوْرٌ .

أَن من رُدَّ في خطبة امرأة لا تحل له أَبداً ، فلذلك قالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا في بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبعد أَلَّا تكون هذه الخاصية ، فوجْه الكلام : إنا ليس لنا إلى بناتك تعلُّق ، ولا هُمْ قصدنا (١) ، ولا لنا عادة نطلبها في ذلك ، وقولهم : ﴿وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة إلى الأَضياف ، فلما رأَى استمرارهم في غيِّهم وغلبتهم وضعفه عنهم قال ـ على جهة التَّفجُّع والاستكانة ـ : ﴿لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ، و [أَنَّ] في موضع رفع بفعل مضمر تقديره : لو اتفق أَو وقع ونحو هذا ، وهذا مطردٌ في (أَنَّ) التابعة لـ (لَوْ) ، وجواب [لَوْ] محذوف ، وحذف مثل هذا أَبلغ لأَنه يدع السامع ينتهي إلى أَبعد تخيلاته ، والمعنى : لفعلتُ كذا وكذا .

وقرأَ الجمهور : [أَوْ آوِي] بسكون الياءِ ، وقرأَ شيبة وأَبو جعفر : [أَوْ آويَ] بالنصب ، التقدير : أَوْ أَن آوِي ، فتكون (أَنْ) مع (آوي) بتأْويل المصدر ، كما قالت مَيْسُون بنت بحدل :

ولُبْسُ عَبَـــاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْني . . . . (٢)

---

(١) هكذا في جميع الأصول .

(٢) ميْسون بنت بَحْدل الكلبية «نحو ٨٠ للهجرة» بدوية تزوجها معاوية فولدت له يزيد ، ثم سمعها تنشد أبياتاً منها هذا البيت الذي ذكر ابن عطية بدايته ، والبيت بتمامه :

ولُبْسُ عَبَــــاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْني أَحَبُّ إليَّ مِن لُبْسِ الشُّفُـــوفِ =

ويكون ترتيب الكلام: لو أَن لي بكم قوةً أَوْ أُوِيًّا[١]. وآوى معناه : لجأَ وانضوى . ومراد لوط عليه السلام بـ «الرُّكن» : العشيرة والمَنَعة بالكثرة ، وبلغ به قبيح فعلهم إِلى هذا مع علمه بما عند الله تبارك وتعالى ، فيروى أَن الملائكة وجَدَت عليه[٢] حين قال هذه الكلمات وقالوا : إِن ركنك لشديد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله لوطاً ، لقد كان يأْوي إِلى ركن شديد ، فالعجب منه لم استكان ؟)[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهـذا نقد لأَن يلفظ لـوط هذه الأَلفـاظ ، وإِلَّا فحـالة النبي صلى الله عليه وسلم وقت طُرِح عليه سَـلَى الجزور[٤] ، ومع أَهـل

= ومن أبياتها علم أنها تفضل حياة البادية،وأن بيتاً من الشعر تخفق فيه الرياح أحبّ إليها من القصر المنيف الذي تعيش فيه فاستجاب لرغبتها وطلّقها . والشّفوف : الثياب الرقيقة . وكلمة (تَقَرَّ) منصوبة بأن مضمرة ، والمصدر المؤول منها معطوف على (لبسُ) . والبيت من شواهد النحويين ، وهو في سيبويه ١–٤٢٦ — وابن عقيل ٢–١٢٧ ، والخزانة ٣–٥٩٢ — ٦٢١ ، ومغني اللبيب تحت أرقام ٤٧١ ، ٥١٦ ، ٦٧٠ ، ٨٦٤ ، ٩٤٨ .

(١) مصدر أوَى ، وهو بضم الهمزة أو بكسرها مع كسر الواو وشد الياء .

(٢) يقال : وجَد عليه بمعنى : حزِنَ من أجله ، وهذا المعنى يتفق مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم الآتي بعد ذلك : (يرحم الله لوطاً) .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة ، وخرّجه الترمذي وزاد فيه : (ما بعث الله بعده نبيّاً إلا في ثروة من قومه) ، ورواه ابن جرير من طرق مختلفة ، عن الحسن ، وعن أبي هريرة مع اختلاف في الروايات حيث تذكر فيه الجملة الأخيرة مرة ، ولا تذكر فيه مرات .

(٤) في الحديث أن المشركين جاءُوا بسَلَى جزور فطرحوه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، قال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) : «والسَّلَى : الجلد =

الطائف[١] ، وفي غير موطن تقتضي مقالة لوط ، لكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم ينطق بشيءٍ من ذلك عزامة منه ونجدة ، وإنما خشي لوط أن يمهل الله أُولئك العصاة حتى يعصوه في الأَضياف كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم فيمن مضى ، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به وهو يعلم أَن الله تعالى من وراءِ عقابهم ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لم يبعث الله تعالى بعد لوط نبيًّا إلَّا في ثروة من قومه)[٢] ، أَي : في منَعَة وعزة .

= الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وقيل : هو في الماشية : السَّلَى ، وفي الناس : المشيمة ، والأول أشبه لأن المشيمة تخرج بعد الولد ، ولا يكون الولد فيها حين يخرج ». والجَزُور : ما يصلح لأن يذبح من الإبل ، (ولفظه أنثى) ، يقال للبعير : هذه جزور سمينة ، والجمع : جزَائر وجُزُر .

(١) يشير إلى قصة خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ودعوته أهلها إلى الإسلام ، وما حدث له هناك ، فقد أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه الشريفين ، وانتهى به المطاف إلى بستان استراح بجواره ، ولجأ إلى الله يستعين به ويقول : (اللَّهُم إليك أشْكو ضعف قُوَّتي ، وقلَّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنتَ ربِّي وأنتَ ربّ المستضعفين ، إلى من تَكِلُني ؟ إلى بعيد يتَجَهَّمُني ؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمْري ؟ إنْ لم يكُن بِك عليَّ غضبٌ فلا أُبَالي ، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلمات ، وصَلَح عليه أمر الدنيا من أن ينزل عليَّ غضبُك ، أو يَحلَّ بي سَخَطك ، لَكَ العُتْبى حتى ترضى ، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بِك) . ، لكن هذه المحنة لم تزد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا يقيناً وثباتاً على دعوته ، ومُضيّاً في طريقه حتى تحقق له النصر ، وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الدعاء : (إنْ لم يكن بك علي غضبٌ فلا أُبالي) فهو لا يبالي بأي مشقَّة أو تعب ، وكل ما يريده هو رضى الله عزَّ وجلَّ .

(٢) هو جزءٌ من الحديث السابق ، ونصه كما رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فما بعث الله بعده من نبيّ إلا في ثروة من قومه) . وفسّر محمد بن عمرو أحد رواة الحديث الثروة بقوله : « والثروة : الكثْرة والمَنَعَة » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] ضمير الملائكة ، ويروى أن لوطاً لما غلبوه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرُّسل : تنحَّ عن الباب فتنحَّى وانفتح الباب ، فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أعينهم وعمُوا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النَّجاءَ النَّجاءَ فعند لوط قوم سحرة ، وتوعدوا لوطاً ففزع حينئذ من وعيدهم ، فحينئذ قالوا له : ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فَأَمِنَ ، ذكر هذا النقاش . وفي تفسير غيره ما يقتضي أَن قولهم : ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ كان قبل طمس العيون . ثم أَمروه بالسُّرى وأَعلموه أَن العذاب نازلٌ بالقوم ، فقال لهم لوط : فعذِّبوهم الساعة ، قالوا له : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ ، أَي : بهذا أَمر الله ، ثم آنَسوهُ في قلقه بقولهم : ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

وقرأَ نافع وابن كثير : [فَاسْرِ] من سَرَى يَسْرِي إذا سار في أَثناءِ الليل ، وقرأَ الباقون : [فَأَسْرِ] من أَسْرَى إذا سار أَوَّل الليل ، والقِطْع : القِطْعة من الليل ، ويحتمل أَن لوطاً أَسْرَى بأَهله من أَول الليل حتى جاوز البلد المقتلع ، ووقعت نجاته بِسَحَر ، فتجتمع هذه الآية مع قوله

تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾(١) ، وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله :

أَسْرَتْ عَلَيْهِ من الْجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ تُزْجِـي الشَّمَالُ عليْهِ جَامِدَ ٱلْبَرَدِ(٢)

فذهب قوم إلى أن (سَرَى) و (أَسْرَى) بمعنى واحد ، واحتجوا بهذا البيت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَقول : إن البيت يحتمل أَنهما لِمَعْنَيَيْنِ ، وذلك أَظهر عندي ، لأَنه قصد وصف هذه الديمة وأَنها ابتدأَت من أَول الليل وقت طلوع الجوزاءِ في الشتاءِ .

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتُكَ﴾ بالرفع على البدل من [أَحَدٌ] ، وهذا هو الأَوجه إِذا اسْتُثْني من منفيّ ، كقولك : «ما جاءَني أَحدٌ إِلَّا زيدٌ » ، وهذا هو استثناءٌ من الْمُلْتَفِتِينَ ، وقرأَ الباقون : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب ، ورأَت ذلك فرقة من النحاة الوجهَ في الاستثناءِ من

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (القمر) .

(٢) البيت من قصيدة النابغة المشهورة التي يقول في مطلعها :

يا دارَ مَيَّةَ بالْعَلْيَاءِ فالسَّنَـــــدِ أَقْوَتْ وطالَ عَلَيْهَا سالِفُ الأَبَدِ

ورواية الديوان : (سَرَتْ) ، والجوزاءُ : منزلة من منازل الشمس الربيعية ، وهي من الأنواءِ إذا نشأ السحاب من جهتها كان شديد المطر . والسَّارِيَة : السحابة تسير بالليل ، وتُزْجِي : تسوق وتدفع . والبَرَدُ : الماءُ المتجمّدُ في قطع صغيرة تنزل من السحاب ، ويُسَمَّى حبّ الغمام وحبّ المُزْنِ .

منفيّ ، إذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجب فإذًا هو مثله في الاستقلال ، فحكمه حكمه في نصب المستثنى ، وتأولت فرقة ممن قرأ : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب أن الاستثناءَ وقع من الأَهل كأَنه قال : « فأَسْر بأَهلك إلا امرأَتَك » ، وعلى هذا التأْويل لا يكون إلا النصب ، وقال أَبو عبيد القاسم بن سلام : « لو كان الكلام : ولا يلتفتُ - برفع الفعل - لصَحَّ الرفع في قوله : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ ، ولكنه نهْيٌ ، فإذا استُثْنِيَت « المرأَة » من [أَحَدٌ] وجب أَن تكون « المرأَة » أُبيح لها الالتفات فيفسد معنى الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الاعتراض حسَنٌ يلزم الاستثناءَ من [أَحد] رفَعْتَ التاءَ أَو نصبْتَ ، والانفصال عنه يترتب بكلام حُكِي عن المبرد ، وهو أَن النَّهْيَ إنما قُصد به لوط وحده ، والالتفات منفي عنهم بالمعنى ، أَي : لا تدع أَحداً منهم يلتفت ، وهذا كما تقول لرجل : « لا يقم من هؤلاءِ أَحد إلّا زيدٌ » ، وأُولئِكَ لم يسمعوك ، فالمعنى : لا تدع أَحداً من هؤلاءِ يقوم ، والقيام بالمعنى منفي عن المشار إليهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وجملة هذا أَن لفظ الآية هو لفظ قولنا : « لا يَقُمْ أَحدٌ إلا زيدٌ » ، ونحن نحتاج أَن يكون معناها معنى قولنا : « لا يَقُوم أَحدٌ إلا زيدٌ » ، وذلك اللفظ لا يرجع إلى هذا المعنى إلا بتقدير ما حكيناه عن المبرّد ،

فتدبره . ويظهر من مذهب أَبي عبيد أَن الاستثناءَ إنما هو من « الأَهل »[(١)] ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : « فأَسْر بـأَهْلِكَ بِقِطْع من اللَّيل إلَّا امرأَتك » ، وسقط قوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾[(٢)] . والظاهر في [يَلْتَفِتْ] أَنها من التفات البصر ، وقالت فرقة : هي من : لَفَتَ الشَّيءَ يلفته إذا ثَنَاهُ ولوَاه ، فمعناها : « وَلَا يتَثَبَّط » ، وهذا شاذ مع صحته ، وفي كتاب الزهراوي أَن المعنى : « وَلَا يلتفت أَحدٌ إلى ما خلف

(١) قيل : إذا جعلنا الاستثناء من الأهل كان فيه إشكالٌ من جهة المعنى ، إذ يلزم ألا يكون أُسْرِيَ بها ، ولما التفتت دلَّ ذلك على أنها قد سرت معهم قطعاً ، وأُجيب بأنها لم يُسْرَ بها ولكنها تبعتهم ثم التفتت فأصابها الهلاك .

(٢) قال بعض العلماء : الذي يظهر أن الاستثناء على كلتا القراءتين منقطع لم يُقصد به إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ، ولا من المنْهيِّين عن الالتفات ، ولكن استُؤْنف الإخبار عنها ، فالمعنى : « لكن امرأتك يجري لها كذا وكذا » ، ويؤيِّد هذا المعنى أن مثل هذه الآية جاءت في (الحِجْر) وليس فيها استثناءٌ أَلْبَتَّةَ ، قال تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ واتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (الآية (٦٥) من سورة (الحِجْر) — فلم تقع العناية في ذلك إلا بذكر من أنجاهم الله تعالى ، فجاء شرح حال امرأة لوط في سورة (هود) تَبَعاً لا مقصوداً مما تقدم ، وإذا اتَّضَحَ هذا المعنى عُلم أن القراءتين ورَدَتَا على ما تقتضيه العربية في الاستثناء المنقطع ، ففيه النصب والرفع ، فالنَّصب لُغَة أهل الحجاز وعليه الأكثر ، والرفع لبني تميم وعليه اثنان من القُرَّاء . ا هـ . ولكن أبا حيّان لم يقبل هذا الكلام ، وردَّ عليه بأنه لا تحقيق فيه ، فإنه إذا لم يُقصد إخراجُها من المأمور بالإسراء بهم ، ولا من المنْهيِّين عن الالتفات وجُعل استثناءً منقطعاً كان من الاستثناء المنقطع الذي لم يتوجه عليه العامل بحالٍ ، وهذا النوع من الاستثناء المنقطع يجب فيه النصب بإجماع العرب ، وليس فيه النصب والرفع باعتبار اللغتين ، وإنما هذا في الاستثناء المنقطع الذي يمكن توجّه العامل عليه ، وفي كلا النوعين من الاستثناء المنقطع يكون ما بعد (إلا) من غير الجنس المستثنى منه ، وكونه هنا جاز فيه اللغتان دليل على أنه مما يمكن أن يتوجَّه عليه العامل ، وهو قد فرض أنه لم يُقْصد بالاستثناء إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ولا من المنْهيِّين عن الالتفات ، فكان يجب فيه النصب إذ ذاك قولاً واحداً . ا.هـ .

بل يخرج مسرعاً مع لوط عليه السلام » ، وروي أن امرأة لوط لما سمعت الهدّة ردّت بصرها وقالت : واقوماه ، فأصابها حجرٌ فقتلها . وقرأت فرقة : [الصُّبُحُ] بضم الباء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

رُوي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقْتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا صُراخ الديكة ونُباح الكلاب ، ثم أرسلها معكوسة وأتبعهم الحجارة من السماء . ورُوي أن جبريل عليه السلام أخذهم بخوافي جناحه (١) . ويُرْوى أن مدينة

(١) الخوَافي : ريشات أربع إذا ضمَّ الطائر جناحيه خفَيِتْ ، وهي بَعْدَ المناكب ، والواحدة : خافية : قال في اللسان : « وفي الحديث : (إن مدينة قوم لوط حملها جبريل عليه السلام على خوَافي جناحه) ، قال الأصمعي : هي الريش الصغار التي في جناح الطائر ،ضدُّ القوائم ، وفي حديث أبي سفيان : ومعي خَنْجر مثل خافية النَّسْر » اهـ. وقول الأصمعي يذكرنا بقول رؤبة :

خُلِقْتُ مِنْ جناحِكَ الغُدَافي مِنَ القُدَامَى لا مِنَ الخوَافي

وبقول الشاعر :

« فَإِنَّ الخوَافي قُوَّةٌ للقوَادِمِ »

وفي المثل :

« مَا جُعل القوَادم كالْخوَافي » .

منها نُجِّيت كانت مختصة بلوطٍ عليه السلام يقال لها : زُغَر[١] .

و [أَمْرُنَا] في هذه الآية يحتمل أَن يكون مصدراً من : أَمَرَ ، ويكون في الكلام حذف مضاف تقديره : مُقْتضي أَمرنا . ويحتمل أَن يكون واحد الأُمور . والضمير في قوله ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ للمُدُن ، وأُجْري ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ كذلك ، والمراد على أَهلها ، ورُوي أَن الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنهم حتى قتلتهم أَجمعين ، ورُوي أَنه كان منهم في الحَرَم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواءِ حتى خرج من الحرم فقتله الحَجَر ، «و (أَمْطَرَ) أَبداً إِنما يستعمل في المكروه ، و (مطر) يستعمل في المحبوب» ، هذا قول أَبي عبيدة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس كذلك ، وقوله تعالى : ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[٢] يردُّ هذا القول ، لأَنهم إِنما ظنُّوه معتاد الرحمة .

وقوله : ﴿مِنْ سِجِّيل﴾ اختلف فيه ، فقال ابن زيد : [سِجِّيل] : اسم السماءِ الدنيا .

---

(١) في «التَّاج» : وزُغَر كزُفر أبو قبيلة ... وقيل : اسم ابنة لوط عليه السلام ، ومنه زُغْرَةُ بالشام لأنها نزلت بها فسميت باسمها ، فهي بمشارف الشام ، قال الأزهري : وإيَّاها عنى أبو داود في قوله :

كَكِنَانَةِ الزُّغْرِيّ غَشَّاهَا مِنَ الذَّهَبِ الدُّلامِص

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (الأحقاف) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، ويردُّه وصفه بـ [مَنْضُودٍ] . وقالت فرقة : هو مأْخوذ من لفظ السِّجِلِّ (١) ، أَي : هي من أَمْر كتب عليهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ، وقالت فرقة : هو مأْخوذٌ من السَّجْلِ إِذا أُرسل الشيْءُ كما يُرسل السَّجْلُ ، كما تقول : قالها مُسْجَلَةٌ (٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف . وقالت فرقة : ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ معناه : من جهنم ، لأَنه يقال : «سِجِّيلٌ وسِجِّين» ، حُفظ فيها بدل النون لامٌ ، كما قالوا : أُصَيْلالٌ وأُصَيْلانٌ (٣) . وقالت فرقة : [سِجِّيلٌ] معناه : شديد ،

---

(١) قال في الصحاح : «السِّجِلُّ : الصَّكُّ ، وقد سَجَّل الحاكم تَسْجِيلا» . وفي اللسان : «وقيل : من سِجِّيلٍ : كقولك من سِجِلٍ أيْ مما كُتب لهم» . وفي المعجم الوسيط : «سَجَّل : كتب في السِّجِلّ ، وسَجَّل القاضي : حكَم وقضى وأثبت حكمه في السِّجِلِّ». فالسِّجِلُّ هو الديوان الذي تُسَجَّل فيه الأحكام والأشياء وتُثْبت .

(٢) أي : مُرْسَلَة ، هذا والسَّجْلُ هو الدَّلْوُ الضخمة المملوءة ماءً ، مذكر ، وجمعه : سِجَالٌ وسُجُولٌ ، وإذا كان فارغاً لا يقال له سَجْلٌ ، وإنما هو دَلْوٌ . (اللسان) .

(٣) ومن ذلك قول النابغة :

وقَفْتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلُهَا عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبع مِنْ أحَدِ

وأُصيلان : تصغير أصيل بزيادة نون على غير قياس ، والتصغير للتحبيب ، وقد رُوي البيت باللام : أُصيْلالا .

وأنشد الطبري في ذلك :

. . . . ضرْباً تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلا[١]

والبيت في قصيدة نونية : سِجِّيناً . وقالت فرقة : [سِجِّيلٌ] لفظة غير عربية عُبّر عنها بالعربية وأَصلها : «سَنْجُ وَجِل»[٢]، وقيل غير هذا في أَصلها ، ومعنى اللفظة : ماءٌ وطينٌ ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جُبير ، وعكرمة ، والسدي ، وغيرهم ، وذهبت هذه الفرقة إلى أَن الحجارة التي رُمُوا بها كانت كالآجُرّ المطبوخ[٣]، أَصلها من طين قد تَحَجَّر ، نصّ عليه الحسن ، وهذا قول يشبه ، وهو الصواب الذي عليه الجمهور . وقالت فرقة : معنى [سِجِّيل] : حجر مخلوطٌ بِطين ، أَي حَجَر وطِينٌ ، ويمكن أَن يُرَدّ هذا إلى الذي قبله ، لأَن الآجُرّ وما جرى مجراه يمكن أَن يقال فيه : حَجَر وطين ، لأَنه قد أَخذ من

---

(١) هذا عجز بيت لابن مقبل ، قال ذلك في (اللسان : سجل) ، والبيت بتمامه على رواية اللسان :

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْض عَنْ عُرُضٍ ضَرْباً تَواصَتْ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا

قال : وسِجِّيل وسِجِّين بمعنى واحد . ورَوَى عن أَبي عُبَيْدَةَ قوله مستشهداً بهذا البيت : « من سِجِّيل ، تأويلُه : كثيرةٌ شديدةٌ » ، ورُوي البيت في القرطبي : « يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَــةً » .

(٢) قال في القرطبي : « قالت طائفة منهم ابن عباس ، وسعيد بن جُبَيْر ، وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت ، أصلها : « سَنْجٌ وجِيل » ، ويقال : « سَنْكٌ وَكِيل » بالكاف موضع الجيم ، هما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً » .

(٣) الآجُرّ : الطين المطبوخ ، يبنى به ، والواحدة : أُجُرَّة ، وآجُرَّةٌ ، وآجِرَّةٌ . قال أبو عمرو : فارسيٌّ مُعَرَّب ، (اللسان) .

كل واحد بحظّه ، هي من طين من حيث هو أصلها ، ومن حَجَر من حيث صلبت .

و [مَنْضُود] معناه : بعضه فوق بعض ، أي تتَابَع ، وهي صفة لـ [سِجِّيل] ، وقال الربيع بن أَنس : نضده : أَنه في السماءِ منضود مُعَدّ بعضه فوق بعض .

و [مُسَوَّمَة] معناه : معلمة بعلامة ، فقال عكرمة وقتادة : إنه كان فيها بياض وحمرة ، ويُحكى أَنه كان في كل حجر اسم صاحبه ، وهذه اللفظة هي من سوَّم إذا أَعلم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : (سَوِّمُوا فقد سَوَّمت الملائكة) ، ويحتمل أَن تكون [مُسَوَّمَةَ] ها هنا بمعنى : مُرْسَلَة ، وسَوْمُهَا من الهبوط . وقوله : ﴿وَمَا هِيَ﴾ إشارة إلى الحجارة . و ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، قيل : يعني قريشاً ، وقيل : يريد عموم كل من اتصف بالظلم ، وهذا هو الأَصح لأَنه رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (سيَكُونُ في أُمتي خَسْف ومَسْخ وقَذْف بالحِجَارة)(١) . وقد ورد أَيضاً حديث : (إنَّ هذه الأُمة بِمَنْجَاةٍ من ذلك) . وقيل : يعني بـ [هِيَ] المدن ، ويكون المعنى الإعلام بأَن هذه البلاد قريبة من مكة ، والأَول أَبْين ، ورُوي أَن هذه البلاد

(١) رواه الترمذي في الفتن ، وأبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن ، والإمام أحمد في مسنده (٢-١٦٣) ، ولفظه في المسند عن عبد الله بن عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إذا رأيتم أُمَّتي تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تودع منهم) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يكون في أُمَّتي خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ) .

كانت بين المدينة والشام ، وحكى الطبري في تسمية هذه المدن : صنعة ، وصعوة ، وعثرة ، ودوما ، وسدوم [١] ، وسدوم هي القرية العظمى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

التقدير : وإلى مدين أرسلنا أخاهم شُعيبا ، واختلف في لفظة [مَدْيَن] ـ فقيل : هي بُقْعة ، فالتقدير على هذا : «وإلى أهل مدين» ، كما قال : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٢] ، وقيل : كان هذا القطر في ناحية الشام ، وقيل : [مَدْيَن] اسم رجل كانت القبيلة من ولده فسُمِّيت باسمه ، و «مَدْيَن» لا ينصرف في الوجهين ، حكى النقاش أن «مَدْيَن» هو ولد إبراهيم الخليل لصلبه .

---

(١) اختلفت الأصول في كتابة هذه الأسماء ، وقد آثرنا اختيار ما يتفق مع ما في الطبري حيث أن ابن عطية نقل الخبر عن الطبري . وآثار هذه القرى معروفة الآن بالأغوار في الأرْدُن .

(٢) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد .

وقد قيل : إن [شُعَيْباً] عربي ، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإبراهيم إلَّا من جهة إسماعيل فقط ؟ ودعاءُ شعيب إلى عبادة الله يقتضي أَنهم كانوا يعبدون الأَوثان ، وذلك بَيِّنٌ من قولهم فيما بعد ، وكُفْرُهم هو الذي استوجبوا به العذاب لا معاصيهم ، فإن الله لم يعذب قطُّ أُمَّة إلَّا بالكفر ، فإن انضافت إلى ذلك معصية كانت تابعة ، وأَعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام . وكانت معصية هذه الأُمة الشنيعة أَنهم كانوا تواطئُوا أَن يأْخذوا ممن يرد عليهم من غيرهم وافياً ويُعطوا ناقصاً في وزْنهم وكيْلهم ، فنهاهم شُعيب بوحي من الله تعالى عن ذلك ، ويظهر من كتاب الزجَّاج أَنهم كانوا تراضوا بينهم بأَن يبخس بعضُهم بعضا .

وقوله : [بِخَيْرٍ] قال ابن عباس : معناه : في رخص من الأَسعار . و «عذاب اليوم المحيط» هو حلول الغلاءِ المُهْلِك ، وينظر هذا التأْويل إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما نقص قومٌ المكيال والميزان إلَّا ارتفع عنهم الرزق) [١]. وقيل : قوله : [بِخَيْرٍ] عامٌّ في جميع نعم

---

(١) رواه في الموطأ ، ولفظه فيه : (ولا نَقَص قومٌ المكيال والميزان إلا قُطع عنهم الرزق) .

الله تعالى ، «وعذاب اليوم» هو الهلاك الذي حلَّ بهم في آخر . وجميع ما قيل في لفظ «خَيْر» منحصر فيما قلناه . وَوُصِفَ اليوم بالإحاطة وهي من صفة العذاب على جهة التجوّز ، إذ كان العذاب في اليوم ، وقد يصح أَن يوصف اليوم بالإحاطة على تقدير : محيط شرُّه ، ونحو هذا .

وكرر عليهم الوصية في «الكيل والوزن» تـأْكيداً وبياناً وعظة ، لأَن ﴿لا تَنْقُصُوا﴾ هو [أَوْفُوا] بعينه لكنهما منحيان إلى معنى واحد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وحدثني أَبي رحمه الله أنه سمع أَبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال : «اعتبروا في أَن الإِنسان إذا رفع يده بالميزان فامتدت أَصابعه الثلاث والتقى الإِبهام والسبابة على ناصية الميزان جاءَ من شكل أَصابعه المكتوبة ، فكأَن الميزان يقول : الله الله» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا وعظ مليح مُذكِّر .

و [الْقِسْط] : العدلُ ونحوه ، و «الْبَخْس» : النقصان ، و [تَعْثَوْا] معناه : تَسْعَوْن في فساد ، وكرر [مُفْسِدِينَ] على جهة التـأْكيد ، يقال :

عَثَا يَعْثُو أو عَثى يَعْثِي ، وعَثَّ يَعُثُّ ، وعاثَ يَعيثُ إذا أفسد ونحوه من المعنى . والعُثَّة : الدودة التي تفسد ثياب الصوف (١) .

وقوله : ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس : معناه : الذي يُبقي اللهُ لكم من أموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن خيرٌ لكم مما تستكثرون أنتم به على غير وجهه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفسير يليق بلفظ الآية .

وقال مجاهد : معناه : طاعة الله : وقال ابن عباس أيضاً : معناه : رزق الله . وهذا كله لا يُعطيه لفظ الآية ، وإنما المعنى عندي : «إبقاءُ الله عليكم إن أطعتم» . وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة بتخفيف الياءِ ، وهي لغة .

وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط في أن تكون البقية خيراً لهم ، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيءٍ من الأعمال ، وجواب هذا الشرط متقدم .

و «الحفيظ» : المراقب الذي يحفظ أحوال من يراقب ، والمعنى : إنما أنا مُبلِّغ ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأعمال .

---

(١) في «اللسان» : العُثَّة : السُّوسة أو الأَرَضة التي تلحس الصوف ، والجمع : عُثٌّ وعُثَثٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

قرأ جمهور الناس : [أَصَلَوَاتُكَ] بالجمع ، وقرأ ابن وثاب : [أَصَلَاتُكَ] بالإفراد ، وكذلك قرأ في [براءة] : ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾(١) ، وفي المؤمنين : ﴿عَلَى صَلَاتِهِم﴾(٢) ، كل ذلك بالإفراد . واختلف في معنى الصلاة هنا ـ فقالت فرقة : أرادوا الصلوات المعروفة ، ورُوي أن شعيباً عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة ، وقال الحسن : لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة . وقيل : أرادوا : قراءتك ، وقيل : أرادوا : أَمَساجدك ؟ وقيل : أرادوا : أَدَعَواتك ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع .

(١) من قوله تعالى في الآية (١٠٣) من (براءة) : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (المؤمنون) : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ .

وجعلوا «الأمر» من فعل الصلوات على جهة التَّجوّز ، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شرّ ففي الأكثر تدعوه رتبة إلى التَّزيّد من ذلك النوع ، فمعنى هذا : أَلَمَّا كنت مصلياً تجاوزت إلى ذمّ شرعنا وحالنا ؟ فكأَن حاله من الصلاة جَسَّرَتْه على ذلك فقيل : أَمَرَتْهُ ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ﴾[1].

وقولهم : ﴿أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ نصٌّ في أَنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى ، وقرأ جمهور الناس : [نَفْعَلَ] و [نَشَاءُ] بنون الجماعة فيهما ، وقرأ الضحاك بن قيس : [تَفْعَل] و [تَشَاءُ] بتاء المخاطبة فيهما ، ورُويت عن أبي عبد الرحمن : [نَفْعَل] بالنون [مَا تَشَاءُ] بالتاء ، ورُويت عن ابن عباس رضي الله عنهما . فأَما من قرأ بالنون فيهما فـ [أَنْ] الثانية عطف على [مَا] لا على [أَنْ] الأُولى ، لأَن المعنى يصير : أَصلواتك تأْمرك أَن نفعل في أَموالنا ما نشاءُ ؟ وهذا قلْب ما قصدوه ، وأَما من قرأ بالتاءِ فيهما فيصح عطف [أَنْ] الثانية على [أَنْ] الأُولى ، قال بعض النحويين : ويصح عطفها على [مَا] ويتم المعنى في الوجهين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويجيءُ [نَتْرُك] في الأَوَّل بمعنى : نرفض ، وفي الثاني بمعنى : نُقرّر ، فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته من تنوع التَّرك على الحكم

(١) من الآية (٤٥) من سورة (العنكبوت) .

اللفظي ، أَو على حذف مضاف ، أَلا ترى أَن التَّرك في قراءَة من قرأَ بالنون في الفعلين إنما هو بمعنى الرفض غير متنوع ، وأَما من قرأَ بالنون في [نَفْعل] والتاءُ في [تَشَاءُ] ف [أَنْ] معطوفة على الأُولى ، ولا يجوز أَن تنعطف على [ما] لأَن المعنى أَيضاً ينقلب فتدبره

وظاهر فعلهم هذا الذي أَشاروا إِليه هو بخس الكيل والوزن الذي تقدم ذكره ، ورُوي أَن الإِشارة هي إِلى قرضهم الدينار والدرهم وإِجراءِ ذلك مع الصحيح على جهة التدليس ، قاله محمد بن كعب ، وغيره . ورُوي عن سعيد بن المسيب أَنه قال : قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأَرض ، فتأَول ذلك بهذا المعنى المتقدم ، وتُؤُوِّل أَيضاً بمعنى أَنه تبديل السكك التي يقصد بها أَكل أَموال الناس .

واختلف في قولهم : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ـ فقيل : إِنما كانت أَلفاظهم : «إِنك لأَنت الجاهل السَّفيه» فكنى الله عن ذلك ، وقيل : بل هذا لفظهم بعينه إِلا أَنهم قالوه على جهة الاستهزاءِ ، قاله ابن جريج ، وابن زيد ، وقيل : المعنى : إِنك لأَنت الحليم الرشيد عند نفسك ، وقيل : بل قالوه على جهة الحقيقة وأَنَّه اعتقادهم فيه ، فكأَنهم فنَّدوه[1] أَي : أَنت حليم رشيد فلا ينبغي لك أَن تأْمرنا بهذه الأَوامر ، ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة ـ حين قال لهم

---

(١) يقال : فَنَّد فلاناً وأَفْنَدَه : خَطَّأَ رأيه ، وفي التنزيل العزيز حكاية عن يعقوب : ﴿لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونَ﴾ ، ويقال : فَنَّدَ رأيَه : أَضعفه وأَبطله .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا إخوة القردة) : «يا محمد ما علمناك جهولا »(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والشبه بين الأمرين إنما هو بالمناسبة بين كلام شعيب وتلطفه وبين ما بادر به محمد عليه الصلاه والسلام بني قريظة .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ الآية . هذه مراجعةٌ لفظية واسترسالٌ(٢) حسن واستدعاءٌ رفيق ، ولهذه الآية ونحوها من محاورة شعيب عليه السلام قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ذاكَ خطيب الأنبياءِ). وجواب الشرط الذي في قوله : ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بيِّنَةٍ مَنْ ربِّي﴾ محذوف ، تقديره : أَأَضِلُّ كما ضللتم وأَتْرك تبليغ الرسالة ؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة . و [بَيِّنَة] يحتمل أَن تكون بمعنى : (بيان) أَو بيِّن ودخلت الهاءُ للمبالغة كعَلَّامة ، ويحتمل أَن تكون صفة لمحذوف فتكون الهاءُ هاءَ تأْنيث(٣) .

(١) لم نعثر على الحديث بهذا اللفظ ، ولكن الذي رواه الإمام أحمد ينسب الكلام لعائشة رضي الله عنها ، ولفظه عن أنس بن مالك أن اليهود دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السَّام عليكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : السَّام عليكم ، فقالت عائشة : السَّام عليكم يا إخوان القردة والخنازير ولعنة الله وغضبه ، فقال : يا عائشة مه ، فقالت : يا رسول الله أما سمعت ما قالوا ؟ فقال : أوما سمعت ما ردَدْتُ عليهم ؟ يا عائشة لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه ولم ينزع من شيء إلا شانه .

(٢) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ : « هذه مراجعة لطيفة واستنزال حسن » ، واختارها البحر المحيط في النقل عن ابن عطية .

(٣) ويكون التقدير : « أرأيتم إن كنت على محجةٍ بيِّنَةٍ » .

وقوله : ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ يريد : خالصاً من الفساد الذي أَدخلتم أَنتم في أَموالكم ، ثم قال لهم : ولست أُريد أَن أَفعل الشيءَ الذي نَهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن فأَستأْثر بالمال لنفسي ، وما أُريد إلا إصلاح الجميع ، و [أُنيبُ] معناه : أَرجع وأَتوب وأَستند(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

﴿لَا يجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه : لا يكسبَنَّكُم ، يقال : جرَمه كذا وكذا وأَجْرمه إذا أَكسبه ، كما يقال : كسب وأَكْسَب بمعنى(٢) ، ومن ذلك

(١) من الاستناد بمعنى الاعتماد على الله واللجوء إليه .

(٢) (جرَم) في التعدية مثلُ (كَسَبَ) ، يتعدَّى إلى واحد فتقول : جرم فلانٌ الذنبَ ، وكسب زيدٌ المالَ ، ويتعدىَّ إلى اثنين فتقول : جرَمتُ زيداً الذنبَ ، وكسَبْتُ زيداً المالَ ، وبالألف يتعدَّى إلى اثنين أيضاً ، تقول : أجْرم زيدٌ عمراً الذنب ، وأكسبْتُ زيداً المال .

قول الشاعر :

وَلَقَدْ طعنتُ أَبا عُيَيْنَةَ طعْنَةً جرَمَت فَزَارةُ بَعْدَهَا أَنْ يغْضَبُوا[(١)]

وقرأ الجمهور : [يجْرِمَنَّكُمْ] بفتح الياءِ ، وقرأ الأَعمش ، وابن وثاب : [يُجْرِمَنَّكُمْ] بِضمها ، و [شِقَاقي] معناه : مُشَاقَّتي وعداوتي[(٢)] ، و [أَنْ] مفعولة بـ [يَجْرِمنَّكُمْ] . وكانت قصة قوم لوط أقرب القصص عهداً بقصة قوم شعيب ، وقد يحتمل أَن يريد : وما منازل قوم لوط منكم ببعيد ، فكأَنه قال : وما قوم لوط منكم ببعيد في المسافة ، ويتضمن هذا القولُ ضربَ المثل لهم بقوم لوط .

وقرأ الجمهور : [مِثْلُ] بالرفع على أنه فاعل [يُصِيبَكُمْ] ، وقرأ مجاهد ، والجحدري ، وابن أَبي إسحق : [مِثْلَ] بالنصب ، وذلك على أَحد وجهين : إما أَن يكون [مِثْل] فاعلا وفتحة اللام فتحة بناءٍ لما أُضيف لغير متمكن ، فإن [مِثْل] قد يجري مجرى الظروف في هذا الباب وإن لم يكن ظرفاً محضاً ، وإما أَن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه

(١) هذا البيت قاله أسماءُ بن الضَّريبة ، وفزارة تروى مرفوعة بمعنى حق لها الغضب ، وتروى منصوبة والمعنى : جرمتهم الطعنة أن يغضبوا ، والمشهور « طعنتُ » بتاء المتكلم ، ولكن الصواب أنه يخاطب غيره فهي بالفتح . (راجع اللسان والتاج) ، هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في المائدة ، وفي غيرها .

(٢) (شِقَاقِي) في موضع رفع ، و ﴿أنْ يُصِيبَكُمْ﴾ في موضع نصب ، والمعنى : لا تحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار ، وهذا قول الحسن وقتادة ، والشِّقاق بمعنى العداوة ، لأن كل واحد في شِقّ ، ومنه قول الأخطل :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِي رسولاً فَكَيْفَ وجَدْتُمُ طعْمَ الشِّقَاقِ ؟

والمراد بالرسول هنا الرسالة ، وهي ما ذكره في الشطر الثاني ، أي : كيف وجدتم نتيجة العداوة ؟

المعنى ، ويكون [مِثْل] منْصوباً على النعت لمصدر محذوف تقديره : إصابة مثل .

وقوله : ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم﴾ الآية . تقدم القول في مثل هذا من ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة ، و [وَدُودٌ] معناه أَن أَفعاله ولطفه بعباده لما كانت في غاية الإِحسان إِليهم كانت كفعل من يتوَدّد ويود المصنوع له .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾ الآية . [نفْقَهُ] معناه : نفهم ، وهذا نحو قول قريش : ﴿قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ﴾[1] ، ومعنى ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ : أَي ما نفقه صحة قولك ، وأَما فِقْهُهُم لفظَه ومعناه فمتحصل . وروي عن ابن جبير ، وشريك القاضي في قولهم : [ضَعِيفاً] أَنه كان ضرير البصر أَعمى ، وحكى الزهراوي أَن حِمْيَر تقول للأَعمى : ضعيف ، كما يقال له : ضرير ، وقيل : كان ناحل البدن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أَو بدنه ، والظاهر من قولهم : [ضَعِيفاً] أَنه ضعيف الانتصار والقدرة ، وأَن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه .

---

(١) من الآية (٥) من سورة (فصلت) . وهي قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ الخ الآية .

والرَّهْط : جماعة الرجل(١) ، ومنه الراهطاءُ لأَن اليربوع يعتصم به كما يفعل الرجل برهطه(٢). و [لَرَجَمْنَاكَ] قيل : معناه : بالحجارة ، وهو الظاهر ، وقاله ابن زيد . وقيل : معناه : لرجمناك بالسَّب ، وبه فسّر الطبري ، وهذا أَيضاً تستعمله العرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(٣) ، وقولهم : [بِعَزِيزٍ] أَي : بذي منعةٍ وعزّةٍ ومنزلة في نفوسنا .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِـي﴾ الآية . «الظِّهْرِيّ» : الشيءُ الذي يكون وراءَ الظَّهر ، وقد يكون الشيءُ وراءَ الظهر بوجهين في الكلام : إمَّا بأَن يُطرح ، كما تقول : جعلتَ كلامي وراءَ ظهرك ودَبْرَ أُذُنك ، ومنه قول الفرزدق :

تَميمُ بْنَ زيْدٍ لا تَكُونَنَّ حاجَتِي ... بِظَهْرٍ فلا يعْيا عَلَيَّ جوابُهَا(٤)

وإمَّا بأَن يُسْند إليه ويُلْجأَ ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في (اللسان) : «رهْطُ الرجل : قومه وقبيلته ، والرهط عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة ، قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ . والجمع : أَرْهُطٌ وأرهاطٌ وأراهط» .

(٢) أول حفيرة يحتفرها اليربوع في جِحَرِهِ تسمى الرُّهَطَةُ والرُّهطاءُ والراهطاءُ ، وهي بين القاصعاء والنافقاء وفيها يخبأ أولاده .

(٣) من الآية (٤٦) من سورة (مريم) .

(٤) رواية اللسان : تميمُ بنَ قَيْس ، وقد قال : «وظَهَر بحاجة الرجل وظَهَّرها وأظهرها : جعلها بظَهْر واستخف بها ، أي جعلها وراء ظهره تهاوناً بها» . وعَيَّ بالأمر : عجز عنه فهو عيٌّ والجمع : أَعْيَاءُ ، أو هو عيِيٌّ والجمع : أَعْيِيَاءُ ، والفرزدق يحذر تميمَ ابن قيس ويطالبه بألا يهمل حاجته فهو ليس بعاجز عن الجواب عن إهماله وتهاونه .

في دعائه : (وَأَلْجَأْتُ ظهري إليك)[١] ، فقال جمهور المتأولين في معنى هذه الآية : إنه «واتخذتم الله ظهريا ـ أي غير مُراعي ـ وراءَ الظهر» على معنى الاطراح ، ورجحه الطبري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو عندي على حذف مضاف ولابُدّ .

وقال بعضهم : الضمير في قوله : [وَٱتَّخَذْتُمُوهُ] عائد على أمر الله وشرعه ، إذ يتضمنه الكلام ، وقالت فرقة : المعنى : أترون رهطي أعز عليكم من الله وأنتم تتخذون الله سند ظهوركم وعماد آمالكم ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فقول الجمهور على أن كان كُفْر قوم شعيب جحداً بالله تعالى وجهلًا به ، وهذا القول الثاني على أنهم كانوا يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون الأصنام وسائط ووسائل ، ونحو هذا ، وهاتان الفرقتان موجودتان في الكفرة ، ومن اللفظة : الاستظهار بالبيِّنَة ، وقد قال ابن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوضوء ، وفي كتاب التوحيد ، ورواه أبو داود في الأدب ، والترمذي في الدعوات ، والدارمي في الاستئذان ، ولفظه كما رواه البخاري في التوحيد : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا فلان ، إذا أويْت إلى فراشك فقل : اللّهم أسلمتُ نفسي إليك ، ووجّهت وجهي إليك ، وفوّضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيّك الذي أرسلت . فإنّك إن مُتّ في ليلتك مُتّ على الفِطرَة ، وإن أصبحت أصبت أجرا).

زيد : الظَّهري : الفضل مثل الجمَّال يخرج معه بإبلٍ ظهاريّة يُعدها إن احتاج إليها وإلا فهي فضلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا كله مما يُسْتَند إليه .

وقوله : ﴿إنَّ رَبِّي بما تَعْمَلُون مُحِيطٌ﴾ خبر في ضمنه توعُّد ، ومعناه : محيطٌ علمُهُ وقُدْرَتُهُ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه : على حالاتكم ، وهذا كما تقول : مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان ، يستعار من البقاع إلى المعاني . وقرأ الحسن ، وأبو عبد الرحمن ، وعاصم : [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع ، والجمهور على الإفراد .

وقوله : [اعْمَلُوا] تهديد ووعيد ، وهو نحو قوله : ﴿اعْمَلُوا مَاشِئْتُمْ﴾[(١)] . وقوله : ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ يجوز أن تكون [مَنْ] مفعولة بـ [تَعْلَمُونَ] ، والثانية عطف عليها ، قال الفراءُ : ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الأَول أَحسن لأَنها موصولة ولا توصل في الاستفهام ، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها موصولة لا محالة ، والصحيح أن الوقف في قوله : ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ثم ابتداءُ الكلام بالوعيد ، و [مَنْ] معمولة لـ [تَعْلَمُونَ] وهي موصولة . وقوله : [وَارْتَقِبُوا] كذلك تهديد أَيضاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الآية . الأَمر هاهنا يصح أن يكون مصدرَ أَمَرَ ، ويصح أَن يكون واحد الأُمور ، وقوله : ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ إما أَن يقصد الإِخبار عن الرحمة التي لحقت شعيباً لنبوته وحُسْن عمله وعمل مُتَّبِعِيه ، وإما أَن يقصد أَن التنجية لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أَعمالهم ، وأَما [ٱلصَّيْحَةُ] فهي صيحة جبريل عليه السلام ، ورُوي أَنه صاح بهم صيحة جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها ميتاً قد تقطعت حجب قلبه . والجُثُوم أَصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأَرض ، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه بِشَبَه .

---

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصلت) .

وقوله تعالى : ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ الآية . الضمير في قوله : [فِيهَا] عائد على «الديار» ، و [يَغْنَوْا] معناه : يقيمون بنعمة وخفض عيش ، ومنه المغانى ، وهي المنازل المعمورة بالأهل ، وقوله : [أَلَا] تنبيه لِلسَّامع ، وقوله : [بُعْداً] مصدرٌ دَعَا بِهِ ، وهذا كما تقول : «سقيا لك ، ورعيا لك ، وسحقاً للكافر» ونحو هذا ، وفارقت هذه قولهم : «سلام عليك» ، لأَن هذا كأَنه إخبار عن شيءٍ قد وجب وتحصَّل ، وتلك إنما هي دعاءٌ مُتَرَجَّي ، ومعنى البعد في قراءة من قرأ [بَعِدَت] بكسر العين : الهلاك ، وهي قراءة الجمهور ، ومنه قول خِرْنِق بنت هَنَّان:

لا يَبْعِدنْ قَوْمِـي الَّذِينَ هُـمُ سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُـزْرِ (١)

ومنه قول مالك بن الريب :

يقولونَ لا تَبْعِدْ وهُمْ يَدْفِنُونَـني وأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا ؟ (٢)

---

(١) الخِرْنِق هي أُخْت طرفة بن العبد لأمه وردة بنت عبد العُزّى ، ومعنى الخِرْنِق : الأرنب الصغير ، وهذا البيت هو مطلع قصيدة ترثي بها زوجها بشراً بن عمرو بن مرثد سيِّد بني أسد ومَن قُتل معه في يوم قُلاب . ولا يَبْعِدن : لا يَهْلِكَن ، وسُمُّ العداة : وصفٌ لهم بالشجاعة حتّى أنهم يُهلكون عدوهم ، وآفة الجزر : تصفهم بالكرم حيث يكثرون من ذبح الإبل للضيفان . تقول : حَمَى الله قومي من الهلاك فهم مثال الشجاعة على أعدائهم والكرم لضيوفهم .

(٢) هو مالك بن الريب المازني ، وبيته هذا من قصيدة قالها يرثي بها نفسه حين أحسّ بالموت يقترب منه وهو غريب بعيد عن أهله وبلاده ، وهي من روائع الشعر العربي القديم صدقاً وتصويراً ، يقول : إن قومي يتمنون لي السلامة والنجاة من الهلاك مع أنهم يُعدونَ لي قبري فهل هناك هلاك مثل هذا ؟ ويمكن أن يفهم البعد على أنه بُعد المكان فقد كان بعيداً عن بلاده حين حانت وفاته .

وأما من قرأ : [بَعُدَتْ] وهو السُّلَمي ، وأبو حيوة فهو من البُعْد الذي ضده القرب ، ولا يُدعى به إلَّا على مبغوض [١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾

الآيات : العلامات ، والسُّلْطان : البرهان والبيان في الحُجَّة ، قيل : هو مشتق من السَّليط الذي يُسْتَضاءُ به [٢] ، وقيل : من أنه مسلط على كل جبار ومخاصم . والملأُ : الجمع من الرجال ، والمعنى :

---

(١) قال النحاس : المعروف في اللغة أنه يقال : بعِد يَبْعَد بَعَداً وبُعْداً إذا هَلَك ، وقال المهدوي : من ضَمَّ العين من [بَعُدت] فهي لغة تستعمل في الخير والشر ، ومصدرها البُعْد ، و (بَعِدت) تستعمل في الشَّرّ خاصة ، فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة ، وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى . نقل ذلك القرطبي ، وفي (اللسان) « إن بعض العرب يقول : بَعِد ، وبعضهم يقول : بَعُد مثل : سَحِقَ وسَحُقَ ، ومن الناس من يقول : بَعُد في المكان ، وبَعِد في الهلاك » . وهذا ما اختاره ابن عطية رحمه الله .

(٢) السَّليطُ عند عامة العرب : الزَّيت ، وعليه جاء قول امرئ القيس في وصف البرق :

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ راهِبٍ   أَمالَ السَّليطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّـلِ

أرسلناه إليهم ليؤمنوا بالله تعالى فصدّهم فرعون فاتبعوا أمره ولم يؤمنوا وكفروا . ثم أخبر تبارك وتعالى عن أمر فرعون أنه ليس برشيد ، أي : ليس بمصيب في مذهبه ولا مفارق للسفاهة .

وقوله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ الآية . أخبر الله تعالى في هذه الآية عن فرعون أنه يأتي يوم القيامة مع قومه المُغْرَقين معه وهو يَقْدُمُهُم إلى النار ، وأوقع الفعل الماضي في [أَوْرَدَهُم] موقع المستقبل لوضوح الأَمر وارتفاع الإشكال عنه ، وَوَجْهُ الفصاحة من العرب في أنها تضع أحياناً الماضي موضع المستقبل أنَّ الماضي أدلُّ على وقوع الفعل وحصوله . و «الْوُرود» في هذه الآية هو وُرُود الدخول ، وليس بوُرود الإشراف على الشيء والإشفاء[١] لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[٢] ، وقال ابن عباس : «في القرآن أربعة : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُهَا﴾[٣] ، وقوله : ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[٤] ، وهذه[٥] في مريم ، وفي الأنبياء : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ﴾[٦] . قال : وهي كلها وُرُودُ دخول ، ثم يُنجي الله الَّذين

(١) مصدر أشْفَى على الشيء : اقترب منه . (المعجم الوسيط) .
(٢) من الآية (٢٣) من سورة (القصص) .
(٣) من الآية (٧١) من سورة (مريم) .
(٤) من الآية (٨٦) من سورة (مريم) .
(٥) الصواب : وهاتان لأن الآية التي قبلها في مريم هي الأخرى .
(٦) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء) .

اتَّقوا» . و [ٱلْمَوْرُود] صفة لمكان [ٱلْوِرْد] على أن التقدير : وبئس مكان الوِرْد الْمَوْرُود[١] . وقيل : [ٱلْمَوْرُود] ابتداءٌ والخبر مقدم ، والمعنى : المَوْرود بئس الوِرْدُ.

وقوله : ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ يريد دار الدنيا ، و « اللعنة » : إبعادهم بالغرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر ، وقوله : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ أي : يُلعنون أيضاً بدخولهم جهنم ، قال مجاهد: « فهما لعنتان ،وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة ، ويوم القيامة بئس ما يُرفدون به ، فهي لعنة واحدة أولا ، وقبح إرفاد آخرا »[٢] . وقوله : ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي : بئس العطاءُ المعطى لهم ، والرِّفد في كلام العرب : العطية ، وسُمِّي العذاب هنا رِفْداً لأن هذا هو الذي حلَّ لهم محلَّ الرِّفْد ، وهذا كما تقول : يا فلان لم يكن خيرك إلا أن تضربني ، أي : لم يكن الذي حلَّ محلَّ الخير منك . والإِرْفَاد :

---

(١) جوّز ذلك أيضاً أبو البقاء ، ومعنى ذلك أن المخصوص محذوف لفهم المعنى كما حذف في قوله تعالى : ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ، وهذا مبني على جواز وصف فاعل (نعم وبئس) وفيه خلاف ، إذ ذهب ابن السراج والفارسي إلى أنه لا يجوز . وهناك تخريجات أخرى للآية تجدها في الكشاف للزمخشري ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وغيرهما .

(٢) عقَّب أبو حيان على كلام مجاهد هذا بقوله في « البحر المحيط » ، « وهذا لا يصح ، لأن هذا التأويل يدل على أن ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معمولٌ لِـ [بِئْسَ]، وبئس لا تتصرف فلا يتقدم معمولها عليها ، ولو تأخر ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ صَحَّ كما قال الشاعر :

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الـدِّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيتَ نَزَالِ وَلَجَّ في الذُّعـــرِ

المعونة ، ومنه رفادة قريش ، معونتهم لفقراءِ الحاج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم (١) .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية . [ذَٰلِكَ] إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأُمم المذكورة ، والأَنباءُ : الأَخبار ، و [ٱلْقُرَىٰ] يحتمل أَن يراد بها القُرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة ، ويحتمل أَن يريد القرى عامة ، أَي : هذه الأَنْباءُ المقصوصة عليك هي عوائد المدن إذا كفرت ، فيدخل – على هذا التأْويل – فيها المدن المعاصرة ، ويجيءُ قوله : ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ منها عامرٌ وداثر ، وهذا قول ابن عباس ، وعلى التأْويل الأَول – في أَنها تلك القرى المخصوصة – يكون قوله : ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ بمعنى : قائم الجدران ومتهدم لا أَثر له (٢) ، وهذا قول قتادة وابن جريج ، والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أَهل مكة وغيرهم .

---

(١) في كتب اللغة أن أصل الرِّفْد : العون ، يقال منه : رَفَد فُلانٌ فُلاناً عند الأمير يَرْفده رِفْداً بكسر الراء ، أما إذا فُتحت الراءُ فمعناه : السَّقْيُ في القَدَح العظيم ، والرَّفْد : القدح الضخم ، ومنه قول الأعشى :

رُبَّ رَفْدٍ هَرَقْتُهُ ذلِكَ الْيَـــوْ مَ وأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْتَـــالِ

كنىً بالرِّفْد عن الموت ، ومعنى أَقتال : أَصحاب تِرَاتٍ وهم أَشد عنفاً في القتال وحرصاً على الإقدام فيه .

(٢) على التشبيه بالزرع ، بعضه قائم على سوقه ، وبعضه حصيد ، قال قتادة : جعل حصد الزرع كناية عن الفناء ، قال الشاعر :

والنَّاسُ في قَسْمِ المنيَّةِ بَيْنَهُمْ كالزَّرْعِ منْهُ قائِمٌ وحَصِيـــدُ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

المعنى : وما وضعنا عندهم من التعذيب مالا يستحقونه ، لكنهم ظلموا أنفسهم بوضعهم الكفر موضع الإيمان ، والعبادة في جَنْبة الأَصنام[١] ، فما نفعتهم تلك الأَصنام ، ولا دفعت عنهم حين جاءَ عذاب الله .

والتَّتْبيب : الخُسران ، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٢] ، ومنه قول جرير :

عَرَارَةُ مِنْ بَقِيَّـــةِ قَـــوْمِ لُوطٍ أَلَا تَبًّـــا لما عَمِلُوا تبابـــا[٣]

(١) الجَنْبَةُ والجَنَبَةُ مِنَ الشيء : جانبُه وناحيتُه ، فقد جعلوا العبادة للأصنام وفي ناحيتها .

(٢) الآية (١) من سورة (المَسَد) .

(٣) البيت من قصيدة قالها جرير في هجاء الرّاعي النُّميري ، وهي في « النقائض » — طبع بيفان ص ٤٣٢ — وكذلك ذكرت في «منتهى الطلب » لابن ميمون ، و« الخزانة ١-٣٤ »، =

أي : خساراً ، وصورة زيادة الأصنام التَّتْبيب إنما تُتَصوَّر : إمَّا بأَنَّ تأْميلها والثقة بها والتعب في عبادتها ـ شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقتها ، فلحق عن ذلك عَنَتٌ وخُسْران ، وإمَّا بأَن عذابهم على الكفر يُزاد عليه عذاب على مجرد عبادة الأَوثان .

وقوله تعالى : [وَكَذَلِكَ] ، الإشارة إلى ما ذكر من الأَحداث في الأُمم ، وهذه آية وعيد تعم قُرى المؤمنين ، فإن [ظَالِمَة] أَعم من «كافرة» ، وقد يمهل الله تبارك وتعالى بعض الكَفَرَة ، وأَمَّا الظَّلَمَة ـ في الغالب ـ فمُعَاجلون ، أَما إنه يملي لبعضهم ، وفي الحديث ـ من رواية أَبي موسى ـ أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله يُمْلي للظالم حتَّى إذا أَخذه لم يُفْلته) ، ثم قرأ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية [١] .

وقرأَ أَبو رجاءٍ العطاردي ، وعاصم الجحدري : ﴿رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ ٱلْقُرَى﴾ [٢] ، والجمهور الأَعظم : ﴿إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَى﴾ ، وأَنْحى الطبريّ

= و «عَرارة» جاء محرفاً في الأصول «عرابة» ، وروي : (لما فعلوا) في الديوان، و (لما صنعوا) في «التاج» و «اللسان» ، وعَرَارةُ النُّمَيريُّ هذا هو راوية الراعي النميري الذي قيلت فيه القصيدة كلها ، وعَرارةُ في الأصل اسم نبات .

(١) رواه البخاري في التفسير ، ومسلم في البِرّ ، والترمذي في التفسير ، وابن ماجه في الفتن ، ولفظه في البخاري عن أبي موسى كما رواه هنا ابن عطية .

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة الآية طبقاً لهذه القراءة ، وقد صوبناها بالرجوع إلى تفسير الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وكتب القراءات ، وهي : ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ﴾ على أن [أَخَذَ] فعل ماض ، و [رَبُّكَ] فاعل مرفوع ، و [إِذْ] بدلا من [إذا] ، وقال القرطبي : وعن الجحدري أيضاً : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ﴾ كقراءة الجماعة ولكن بـ [إِذْ] بدلا من [إذا] .

على قراءة عاصم هذه [١] ، وقرأ طلحة بن مصرف كذلك ، وهي قراءة متمكنة المعنى ، ولكن قراءة الجماعة تعطي بقاءَ الوعيد واستمراره في الزمان ، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ، المعنى : إن في أمر هذه القُرى وما حلَّ بها لعبرة وعلامة اهتداءٍ لمن خاف أَمْر الآخرة ، وتوقع أَن يناله عذابها فنظر وتأَمل ، فإِن نظره يؤديه إِلى الإِيمان بالله تعالى ، ثم عظَّم الله أَمر يوم القيامة بوصفه بما تَلَبَّس بأَجنبي منه للسبب المتَّصل بينهما وبعود الضمير عليه ، و [ٱلنَّاسُ] ـ على هذا ـ مفعول لم يُسَمّ فاعله ، ويصح أَن يكون [ٱلنَّاسُ] رفعاً بالابتداء ، و [مَجْمُوعٌ] خبر مقدم [٢] .

وهذه الآية خبر عن الحشر ، و [مَشْهُودٌ] عام على الإِطلاق يشهده الأَولون والآخرون من الإِنس والملائكة والجن والحيوان ـ في قول

---

(١) قال الطبري : « وذلك قراءة لا أستجير القراءة بها لخلافها مصاحف المسلمين ، وما عليه قَرَأَهُ الأمصار » ، (راجع تفسير الطبري ١٢ـ١١٤) . وإلى ذلك يشير ابن عطية بكلامه هنا .

(٢) قال أبو حيان تعقيباً على هذا الإعراب : « وهو بعيد لإفراد الضمير في [مَجْمُوع] ، وقياسه ـ على إعرابه ـ « مجموعون » . ومن اللطائف التي ذكرها الزمخشري ونقلها عنه أبو حيان تعليله لإيثار اسم المفعول على الفعل بقوله : « لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه لابد أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له ، وأنه هو الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكُّون منه ، وفيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل .

ومعنى [مَشْهُود] : مشهود فيه ، فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءً له مجرى المفعول به على السعة ، والمعنى : « يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد » ، ومنهم قولهم : « لفلانٍ مجلس مشهود وطعام محضور » .

الجمهور ـ وفيه ـ أعني الحيوان الصامت ـ اختلاف ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الشاهد : محمد عليه الصلاة والسلام ، والمشهود : يوم القيامة .

وقوله : ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ الآية . المعنى : وما نؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك ، ولكن القضاءَ السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر . وقرأ الجمهور : [نُؤَخِّرُهُ] بالنون ، وقرأ الأعمش : [يُؤَخِّرُهُ] بالياءِ .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة : ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾[1] بحذف الياءِ من [يَأْتِي] في الوصل والوقف ، وقرأ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف ، ورويت أيضاً كذلك عن ابن كثير ، والياءُ ثابتة في مصحف أُبيّ بن كعب ، وسقطت في إمام عثمان ، وفي مصحف ابن مسعود : «يوْمَ يأْتُون» ، وقرأ بها الأعمش ، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل ، وإثباتها في الوجهين هو الأصل ، ووجه حذفها في الوصل التخفيف ، كما قالوا في «لا أُبَالِ ولَا أَدْرِ» ،

---

(١) المراد بإتيان اليوم أهوالُه وشدائده إذ اليوم لا يكون وقتاً لإتيان اليوم . والظاهر أن الفاعل بـ [يَأْتِ] ضمير يعود على ما عاد عليه الضمير في قوله سبحانه : [نُؤَخِّرُهُ] وهو قوله قبل : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ﴾ ، وأجاز الزمخشري أن يكون فاعل [يَأْتِ] ضميراً عائداً على الله تبارك وتعالى ، قال : كقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ ، ويعضد ذلك قراءة [يُؤَخِّرُهُ] بالياء .

وأَنشد الطبريُّ :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرْهَمــــاً جوداً وأُخْرى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدَّمَا (١)

وقوله : ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ يصح أَن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في [يَأْتِ] وهو العائد على قوله : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ ، ولا يجوز أَن يعود على قوله : ﴿يوْم يـأْتِ﴾ ، لأَن اليوم المضاف إلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل ، إذ المضاف متعرف بالمضاف إليه ، والفعل متعرف بفاعله وليس في نفسه شيئاً مستقلا دون الفاعل ، وقولهم : « سيِّد قومه ، ومولى أَخيه ، وواحد أُمه » مفارق لما لا يستقل ، فلذلك جازت الإِضافة فيها ، ويكون قوله : ﴿يوْم يَأْتِ﴾ ـ على هذا ـ في موضع الرفع بالابتداءِ وخبره : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ، وفي الكلام ـ على هذا ـ عائد محذوف تقديره : « لا تكَلَّم نَفْسٌ فيه إِلَّا » ، ويصح أَن يكون قوله : ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ صفة لقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ والخبر قوله : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِــيٌّ وسَعِيدٌ﴾ ، ويصح أَن يكون قوله :

---

(١) كما لم ينسبه الطبري كذلك لم ينسبه صاحب اللسان ، والشاهد في البيت حذف الياءِ من (تُعْطِ) ، وهي لغة هذيل ، قال الفراءُ في « معاني القرآن » : « كل ياءٍ أو واوٍ تسكنان وما قبل الواو مضموم وما قبل الياء مكسور فإن العرب تحذفها وتجتزئ بالضمة من الواو وبالكسرة من الياء ، أنشدني بعضهم : كفَّاك كفٌّ ـ البيت » .

وما تُليقُ : ما تُمْسك درهماً ، يقال : ما يُليق بكفـه درهمٌ بمعنى : ما يحتبس ، وما يُليقُ هو درهماً بمعنى : ما يحبسه ، يمدحه بالشجاعة وبالكرم . وفي حذف الياءِ في هذا الموضع قال الزجاج : « والأجود في النحو إثبات الياء ، والذي أراه اتِّباع المصحف وإجماع القرَّاءِ لأن القراءَة سُنَّة ، وقد جاء مثله في كلام العرب » .

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ خبراً عن قوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ . وقوله : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ يُرَادُ بِهِ اليوم الذي قبل ليلته ، وقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يُراد به الحين والوقت لا النَّهَار بعينه ، فهو كما قال عثمان : «إِنِّي رأيت أَلَّا أَتزوج يومي هذا» ، وكما قال الصديق رضي الله عنه : «فَإِنَّ الأَمانة اليوم في الناس قليل»[1] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهول القيامة ، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أَهل الموقف في التَّلاوم والتساؤُل والتجادل ، فإِمَّا أَن يكون بإِذن ، وإما أَن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أَو إِقامة حجة[2] .

وقوله : [فَمِنْهُمْ] عائد على الجميع الذي تضمنه قوله : [نَفْسٌ] إِذ هو اسم جنس يراد به الجميع .

---

(١) قال في «البحر المحيط» : «وكلامه في إعراب ﴿لا تَكَلَّمُ﴾ كأنه منقول من كلام الحوفي» .

(٢) هذه قضية يثيرها كثيرون ممن يحبون الجدل ، يقولون : لم قال الله : ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بِإِذْنِهِ﴾ و ﴿هَٰذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ، وقال في مواضع أُخرى : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ و ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ و ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ ؟ وللجواب عن ذلك يقول العلماءُ : يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف متعددة ، ففي بعضها يجادلون ، وفي بعضها لا يتكلمون ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ، وهم عندما يتكلمون لا ينطقون بحجة تنفعهم وتجب لهم ، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضا ، ونحن نقول لمن يتكلم طويلا بغير حجة ولا منطق : ما تكلمت بشيء ، والمهم أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله سبحانه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ شَقُوا﴾ ـ على بعض التأْويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية ـ يُرادُ به كلُّ من يعذب من كافر وعاصٍ ، وعلى بعضها ـ كلُّ من يخلد ، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة .

والزفير : صوت شديد خاص بالمحزون أو الموجع أو المعذب ونحوه ، والشَّهيق كذلك ، كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الزفير : صوت حاد ، والشهيق : صوت ثقيل ، وقال أبو العالية : الزفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ، وقيل : بالعكس ، وقال قتادة : الزفير : أول صوت الحمار ، والشهيق آخره [١] ، فصياح أهل النار كذلك ، وقيل : الزفير مأْخوذ من الزَّفْر وهو الشِّدَّة ، والشهيق من قولهم : جبل شاهق أي عالٍ ، فهما ـ على

---

(١) قال ذلك أيضاً الضحاك ومقاتل ، وتعبيرهما : الزفير مثل أول نهيق الحمار ، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ، قال العجاج :

حَشْرَجَ في الْجَوْفِ سَحِيلاً أَوْ شَهَقْ حَتَّى يُقَالَ نَاهِقٌ ومَا نَهَقْ

هذا المعنى - واحد أو متقارب ، والظاهر ما قال أبو العالية ، فإن الزَّفرة هي التي يعظم معها الصدر والخوف ، والشهقة هي الوقعة الأخيرة من الصوت المندفعة[(١)] معها النَّفَسُّ أحياناً ، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه .

وأما قوله : ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فقيل : معناه أن الله تبارك وتعالى يبدل السموات والأرض يوم القيامة ، ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماء مكاناً للجنة ، ويتأبد ذلك ، فقَرنت الآية خلود هؤلاء ببقاء هذه ، ويُروى عن ابن عباس أنه قال : «إن الله خلق السموات والأرض من نور العرش ، ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة ، فَلَهُما ثَمَّ بقاءٌ دائم» . وقيل : معنى قوله : ﴿مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَاتُ والْأَرْضُ﴾ : العبارةُ عن التأبيد بما تعهده العرب ، وذلك أن من فصيح كلامها إذا أرادت أن تخبر عن تأبيد شيءٍ أن تقول : «لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض» ، ونحو هذا مما يريدون به طولًا من غير نهاية ، فأفهمهم الله تعالى تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض .

وأما قوله : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فقيل فيه : إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ، فهو على

---

(١) هكذا في جميع الأصول . وهو نعت سببي والصواب أن يقال : المندفع معها النَّفَسُ ، إلا إذا تكلفنا وضبطنا الفاء بالسكون وأردنا النَّفْس .

نحو قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ﴾(١) استثناءٌ في واجب ، وهذا الاستثناءُ في حكم الشرط ، كأَنه قال : «إن شاءَ الله» ، فليس يحتاج إلى أن يوصف بمُتَّصل ولا بمنقطع ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾ ، وقيل : هو استثناءٌ من طول المدة ، وذلك على ما رُوي من أَن جهنم تخرب ويعدم أَهلها وتخفق أَبوابها(٢) ، فهم – على هذا – يخلدون حتى يصير أَمرهم إلى هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول مختل ، والذي رُوي ونُقل عن ابن مسعود وغيره إنما هو الدرك الأَعلى المختص بعصاة المؤمنين ، وهو الذي يُسمى جهنم ، وسُمي الكلُّ به تجوزاً.

وقيل : إنما استثني ما يلطف الله تعالى به للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار ، فيجيءُ قوله سبحانه : ﴿إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ﴾ أَي : لقوم ما ، وهذا قول قتادة ، والضحاك ، وأَبي سنان ، وغيرهم ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ عامًّا في الكفرة والعصاة

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح) .

(٢) المروي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : (ليَأتِيَنَّ على جهنَّم يومٌ تصفق فيه أبوابها) . راجع تعليق المؤلف على هذا فهو القول السليم .

وأقرب معاني (خَفَقَ) التي يمكن إيرادها هنا هو قولهم : خفق المكان : خلا . رَوَى ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود : (لَيَأْتِيَنَّ عليها زمان تخفق أبوابها) – الدر المنثور .

كما قدمنا ، ويكون الاستثناءُ من [خَالِدِينَ][1] . وقيل : [إِلَّا] بمعنى الواو ، فمعنى الآية : «وَما شاءَ اللهُ زائداً على ذلك» ، ونحو هذا قول الشاعر :

وكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرْقَدَانِ[2]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا البيت يصح الاستشهادُ به على معتقدنا في فناءِ الفرقدين وغيرهما من العالم ، وأما إن كان قائله من دَهْرِيّة العرب[3] فلا حجة فيه ، إذ يرى ذلك مؤبّداً فأَجرى «إِلَّا» على بابها .

وقيل : [إِلَّا] في هذه الآية بمعنى «سوى» ، والاستثناءُ منقطع ، كما تقول : «لي عندك أَلْفا درهم ، إلا الأَلف التي كنت أَسْلفتك» ،

---

(١) يؤيد هذا ما قاله القرطبي : « وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة أُخْرِجوا منها ودخلوا الجنة فيقال : هؤلاء الجهنميون) . والحُمَمَةُ واحدة الحمم وهو الرماد والفحم وكل ما احترق واسودّ من النار .

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب (سيبويه ١–٣٧١) – واللسان . وقيل : لحضرمي بن عامر (كما في المؤتلف والمختلف ١١٦) – وفي حاشية سيبويه : لسوار بن المضرب ، والفَرْقَدان : نجمان في السماء لا يغربان ، وقيل : كوكبان قريبان من القطب ، وقيل : كوكبان في بنات نعش الصغرى ، يقال : لأبكينك الفرقدَيْن : أي طول طلوعهما ، ينصب على الظرف مثل بقية النجوم حيث يقال : لأبكينَّك الشمسَ والقَمَرَ ، ويجوز أن تكون « إلا » في البيت بمعنى « غير » ، قال سيبويه : كأنه قال : وكلُّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ، فهو نعت لـ (كل) . والبيت مذكور في الخزانة أيضاً (٢–٥٥) .

(٣) الدَّهْري : الرجل الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ويقول ببقاء الدَّهر .

بمعنى : سوى تلك ، فكأنه قال : «خَالدين فيها ما دامت السموات والأَرض سوى ما شاءَ الله زائداً على ذلك» ، ويؤيد هذا التأْويل قوله بعْدُ : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، وهذا قول الفراءِ ، فإِنه يقدر الاستثناءَ المنقطع بـ «سوى» ، وسيبويه يقدره بـ «لكن» . وقيل : «سوى ما أَعدّه لهم من أَنواع العذاب مما لا يُعرف كالزمهرير ونحوه» ، وقيل : استثناءٌ من مدة السموات والأَرض ، المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا ، وقيل : في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، وقيل : في المسافات التي بينهم في دخول النار ، إذ دخولهم إنما هو زُمَراً بعد زُمَر ، وقيل : الاستثناءُ من قوله : ﴿فَفِــي ٱلنَّارِ﴾ ، كأَنه قال : «إِلَّا ما شاءَ ربُّك من تأْخير قوم عن ذلك» ، وهذا قول رواه أَبو نَضْرَةَ عن جابر أَو عن أَبي سعيد الخدري[(١)] ، ثم أَخبر مُنَبِّهاً على قدرة الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [سَعِدُوا] بفتح السِّين ، وهو فعل لا يتعدى ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ـ في رواية حفص ـ : [سُعِدُوا] بضم السِّين ، وهي شاذة ولا حجة في قولهم : «مسعود» لأَنه «مفعول»

---

(١) ذكر ابن عطية عشرة أقوال في الاستثناء الوارد في هذه الآية ، وقد ذكرها القرطبي أيضاً ، ونقلها أبو حيان في « البحر المحيط » عن ابن عطية ، وللمفسرين أقوال أُخرى .

من «أَسْعَدَ» على حذف الزيادة ، كما يقال : «محبوب» من «أَحبَّ» و «مجنون» من «أَجَنَّه الله» ، وقد قيل في مسعود: إنما أَصله الوصف للمكان ، يقال : مكان مسعود فيه ، ثم نقل إلى التسمية به ، وذكر أَن الفراءَ حكى أَن هذيلًا تقول : سَعَدَه الله ، بمعنى : أَسعده ، وبضم السِّين قرأَ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرف ، وابن وثاب ، والأَعمش[1] .

والأَقوال المترتبة في استثناءِ التي قبل هذه تترتب ها هنا إلا تأْويل من قال : «هو استثناءُ المُدَّة التي تخرب فيها جهنم» فإِنه لا يترتب مثله في هذه الآية ، ويزيد هنا قول أَن يكون الاستثناءُ في المدة التي يقيمها العصاة في النَّار ، ولا يترتب أَيضاً تأْويل من قال في تلك : إن الاستثناءَ هو من قوله تعالى : ﴿فَفِـي ٱلنَّارِ﴾ .

وقوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ نصب على المصدر[2] ، والمجذوذ : المقطوع ، والجَذُّ : القطع[3] ، وكذلك الجد ، وكذلك الحَزّ .

---

(١) قال أبو عمرو : «الدَّليل على أنه (سَعِدُوا) أن الأولى (شَقُوا) ولم يقل: «أُشقوا» ، وقال الثعلبي : «(سُعِدوا) بضم السين ، أي : رُزقوا السعادة» ، وقال سيبويه : «لا يقال : سُعِد فُلان كما لا يُقال : شُقِي فلانٌ لأنه مما لا يتعدى» .

(٢) وعَطاءً هنا بمعنى إعطاء ، كقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ فهو بمعنى : إنباتاً .

(٣) مأخوذ من قولهم : جَذَّه يجذّه أي قَطَعَه ، قال النَّابغة يصف السيوف :

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

لفظ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى له ولأُمته ، ولم يقع لأَحد شك فيقع عنه نهي ، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجه في هذه العبارة ، أَي حالهم أَوضح من أَن يُمْتَرَى فيها ، والمِرْيَةُ : الشك ، و [هَؤُلَاءِ] إشارة إلى كفار العرب عبدة الأَصنام ، ثم قال : ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ، المعنى : إنهم مقلدون لا برهان عندهم ولا حُجَّة ، وإنما عبادتهم تَشَبُّهاً منهم بِآبائِهِم لا عن بصيرة ، وقوله : ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ وعيد ، ومعناه : العقوبة التي تقتضيها أَعمالهم(١) ،

(١) هذا قول ، وللعلماء في هذا النصيب ثلاثة أقوال ذكرها القرطبي : الأول : نصيبهم من الرزق ، قاله أبو العالية . والثاني : نصيبهم من العذاب ، قاله ابن زيد ، والثالث : ما وُعدوا به من خير أو شرّ . قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وكما اختار ابن عطية ـ رحمه الله ـ هنا قول أبي زيد اختاره أيضاً الزمخشري .

ويظهر من قوله : ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ أَن على الأَولين كِفْلا من كُفْر الآخرين . وقرأَ الجمهور : [لَمُوفُّوهُمْ] بفتح الواو وشد الفاء ، وقرأَ ابن محيصن : [لَمُوْفُوهُم] بسكون الواو وتخفيف الفاء .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ الآية . تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر قصة موسى مثل له : أَي : لا يعظم عليك أَمْر من كذَّبَكَ فهذه هي سيرة الأُمم ، فقد جاءَ موسى بكتاب فاختلف الناسُ عليه .

وقوله : ﴿ولَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ إِلى آخر الآية يحتمل أَن يريد به أُمَّة موسى ، ويحتمل أَن يريد به معاصري محمد صلى الله عليه وسلم ، وأَن يعمهم اللفظ أَحسن عندي ، ويؤكد ذلك قوله : ﴿وَإِنَّ كُـلًّا﴾ ، و « الكلمة » ها هنا عبارة عن الحكم والقضاءِ ، ومعنى ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ : لَفُصل بين المؤمن والكافر بنعيم هذا وعذاب هذا . ووصْفُ الشَّكِّ بالمريب تقويةٌ لمعنى الشَّك .

وقرأَ الكسائي ، وأَبو عمرو : ﴿وَإِنَّ كُـلًّا لَمَا﴾ بتشديد النون وتخفيف الميم من [لَمَا] ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع بتخفيفهما ، وقرأَ حمزة بتشديدهما ، وكذلك حفص عن عاصم ، وقرأَ عاصم - في رواية أَبي بكر - بتخفيف [إِنْ] وتشديد الميم من [لمَّا] ، وقرأَ الزهري ، وسليمان بن أَرقم : ﴿وإِنَّ كُـلًّا لَـمًّا﴾ بتشديد الميم وتنوينها ، وقرأَ الحسن بخلاف : ﴿وإِنْ كُلٌّ لَـمَّا﴾ بتخفيف [إِنْ] ورفع [كُلّ]

وشد [لَمَّا] ، وكذلك قرأ أَبان بن تغلب إِلَّا أَنه خفف [لَمَا] ، وفي مصحف أُبيّ ، وابن مسعود : ﴿وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ ، وهي قراءَة الأَعمش ، قال أَبو حاتم : الذي في مصحف أُبَيّ : «وإِنْ مِنْ كُلٍّ إِلَّا ليوفِّينّهم أَعمالَهُم» .

فأَما الأَول فَ [إِنَّ] فيها على بابها ، و [كُــلًّا] اسمها ، وعرفها أَن تدخل على خبرها لامٌ ، وفي الكلام قسم تدخل لامه أَيضاً على خبر «إِنَّ» ، فلما اجتمع لامان فصل بينهما بـ [ما] ، هذا قول أَبي عليّ ، والخبر في قوله : [لَيُوَفِّيَنَّهُمْ][1]. وقال بعض النحاة : يصح أَن تكون [مَا] خبر [إِنَّ] ، وهي لمن يعقل لأَنه موضع جنس وصنف ، فهي بمنزلة «مَنْ» ، كأَنه قال : «وإِنَّ كُلا لخلْق لَيُوَفِّينهم» ، ورجح الطبري هذا واختاره[2] ، أَما إِنه يلزم القول أَن تكون [مَا] موصوفة إِذ هي نكرة ، كما قالوا : «مررت بما معجب لك» ، وينفصل بأَن قوله : [لَيُوَفِّيَنَّهُمْ] يقوم معناه مقام الصفة ، لأَن المعنى : «وإِنَّ كلا لخلْق مُوَفى عمله» .

---

(١) قال الزجاج : لام [لَمَّا] هي لام [إنَّ] ، و [مَا] زائدة مؤكدة ، و «إنّ» تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام ، كقولك : «إن الله لغفور رحيم» ، و «إنّ في ذلك لذكرى» ، ولام [لَيُوَفِّيَنَّهُم] هي التي يتلقى بها القسم ، ولما اجتمعت اللامان فُصل بينهما بـ [ما] ، فهي زائدة مؤكدة .

(٢) هذا قول الفراء ، فهي كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ ، والمعنى : وإنّ كُلا لمَنْ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ .

وأما من خَفَّفَهَا ـ وهي القراءة الثانية في ترتيبنا ـ فحكم [إِنْ] وهي مخففة حكمها مثقلة ، وتلك لغة فصيحة ، حكى سيبويه أن الثقة أخبره أنه سمع بعض العرب يقول : « إِنْ عَمْراً لَمُنْطَلِقٌ » ، وهو نحو قول الشاعر :

وَوَجْـــهٌ مُشْرِقُ النَّحْـــرِ   كَأَنْ ثَدْيَيْهِ حُقَّـــانِ (١)

رواه أبو زيد ، ويكون القول في فصل [مَا] بين اللامين حسبما تقدم ، ويدخلها القول الآخر من أن تكون [مَا] خبر [إِنْ] (٢) .

وأَمَّا من شددها أو خَفَّف [إِنْ] وشدَّد الميم(٣) ففي قراءتيهما إشكال ، وذلك أن بعض الناس قال : « إِنَّ [لَمَّا] بمعنى « إِلَّا » ، كما تقول: «سأَلتك لمَّا فعلْتَ كذا وكذا» بمعنى : إِلَّا فَعَلْتَ(٤) ، قال أبو علي :

---

(١) البيت من شواهد الكتاب لسيبويه (١-٢٨١) ، قال الأعلم في توجيهه : « الشاهد فيه تخفيف « كأنْ » وحذف اسمها ، والتقدير : كأنَّه ثدياه حُقان ، ويجوز : «كأن ثَدْيَيْه» على إعمال «كأنْ» مخففة ، والهاءُ في « ثَدْيَيْه » عائدة على الوجه أو النحر ، والمعنى : كأنْ ثَدْيَيْ صاحبه حُقّان » .

(٢) والبصريون يُجوِّزون تخفيف « إنَّ » المشددة مع إعمالها ، وقد استشهدوا لذلك بما قاله سيبويه وأبو زيد ، وأنشدوا أيضاً قول ابن صريم اليَشْكُري :

ويَوْمــاً تُوَافِينَا بِوَجْـــهٍ مُقَسَّمٍ   كَأَنْ ظَبْيَةٌ تَعْطُو إلى وارِق السَّلَـــم

أراد : كأنها ظَبْيَةٌ ، وزعم الفراءُ أن [كُلا] في قراءة التخفيف منصوبة بقوله : [لَيُوَفِّيَنَّهُمْ] ، وأنكر ذلك جميع النحويين .

(٣) أراد الميم في قوله تعالى [لَمَّا] .

(٤) قال القرطبي : « ومثله قوله تعالى : ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي إلا عليها ، فمعنى الآية هنا : « ما كلٌّ واحد منهم إلا لَيُوَفِّيَنهم » ، وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي هنا حتى تقدر « إلا » ، ولا يقال : ذهب النَّاسُ لمَّا زيدٌ .

وهذا ضعيف لأن [لمّا] هذه لا تفارق القسم . وقال بعض الناس : أَصلها « لَمنْ ما » فقلبت النون ميماً وأُدغمت في التي بعدها فبقي «لَمَمَّا » فحذفت الأُولى تخفيفاً لاجتماع الأَمثلة ، كما قرأَ بعض القراءِ : ﴿ وَٱلْبَغْي يَعِظــكُمْ ﴾[١] بحذف الياءِ مع الياءِ ، وكما قال الشاعر :

وَأَشْمَتَّ العــــداةَ بِنَا فَأَضْحَوْا لَدَيْ يتَبَاشَرونَ بما لَقِينَـــا[٢]

قال أَبو علي : وهذا ضعيف ، وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أَكثر من هذه في قوله : ﴿ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾[٣] ولم يدغم هناك فأَحرى أَلَّا يدغم هنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقال بعض الناس : أَصلها « لَمَنْ ما » ، ف « منْ » خبر [إنَّ] ، و [ما] زائدة ، وفي التـأْويل الذي قبله أَصله : « لَمَنْ مَا » ، ف [ما] هي الخبر

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (النَّحل) ، والاستشهاد بالآية على قراءة من قرأ (بتخفيف الياءِ مع الياءِ) كما قال الطبري في تفسيره ، وجاءت العبارة هنا (بحذف الياءِ مع الياءِ) . (راجع الهامش التالي) .

(٢) البيت من شواهد الكسائي ، وأنشده الفراءُ في « معاني القرآن » ، وهو شاهد على التخفيف بحذف بعض الحروف المكررة في الكلمة ، ، فبَعْد أن تكلم على تخفيف « لـمَّا » قال : (ثم يخفف ، كما قرأ بعض القراءِ : ﴿وَالْبَغْي يَعِظُكُم ﴾ بحذف الياء عند الياء ، وأنشدالكسائي : وأشْمَتَّ العداة ــ . البيت ، ومعناه : لديّ يتَبَاشرون ، فحذف لاجتماع الياءِ) ، فقد اجتمعت الياءان في (لَدَيَّ) مع الياء في (يتباشرون) وحذفت إحدى الياءات تخفيفاً بسبب اجتماع الأمثال .

(٣) من الآية (٤٨) من هذه السورة (هود) .

دخلت عليها «مِنْ» على حدّ دخولها في قول الشاعر :

وإنَّا لَمِمَّا نضربُ الكَبْشَ ضَرْبَةً على رأسه تُلْقي اللِّسَانَ من الْفَم (١)

وقالت فرقة : [لَمَّا] أَصلها «لَمًّا» منونةً ، والمعنى : وإنْ كلا عاماً حصراً شديداً ، فهو مصدر : لَمَّ يَلُمّ ، كما قال : ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (٢) ، أَي : شديدا ، قلت : ولكنه ترك تنوينه وصرفه وبُنِيَ منه (فَعْلَى) كما فعل في [تَتْرًى] ، فقرئ : [تَتْرَى] (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، حُكي عن الكسائي أَنه قال : لا أَعرف وجه التثقيل في [لَمَّا] . قال أَبو عليّ : وأَما من قرأَ [لَمًّا] بالتنوين وشدّ الميم فواضح الوجه كما بيّنَّا .

وأَمَّا من قرأَ : ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَا﴾ فهي المخففة من الثقيلة ، وحقُّها في أَكثر لسان العرب ـ أَن يرتفع ما بعدها ، و [لَمَا] هنا بمعنى :

(١) البيت لأبي حيَّةَ النميري ، وهو الهيثم بن الربيع (١٨٢ هـ) شاعر مجيد ، وراجز فصيح من أهل البصرة ، ومن مخضرمي الدولتين ، والبيت من شواهد النحويين على دخول (من) على (ما) الكافة عن محل الجر ، وهو في سيبويه (١-٤٧٧) ، والخزانة (٤-٢٨٢) ، ومغني اللبيب ، هذا والمراد بالكبش زعيم القوم وسيدهم .

(٢) من الآية (١٩) من سورة (الفجر) .

(٣) من قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (المؤمنون) : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ، فقد قرأها بعض القراء [تَتْرًى] بالتنوين ، كما قرأ من قرأ [لَمّاً] بالتنوين ، وقرأ بعض القراء (تَتْرَى) بغير تنوين ، كما قرأ من قرأ [لَمَّا] بغير تنوين وقالوا : إن أصله من اللَّمِّ من قول الله تعالى : ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ يعني : أكلا شديداً كما وضحه ابن عطية .

«إِلَّا» ، كما قرأ جمهور القراءِ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[1] ، ومن قرأ : [إِلَّا] مصرحةً فمعنى قراءته واضح . وهذه الآية وعيد .

وقرأ الجمهور : [يعْمَلُون] بياءٍ على ذكر الغائب ، وقرأ الأَعرج : [تَعْمَلُونَ] بتاءٍ على مخاطبة الحاضر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

أَمْرُ النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقامة وهو عليها إنما هو أَمْرٌ بالدوام والثبات ، وهذا كما تأْمر إنساناً بالمشي والأَكل ونحوه وهو متلبس به ، والخطاب بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام وأَصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر أُمته بالمعنى ، ورُوي أَن بعض العلماءِ رأَى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال له : يا رسول الله بلغنا

(١) الآية (٤) من سورة (الطارق).

عنك أنك قلت : (شَيَّبتْني هود وأخواتها)(١) ، فما الذي شيَّبك من هود ؟ قال له : قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتأْويل المشهور في قوله صلى الله عليه وسلم : (شَيَّبَتْني هود وأَخواتها) أَنها إِشارة إِلى ما فيها ممَّا حلَّ بالأُمم السابقة ، فكأَن حذره على هذه الأُمَّة مثل ذلك شيَّبه عليه الصلاة والسلام .

وقوله : [أُمِرْتَ] مخاطبة تعظيم ، وقوله : [وَمَنْ] معطوف على الضمير في قوله : [فَاسْتَقِمْ] ، وحَسُن ذلك دون أَن يؤكد لطول الكلام بقوله : ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ . ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ معناه : ولا تتجاوزوا حدود الله تبارك وتعالى ، والطغيان : تجاوز الحدّ ، ومنه قوله : ﴿طَغَى ٱلْمَاءُ﴾(٢) ،

---

(١) رُويَ هذا الحديث من طُرق مختلفة ، وبزيادات تختلف من رواية إلى أُخرى ، فقد رواه الطبراني في الكبير بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأَخواتُها) عن عقبة بن عامر ، وعن أبي جحيفة ، ورمز له السيوطي بالصحة ، ورواه الطبراني أيضاً في الكبير عن سهل بن سعد بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأخواتها الواقعة والحاقة وإذا الشمس كوِّرت) ، ورمز له السيوطي بأنه حسن ، ورواه الترمذي ، والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وانفرد الحاكم بروايته أيضاً عن أبي بكر رضي الله عنه ، ورواه ابن مردويه عن سعد بلفظ (شَيَّبَتْني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوِّرت) ، ورمز له السيوطي بأنه حسن، ورواه ابن مردويه عن أبي بكر رضي الله عنه بلفظ (شيَّبَتْني هود وأخواتها قبل المشيب) ، وقال السيوطي : حديث حسن ، ورواه ابن مردويه عن عمران بلفظ (شيَّبَتْني هود من المفصل) ، وقال السيوطي : حديث حسن ، وهناك روايات أُخرى لا تخرج عما ذكرناه .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الحاقة) .

وقوله في فرعون : ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾[١] ، وقيل في هذه : معناه : ولا تطغينّكم النِّعم ، وهذا كالأَول . وقرأَ الجمهور : [تَعْمَلُونَ] بتاءٍ ، وقرأَ الحسن ، والأَعمش : [يَعْمَلُون] بياءٍ من تحت .

وقرأَ الجمهور : ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ بفتح الكاف ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، وقتادة ، والأَشهب العقيلي ، وأَبو عمرو ، فيما رَوى عنه هارون ـ بضمها ، وهو لغة ، يقال : رَكِن يَرْكَن وركَن يَرْكُن[٢] ، ومعناه : السكون إلى الشيءِ والرِّضا به ، قال أَبو العالية : الرّكون : الرِّضا ، قال ابن زيد : الرّكُون : الإِذعان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره ، والنهي هنا يترتب من معنى الركون على المَيْل إليهم بالشِّرك معهم إلى أَقل الرُّتب من ترك التغيير عليهم مع القدرة ، و ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هنا هم الكفار ، وهو النَّصّ للمتأَولين ، ويدخل بالمعنى أَهل المعاصي .

---

(١) تكررت في الآيات (٢٤) و (٤٣) من سورة (طه) ، و (١٧) من سورة (النازعات) .

(٢) قال في (اللسان) : « قرئ بفتح الكاف من ركِنَ يَرْكَن ، ولغة أُخرى ركَن يركُن وليست بفصيحة ، وأجاز أبو عمرو ، ركَن يركَن بفتح الكاف من الماضي وهو خلاف ما عليه الأبنية في السالم » . وقال في « البحر المحيط » : « وقرأ الجمهور (تَرْكَنوا) بفتح الكاف والماضي (ركِن) بكسرها ، وهي لغة قريش ، وقال الأزهري : هي اللغة الفصحى ، وقرأ قتادة وغيره (تَرْكُنوا) بضم الكاف والماضي (ركَن) بفتحها ، وهي لغة قيس وتميم ، وشَذّ (يرْكَن) بفتح الكاف مضارع (ركَن) بفتحها » .

وقرأ الجمهور : [فَتَمَسَّكُمُ] ، وقرأ يحي بن وثاب ، وعلقمة ، والأعمش ، وابن مصرف ، وحمزة - فيما روي عنه - : [فَتِمَسَّكُم] بكسر التاء ، وهي لغة في كسر العلامات الثلاث دون الياء التي للغائب ، وقد جاء في الياء «يِيجَل» و «يِيبَى» ، وعللت هذه بأن الياءَ التي وليَت الأُولى ردَّتها إلى الكسر .

وقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ﴾ الآية . لم يختلف أحد في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ، واخْتُلف في «طَرَفَي النهارِ وزُلَف الليل» - فقيل : الطرف الأول : الصبح ، والثاني : الظهر والعصر ، والزُّلَف : المغرب والعشاءُ ، قاله مجاهد ، ومحمد ابن كعب القُرظي . ورُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المغرب والعشاءِ : (هما زُلْفتا الليل)(١) . وقيل : الطرف الأول : الصبح ، والثاني : العصر ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك . والزُّلفُ : المغربُ والعشاءُ ، وليست الظهر في هذه الآية - على هذا القول - بل هي في غيرها . وقيل : الطرفان : الصبح والمغرب ، قاله ابن عباس ، والحسن أيضاً ، والزُّلفُ : العشاءُ ، وليست الظهر والعصر في الآية ، وقيل : الطرفان : الظهر والعصر ، والزُّلف : المغربُ والعشاءُ والصبحُ .

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن . (فتح القدير ، والدر المنثور) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

كأَن هذا القائل راعى جهر القراءَة ، والأَول أَحسنُ هذه الأَقوال عندي ، ورجح الطبريّ أَن الطرفين : الصبح والمغرب ، وأَنه الظاهر إِلَّا أَن عموم الصلوات الخمس بالآية أَولى .

وقرأَ الجمهور [زُلَفاً] بفتح اللام ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، وابن محيصن ، وعيسى ، وابن إِسحق ، وأَبو جعفر : [زُلُفاً] بضم اللام كأَنه اسم مفرد ، وقرأَ [زُلْفاً] بسكون اللام مجاهد ، وقرأَ أَيضاً : [زُلْفَى] على وزن «فُعْلَى» ، وهي قراءَة ابن محيصن ، والزُّلَف: الساعات القريب بعضها من بعض ومنه قول العجاج :

ناجٍ طَواهُ الْأَينْ مِمَّا وَجَفَا

طَيَّ اللَّيـــالي زُلَفاً فَزُلَفَا

سمَاوةَ الْهِلَالِ حتَّى احْقَوْقَفَا(١)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ ذهب جمهور المتأَولين من صحابة وتابعين إِلى أَن [الْحَسَنَاتِ] يراد بها الصلوات

---

(١) الأبيات الثلاثة من مشطور الرجز ، وهي في وصف جمَل ، والناجي : المسرع في السَّيْر لأنه ينجو بسرعته من الأخطار ، والأيْن : التَّعب والإعياء ، والوَجْف : سرعة السير ، أي : أصابه التعب من سرعة السير ، وزُلَفاً فزُلَفاً : قال في اللسان : منزلةً بعد منزلة ودرجة بعد درجة ، وسماوة الهلال : شخصه إذا ارتفع عن الأفق شيئاً ، ومعنى احقوقف : طال واعوَجّ ، وكل ما طال واعوجَّ فقد احقوقف كشخص الهلال وظهر البعير .

الخمس ، وإلى هذه الآية ذهب عثمان رضي الله عنه عند وضوئه على المقاعد[١] ، وهو تأويل مالك ، وقال مجاهد : الحسنات : قول الرجل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلّا الله ، والله أكبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله إنما هو على جهة المثال في الحسنات ، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي أعظم الأعمال . والذي يظهر أن لفظ الآية عام في الحسنات خاص في السيئات لقوله عليه الصلاة والسلام : (ماإجْتُنِبَت الْكَبَائر) . وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو الْيَسَر بن عمرو ، وقيل : اسمه عبَّاد ، خلا بامرأة فقبَّلها وتلذَّذ بها فيما دون الجماع ، ثم جاءَ إلى عمر رضي الله عنه فشكا إليه ، فقال : قد ستر الله عليك فاستر على نفسك ، فقلق الرجل فجاءَ أبا بكر رضي الله عنه فشكا إليه ، فقال له مثل مقالة عمر ،

---

(١) أسند ابن جرير الطبري إلى زهرة بن معبد قال : سمعت الحرث مولى عثمان بن عفان يقول : جلس عثمان بن عفان يوماً وجلسنا معه ، فجاءَ المؤذن ، فدعا عثمان بماءٍ في إناءٍ أظنه سيكون فيه قدرُ مُدّ ، فتوضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأُ وضوئي هذا ، ثم قال : (من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلّى صلاة الظهر غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ، ثم صلّى المغرب غُفر له ما بينه وبين صلاة العصر ، ثم صلّى العشاءَ غُفِرَ له ما بينه وبين صلاة المغرب ، ثمّ لعلّه يبيت ليله يتمرّغ ، ثم إنْ قام فتوضأ وصلّى الصبح غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاءِ ، وهنّ الحسَنَات يُذهِبن السَّيِّئات) ، وفي رواية أُخرى لابن جرير أيضاً : جلس عثمان يوماً على المقاعد ... فذكر مثله . وهذا هو السبب في إشارة المؤلف إلى المقاعد .

فقلق الرجل فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى معه ثم أخبره وقال : اقْضِ فيّ ما شئت ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لعلّها زوجة غاز في سبيل الله ، قال : نعم ، فوبّخه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما أدري ، فنزلت هذه الآية ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاها عليه ، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : يا رسول الله ، خاصة ؟ قال : بل للناس عامة [(١)] .

ورُوي أن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الرجل ، ورُوي أن عمر بن الخطاب قال ما حكي عن معاذ .

ورُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الجمعة إلى الجمعة ، والصلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان ـ كفّارة لما بينهما إن اجْتُنِبَت الكبائر)[(٢)] ، فاختلف أهل السُّنة في تأْويل هذا الشرط في

---

(١) أخرجه الترمذي وحسّنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أبي اليَسَر ، وفيه قال : (أتتني امرأة تبتاع تمراً ، فقلت : إن في البيت تمراً أطيب منه ، فدخلت معي البيت ، فأهويت إليها فقبّلتها ، فأتيت أبا بكر ...) الحديث ، وفي البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وغيرهم أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ... الخ ولم يذكر اسم الرجل ، وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب هو الذي أجاب أبا اليَسَر بأنها عامة للمسلمين لأنه هو الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ألي خاصة ؟ فقال عمر : لا ، وضرب على صدره . والروايات كثيرة في هذا الحديث .

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ (الجمعة إلى الجمعة كفارة ما بينهما ما لم تُغْشَ الكبائر) ، ورمز له السيوطي بالضعف في «الجامع الصغير»، وأخرج البزّار عن أنس عن النبي =

قوله : (إن اجْتُنبت الكبائر) ـ فقال جمهورهم : هو شرط في معنى الوعد كله ، أَي : إن اجْتُنِبت الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب ، فإن لم تُجتنب لم تكفر العبادات شيئاً من الصغائر ، وقالت فرقة : معنى قوله : (إن اجْتُنبت) أَي : هي التي لا تحطها العبادات ، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله : (ما بينهما) ، وإن لم تُجْتنب لم تحطها العبادات وحطت الصغائر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبهذا أَقول ، وهو الذي يَقتضيه حديث خروج الخطايا مع قطر الماءِ وغيره [(١)] ، وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإصرار عليها ، وهذا نصُّ حُذَّاق الأُصوليِّين ، وعلى التأْويل الأَول تجيءُ هذه مخصوصة في مجتنبي الكبائر فقط .

وقوله : [ذَلِكَ] إشارة إلى الصلوات ، ووصفها بـ [ذِكْرى] ، أَي : هي سبب ذكر وموضع ذكري ، ويحتمل أَن يكون [ذَلِكَ]

= صلى الله عليه وسلم قال : (الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتُنِبَت الكبائر) ، وأخرج الطبراني عن أبي أُمامة الباهلي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الصلاة المكتوبة تكَفِّر ما قبلها إلى الصلاة الأخرى ، والجمعة تُكفِّر ما قبلها إلى الجمعة الأُخرى ، وشهر رمضان يكفِّر ما قبله إلى شهر رمضان ، والحج يكفِّر ما قبله إلى الحج) ، (الدر المنثور) .

(١) رواه مسلم في الطهارة ، وكذلك هو في الموطأ في الطهارة ، ورواه الإمام أحمد (٢/٣٠٣) ، ولفظه فيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤْمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماءِ ، أو مع آخر قطرة الماءِ ، أو نحو هذا ، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطش بها مع الماءِ ، أَو مع آخر قطرة الماءِ حتى يخرج نقيا من الذنوب) .

إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيئات ، فتكون هذه الذكرى تحضٌّ على الحسنات ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه السورة ، وهو تفسير الطبري .

ثم أمره تعالى بالصبر (١) .

وجاءت هذه الآياتُ في نمط واحد : أعلمه الله تعالى أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم ، المسيء والمحسن ، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه ، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك ، ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تبارك وتعالى ، ثم وعد بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(١) من اللطائف التي أشار إليها أبو حيان في هذه الآيات قوله : « انظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات ، فقد جاء الخطاب بالأمر موحداً في الظاهر وإن كان المأمور به من حيث المعنى عاماً : « فاستقم » ، « أقم الصلاة » ، « واصبر » ، وجاء الخطاب في النهي موجهاً إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطباً به أمته : « ولا تركنوا » ، فحيث كان الأمر بأفعال الخير توجه الخطاب إليه ، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أمته ، وهذا من جليل الفصاحة » .

[لَوْلَا] هي التي للتحضيض ، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد ، وهذا نحو قوله : ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾(١) ، و [ٱلْقُرُون] من قبلنا هم قوم نوح وعادٍ وثمود ومن تقدم ذكره ، والقرن من الناس : المقترنون في زمان طويل أكثره ـ فيما حدّ الناس ـ مائة سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة ، والأرجح الأول لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن إلى رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد)(٢) ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : يريد أنها تخرم ذلك القرن ، و «البقية» هنا يراد بها النَّظَرُ والعقل والحزم والثبوت في الدين ، وإنما قيل «بقية» لأن الشرائعَ والدولَ ونحوَها قُوَّتُها في أولها ثم لا تزال تضعف ، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول ، وقرأت فرقة : [بَقِية] بتخفيف الياءِ ، وهو ردّ فَعِيلَة إلى فَعِلة (٣) ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة : [بُقْية] بضم الباءِ وسكون القاف على وزن فُعْلة .

و «الْفَسَادُ في الْأَرْض» هو الكفر وما اقترن به من المعاصي ، وهذه الآية فيها تنبيه لأُمة محمد وحضٌّ على تغيير المنكر والنهي عن الفساد ،

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (يسن) .

(٢) الحديث رواه البخاري في باب السَّمَر في العلم عن عبد الله بن عمر ، قال : صلَّى بنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم العشاءَ في آخر حياته ، فلما سلَّم قام فقال : أَرَأَيتَكُم .. الخ .

(٣) قال في « البحر المحيط » : « فهي اسم فاعل من بَقِيَ ، نحو شَجِيت فهي شَجِيَّة ».

ثم استثنى الله تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم ، و [قَلِيلاً] نصب على الاستثناء ، وهو منقطع عند سيبويه ، والكلام عنده موجب ، وغيره يراه منفياً من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أُولو بَقِيّة .

وقرأ جمهور الناس : [وَٱتَّبَعَ] على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ جعْفَر بن محمد : [وَأُتْبِـعَ] على بنائه للمفعول ، ورويت عن أَبي عمرو[١] . و ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أَي : عاقبة ما نعموا به ـ على بناء الفعل للمفعول ـ ، والمُتْرف : المُنَعَّم الذي شغله ترفه عن الحق حتّى هلك ، ومنه قول الشاعر:

تُهْدِي رُؤُوس المُتْرَفِين الصُّدَّادْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ المُمْتَادْ[٢]

يريد : المسؤول ، يقال : ماده إذا سأَله .

وقوله تعالى : [بِظُلْمٍ] يحتمل أَن يريد : بِظُلْم منه لهم ـ تعالى عن ذلك ـ ، قال الطبري : ويحتمل أَن يريد : بِشِرْكٍ منهم وهم

(١) ورويت أيضاً عن العلاء بن سيابة ، وهي بسكون التاء مبنية للمفعول على حذف مضاف لأنه مما يتعدى إلى مفعولين ، والتقدير : جزاءَ ما أُترفوا فيه ، قال ذلك أبو حيان في « البحر »، ولعله نقله عن أبي الفتح حيث قال في المحتَسَب : « هو عندنا على حذف مضاف ، أي : اتبع الذين ظلموا جزاء ما أُترفوا فيه » .

(٢) البيتان من مشطور الرجز ، وهما لرؤبة بن العجاج ، قاله في اللسان ، وأيضاً في التاج ، وهما في الديوان ، وذكرهما أبو عبيدة في « مجاز القرآن » ، وقال أبو عبيدة بعدهما : الممتاد : من مادَ يميد ، وفي اللسان: الممتاد: المطلوب منه العطاءُ ، مفتعل (اسم مفعول) ، ثم قال : أي المتفضل على الناس ، وهو المسْتَعْطى المسؤول ، وماد زيد عمرواً إذا أعطاه ، والرواية في اللسان : تُهْدِي رُؤوسَ المُتْرَفين الأنْدَادْ ، وكلمة « تهدي »كتبت في الأصول (تَجْبي) .

مصلحون في أعمالهم وسيرهم ، وعدل بعضهم في بعض ، أي أنه لابُدَّ من معصية تقترن بكفرهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل : «إن الله تعالى يُمْهل الدول على الكفر ولا يُمْهلها على الظلم والجور» . ولو عكس لكان ذلك متجهاً ، أي : ما كان الله ليعذب أُمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان ، والاحتمال الأول في ترتيبنا أصحُّ إن شاءَ الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

المعنى : لجعلهم أُمَّةً واحدة مؤمنة ـ قاله قتادة ـ حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مُثلة ، ولكنه عزَّ وجلَّ لم يشأْ ذلك ، فهم لا يزالون مختلفين في الأَديان والآراءِ والمِلَل . هذا تأْويل الجمهور . قال الحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، وغيرهم : المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف ، وقالت فرقة : لا يزالون مختلفين في السعادة والشقاوة ، وهذا قريب المعنى من الأول ، إذ هي ثمرة الأَديان والاختلاف فيها ،

ويكون الاختلاف ـ على هذا التأْويل ـ يدخل فيه المؤمنون إذْ هم مخالفون للكفرة ، وقال الحسن أَيضاً : لا يزالون مختلفين في الغنى والفقـــــر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية .

ثـم استثنى الله تعالى من الضمير في [يزَالُونَ] مَنْ رحمه من الناس بـأَن هداه إلى الإيمان ووفقه له .

وقوله : ﴿ولِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف فيه المتـأَولون ـ فقالت فرقة : ولِشُهود اليوم المشهود ـ المتقدم ذكره ـ خلقهم ، وقالت فرقة : [ذَلِكَ] إشارة إلى قوله قبْلُ : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِــيٌّ وسعِيدٌ﴾ أَي : لهذا خلقهـــم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

و هذان المعْنَيان وإن صحَّا فهذا العوْدُ المتباعد ليس بجيد ، وَروَى أَشهب عن مالك أَنه قال : [ذَلِكَ] إشارة إلى أَن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فجاءَت الإشارة بـ [ذلِكَ] إلى الأَمرين معاً : الاختلاف والرحمة ، وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري ، ويجيءُ عليه الضمير في [خَلَقَهُم]

للصِّنفين ، وقال مجاهد ، وقتادة : [ذلكَ] عائد على الرحمة التي تضمنها قوله : ﴿إِلَّا من رَحِمَ﴾ أي : ولِلرَّحمة خلق المرحومين ، قال الحسن : [ذَلِكَ] إشارة إلى الاختلاف الذي في قوله : ﴿وَلَا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويعترض هذا بأَن يقال : كيف خلقهم للاختلاف ؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بِخَلْقهم ؟ فالوجه في الانفصال أَن نقول : إن قاعدة الشرع أَن الله عزَّ وجلَّ خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة ، ثم يسَّر كُـلًّا لما خُلق له ، وهذا نصٌّ في الحديث الصحيح[1] ، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أَمارة الشقاوة ، وبه تعلق العقاب ، فيصح أَن يحمل قوله هنا[2] : «وللاختلاف خلقهم» أَي : لثمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة .

ويصح أَن تجعل اللام في قوله : [ولِذَلِكَ] لام الصيرورة ، أَي : وخلقهم ليصير أَمرهم إلى ذلك وإن لم يقصد بهم الاختلاف . ومعنى

---

(١) نصُّ الحديث كما رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وعن عمران بن حصين : (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق لَه) ، وهو حديث صحيح ، قال ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» . هذا وقد رواه البخاري في تفسير سورة (الليل) وفي أماكن أُخرى كثيرة ، ومسلم في القدر ، وابن ماجه في المقدمة ، والترمذي في القدر ، والإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده ، واللفظ كما جاء في البخاري عن عليّ رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة فقال : (ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مَقْعده من الجنة ومقعده من النار) ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نَتَّكل ؟ فقال : (اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّر) ، ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ إلى قوله ﴿لِلْعُسْرَى﴾ .

(٢) أي قول الحسن رضي الله عنه ، لأن الكلام في دفع اعتراض وَرَدّ على رأيه .

قوله : ﴿وما خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾[١] ، أي : لآمُرُهم بالعبادة وأُوجِبُها عليهم[٢] ، فعبر عن ذلك بثمرة الأَمر ومقتضاه .

وقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أَيْ نفذ قضاؤُه وحق أَمره ، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم ، إذ « الكلمة » تتضمن القسم[٣] ، والجِنُّ : جمع لا واحد له من لفظه ، وهو من أَجَنَّ إذا ستَر ، والهاءُ في [ٱلْجِنَّةِ] للمبالغة ، وإن كان الجِنُّ يقع على الواحد ف [الجِنَّة] جمْعُه[٤] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (الذاريات) .

(٢) يريد أن يقول : إنه لا تعارض بين كون اللام في قوله : (وَلِذَلِكَ) للصيرورة وبين قوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، لأن هذه الآية يراد بها الأمر بالعبادة .

(٣) فهي كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّين﴾ ثم قوله : ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ .

(٤) وهذا مما يكون فيه الواحد بغير هاءٍ والجمع بالهاء كقول بعض العرب : (كَمْءٌ) للواحد و (كَمْأَة) للجمع . قاله في « البحر المحيط » .

قوله : [وَكُـلًّا] مفعول مقدم بـ [نَقُصُّ][1] ، وقيل : هو منصوب على الحال ، وقيل : على المصدر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان ضعيفان .

و [ما] بدلٌ من قوله : [كُـلًّا][2] ، و ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ أي : نُؤْنسك فيما تلقاه ، ونجعل لك الأُسوة فيمن تقدمك من الأنبياء ، وقوله : ﴿في هذِهِ﴾ ، قال الحسن : هي إشارةٌ إلى دار الدنيا ، وقال ابن عباس : إلى السورة والآيات التي ذكر فيها قصص الأُمم . وهذا قول الجمهور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ووجْه تخصيص هذه السورة بوصفها بـ [ٱلْحقّ] ـ والقرآن كله حَقٌّ ـ أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر أي :

---

(١) والتنوين في (كُلاًّ) عوض عن المحذوف ، إذ التقدير : وكلَّ نبأ نقصُّ عليك ، و ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ في موضع الصفة لقوله : (وكُلاًّ) إذ هي مضافة في التقدير إلى نكرة .

(٢) ويجوز أن تكون صلة كما هي في قوله تعالى : ﴿قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، كما يجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو ما نُثَبِّت ، فتكون [ما] موصولة بمعنى (الذي) ، أو مصدرية .

جاءَك في هذه السورة الحق الذي أَصاب الأُمم الظالمة ، وهذا كما يقال عند الشدائد : «جاءَ الحقُّ» ، وإن كان الحق يأْتي في غير شدَّة وغير ما وجْه ، ولا يستعمل في ذلك «جَاءَ الحق» . ثم وصف أَيضاً أَن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين ، فهذا يؤيد أَن لفظة [ٱلْحَقّ] إنما تختص بما تضمنت من وعيد للكفرة .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية . هذه آية وعيد ، أَي : اعملوا على حالاتكم التي أَنتم عليها من كفركم . وقرأَ الجمهور هنا : [مكَانَتِكُمْ] واحدة دالة على جمع ، وأَلفاظ هذه الآية تصلح للموادعة ، وتصلح أَن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة .

وقوله تعالى : ﴿وَلِلهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية . هذه آية تَعَظُّم وانفراد بمالا حظَّ لمخلوق فيه ، وهو علم الغيب ، وتَبْيِين أَن الخير والشَّرَّ وجليل الأَشياءِ وحقيرها ـ مصروف إلى أَحكام مالكه[1] ، ثم أَمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعبادة والتوكل على الله تبارك وتعالى ، وفيها زوالُ همِّه وصلاحُه ووصوله إلى رضوان الله .

وقرأَ السبعة غير نافع ﴿يَرْجِـعُ ٱلْأَمْرُ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأَ نافع ، وحفص عن عاصم : ﴿ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ ﴾ على بنائه للمفعول ،

---

(١) قال أبو عليّ الفارسي : المعنى : «علم ما غاب في السموات والأرض» ، وأضاف الغيب إليهما توسُّعاً .

ورواها ابن أَبي الزناد عن أَهل المدينة . وقرأَ [تَعْمَلُونَ] بالتاءِ من فوق نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ، وهي قراءَة الأَعرج ، والحسن ، وأَبي جعفر ، وشيبة ، وعيسى بن عمرو ، وقتادة ، والجحدري ، واخْتُلف عن الحسن ، وعيسى . وقرأَ الباقون : [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على كناية الغائب .

تم بتوفيق من الله تبارك وتعالى تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١٢) سورة يوسف مكية
وآياتها إحدى عشرة ومائة

تفسير سورة يوسف عليه السلام

هذه السورة مكية[1]، ويُرْوى أَن اليهود سأَلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك ، ويُرْوى أَن اليهود أَمروا كفار مكة أَن يسأَلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أَحلَّ بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة، وقيل: سبب نزولها تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف ، وسورة يوسف لم يتكرر من معناها شيءٌ في القرآن كما تكررت قصص الأَنبياء[2]، ففيها حجة على من اعترض بأَن الفصاحة تمكنت بترداد القول ، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه : لو كررت لَفَتَرَتْ فصاحتها .

---

(١) في « البحر المحيط » : « وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات من أولها » ، وفي « القرطبي » : « وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها » . وعدد آيات هذه السورة مائة وإحدى عشرة آية ، ونزلت بعد سورة هود .

(٢) اللهم إلا ما أخبر به مؤمن آل فرعون في سورة غافر ، قاله أبو حيان في « البحر المحيط ».

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

تقدم القول في فواتح السُّور ، و [ٱلْكِتَاب] : القرآن ، ووصفه بـ [ٱلْمُبِين] - قيل : من جهة أَحكامه وحلاله وحرامه ، وقيل : من جهة مواعظه وهداه ونوره ، وقيل : من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أَحرف لم تجتمع في لسان[1] ، - رُوي هذا القول عن معاذ بن جبل - ويحتمل أَن يكون مُبيناً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإعجازه . والصواب أَنه مبين بجميع هذه الوجوه ، والضمير في قوله : [أَنْزَلْنَاهُ] للكتاب ، والإنزال إمَّا بمعنى الإثبات ، وإما أَن تتصف به التلاوة والعبارة ، وقال الزجاج : الضمير في [أَنْزَلْنَاه] يراد به خبرُ يوسف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

---

(١) هي : « الصَّاد والضَّاد والطَّاءُ والظَّاءُ والعين والحاءُ » . ولاحظ قوله : « لم تجتمع » فإنه هو المقصود .

وقوله : [لَعَلَّكُمْ] يحتمل أن تتعلق بـ [أَنْزَلْنَاهُ] ، أي : أنزلناه لعلَّكم ، ويحتمل أن تتعلق بقوله : [عَرَبِيًّا] ، أي : جعلناه عربياً لعلَّكم تعقلون إذ هو لسانكم ، و [قُرْآناً] حال[(١)] ، و [عَرَبِيًّا] صفة له [(٢)] ، وقيل : إن [قُرْآناً] بدلٌ من الضمير ، وهذا فيه نظر ، وقيل : [قُرْآناً] توطئة للحال ، و [عَرَبِيًّا] حال ، وهذا كما تقول : «مررتُ بزيد رجلا صالحاً» .

وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الآية . روى ابن مسعود أَنَّ أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَلُّوا مَلَّة فقالوا : لو قصصتَ علينا يا رسول الله ، فنزلت هذه الآية ، ثم ملُّوا مَلَّة أُخرى فقالوا لو حدَّثتنا يا رسول الله ، فنزلت : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً﴾[(٣)] ،

---

(١) سُمِّي القرآن قرآناً لأنه يُقْرأُ ، وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير . وقال أبو عبيدة : سُمِّي قرآناً لأنه يجمع السُّور فيضمها .

(٢) [عَرَبِيّاً] منسوب إلى العرب ، والعَرَب : جيل من الناس ، واحده : عَرَبِيٌّ ، والعَرَب : اسم جنس ، وليس (الأعراب) جمعاً له ، بل (الأعراب) جمع أعْرابي ، والعَرَبُ والعُرْبُ واحد ، وعَرَبَة ناحية دار إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، قال الشاعر :

وعَرْبَةُ أَرْضٌ ما يُحِلُّ حَرَامَهَـــا مِنَ النَّاسِ إلا اللَّوْذَعِيُّ الحُلاحِلُ

يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وسكنت راءُ (عَرَبَة) في البيت لضرورة الشعر .

(٣) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير عن عون بن عبد الله ، إلا أنهم في المَلَّة الأولى قالوا : « لو حدثتنا ... » ، وفي الثانية قالوا : « حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص » . (راجع تفسير الطبري ، وتفسير ابن كثير ، والدرّ المنثور) ، وأخرج ابن جرير — ونقله ابن كثير في تفسيره — عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله ، أما ما رواه ابن مسعود فقد أخرجه ابن مردويه عنه من طريق عون بن عبد الله ، ولفظه (قالوا: يا رسول الله لو =

و [ٱلْقَصَص] : الإخبار بما جرى من الأمور ، كأن الأنباء تَتَبَّعُ بالقول كما يُقَص الأثر . وقوله : ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي : بِوَحْيِنَا ، و [ٱلْقُرْآنُ] نعتٌ لـ [هَٰذَا] ، ويجوز فيه البدل ، وعطف البيان فيه ضعيف. و [إنْ] هي المخففة من الثقيلة ، واللام في خبرها لام التأكيد ، هذا مذهب البصريين ، ومذهب أهل الكوفة أنَّ [إنْ] بمعنى (ما)، و (اللام) بمعنى (إلَّا) ، والضمير في [قَبْلِهِ] للقصص العام لما في جميع القرآن منه ، و ﴿مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ أي عن معرفة هذا القصص . ومَنْ قال : إن الضمير في [قَبْلِهِ] عائد على [ٱلْقُرْآن] جعل ﴿مِنَ ٱلْغافِلِينَ﴾ في معنى قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾(١) ، أي : على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم ، لأنه لم يشرك قط ، وإنما كان مستهدياً ربّه عزَّ وجلَّ وموحداً ، والسائلُ عن الطريق المُتَحَيِّرُ يقع عليه - في اللغة - اسم ضالّ .

= قصصت علينا، فنزلت: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾)، (راجع الدر المنثور) .
وقوله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً ﴾ من الآية (٢٣) من سورة (الزُّمَر) .
وقد وصفت هذه السورة بأنها أحسن القصص لأسباب ذكرها العلماء : منها أن كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة ، وانظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك والساقي مستعبر الرؤْيا ، ومنها انفراد السورة بما فيها من أخبار لم تتكرر في غيرها ، ومنها أنها عبَّرت عن حسن تجاوز يوسف عن أعمال إخوته وعفوه عنهم ، ومنها أنها ذكرت جملة من الفوائد التي تصلح الدنيا والدين كالتوحيد ، والفقه ، والسير ، والسياسة ، والمعاشرة ، وتعبير الرؤيا ، وتدبير المعاش . وقيل : إن (أحسَن) هنا بمعنى أعجب .

(١) الآية (٧) من سورة (الضُّحى) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

العامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره : اذكر إذ ، ويجوز أَن يعمل فيه [نَقُصُّ] ، كأَن المعنى : نقُصّ عليك الحال إِذْ [1] ، وحكى مكّيّ أَن العامل فيه ﴿لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ ، وهذا ضعيف .

وقرأَ طلحة بن مصرف : [يُؤْسَف] بالهمز وفتح السين ، وفيه ست لغات : (يُوسِف) بضم الياءِ وسكون الواو وبفتح السّين وبضمها وبكسرها ، وكذلك بالهمز . وقرأَ الجمهور : [يَا أَبَتِ] بكسر التاءِ ، حذفت الياءُ من (أَبي) وجعلت التاءُ بدلًا منها ، قاله سيبويه . وقرأَ ابن عامر وحده [2] ، وأَبو جعفر ، والأَعرج : [يا أَبَتَ] بفتحها ، وكان ابن كثير ، وابن عامر يقفان بالهاءِ ، فأَما قراءَة ابن عامر بفتح التاءِ فلها وجهان : إِمّا أَن يكون «يا أَبتا» ثم حذفت الأَلف تخفيفاً

---

(١) وأجاز الزمخشري أن تكون [إذْ] بدلا من ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ على أنها بدل اشتمال ، ورفض أبو حيان هذا ، كما رفض قول ابن عطية إنها معمول لـ [نَقُصُّ] وقال : «هذه التقديرات لا تتّجه حتى تُخْلع [إذْ] من دلالتها على الماضي وتُجرّد للوقت المطلق الصالح للأزمان كلها على جهة البدلية» .

(٢) يعني : وحده من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها أبو جعفر ، والأعرج كما ذكر المؤلف رحمه الله .

وبقيت الفتحة دالة على الأَلف ، وإمّا أن يكون جارياً مجرى قولهم : «يا طلحةَ أَقْبِلْ» ، رخَّموه ثم ردُّوا العلامة ولم يعتد بها بعد الترخيم ، وهذا كقولهم : «اجتمعت اليمامة» ، ثم قالوا : «اجتمعت أهل اليمامة» فردّوا لفظة الأَهل ولم يعتدوا بها .

وقرأ أبو جعفر ، والحسن ، وطلحة بن سليمان : ﴿أَحَدَ عْشَرَ كَوْكَبًا﴾ بسكون العين لتوالي الحركات ، وليظهر أن الاسمين قد جُعلا واحداً ، وقيل: إنه رأى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأَولها يعقوب إخوته وأَبويه ، وهذا قول الجمهور ، وقيل : الإخوة والأَب والخالة ، لأَن أُمه كانت ميتة ، وقيل : إنما كان رأى إخوته وأَبويه فعبّر عنهم بالكواكب والشمس والقمر ، وهذا ضعيف ، ترجم به الطبري ثم أَدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتملا أَن يكون كما ترجم وأَن يكون مثل قول الناس ، وقال المفسرون : القمر تأْويله : الأَب ، والشمس تأْويلها : الأُم ، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب بِر الأُم وزيادته على برّ الأَب ، وحكى الطبري عن جابر بن عبد الله أَن يهودياً اسمه بستانة جاءَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أَخبرني عن أَسماءِ الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ، فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل جبريل عليه السلام فأَخبره بأَسمائها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديّ ، فقال : هل أَنت مؤمن إن أَخبرتك بذلك ؟ قال : نعم ، قال : جَرِيَّان ،

والطَّارق ، والذَّيَّال ، وذُو الكَتِفَين ، وقابِس ، ووثَّاب ، وعَمُودان ، والْفَيْلَق ، والمُصْبح ، والضَّروح ، وذو الْفَرْغ ، والضِّياءُ ، والنُّورُ[١] ، فقال اليهودي : أَي والله إنها لأَسماؤُها[٢] .

وتكرر [رَأَيْتُهُم] لطول الكلام[٣] ، وجَرْيُ ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل إنما كان لَمَّا وُصِفَت بأَفعال هي خاصة بمن يعقل[٤] .

ورُوي أَن رؤْيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة ، وأَنها خرجت بعد أَربعين سنة ، وقيل : بعد ثمانين سنة .

---

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذه الأسماء ، وكذلك وقع اختلاف بين المفسرين في كتابتها ، وقد آثرنا اختيار الأسماء التي اتفق عليها أكثر المفسرين ، والاسم الأول جاء في بعض النسخ (حربان) بالراء والباء ، وفي « فتح القدير » جاء (خرثان) بالخاء والثاء ، وضبطه « الجمل » نقلا عن « الشهاب » فقال : (جَرِيَّان) بفتح الجيم وكسر الراء المهملة وتشديد الياء التحتية ، أما (ذو الكتفين) فجاء في بعض التفاسير بالنون بدلا من التاء ، و (عمودان) هو تثنية عمود ، و (الفَيْلَق) جاء بتقديم اللام على الياء (الْفَلَيق) ، و (ذو الفرغ) بالغين المعجمة جاء في بعض النسخ بالعين المهملة ، وهكذا .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، والبزَّار ، وأبو يَعْلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن حبان في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في « دلائل النبوة » عن جابر . (الدر المنثور) .

(٣) قال الزمخشري : « ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف وقع جواباً لسؤال مقدر ، كأن يعقوب عليه السلام قال له : كيف رأيتها ؟ سائلا عن حال رؤيتها ، فقال : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ . وقال الجمل مثل هذا الكلام أيضاً ، ثم عقَّب عليه بقوله : « وهذا أظهر لأنه متى دار الكلام بين الحمل على التأكيد أو التأسيس فحمله على التأسيس أولى » .

(٤) والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته وإن كان خارجاً عن الأصل ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يُحِسُّ من بَنيه حسد يوسف وبغضته ، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غِلَّ صدورهم ، فيعملوا الحيلة على هلاكه ، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف ـ الذي يأتي ذكره ـ يظهر أنهم لم يكونوا أنبياءَ في ذلك الوقت . ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياءَ ، وهذا يردّه القطع بعصمة الأنبياءِ عن الحسد الدنياوي ، وعن عقوق الآباءِ ، وعن تعريض مؤمن للهلاك والتوافر في قتله . ثم أعلمه أن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ، أي : هو يدخلهم في ذلك ويحضهم عليه .

وأمال الكسائي [رُؤْيَاكَ] والرؤيا حيث وقعت ، ورُوي عنه أنه لم يُمِلْ [رُؤْيَاكَ] في هذه السورة وأمال الرؤيا حيث وقعت ، وقرأ [رُويَاكَ] بغير همز ـ وهي لغة أهل الحجاز ـ ولم يُمِلْها الباقون حيث وقعت . والرُّؤْيا مصدر كثر وقوعه على هذا المُتَخَيَّل في النوم حتى جرى مجرى الأسماءِ كما فعلوا في الدَّرّ في قولهم : « للهِ دَرُّك » فخرجا

من حكم عمل المصادر ، وكسَّروها رُؤى بمنزلة ظُلَم ، والمصادر في أكثر الأَمر لا تُكَسّر[١].

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ﴾ الآية . ف [يَجْتَبِيكَ] معناه : يختارك ويصطفيك ، ومنه : جبيْتُ الماءَ في الحوض ، ومنه : جباية المال . وقوله : ﴿ويُعلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[٢] ، قال مجاهد ، والسدي : هي عبارة الرؤيا ، وقال الحسن : هي عواقب الأُمور ، وقيل : هي عامة لذلك وغيره من المغيَّبات . وقوله : ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ يريد النبوة وما انضاف إليها من سائر النعم ، وقوله : ﴿آلِ يَعْقُوب﴾ يريد ـ في هذا الموضع ـ الأَولاد والقرابة التي هي من نسله ، أَي يجعل فيهم النبوة ، ويروى أَن ذلك إنما علمه يعقوب من دعوة إسحق له حين تشَبَّه له بعيصو ، والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأَنه لم ينْبُل أَلفاظها[٣] ، وما أَظنه انتزعها إلا من كتب

(١) الرؤيا : مصدر كالبُقْيا ، قال الزمخشري : الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان في النوم دون اليقظة ، فُرّق بينهما بِحَرْفَي التأنيث كما قيل في القُرْبة والقُرْبى » .

(٢) يرى الزمخشري أن الأحاديث اسم جمع للحديث وليس بجمع أُحدوثة ، وعارضه أبو حيان فقال : وليس باسم جمع كما ذكر ، بل هو جمع تكسير لحديث على غير قياس ، كما قالوا : أباطل وأباطيل ، ولم يأت اسم جمع على هذا الوزن ، وإذا كانوا يقولون في (عبَادِيدَ) و (يَنَاذِيرَ) إنهما جمعا تكسير ولم يلفظ لهما بمفرد فكيف لا يكون (أحاديث) و (أباطيل) جمعي تكسير ؟ . (البحر المحيط ٥ـ٢٨١) .

(٣) لم يحسن اختيار الألفاظ ولم يُحْكمها ، يقال : هو يَنْبُل هذا الأمر بمعنى : يُحْكم معرفته ، وهو يَنْبُل الرسم أو التمثيل بمعنى يحسنه ويجيد القيام به ، وأتاه أمرٌ لم يَنْبُل نبله بمعنى : لم يتخذ له عُدَّته . (المعجم الوسيط) .

بني إسرائيل فإنها قصة مشهورة عندهم ، وباقي هذه الآية بيّن .

والنعمة على يوسف كانت تخليصَه من السجن وعصمتَه والمُلْكَ الذي نال ، وعلى إبراهيم هي اتخاذه خليلا ، وعلى إسحق فديته بالذبح العظيم(١) مضافاً ذلك كله إلى النبوة . و ﴿عليمٌ حكيمٌ﴾ مناسبتان لهذا الوعد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [آيَاتٌ] بالجمع ، وقرأ ابن كثير وحده(٢) : [آيَةٌ] بالإفراد ، وهي قراءة مجاهد ، وشبل ، وأهل مكة . فالأُولى على معنى أن كل حال من أحواله آية آية فجمعها ، والثانية على أنه

---

(١) الثابت أن الذبيح هو إسماعيل ، ونسبة الذبح وقصته إلى إسحق فرية يروج لها اليهود .

(٢) يريد : وحده من بين السبعة ، وإلا فقد قرأ بها مجاهد ، وشبل ، وأهل مكة كما ذكر المؤلف .

بجملته آية ، وأن تفصل بالمعنى . ووزن آية فَعَلة أو فَعْلة أو فاعلة على الخلاف فيه[١] ، وذكر الزجاج أن في غير مصحف عثمان «عِبْرةٌ لِلسَّائِلِينَ» ، قال أبو حاتم : هو في مصحف أُبيّ بن كعب .

وقوله : [لِلسَّائِلِينَ] يقتضي حضًّا مّا على تعلم هذه الأَنباءِ ، لأَنه إنما المراد : «آية للناس» ، فوصفهم بالسؤال إذ كل واحد ينبغي أَن يسأَل عن مثل هذه القصص ، إِذ هي مقر العبر والاتّعاظ ، ويصح أَيضاً أَن يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤال سائل كما روي . وقولهم : [وَأَخُوهُ] يريدون به : «بنيامين» ، وهو أَصغر من يوسف ، ويقال له : «يامين» ، وقيل : كان شقيق يوسف وكانت أُمهما ماتت ، ويدل على أَنهما شقيقان تخصيص الإِخوةَ لهما بـ «أَخُوهُ» وهي دلالة غير قاطعة ، وكان حُبُّ يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أُمهما ، وهذا من «حُبُّ الصغير فطرةُ البشر» ، وقد قيل لابنة الحسن : أَيُّ بنيك أَحب إِليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يُفيق .

وقولهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أَي : نحن جماعة تضر وتنفع ، وتحمي وتخذل[٢] ، أَي : لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة . والعُصبة

(١) وزن آية عند سيبويه : (فَعَلَه) فهي «أَيَيَة» ، ووزنها عند الفراء : (فَعْلَة) ، فهي «أَيَّة» ، ووزنها عند الكسائي : (فاعِلَة) ، فهي «آيِيَة» .

(٢) كان عددهم أحد عشر رجلا ، وهم: روبيل — وهو أكبرهم ، ويقال: روبين بالنون — وشمعون ، ولاوي ، ويهوذا ، وزبالون ، ويساخر ، فهؤلاء ستة أُمهم لِيَا بنت لِيان ،=

في اللغة : الجماعة ، قيل : من عشرة إلى خمسة عشر ، وقيل : من عشرة إلى أربعين ، وقال الزجاج : العشرة ونحوهم ، وفي الزهراوي : الثلاثة : نفر ، فإذا زادوا فهم رهط إلى التسعة ، فإذا زادوا فهم عُصبة ، ولا يقال لأقل من عشرة : عُصبة .

وقولهم : ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي : لفي اختلاف وخطإٍ في محبة يوسف وأخيه ، وهذا هو معنى الضلال ، وإنما يصغر قدره أو يعظم بحسب الشيءِ الذي فيه يقع الائتلاف ، و [مُبِين] معناه : يظهر للمتأمل ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : ﴿مُبِينٍ ٱقْتُلُوا﴾ بكسر التنوين في الوصل لالتقاءِ ساكن التنوين والقاف . وقرأ نافع ، وابن كثير ، والكسائي : ﴿مُبِينِنُ ٱقْتُلُوا﴾ بكسر النون وضم التنوين إتباعاً لضمة التاءِ ومراعاةً لها .

وقوله : ﴿ٱقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ الآية . كانت هذه مقالة بعضهم ، ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ﴾ معناه : أبعدوه ، ومنه قول عروة بن الورد :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِراً ... يُغَرِّرْ ويَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ (١)

= وهي بنت خال يعقوب ، ووُلِدَ له من سُرِّيَّتَيْن أربعة هم : دان ، ونفتالي ، وجاد ، وآشر ، ثم توفيت (لِيَا) فتزوج يعقوب أُختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين . وأم يعقوب اسمها (رِفْقا) ، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين .

(١) وروي : «من المال» بدلا من «يُغَرِّر» ، ومُقْتر : مُقِلّ فقير ، يقول : من كان مثلي فقيراً عليه أن يطلب رزقه في كل مكان ، وأن يلقي بنفسه في كل مَطْرَح مهما كان بعيداً ، وعروة من الشعراء الصعاليك ، دفعه إلى ذلك اضطهاد أبيه له ، وتفضيله أخاه الأكبر عليه ، وقد احتقره قومه لهبوط منزلة أُمه في النسب عن منزلة أبيه فزاده ذلك بُعْداً عنهم وإقبالا على الفروسية و الصعلكة .

والنَّوى الطَّروح : البعيدة ، و [أَرْضاً] مفعول ثان بإسقاط حرف الجر ، لأَن «طَرَحَ» لا يتعدى إلى مفعولين إلا كذلك . وقالت فرقة : هو نصب على الظرف ، وذلك خطأٌ لأَن الظرف ينبغي أَن يكون مبهماً ، وهذه ليست كذلك ، بل هي أَرض مقيدة بأَنها بعيدة أَو قاصية ونحو ذلك ، فزال بذلك إبهامها ، ومعلوم أَن يوسف لم يخْل من الكون في أَرض فبيّن أَنها أَرض بعيدة غير التي هو فيها قريب من أَبيه [١].

وقوله : ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ استعارة [٢] ، أَي : إذا فقد يوسف رجعت إليكم محبته ، ونحو هذا قول العربي حين أَحبَّته أُمه لما قُتِلَ إخْوَتُهُ وكانت قَبْلُ لا تُحِبُّه : «الثُّكْل أَرْأَمَهَا» [٣]، أَي عطفها عليه . والضمير في [بَعْدِهِ] عائد على «يوسف» أَو «قَتْلِهِ» أَو «طَرْحِهِ» ، و [صَالِحِينَ] ، قال السدي ، ومقاتل بن سليمان :

---

(١) يقول الزمخشري : هي أرض منكورة مهجورة بعيدة عن العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة .

(٢) ذُكر «الوجه» لتصوير معنى الإقبال عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، وفي الألوسي أنها كناية عن خلوص المحبة .

(٣) نص المثل كما رواه الميداني في «مجمع الأمثال» : (ثُكْلٌ أرْأَمَهَا وَلَداً) . قاله بَيْهَس الملقب بنعامة لأمِّه حين رجع إليها بعد إخوته الذين قتلوا ، وكان بيهس رجلا من فزارة ، وكان سابع سبعة إخوة ، فأغار عليهم ناسٌ من أشجع فقتلوا منهم سِتَّة وبقي بيْهس وهو أصغرهم ، فقالوا : وما تريدون من قتل هذا ؟ يحسب عليكم برجل ، فلما رجع إلى أُمّه أخبرها الخبر ، فقالت : فما جاءني بك من بين إخوتك ؟ ثم رقَّت له ، وعطفت عليه ، فقال الناس : لقد أَحبّت أم بَيْهَس بيهساً ، فقال بَيْهَس : (ثُكْلٌ أرْأَمَها وَلَداً) ، أي : عطفها على ولد ، فذهبت مثلا .

إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم ، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال ، ولم يكونوا حينئذ أنبياءَ ، وقال الجمهور : [صَالِحِين] معناه بالتوبة ، وهذا هو الأظهر من اللفظ ، وحالهم أيضاً تُعطيه ، لأنهم مؤمنون بنوا على عظيمة وعلَّلوا أنفسهم بالتوبة ، والقائل منهم ، قيل : هو روبيل ــ أسنهم ــ ، قاله قتادة ، وابن إسحق . وقيل : يهوذا ــ أحلمهم ــ ، وقيل : شمعون ــ أشجعهم ــ قاله مجاهد ، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة لما أراد الله من إنفاذ قضائه ، و « الْغَيَابة » : ما غاب منك من الأماكن أو غيب عنك شيئاً آخر . وقرأ الجمهور : ﴿غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ﴾ ، وقرأ نافع وحده : ﴿غَيَابَات ٱلْجُبِّ﴾ ، وقرأ الأعرج : ﴿غَيَّابَاتِ ٱلْجُبِّ﴾ بشد الياءِ ، قال أبو الفتح : « هو اسم جاءَ على (فعّالة) ، كان أبو عليّ يلحقه بما ذكر سيبويه من الفَيَّاد ونحوه[1] ، ووجدت أنا من ذلك : التَّيار للموج ، والفَخَّار للخزف » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي شبه « غَيَّابة » بهذه الأمثلة نظر لأن « غَيَّابة » جارية على فعل[2] . وقرأ الحسن : ﴿في غَيْبَةِ ٱلْجُبِّ﴾ على وزن (فَعْلة)[3] ، وكذلك خطت

(١) الفَيَّاد : المتبختر ، (المعجم الوسيط) ، وفي « المحتسَب » لأبي الفتح في نفس الموضع : « الفَيَّاد لذَكَر البوم » ، وفيه : « والحَمَّام ، والجَيَّار ــ السُّعال ــ والكَرَّار ــ كبش الراعي ــ » ، ومن أمثلة ذلك أيضاً : الجَبَّار والكَلاَّءُ .

(٢) أي : مشتقة من فعل ، بخلاف التَّيَّار والفَخَّار فهما جامدان .

(٣) قال أبو الفتح في « المحتسَب » : « فيجوز أن يكون حدثاً : فَعْلَة من غبت ، =

في مصحف أُبي بن كعب ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر ، وهو المنَخّل :

فإنْ أَنا يَوْماً غَيَّبَتْني غَيَابَتِي فسِيرُوا بِسَيْري في ٱلْعَشَائِرِ والأَهْلِ (١)

و [ٱلْجُبِّ] : البئر التي لم تُطْوَ (٢) لأَنها جُبَّت من الأَرض فقط .

وقرأَ الجمهور : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ﴾ بالياءِ من تحت على لفظ [بَعْض] . وقرأَ الحسن البصري ، ومجاهد ، وقتادة ، وأَبو رجاءٍ : [تَلْتَقِطْهُ] بالتاءِ ، وهذا من حيث أُضيف [بَعْضُ] إِلى [السَّيَّارَة] فاستفاد منها تأْنيث العلاقة ، ومن هذا قول الشاعر :

أَرَى مرَّ السِّنين أَخَــــذْنَ مِنِّي كما أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلَالِ (٣)

ومنه قول الآخر :

إِذَا ماتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قام سَيِّدٌ فذَلَّتْ لَهُ أَهْلُ الْقُرى والْكَنَائِسُ (٤)

= فيكون كقولنا : في ظُلْمَة الجُب ، ويجوز أن يكون موضعاً على فَعْلَة كالقِـرْمة » ــ بفتح القاف وكسرها وهي من سمات الإبل تكون فوق الأنف ــ والجِـرْفَة ــ بفتح الجيم وكسرها أيضاً ، وهي كذلك من سمات الإبل تكون دون الأنف .

(١) البيت للمنخل السعدي ، ويُرْوى : « في العشيرة » ، والغيابة هنا : القبر ، يقال : وقع في غيابة من الأرض ، أي في منهبط منها ، يقول : إذا أنا مت في يوم من الأيام ، وغيَّبَني القبر في جوفه فاتبعوا سُنَّتي وسيروا بسيرتي مع أهلي وعشيرتي .

(٢) البئر الْمَطْويَّة هي التي بنيت بالحجارة ونحوها ، أو عُرِشت ، والبئر التي لم تُطْوَ هي التي حفرت وتركت دون بناءٍ أو عرش .

(٣) السِّرار بفتح السين وكسرها : الليلة التي يخفى فيها الهلالُ آخر الشهر ، والشاهد في (أَخَذْنَ) فقد أَنَّثها الشاعر بالنون مع أنها تعود على (مَرّ) وهو مذكر ، وكان المفروض أن يقول : (أخَذَ) ، لكن لمّا أُضيف (مَرَّ) إلى (السِّنين) اكتسب منها التأنيث .

(٤) هذا البيت من شواهد الكسائي ، وقد أورده الفراءُ في « معاني القرآن » ، وقال : « والعرب إذا أضافت المذكر إلى المؤنث وهو فعل له أو بعض له قالوا فيه بالتذكير والتأنيث ، وإنما جاز ذلك لأن الثاني يكفي من الأول ، ألا ترى أنه لو قيل : « تلتقطه السيارة » لجاز ، =

وقول كعب :

. . . . ذلَّتْ لِوَقْعَتِهَا جَمِيعُ نَـزَارِ (١)

حين أَراد بـ «نزار» القبيلة ، وأَمثلة هذا كثير . وروي أَن جماعة من الأَعراب التقطت يوسف عليه السلام . و [ٱلسَّيَّارَةُ] جمع سيَّار ، وهو بناءٌ للمبالغة .

وقيل في هذا الجُبِّ : إِنه بئر بيت المقدس ، وقيل : غيره ، وقيل : لم يكن حيث طرحوه ماءٌ ، ولكن أَخرجه الله فيه حتى قصده الناس للاستقاءِ ، وقيل : بل كان فيه ماءٌ يغرق يوسف فنشز حجر من أَسفل الجبّ حتى ثبت عليه يوسف ، وروي أَنهم رموه بحبل في الجب فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه ونزعوا قميصه ورموه حينئذ ، وهمُّوا برضخه بالحجارة فمنعهم أَخوهم المشير بطرحه من ذلك .

= ولا يجوز أن يقال: « ضربتني غلام جاريتك » لأنه لو ألقيت (غلام) لم تدخل الجارية على معناه ؟ ». هذا ومثل البيتين قول الأعشى يخاطب يزيد بن مسهر الشّيباني وكانت بينهما مهاجاة:

وتَشْرَقُ بالْقَوْلِ الّذي قَدْ أذَعْتَهُ كما شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

فقال : شرقت وهي منسوبة إلى (صدر) . ومعنى البيت : يعود عليك مكروه ما أَذَعْتَه عَنّي من القَوْل وما نَسَبْته إلى من الفعل القبيح فلا تجد منه مخلصاً ، والإنسان يشرق بالماء كما يغص بالطعام .

(١) هذا عجز بيت من أبيات قالها يمدح الأنصار بعد أن عاتبوه على الغَضِّ من شأنهم في قصيدته المشهورة « بانت سعاد » ، وهو بتمامه :

صَدَمُوا الكتيبةَ يَوْمَ بَدْرٍ صَدْمَةً ذَلَّتْ لِوَقْعَتِهَـــا جَمِيعُ نزَار

ويروى البيت : « زلَّتْ لوقعتها رقابُ نزار » ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

الآية الأُولى تقتضي أَن أَباهم قد كان علم منهم إِرادتهم الخبيثة في جهة يوسف ، وهذه تقتضي أَنهم علموا منه بعلمه ذلك .

وقرأَ الزهري ، وأَبو جعفر : ﴿لَا تَـأْمَنَّا﴾ بالإِدغام دون إِشمام ، ورواها الحلواني عن قالون [(١)] . وقرأَ السبعة بالإِشمام للضم ، وقرأَ طلحة بن مصرف : ﴿لَا تَـأْمَنُنَا﴾ ، وقرأَ ابن وثاب ، والأَعمش : ﴿لَا تِيمَنَّا﴾ بكسر تاءِ العلامة .

---

(١) أما الحلواني فاسمه أحمد بن يزيد ، وأما قالون فهو عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني ، مولى الأنصار ، أبو موسى ، من أهل المدينة مولداً ووفاة ، وإليه انتهت الرياسة في زمانه في علوم العربية والقراءة بالحجاز ، وكان أصمّ يُقرأُ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفتي القارئ فيرد عليه اللحن والخطأ ، و (قالون) لقب دعاه به نافع القارئ لجودة قراءته ، ومعناه بلغة الروم: جيِّد . (النجوم الزاهرة ٢ـ٢٣٥ ، وغاية النهاية ١ـ٦١٥ ، والتاج ٩ـ٣١٣).

و [غدًا] ظرف ، أصله : «غَدْوٌ»(١) فلزم اليوم كله وبقي الغُدُوُّ والغُدْوَةُ اسمين لأول النَّهار ، وقال النَّضْر بن شميل : ما بين الفجر إلى الإِسْفار يقال فيه : غُدْوَةٌ وبُكْرَةٌ .

وقرأ أبو عمرو ، وأبو عامر : ﴿نَرْتَعْ ونلْعَبْ﴾ بالنون فيهما وإسكان العيْن والباءِ ، و [نرْتَعْ] ـ على هذا ـ من الرُّتوع وهي الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب ، ومنه قول الغضبان بن القبعثرى : «القَيْدُ والرَّتَعة وقلَّة التَّعْتَعة»(٢) ، ومنه قول الشاعر :

. . . . وبَعْد عَطَائِكَ المائَةَ الرِّتَاعَا ؟(٣)

ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح كاللعب بالخيل والرمي ونحوه ،

---

(١) قال في (اللسان ــ غدا) : «وغَدٌ : أصله غَدْوٌ وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك ، فحذفت لامه بلا عِوَضٍ ، ولم يُسْتَعْمَل تامّاً إلا في الشعر ، ويدخل فيه الألف واللام للتعريف» .

(٢) في (اللسان ــ رتَع) : «الرَّتْعُ : الرَّعي في الخصب ، ومنه حديث الغضبان الشيباني مع الحجاج أنه قال له : سمنت يا غضبان ! فقال : الخَفْض والدَّعَة ، والقَيْد والرَّتَعَة ، وقِلَّة التَّعْتَعَة ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن» .

(٣) هذا عجز بيت لِلْقُطَاميّ ، وهو من قصيدة يمدح بها الشاعر زُفَر بن الحارث الكلابيّ ، والبيت بتمامه :

أكُفْراً بعْـــــدَ ردِّ الموْتِ عَنِّي وبَعْدَ عَطَائِكَ المائَةَ الرِّتاعــــا ؟

قال البغدادي في الخزانة : البيت شاهد على أن العطاء هنا بمعنى الإعطاء ، ولهذا عمل عمله ، والمفعول الثاني محذوف ، أي : بعد إعطائك المائة الرتاع إيّايَ ، وأورده شراح الألفية على أن العطاء اسم مصدر . والرّتاع : الراعية ، والمعنى : أأخونك وأكفر نعمتك وفضلك بعد أن أطلقتني ومننت عليّ وأعطيتني مائة من الإبل التي ترعى في الخصب ؟

فلا وصم في ذلك عليهم ، وليس باللعب الذي هو ضد الحق وقرين اللهو ، وقيل لأَبي عمرو بن العلاءِ : كيف يقولون : «نلعب» وهم أَنبياءَ ؟ قال : لم يكونوا حينئذ أَنبياءَ . وقرأَ ابن كثير : ﴿نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ﴾ بالنون فيهما ، وبكسر العين وجزم الباءِ ، وقد رُوي عنه ، [ويلْعَبْ] بالياءِ ، وهي قراءَة جعفر بن محمد ، و [نَرْتَعِ]ـ على هذا ـ من رعاية الإِبل ، وقال مجاهد : هي من المراعاة ، أَي : يراعي بعضنا بعضا ويحرسه ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿يرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بإِسناد ذلك كله إِلى يوسف ، وقرأَ نافع : ﴿يَرْتعِ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما وكسر العين وجزم الباءِ ، ف [يَرْتَعِ] ـ على هذا ـ من رعي الإِبل ، قال ابن زيد : المعنى : يتدرب في الرعي وحفظ المال ، ومن الارتعاءِ قول الأَعشي :

تَرْتَعِـــي السَّفْحَ فَالْكَثِيبَ فَذَاقَـــا رٍ فَرَوْضَ الْقَطَا فَذاتَ الرِّئَال (١)

قال أَبو عليّ : وقراءَة ابن كثير : [نَرْتَعِ] بالنون ، و [يَلْعَب] بالياءِ منزعها حسن لإِسناد النظر في المال والرعاية إِليهم ، واللعب إِلى يوسف لصباه . وقرأَ العلاءُ بن سيَّابة : ﴿يَرْتَعِ ويَلْعَبُ﴾ برفع الباءِ

---

(١) البيت من قصيدة الأعشى التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللخمي ، ومطلعها :

ما بُكَـــاءُ الكَبيرِ بالأَطْـــلالِ وسُؤالي فَهَلْ تَرُدُّ سُـــؤَالي ؟

وكل مافي البيت أسماءٌ لمواضع مشهورة يُشير إليها ، والضمير في (ترتعي) يعود على امرأة اسمها (جُبَيْرَة) يشبهها بالبقرة التي ترعى في خصب ونماءٍ .

على القطع[1]. وقرأ مجاهد ، وقتادة : [نُرْتِع] بضم النون وكسر التاء ، و [نَلْعبْ] بالنون والجزم . وقرأ ابن كثير - في بعض الروايات عنه - : [نَرْتَعِي] بإثبات الياء ، وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي ... بِمَا لاقَتْ لَبونُ بَني زِيَادِ ؟[2]

وقرأ أَبو رجاءٍ : [يُرْتِعْ] بضم الياء وجزم العين ، و [يَلْعَبْ] بالياء والجزم[3] .

وعَلَّلُوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط .

---

(١) قال أبو الفتح بن جني : « أما [يَرْتَعْ] فجزم لأنه جواب [أرْسِلْهُ] ، و [يَلْعَبُ] مرفوع لأنه جعله استئنافاً ، أي : هو ممن يلعبُ ، كقولك : « زُرْني أُحْسِنُ إليك » ، أي : أنا مِمَّن يُحْسِن إليك » .

(٢) هو من أبيات قالها قيس بن زهير تجدها مع قصتها في شرح الشواهد للسيوطي ٣-١ ، وتَنْمِي : تبلغ ، واللَّبُون : جماعة الإبل ذات اللبن ، والبيت في سيبويه ٢-٥٩ ، والخزانة ٣-٥٣٤ ، وسر صناعة الإعراب ٨٨ ، والنحويون يستشهدون به على زيادة (الباء) للضرورة في الشعر ، وعلى وقوع الجملة المعترضة بين الفعل وفاعله لإفادة الكلام تقوية وتحسيناً ، وتجد البيت في المغنى لابن هشام في هذين الموضعين .

(٣) أي أن ﴿ نُرْتِعْ وَنَلْعَبْ ﴾ مجزومان لأنهما جوابان ، أحدهما معطوف على صاحبه ، وهو على حذف المفعول ، أي : يُرتع مطيَّته ، قال ذلك ابن جني ، وقال : وعلى ذكر حذف المفعول فما أعربه وأعذبه في الكلام ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي : تذودان إبلهما ، ولو نُطق المفعول لما كان في عذوبة حذفه ولا في عُلُوِّه .

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِـــي﴾ الآية . قرأ عاصم ، وابن كثير ، والحسن ، والأعرج ، وعيسى ، وأبو عمرو ، وابن محيصن : [لَيَحْزُنُنِي] بفتح الياء وضم الزَّاي ، قال أبو حاتم : وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزَّاي والإدغام ، ورواية ورش عن نافع بيانُ النونين مع ضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن ، و[أَنْ] الأُولى فاعلة ، والثانية مفعولة بـ [أَخَافُ] .

وقرأ الكسائي وحده : [ٱلذِّيبُ] دون همز ، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأَصل ، ومنه جمعهم إياه على : «ذُؤْبان» ، ومنه : تذاءبت الريح والذئاب إذا أتت من ها هنا وها هنا . وروى ورش عن نافع [الذِّيبُ] بغير همز ، وقال نصر : سمعتُ أَبا عمرو لا يهمز ، قال : وأهل الحجاز يهمزون .

وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه وخصصه لأَنه كان الحيوان العادي المنبث في القطر ، ورُوي أَن يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد على يوسف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي ضعيف لأَن يعقوب لو رأي ذلك لكان وحياً ، فإما أَن يخرج على وجهه وذلك لم يكن ، وإما أَن يعرف يعقوب لمعرفته بالعبارة مثل هذا المرئي ، فكان يتشكاه بعينه ، اللّهم إلّا أَن يكون قوله : ﴿أَخَافُ أَنْ يَـأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بمعنى : أَخاف أَن يصيبه مثل

ما رأيت من أمر الذئب ، وهذا بعيد ، وكذلك يقول الربيع بن ضبع :

والذِّئْبُ أَخْشَاهُ . . . . (١)

إنما خصَّصه لأنه كان حيوان قطره العادي ، ويحتمل أن يخصصه يعقوب عليه السلام لصغر يوسف ، أي : أخاف عليه هذا الحقير فما فوقه ، وكذلك خصصه الربيع لحقارته وضعفه في الحيوان ، وباقي الآية بيِّن .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ الآية . أسند الطبري إلى السدي قال : ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة ، فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة ، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ، فجعل لا يرى منهم رحيماً ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح ويقول : يا أبتاه ، يا يعقوب لو تعلم ما صَنَع بابنك بنو الإماء ، فقال لهم يهوذا : ألم تعطوني موثقاً ألا تقتلوه ؟ فانطلقوا به إلى الجُب ، فجعلوا يدلونه فيتعلق بالشفير ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه رُدُّوا عليّ قميصي أتوارى به في الجُب ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والكواكب تُؤْنسك ، فدلوه حتى إذا بلغ نصف الجُب ألقوه إرادة أن يموت ، فكان في الجُب ماءٌ فسقط فيه ثم قام على صخرة

---

(١) هذا جزءٌ من بيت ، والشاعر هو الربيع بن ضبع الفزاري ، وقال البيت يصور خشيته من الذئب حين كبر وبلغ من السن ، والبيت بتمامه :

والذِّئْبَ أَخْشَاهُ إنْ مَرَرْتُ بِهِ وحْدِي وأَخْشَى الرِّيحَ والمَطَرَا

يبكي ، فنادوه فظنَّ أَنهم رحموه فأَجابهم : فأَرادوا أَن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يـأْتيه بالطعام .

وجواب [لـمَّا] محذوف تقديره : فلما ذهبوا به وأَجمعوا أَجمعوا ، هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو نصٌّ لهما ، ومن ذلك قول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ الْحَيِّ وانْتَحى . . . . (١)

ومثل هذا قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (٢) ، وقال بعض النحاة في مثل هذا : إن الواو زائدة ، وقوله مردود لأَنه ليس في القرآن شيءٌ زائد لغير معنى (٣) .

---

(١) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه :

فَلَمَّا أجَزْنَا ساحَةَ الْحَيِّ وانْتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

والساحة : الفناءُ ، والحيُّ : القبيلة وجمعه أحياءٌ ، وانْتَحَى : اعترض ، والخَبْتُ : أرض مطمئِنة ، والحِقْفُ من الرمل : المعوج (ويروى : « رُكامٍ » بدلا من « حِقَافٍ ») ، والعَقَنْقَل : المتداخل المتعقِّد ، (ويروى البيت أيضاً : ذي قِفَافٍ) وهي جمع قف وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا بعضه في بعض .

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة (الصافات) .

(٣) هذا رأي أكثر الكوفيين ، وقد قالوا بزيادة الواو في البيت ، وفي آية (الصافات) ، أما البصريون فيقدرون الجواب محذوفاً ، وتقديره في آية يوسف : « فلما ذهبوا به و .... عظمت فتنتهم » ، وقيل تقديره : « جعلوه فيها » ، ورجح أبو حيان هذا إذْ يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ . وقال بعض المفسرين : الجواب مثبت في الآية وليس محذوفاً ، وهو قولهم بعد ذلك : ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ . وعلى رأي من يرى أن الجواب محذوف يكون التقدير في آية (الصافات) : « فازا وظفرا بما أَحَبَّا » ، وفي البيت : « هَصَرْتُ » .

[وَأَجْمَعُوا] معناه : عزموا واتفق رأيهم عليه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في المسافر : (مَا لَمْ يُجْمِـع مُكْثا)[١]، على أن إجماع الواحد قد يتفرد بمعنى العزم والشروع ، ويُتَصَوَّر ذلك في إجماع إخوة يوسف وفي سائر الجماعات ، وقد يجيءُ إجماع الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع ، ولا يُتَصوَّر ذلك في إجماع الواحد .

والضمير في [إِلَيْهِ] عائد على يوسف ، وقيل : على يعقوب ، والأَول أَصح وأَكثر ، ويحتمل أَن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول ، ويحتمل أَن يكون بإلهام أَو بنوم ، وكل ذلك قد قيل ، وقال الحسن : أَعطاه الله النبوة وهو في الجُب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد .

وقرأ الجمهور : [لَتُنَبِّئَنَّهُمْ] بالتاءِ ، وفي بعض مصاحف البصرة بالياءِ ، وقرأ سلام بالنون ، وهذا كله في العلامة التي تلي اللام .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جريج : «وقْتَ التَّنْبيه أَنك يوسف »[٢] ، وقال قتادة : « لا يشعرون بوحينا إليه » .

---

(١) الحديث في (الموطأ) ، ولفظه فيه : (أُصَلِّي صلاةَ المسافر ما لم أُجْمِـع مُكْثاً) ، ومن اللفظة أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم (لا يصوم إلا من أجْمَعَ الصيام قبل الفجر) ، رواه النسائي ، والترمذي ، والدارمي ، وأبو داود ، ومالك في الموطأ ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه : (من أجْمَعَ إقامةً أربع ليالٍ وهو مسافر أتَمَّ الصلاة) ، رواه مالك في الموطأ .

(٢) أي : لا يشعرون وقت تنبيهك لهم أنك يوسف ، فكلمة (وقْت) ظرف للفعل (يشعرون) ، ويكون هذا دليلا على نبوته في ذلك الوقت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيكون قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ – على التأويل الأول – مما أُوحي إليه ، وعلى التأويل الثاني – خبرٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قرأت فرقة : [عِشَاءً] ، أي : وقت العشاء . وقرأ الحسن : [عُشًى] على مثال دُجًى ، أي جمع «عاشٍ» ، قال أبو الفتح : عُشَاةٌ كماشٍ ومشاةٌ ، ولكن حذفت الهاءُ تخفيفاً كما حذفت من «مَأْلُكة» ، وقال عَدِيّ:

أَبْلِـغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مَأْلُكاً أَنَّهُ قدْ طالَ حَبْسي وَانْتِظَارِي (١)

---

(١) البيت لعدي بن زيد بن حماد ، وهو من أُسرة بني العباد الذين كتبوا لكسرى وسفروا بينه وبين العرب ، وقد نشأ في بلاط النعمان ، ثم أُعجب به كسرى أنو شروان فثبته في بلاطه ، وبهذا كان عديّ أول من كتب بالعربية في ديوان الأكاسرة . وقد بلغ من المنزلة عند النعمان أنه تزوج من هند بنت النعمان ، ثم وشى الحساد به عند النعمان فحبسه – وفي سجنه أرسل إليه القصائد ، والبيت مطلع واحدة من قصائده هذه . والمألك : الرسالة ، وفيه يذكر النعمان بأنه قضى مدة طويلة في سجنه ، وأنه لا يزال في انتظار عفوه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومعنى ذلك أَصابهم عشاً من البكاءِ أَو شبه العشا إِذ كذلك هي هيئة عين الباكي لأَنه يتعاشى ، ومثَّل شريح في امرأَة بكت وهي مُبطلة ببكاءِ هؤلاءِ وقرأَ الآية ، ورُوي أَن يعقوب لمَّا سمع بكاءَهم قال : ما بالكم ؟ أَجَرَى في الغنم شيءٌ ؟ قالوا : لا ، قال : فأَين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق ... فبكى وصاح وقال : أَين قميصه ؟ وسيأْتي قصص ذلك .

و [نَسْتَبِق] معناه : على الأَقدام ، أَي : نجري غلاباً ، وقيل : بالرمي ، أَي : ننتضل ، وهو نوع من المسابقة ، قاله الزجَّاج .

وقولهم : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أَي : بمصدق ، ومعنى الكلام : أَي : لو كنا موصوفين بالصدق وقيل : المعنى : ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أَقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة ولما تقدم من تُهْمَتك لنا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ذكره الزجاج وغيره ، ويحتمل أَن يكون قولهم : ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ بمعنى : وإِن كنا صادقين ، قاله المبرد ، كأَنهم أَخبروا عن أَنفسهم أَنهم صادقون في هذه النازلة ، فهو تمادٍ منهم

في الكذب ، ويكون بمنزلة قوله تعالى : ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[(١)] ، بمعنى : وإن كنا كارهين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا المثال عندي نظر ، وتخبط الرُّمَّاني في هذا الموضع وقال : «أَلزموا أَباهم عناداً» ونحو هذا مما لا يلزم لأَنهم لم يقولوا : وما أَنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك . بل قالوا : وما أَنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن ، وأَما أَنت فقد غلب عليك سوءُ الظن بنا ، ولا يُنْكَر أَن يعتقد الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يُوحَ إليهم ، فإنما هم بشر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (إنما أَنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، فلعل بعضكم أَن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض فأَقضي له على نحو ما أَسمع منه ...) الحديث[(٢)] ، فهذا يقتضي أَنه جوّز على نفسه أَن يُصدِّق الكاذب ، وكذلك قد صدَّق عليه الصلاة والسلام عبدالله بن أُبَيّ حين حلف على مقالة زيد بن أَرقم وكذَّب زيداً ، حتَّى نزل الوحي

(١) من الآية (٨٨) من سورة (الأعراف) .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ، وفي الأحكام ، وفي الحيل ، وأخرجه مسلم والدارمي في الأقضية ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي في القضاة ، وابن ماجه في الأحكام ، والموطأ في الأقضية ، والإمام أحمد في مسنده (٦ــ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠) ، وبقيته كما جاءت في البخاري (فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار) ، رواه البخاري عن أُم سلمة .

فظهر الحق(١)، فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزام عناد.

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الآية . رُوي أنهم أخذوا سَخْلَة(٢) أو جَدْياً فذبحوه ولطَّخوا به قميص يوسف ، وقالوا ليعقوب : هذا قميصه ، فأخذه ولطَّخ به وجهه وبكى ، ثم تأمله فلم يَرَ خَرْقاً ولا أثر ناب فاستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه ؟ قصَّ هذا القصص ابن عباس وغيره ، وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم لصحة القميص ، واستند الفقهاءُ إلى هذا في إعمال الأَمارات في مسائل كالقسامة وغيرها في قول مالك ، إلى غير ذلك ، قال الشعبيّ : كان في القميص ثلاث آيات : دلالتُه على كذبهم ، وشهادتُه في قَدِّه ، وردُّ بصر يعقوب به(٣) ، ورُوي أنهم ذهبوا فأخذوا ذئباً فلطخوا

---

(١) وردت قصة هذا الحديث في البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم .

(٢) السَّخْلَةُ : الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد ، والجمع : سَخْلٌ ، وسِخَالٌ ، وسُخْلان . (المعجم الوسيط) .

(٣) قال القرطبي : «وهذا مردودٌ ؛ فإن القميص الذي جاءُوا عليه بالدم غير القميص الذي قُدَّ ، وغير القميص الذي أتاه البشير به ، وقد قيل : إن القميص الذي قُدَّ هو القميص الذي أُتي به فارتد بصيراً» . هذا وقد اختلف العلماءُ في إعراب ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ ، فقال الزمخشري : محله النصب على الظرف كأنه قيل : وجاءُوا فوق قميصه بدم ، كما تقول : «جاءَ عَلَى جِمَالِهِ بأحْمَالٍ» ، وردّ أبو حيان ذلك بقوله : ولا يساعد المعنى على نصب [عَلَى] علىَ الظَّرْف بمعنى فوق ، لأن العامل فيه إذْ ذاك [جَاءُوا] وليس الفوق ظرفاً لهم ، بل يستحيل أن يكون ظرفاً لهم ، وقال الحوفي: [عَلَى] متعلق بـ[جَاءُوا] ، وردّه =

فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب : هذا أكل يوسف ، فدعاه يعقوب فأقعى وتكلم بتكذيبهم .

ووصْف الدم بـ [كَذِبٍ] إمَّا على معنى : بِدَم ذي كذبٍ ، وإمَّا أن يكون بمعنى : مكذوب عليه ، كما قد جاءَ « المعقول » بدل « العقل » في قول الشاعر :

حتَّى إذا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ ... لَحْماً ولا لِفُؤَادِهِ مَعْقُولَا (١)

فكذلك يجيءُ « التكذيب » مكان « المكذوب » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا كلام الطبري ، ولا شاهد له فيه عندي ، لأَن نفي « المعقول » يقتضي نفي « العقل » ولا يحتاج إلى بدل ، وإنما الدَّمُ الكذبُ عندي

= أبو حيّان أيضاً ، وقال أبو البقاء : ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ في موضع نصب حالا من [دَمٍ] ، لأن التقرير : جاءُوا بدمٍ كذب على قميصه ، وعلّق على ذلك أبو حيان بقوله : والمعنى يرشد إليه وإن كان هناك خلاف في جواز تقديم الحال على المجرور بالحرف غير الزائد ، ومن أجاز ذلك استدل عليه بشواهد كثيرة من لسان العرب .

(١) البيت للراعي النميري ، قاله من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من جباة الزكاة ، وقد وردت في (جمهرة أشعار العرب) لابن أبي الخطاب القرشي ، ومعنى البيت مع البيت الذي قبله : إن جباة الزكاة ضربوا رئيس القوم بالسياط الأصبحية حتى لم يتركوا على عظامه لحماً ، ولا أبقوا في فؤاده عقلا . كذلك أورد الفراءُ البيت في (معاني القرآن) في أثناءِ شرحه للآية الكريمة ، قال : « وقوله : ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ معناه : مكذوب ، والعرب تقول للكذب : مكذوب ، وليس له عقْدُ رأي ، ومعقود رأي ، فيجعلون المصدر في كثير من الكلام مفعولا ، قال الشاعر : إنَّ أخا المجلود من صبرا ، وقال آخر : حتَّى إذا لم يتركوا ... البيت » .

وصف بالمصدر على جهة المبالغة . وقرأ الحسن : ﴿بِدَم كَدِبٍ﴾ بِدَال غير معجمة ، ومعناه : الطريُّ ونحوه ، وليست هذه القراءة قوية [١] .

ثم قال لهم يعقوب لما بان كذبهم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي : رضيت وجعلت سُؤْلاً [٢] ومُرَاداً . [أَمْراً] أي : صنعاً قبيحاً بيوسف ، وقوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ رفع إمَّا على حذف الابتداءِ وإمَّا على حذف الخبر ، إمَّا على تقدير : فَشَأْني صبرٌ جميلٌ ، وإمَّا على تقدير : فصبرٌ جميلٌ أَمْثَلُ . وذكر أن الأشهب ، وعيسى بن عمر قرآ بالنصب : ﴿فَصَبْراً جَمِيلًا﴾ على إضمار فعل ، وكذلك هي في مصحف أُبي ومصحف أنس بن مالك ، وهي قراءة ضعيفة عند سيبويه ، ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأَمر ، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر :

. . . . صَبْــراً جَميــلا فَكِلانَا مُبْتَلَى

وينشد أَيضاً بالرفع ، ويروى: «صبرٌ جميلٌ» على نداءِ الجَمَلِ المذكور في قوله:

شَكَا إِلَيَّ جَمَــلي طولَ السُّرَى   يا جَمَــلي لَيْس إِلَيَّ المُشْتَكَى
صبرٌ جميلٌ فكِلانا مُبْتَـــلَى

---

(١) قال أبو الفتح بن جنّي في «المحتسب ١-٣٣٥» : «أصل هذا من الكَدَب وهو الفوف ، يعني البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث ، فكأنه دم قد أثَّر على قميصه فلحقته أعراض كالنقش عليه» .

(٢) السُّؤْل والسُّول : ما سألته . (المعجم الوسيط) .

وإنما تصح قراءة النصب على أنْ يقدر أَنَّ يعقوب عليه السلام رجع إلى مخاطبة نفسه أثناءَ مخاطبة بنيه ، وجميلُ الصبر ألا تقع شكوى إلى بشر ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (من بثَّ لم يصبر صبراً جميلا)[1] وقوله : ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ تسليمٌ لأمر الله تعالى وتوكُّلٌ عليه ، والتقدير : على احتمال ما تصفون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قيل : إن السيارة جاءَت في اليوم الثاني من طرحه في الجب ، و السَّيَّارة : جمع سيَّار ، كما قالوا : بغَّال وبغَّالة ، وهذا بعكس تمرة وتَمْر ، والسَّيَّارة بناءُ مبالغة للذين يردِّدون السَّيْر في الطرق ، وروي أَن هذه السيارة كانوا قوماً من أَهل مدين ، وقيل : قوم أَعراب ، والوارِدُ هو الذي يأْتي الماءَ ليسقي منه لجماعته ، ويروى أَن مُدْلي الدلو كان يسمَّى مالك بن ذعر ، والوارد هنا يمكن أَن تقع على الواحد

---

(١) الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحُزْني إلى اللهِ﴾ .

وعلى الجماعة . ويروى أن هذا الجب كان بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، ويقال : أَدْلى الدَّلْوَ إذا أَلقاه في البئر ليستقي الماءَ ، ودَلَّاه يدلوه إذا استقاه من البئر ، وفي الكلام هنا حذف تقديره : فتعلق يوسف بالحبل ، فلما بَصَر به المُدْلي قال : يا بشراي . وروي أَن يوسف كان يومئذ ابن سبع سنين ، ويرجح هذا لفظة « غلام » فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجَوُّز ، وقيل : كان ابن سبع عشرة سنة ، وهذا بعيد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بإضافة البشرى إلى المتكلم وبفتح الياءِ على ندائها كأَنه يقول : احضري فهذا وقتك ، وهذا نحو قوله : ﴿يَا حسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[1] ، ورَوَى ورش عن نافع : ﴿يا بُشْرَايْ﴾ بسكون الياءِ ، قال أَبو علي : وفيها جمع بيْن ساكنين على حدّ دابة وشابَّة[2] ، ووجه ذلك أَنه يجوز أَن تختص بها[3] الأَلف لزيادة المدِّ الذي فيها على المدِّ الذي في أُختيها[4] ، كما اختصت في القوافي بالتأْسيس ، واختصت في تخفيف الهمزة

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (يس) .

(٢) على حدّهما في مجرَّد التقاءِ الساكنين ، ولكن نلحظ أن ثاني الساكنين في (بُشْرَايْ) ليْس مضعفا .

(٣) يظهر أن الضمير في « بها » يعود على « القاعدة » وهي مفهومة من كلامه ، والمعنى : يجوز أن تختص بهذه القاعدة الألفُ .

(٤) يريد بأُختيها الياءَ والواو ، فقد ذكر بعض الفروق بين الألف وكل من الواو والياء .

نحو هباة(١)، وليس شيءٌ من ذلك في الياءِ والواو . وقرأَ أَبو الطفيل ، والجحدري ، وابن أَبي إِسحٰق ، والحسن : ﴿يَا بُشْرَيَّ﴾ تقلب الأَلف ياءً ثم تدغم في ياءِ الإِضافة ، وهي لغة فاشية ، ومن ذلك قول أَبي ذُؤَيْب :

سَبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُـــمُ فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ(٢)

وأَنشد أَبو الفتح وغيره في ذلك :

يُطَوِّفُ بي كَعَبْدٍ في مَعَـــدٍّ ويَطْعُنُ بالصُّمُلَّةِ في قَفَيَّـــا
فَإِنْ لَمْ تَثْأَرُوا لي في مَعَـــدٍّ فَمَا أَرْوَيْتُمَا أَبداً صَدَيَّـا(٣)

---

(١) أصلها « هبْأَة » بسكون الباءِ ، فنقلت حركة الهمزة إليها ، فصارت «هباة» ،والهباءُ : التراب الذي تطيره الريح ويلصق بالأشياء ، أو ينبث في الهواءِ فلا يبدو إلا في الشمس ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ ، ويقال : هبا الرمادُ يهبو ، قال الأصمعي : إذا سكن لهَبُ النار ولم يطفأ جمرها قيل : خمدت ، فإن طفئت البَتَّةَ قيل : همدت ، فإن صارت رماداً قيل : هبَا يَهْبُو وهوهاب غير مهموز (اللسان) .

(٢) قال أبو ذؤيب هذا البيت ضمن أبيات يرثي بها أولاده ، وهَوَيَّ : هوايَ ، وهي لغة هُذَيْل ، يقلبون ألف المقصور المضاف إلى الياءِ ياءً ثم يدغمون الياءَيْن فيقولون : هذه عَصَيَّ في عَصايَ ، وكذلك قَفَيَّ في قفايَ ، وأَعْنَقُوا : أَسْرَعُوا ، وتُخُرِّمُوا : أُخذوا واحداً بعد واحد ، قال الأصمعي : «أي : ماتوا قبلي ولم يلبثوا لهواي ، وكنت أُحب أن أموت قبلهم ، وقد جعلهم كأنهم هَوَوْا المنية لسرعتهم إليها وهم في الحقيقة لم يَهْوَوْها» . والبيت من شواهد النحويين ، وقد رواه الفراءُ في « معاني القرآن » عن القاسم بن معن بلفظ آخر ، قال :

تَرَكُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ فَفَقَدْتُهُمْ ولِكلِّ حُبٍّ مَصْرَعُ

(٣) البيتان للمنَخَّل اليَشْكُري ، وكان قد اتُّهم بالمُتَجَرِّدَة امرأة النعمان بن المنذر ، وعرف النعمان ذلك فدفعه إلى صاحب سجنه واسمُه عِكَبٌّ اللخمي ، فقيده عِكَبٌّ هذا وعذَّبَهُ ، فقال المنخل شعراً يصف فيه حاله، ومنه هذان البيتان ، وقد رواهما أبو الفتح في =

أرادَ : هَوايَ ، وقَفَايَ ، وصَدَايَ(١) . وقرأَ حمزة ، والكسائي : ﴿يَا بُشْرِايْ﴾ بالإمالة يُميلان ولا يضيفان ، وقرأَ عاصم كذلك إلا أَنه يفتح الراءَ ولا يُميل ، واختلف في تأْويل هذه القراءَة – فقال السُّدي : كان في أَصحاب هذا الوارد رجل اسمه بشري ، فناداه وأَعلمه بالغلام(٢) ، وقيل : هو على نداءِ البشري كما قدمنا .

والضمير في [وَأَسَرُّوهُ] ظاهر الآيات أَنه لِوُرَّاد الماءِ ، قاله مجاهد ، وقال : إِنهم خشَوْا أَمْر تجار الرفقة – إِن قالوا وجدناه – أَن يشاركوهم في الغلام الموجود ، – هذا إِن كانوا فسقة – أَو يمنعوهم من تملُّكِهِ إِن كانوا مؤمنين ، فأَسَرُّوا بينهم أَن يقولوا : أَبْضَعَهُ معنا بعض أَهل المصر . و [بِضَاعَةً] حالٌ ، والبِضاعَةُ : القطعة من المال يُتَّجر فيها بغير نصيب من الربح ، مأْخوذة من قولهم : بَضَعْتُ ، أَي : قطعت ، وقيل : إِنهم أَسَرُّوا في أَنفسهم أَنهم يتخذونه بضاعة لأَنفسهم ،

= « المحتسب » عن قطرب بلفظ آخر هو :

يُطَوِّفُ بي عِكَبٌ في مَعَــــدٍّ ويطْعُنُ بالصُّمُلَّــة في قَفَيَّــا
فإنْ لَمْ تَثْــأرا لي مِنْ عِكَبٍ فَلا أرْوَيْتُمَا أبَداً صَــدَيَّــا

والصُّمُلَّة : العصا كما في « التاج – صَمَلَ » . والشعر في الخصائص ، وشرح الحماسة للتبريزي ٢–٤٨ ، واللسان – عَكَبَ .

(١) قال أبو علي : « إن قلْب هذه الألف ياءً لوقوع الياء بعدها كأنه عِوَض مما كان يجب فيها من كسرها لياء الإضافة بعدها ، ككسرة ميم غلامِي وباءِ صاحبي ونحو ذلك ، ولم يُفعل ذلك في ألف التثنية نحو غُلامايَ وصاحبايَ خوف التباس المرفوع بالمنصوب والمجرور .»

(٢) قال أبو حيان في « البحر المحيط » : « إنَّ السدي أبعد في هذا التفسير » .

أَي متجرا ، ولم يخافوا من أَهل الرفقة شيئاً ، ثم يكون الضمير في قوله تعالى : [وَشَرَوْهُ] لهم أَيضاً ، أَي : باعوه بثمن قليل ، إِذ لم يعرفوا حقه ولا قدره ، بل كانوا زاهدين فيه ، وروي ـ على هذا ـ أَنهم باعوه من تاجر ، وقال مجاهد : الضمير في [أَسَرُّوهُ] لأَصحاب الدلو ، وفي [شَرَوْهُ] لإِخوة يوسف الأَحد عشر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بل الضمير في [أَسَرُّوهُ] و [شَرَوْهُ] لإِخوة يوسف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك أَنه رُوي أَن إِخوته لما رجعوا إِلى أَبيهم وأَعلموه رجع بعضهم إِلى الجب ليتحققوا أَمْر يوسف ، ويقفوا على الحقيقة من فقده ، فلما علموا أَن الورّادَ قد أَخذوه جاءُوهم فقالوا : هذا عبد أَبَق لا ُمّنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم ، فقارَّهُم[(١)] يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم ولينفذ أَمر الله ، فحينئذ أَسَرَّه إِخوته إِذْ جحدوا أُخوَّته فأَسَرُّوها واتخذوه بضاعة ، أَي متَّجراً لهم ومكسباً ، وشَرَوْه أَيضاً بثمن بَخْس ، أَي باعوه .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ، إِن كانت الضمائر لإِخوة يوسف ففي ذلك توعُّد ، وإِن كانت الضمائر للواردين ففي

---

(١) قَارَّهُ : قَرَّ معه وسكن . (اللسان) . ويقال : « أنا لا أُقارُّكَ على ما أنت عليه » . وفي الحديث : (قَارُّوا الصلاة) بمعنى : اسكنوا فيها ولا تتحركوا . (المعجم الوسيط) .

ذلك تنبيه على إرادة الله تبارك وتعالى ليوسف ، وسوق الأقدار بحسب بناءِ حاله ، فهو - حينئذ - بمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يُدبِّر ابن آدم والقضاءُ يضحك) . وفي الآية أيضاً تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما يجري عليه من جهة قريش ، أي : العاقبة التي هي للمتّقين هي المراعاة والمنتظرة .

و [شَرَوْهُ] هنا بمعنى باعوه ، وقد يقال : شرى بمعنى اشترى ، ومن الأول قول يزيد بن مُفَرِّغ الحِمْيَرِيّ :

وشَـــرَيْتُ بُرْداً لَيْتَـــني مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هامَهْ (١)

و «بُرْد» اسم غلام له ندم على بيعه ، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين .

و البَخْسُ : مصدر وصف به الثمن ، وهو بمعنى النقص ، وهذا أشهر معانيه ، فكأنه القليل الناقص ، وهو قول الشعبي ، وقال قتادة :

---

(١) البيت من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن» على أن شَرَى بمعنى باع ، وقد رواه في تفسير الطبري : «مِنْ قَبْلِ بُرْد» وجاء في «اللسان» : وشاهد شريت بمعنى بعت قول يزيد بن مفرِّغ وقد باع غلامهُ بُرْداً فندم بَعْد بيعه :

شَرَيْتُ بُرْداً ولَوْلا مَا تَكَنَّفَـــني مِنَ الْحَوَادِثِ ما فَارَقْتُهُ أبَداً

ومثل هذا البيت قول الشَّمَّاخ في رجل باع قوسه لرجل آخر :

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عَبْرَةً وفي الصَّدْرِ حُزَّازٌ من اللَّوْم حَامِـــزُ

يريد : فلما باع قوسه . ومعنى حامز : مُمِضٌّ مُحْرِقٌ .

البَخْس هنا بمعنى الظلم ، ورجحه الزجاج من حيث أن الحُرّ لا يحل بيعه ، وقال الضحاك: هو بمعنى الحرام ، وهذا أيضاً بمعنى أنه لا يحلُّ بيعه.

وقوله تعالى : ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَة﴾ عبارة عن قلة الثمن لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ، وذلك أنهم كانوا لا يَزِنون ما دون الأُوقية وهي أربعون درهماً . واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السلام ـ فقيل : باعوه بعشرة دراهم ، وقال ابن مسعود : بعشرين ، وقال مجاهد : باثنين وعشرين ، أخذها إخوته درهمين درهمين[1] وقال عكرمة : بأربعين درهماً دفعت ناقصة فهذا كان بَخْسُها .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ﴾ وصف يترتب في وُرّاد الماء ، أي : كانوا لا يعرفون قدره ، فهم ـ لذلك ـ قليلٌ اغتباطهم به ، لكنه أرْتَب في إخوة يوسف ، إذْ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حُبّه من القلب ورفضه من اليد ، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف ، وأما الوُرّاد فتمسُّكهم به وتَجْرُهم يمانع زهدهم إلّا على تَجَوُّز . وقوله : [فِيهِ] ليست بصلة لـ [ٱلزَّاهِدِينَ] ، قاله الزجاج ، وفيه نظر ، لأنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإطلاق وليس قصد الآية هذا ، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف ، والظروف يجوز فيها من التقديم مالا يجوز في سائر الصلات ، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله : [وَشَرَوْهُ] .

(١) أي لكل واحد منهم درهمان ، فيكون المجموع اثنين وعشرين درهماً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

رُوي أن مُبْتاع يوسف ـ وهو الوارد من إخوته أو التاجر من الوُرَّاد حسبما تقدم من الخلاف ـ ورد به مصر ـ البلد المعروف ولذلك لا ينصرف ـ فعرضه في السوق ، وكان أجمل الناس ، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمناً عظيماً ، فقيل : وزنه من ذهب ، ومن فضة ، ومن حرير . فاشتراه العزيز وكان حاجب الملِك وخازنه ، واسم الملِك الرَّيَّان بن الوليد ، وقيل : مصعب بن الرَّيَّان ، وهو أحد الفراعنة ، وقيل : هو فرعون موسى عُمِّر إلى زمانه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وذلك أن ظهور يوسف عليه السلام لم يكن في مُدّة كافر يخدمه يوسف . واسم العزيز المذكور : قطفير ، قاله ابن عباس ، وقيل : أطفير ، وقيل : قنطور ، واسم امرأته : راعيل ،

قاله ابن إسحٰق ، وقيل : ربيحة ، وقيل : زَليخا [١] ، وظاهر أمر العزيز أَنه كان كافراً ، ويدلُّ على ذلك كون الصنم في بيته ـ حسبما نذكره في البرهان الذي رأى يوسف ـ وقال مجاهد : كان العزيز مُسْلماً . والمَثْوَى : مكان الإقامة ، والإكرام إنما هو لِذي المثوى ، ففي الكلام استعارة . وقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أَي : بأَن يُعيننا في أَبواب دنيانا وغير ذلك من وجوه النفع ، وقوله : ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ أَي نَتَبَنَّاهُ ، وكان ـ فيما يُقال ـ لا ولد لهُ .

ثم قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَي : كما وصفْنَا ﴿مكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ فعلنا ذلك ، و [ٱلْأَحَادِيث] : الرؤْيا في النوم ، قاله مجاهد ، وقيل : أَحاديث الأَنبياءِ والأُمم . والضمير في [أَمْرِهِ] يحتمل أَن يعود على يوسف ، قاله الطبري ، ويحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ ، قاله ابن جبير ، فيكون إخباراً مُنَبِّهاً على قدرة الله عزَّ وجلَّ ليس في شأْن يوسف خاصة بل عامًّا في كل أَمر ، وكذلك الاحتمال في قول الشاعر :

رأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ ـ وربُّكَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ـ يبغي الخِلافَةَ بالتَّمْر [٢]

وأَكثر الناس الذين نفى عنهم العلم هم الكفرة ، وفيهم الذين زهدوا

---

(١) يضبط بضم الزاي وفتح اللام ، والأقرب إلى الصواب ضبطه بفتح الزّاي وكسر اللام .

(٢) البيت غير منسوب ، والشاهد فيه أن الضمير في (أمره) قد يعود على الله سبحانه وتعالى ، وقد يعود على أبي بكر رضي الله عنه ، وجملة « وربُّك غالبٌ على أمره » جملة معترضة .

في يوسف وغيرهم ممن جهل أمره ، ورُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : أصحُّ الناس فِراسة ثلاثة : العزيز حين قال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ، وابنة شُعَيْب حين قالت : ﴿ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾(١) ، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وَفِرَاسة العزيز إنما كانت في نفس نجابة يوسف ، لا أَنَّه تفرّس الذي كان كما في المثالين الآخرين ، فإِنَّ ما تفرس خرج بعينه(٢) .

والأَشُدُّ : استكمال القوة وتناهي بنية الإِنسان ، وهما أَشُدَّان : أَوَّلهما البلوغ ، وقد عبَّر عنه مالك وربيعة بـأَشُدّ ، وذكره مُنذر بن سعيد . والثاني الذي يستعمله العرب ، وقيل : هو من ثماني عشرة سنة إلى سِتِّين سنة ، وهذا قول ضعيف . وقيل : الأَشُدُّ : بلوغ الأَربعين ، وقيل : بل ستَّة وثلاثون ، وقيل : ثلاث وثلاثون ، وهذا هو أَظهر الأَقوال فيما نحسبه ، وقيل : عشرون سنة ، وهذا ضعيف ، وقال

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (القصص) .

(٢) نقل القرطبي عن ابن العربي قوله تعقيباً على خبر ابن مسعود : « عجبا للمفسرين في اتفاقهم على جلْب هذا الخبر ، والفراسة هي علم غريب ، وليس كذلك فيما نقلوه ، لأن الصِّدِّيق إنما ولَّى عمر بالتجربة في الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها ، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمُنَّة ، وليس ذلك من طريق الفِراسة ، وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البيِّنة ، وأما أمر العزيز فيمكن أن يُجعل فراسة لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة » .

الطبري : الأَشُدُّ لا واحد له من لفظه [١] ، وقال سيبويه : الأَشُدُّ : جمع شِدَّة نحو نِعْمةٍ وأَنْعُم ، وقال الكسائي : أَشُدٌّ جمع شَدٍّ نحو قَدٍّ وأَقُدّ ، وشَدُّ النهار : معظمه وحيث تستكمل نهاريته .

وقوله تعالى : [حُكْماً] يحتمل أَن يريد الحكمة والنُّبُوَّة ، وهذا على الأَشُدِّ الأَعلى ، ويحتمل العلم والحكمة دون النُّبُوَّة ، وهذا أَشبه إن كانت قصة المراودة بعد هذا . [وَعِلْماً] يريد تأْويل الأَحاديث وغير ذلك ، ويحتمل أَن يريد بقوله : [حُكْماً] أَيْ سلطاناً في الدنيا

---

(١) قال الطبري أيضاً : وهو جمعٌ مثل الأضرّ والأسُرّ ، ويجب — في القياس أن يكون واحده : شَدّ ، كما أن واحد الأضُرّ : ضَرّ ، وواحد الأسُرّ : سرّ ، كما قال الشاعر :

هلْ غَيْرَ أنْ كَثُرَ الأشُدُّ وأهْلَكَتْ   حَرْبُ الْمُلوكِ أكَاثِرَ الأمْــــوَالِ

وقال حميد :

وقَدْ أتَى لَوْ تَعْتِب الْعَــــوَاذِلُ   بَعْدَ الأشُــــدِّ أرْبَعٌ كَوَامِـــــلُ

وفي (اللسان — شَدَدَ) : « قال الأزهريُّ : الأشُدُّ في كتاب الله تعالى في ثلاثة معان يقرب اختلافها ، فأما قوله في قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ فمعناه الإدراك والبلوغ ، وحينئذ راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيم إلا بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الزجاج : معناه : احفظوا عليه مالَه حتى يبلغ أَشدَّه ، فإذا بلغ أَشُدَّه فادفعوا إليه ماله ، وبلوغه أَشُدَّه أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً ، وأما قوله تعالى في قصة موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى﴾ فإنه قرن بلوغ الأشُدّ بالاستواء ، وهو أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهي شبابه ، وأما قول الله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿حَتَّى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وعند تمامها بعث محمد صلى الله عليه وسلم نبيّاً وقد اجتمعت حُنْكتهُ وتمام عقله ، فبلوغ الأشد محصور الأول محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك » .

وحُكْماً بين الناس بالحق ، وتدخل النُّبُوَّة وتـأْويل الأَحاديث وغير ذلك في قوله : [وَعِلْماً] .

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَلفاظ فيها وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يهولَنَّك فعل الكفرة بك وعُتُوُّهم عليك ، فالله تعالى يصنع للمحسنين أَجمل صنع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

الْمُراوَدَةُ : الملاطفة في السوق إلى غرض ، وأَكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء ، ويشبه أَن يكون من «راد يَرُودُ» إذا تقدم لاختبار الأَرض والمرعى ، فكأَن المراوِدَ يختبر أَبدا بأَقواله وتلطفه حال المراوَدِ من الإجابة أَو الامتناع .

وفي مصحف ابن مسعود : «وقرعت الأَبواب» ، وكذلك رويت عن الحسن[١] ، و ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ هي زليخا امرأَة العزيز ، وقوله : ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ كناية عن غرض المواقعة ، وقوله : [وَغَلَّقَتِ] تضعيف مبالغة لا تعدية . وظاهر هذه النازلة أَنها كانت قبل أَن يُنَبَّأَ عليه السلام .

وقرأَ ابن كثير وأَهل مكة : [هَيْتُ] بفتح الهاءِ وسكون الياءِ وضم التاءِ ، وقرأَ ابن عباس ، وابن أَبي إِسحٰق ، وابن محيصن ، وأَبو الأَسود ، وعيسى بفتح الهاءِ وكسر التاءِ ، وقرأَ ابن مسعود ، والحسن ، والبصريون : [هَيْتَ] بفتح الهاءِ والتاءِ وسكون الياءِ ، ورويت عن ابن عباس ، وقتادة ، وأَبي عمرو ، قال أَبو حاتم : لا يعرف أَهل البصرة غيرها ، وهم أَقل الناس غُلُوًّا في القراءَة ، قال الطبري : وقد رُويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأَ نافع ، وابن عامر : [هِيْتَ] بكسر الهاءِ ، وسكون الياءِ وفتح التاءِ وهي قراءَة الأَعرج ، وشيبة ، وأَبي جعفر ، وهذه الأَربع بمعنى واحد واختلفت باختلاف اللغات فيها[٢] ، ومعناه : الدعاءُ ، أَيْ : تعال وأَقبل على هذا الأَمر ، قال

---

(١) في بعض النسخ بياض مكان «وقَرَّعتِ الأبواب» ، وفي إحدى النسخ سقطت كلمة «ابن مسعود» ، وعلى ما خبرناه من منهج ابن عطية فإن قوله : «وفي مصحف ابن مسعود» إلى «عن الحسن» جاءَ قبل مكانه الطبيعي ، فهو يشرح الجمل والألفاظ بترتيب ورودها في القرآن الكريم ، وكان الطبيعي أن يذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ .

(٢) يريد أن يقول : إن المعنى في هذه القراءات الأربع واحد وهو الدعاءُ إلى الإقبال ، ولكن القراءات اختلفت باختلاف اللغات .

الحسن : معناها : هَلُمَّ ، ويحسن أَن تتصل بها « لك » إذ حلَّت محل قولها : إقبالا أو قرباً . فجرَت مجرى « سقياً لك ورعياً لك » ، ومن هذا قول الشاعر يخاطب عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه :

أَبْلِغْ أَمِيرَ ٱلْمُؤمِنِيـــنَ أَخا الْعِرَاقِ إذا أَتَيْتَا
إنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَـــهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا (١)

ومن ذلك على اللغة الأُخرى قول طرفة :

لَيْسَ قَوْمِي بالأَبْعَدينَ إذا مَا قال داعٍ من الْعَشِيرَةِ هَيْتُ (٢)

ومن ذلك أَيضاً قول الشاعر :

قَدْ رَابَني أَن الْكَرِيَّ أَسْكَتَا ولَوْ غَدَا يُعْنَى بنَا لَهَيَّتَا (٣)

---

(١) البيتان في « مجاز القرآن » لأبي عبيدة ، وفي « المحتسب » لابن جني ، والرواية فيهما بكسر همزة « إن » في أول البيت الثاني على القطع والاستئناف ، أو على أن « أبْلغ » بمعنى « قُلْ » ، ومعنى « عُنُقٌ إليكَ » أنَّهم مائلون إليك متطلعون لك ، ورواية (اللسان) : « سِلْمٌ إلَيْكَ » بدلا من « عُنُقٌ إلَيْكَ » ، قال أبو عبيدة : ولفظ « هيت » يكون أيضاً للاثنين وللجميع من الذكر والأنثى سواءٌ ، إلا أن العدد فيما بعده ، تقول : هيت لكما ، هيت لكن ، ونقل في (اللسان) عن ابن جني أن « هيت » في البيت بمعنى أسرع ، قال : وفيه أربع لغات وذكرها كما أوردها ابن عطية هنا .

(٢) البيت غير موجود في الديوان ولا فيما بين أيدينا من شعر طرفة ، والشاهد فيه أن « هيت » تبنى على الضم عند بعض العرب فتكون مثل قبلُ وبعدُ . والشاعر يمدح قومه بالإسراع إلى نجدة من يدعوهم إلى النجدة ، إنهم يسرعون إلى الإجابة جماعات جماعات ، وقد روى ابن جني في المحتسب بيتاً آخر بعد هذا هو قوله :

هُمْ يُجيبون : وَاهَلُـمَّ سِرَاعاً كالأبَابِيل لا يُغَادَرُ بَيْتُ

(٣) البيت في التاج واللسان غير منسوب ، قال في اللسان : « وَهَيَّتَ بالرجل وهوَّت به : صوَّت به وصاح ، ودعاه فقال له : هيتَ هيتَ ، قال: قد رابني ... البيت » . لكن =

أَسْكَتَ : دخل في السكوت ، و «هَيَّتَ» معناه : قال : هيْتَ ، كما قالوا : أَفَّفَ إذ قال : أُف أُف ، ومنه : سبَّح وكبَّر ودعْدعَ إذا قال : داع داع .

والتاءُ على هذه اللغات كلها مَبْنيَّة ، فهي في حال الرفع مثل قَبْلُ وبَعْدُ ، وفي الكسر على الباب لالتقاءِ الساكنين ، وفي حال النصب ككيْفَ ونحوها . قال أَبو عبيدة : و «هَيْتَ» لا تُثَنى ولا تُجْمع ، تقول العرب : هيْت لك ، وهيت لكما ، وهيت لكم .

وقرأَ هشام بن عامر : [هِئْتُ] بكسر الهاءِ والهمز وضم التاءِ ، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب ، وأَبي وائل ، وأَبي رجاءٍ ، ويحيى ، ورويت عن أَبي عمرو ، وهذا يحتمل أَن يكون من : «هاءَ الرجل يهيءُ» إذا أَحسن هيئته على مثال : «جَاءَ يجيءُ»(١) ، ويحتمل أَن يكون بمعنى : تَهَيَّأْتُ ، كما يقال : «فِئْتُ وتَفَيَّأْتُ» بمعنى واحد، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُه﴾(٢) ، وقال : ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٣) .

= الشطر الثاني فيه وفي التاج جاء بلفظ : «لو كان معنيا بها لهيَّتا» . والكريُّ هو الأجير ، أو الذي يُكْريكَ دابته ، وقد شرح ابن عطية «أسْكَتَ» و «هيَّت» ، والمعنى : أثار ريبتي أن الأجير قد دخل في السكوت ، ولو كان معنياً بالدواب لهيَّت عليها .

(١) قال ابن جني : «وقالوا أيضاً : هِئْتُ أهاءُ كخِفْتُ أخاف ، هذا بمعنى خذ قال :

* أفاطم هَائي السَّيْفَ غيْرَ مُذَمَّم *

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (النحل) .

(٣) من الآية (٩) من سورة (الحجرات) .

وقرأ ابن أَبي إِسحق أَيضاً هكذا إلا أَنه سهَّل الهمزة ، وقرأ ابن عباس أَيضاً : ﴿هُيِّئْتُ لَكَ﴾[١] ، وقرأَ الحلواني عن هشام : [هِئتَ] بكسر الهاءِ والهمزة وفتح التاءِ ، قال أَبو عليّ : ظاهر أَن هذه القراءَة وهم ، لأَنه كان ينبغي أَن تقول : « هِئتَ لي » وسياق الآيات يخالف هذا [٢]، وحكى النحاس أَنه يقرأُ : [هِيتِ] بكسر الهاءِ وسكون الياءِ وكسر التاءِ .

و [معَاذَ] نصب على المصدر ، ومعنى الكلام : أَعوذ بالله ، ثم قال : ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ فيحتمل أَن يعود الضمير في [إِنَّهُ] على الله عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أَن يريد العزيزَ سيِّده ، أَي : فلا يصلح لي أَن أَخونه وقد أَكرم مثواي وائتَمَنني . قال مجاهد ، والسدي : [رَبِّي] معناه : سيِّدي ، وقاله ابن إِسحٰق .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإِذا حفظ الآدميَّ لإِحسانه فهو عملٌ زاكٍ وأَحرى أَن يحفظ ربَّه .

---

(١) علَّق ابن جني عليها في المحتسب بقوله : « وأما ﴿هُيِّئْتُ لَكَ﴾ ففعل صريح كهيِئْتُ لك ، كقولك : أُصلحتُ لك ، أي : فدونك وما انتظارك ؟ واللام متعلقة بالفعل نفسه كقولك : أُصْلِحْتُ لك ، وصَلَحْتُ لكذا » .

(٢) حجة أبي علي ومن وافقه أن الفعل عند فتح التاءِ يجعل التهيؤ من يوسف ، ويوسف عليه السلام لم يتهيأ لها ، فلا بُدَّ من ضم التاء ، وقد ردَّ صاحب النشر هذه الحجة بقوله : إن المعنى مع فتح التاء : تهيَّأ لي أمْرُك الآن ، إذ لم يتيسَّر لها قبل ذلك أن تخلو إليه ، أو المعنى : حسنت هيْئَتُكَ لي ، واللام — على المعنيين — للبيان . والرواية ثابتة عن هشام . (روح المعاني) .

ويحتمل أَن يكون الضمير للأَمر والشأْن ، ثم يبتدئ : ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ . والضمير في قوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ مرادٌ به الأَمر والشأْن فقط .

وحكى بعض المفسرين أَن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ثم دافع الأَمر باحتجاج وملاينة امتحنه الله تعالى بالهمّ بما همَّ به ، ولو قال : «لا حول ولا قوة إلا بالله» ودافع بعنف . وبغير شيءٍ من ذلك ما ابتُلي بالمكروه .

وقرأَ الجحدري : [مَثْوِيَّ] ، وكذا قرأَها أَبو الطفيل ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَيَّ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ الآية . لاشك أَن همَّ زليخا كان في أَن يواقعها يوسف ، واختلف في همِّ يوسف عليه السلام — فقال الطبريُّ : قالت فرقة : كان مثل همها ، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبيٌّ ؟ فقيل : ذلك لِيُرِيَهُ الله تعالى موقع العفو والكفاية ، وقيل : الحكمة في ذلك أَن يكون مثالا للمذنبين لِيَرَوْا أَن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب . وذلك كله على أَن همَّ يوسف بلغ — فيما روت هذه الفرقة — إلى أَن جلس بين رجلي زليخا وأَخذ في حلِّ

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة (طه) : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ .

ثيابه وتكته ونحو هذا ، وهي قد استلقت له ، قاله ابن عباس وجماعة من السلف . وقالت فرقة في همه : إنما كان بخطرات القلب التي لا يقدر البشر على التحفظ منها ، ونزع عن ذلك ولم يتجاوزه ، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام ، وفي الحديث : (إن من هَمَّ بسيئة ولم يعملها فله عشر حسنات)[١] ، وفي حديث آخر «حسنة» ، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف ، وقالت فرقة : كان هم يوسف بضربها ونحو ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف البَتَّةَ .

والذي أَقول في هذه الآية : إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح ولا تظاهرت به رواية ، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أُوتى حكماً وعلماً ويجوز عليه الهَمُّ الذي هو إرادة الشيءِ دون مواقعته ، وأَنْ يستصحب الخاطر الرديءَ على مافي ذلك من الخطيئة ،

(١) الحديث رواه البخاري في الرقاق ، ومسلم في مواضع كثيرة ، والترمذي في تفسير سورة الأعراف ، والدارمي في الرقاق ، والإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده ، ولفظه كما في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربّه عزّ وجلّ قال: (قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة) .

وإن فرضناه نبيًّا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلَّا الهَمُّ الذي هو الخاطر ، ولا يصح عليه شيءٌ مما ذُكر من حلِّ تكَّة ونحو ذلك ، لأَن العصمة مع النبوة ، وما رُوي من أَنه قيل له : «تكون في ديوان الأَنبياءِ وتفعل فعل السفهاءِ» فإِنما معناه العِدَةُ بالنبوة فيما بعد ، ولِلْهَمِّ بالشيءِ مرتبتان : فالأُولى تجوز عليه مع النبوة ، والثانية الكبرى لا تقع إلا من غير نبي ، لأَن استصحاب خاطر المعصية والتَّلَذُّذ به معصية في نفسها تكتب ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله تجاوز لأُمتي ما حدثت به نفوسها ما لم تنطق به أَو تعمل)[(١)] معناه : من الخواطر ، وأَما استصحاب الخاطر فمحال أَن يكون مباحاً ، فإِن وقع فهو خطيئة من الخطايا ، لكنه ليس كمواقعة المعصية التي فيها الخاطر ، ومما يؤيد أَن استصحاب الخاطر معصية قولُ النبي صلى ٱللهُ عليه وسلم : (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)[(٢)]، وقولُ الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[(٣)] ، وهذا منتزع من غير

---

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني في الكبير عن عمران بن حصين ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح .

(٢) أخرجه الشيخان في الصحيحين ، والإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود والنسائي عن أبي بكرة ، وأخرجه ابن ماجه عن أبي موسى ، ونص الحديث كاملا : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار ، قيل : يارسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

(٣) من الآية (١٢) من سورة (الحجرات) .

موضع من الشرع ، والإجماعُ منعقد على أَن الهمَّ بالمعصية واستصحاب التَّلَذُّذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز .

واختلف في البرهان الذي رأَى يوسف . وقيل : نودي . واختلف فيما نودي به – فقيل : ناداه جبريل عليه السلام : يا يوسف ، تكون في ديوان الأَنبياءِ وتفعل فعل السفهاءِ ؟ وقيل : نودي : يا يوسف ، لا تواقع المعصية فتكون كالطائر الذي عصَى فتساقط ريشه فبقي ملقى ، ناداه بذلك يعقوب ، وقيل غير هذا مما هو في معناه . وقيل : كان البرهان كتاباً رآه مكتوباً ، فقيل : في جدار المجلس الذي كان فيه ، وقيل : بين عيني زليخا ، وقيل : في كفٍّ من الأَرض خرجت دون جسد ، واخْتُلف في المكتوب – فقيل : قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] ، وقيل : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[2] ، وقيل غير هذا . وقيل : كان البرهانُ أَنْ رأَى يعقوبَ عليه السلام ممثلا معه في البيت عاضًّا على إبهامه ، وقيل : على شفته ، وقيل : بل انفرج السقف فرآه كذلك ، وقيل : إن جبريل عليه السلام قال له : لئن واقعت المعصية لأَمحونك من

---

(١) من الآية (٣٣) من سورة (الرعد) .
(٢) الآية (٣٢) من سورة (الإسراء) .

ديوان النبوة ، وقيل : إن جبريل ركضه برجله فخرجت شهوته على أنامله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقيل : بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية ، وقيل : بل كان البرهان الذي اتعظ به أَن زليخا قالت له : مكانك حتى أَسْتُر هذا الصنم – لِصَنم كان معها في البيت – فإِني أَستحي منه أَن يراني على هذا الحال ، وقامت إِليه فسترته بثوب ، فاتعظ يوسف وقال : من يسترني أَنا من الله القائم على كل شيءٍ ؟ وإِذا كنت أَنت تفعلين هذا لما لا يعقل فإِني أَولى أَن أَستحي من الله .

والبرهان في كلام العرب : الشَّيْءُ الذي يعطي القطع واليقين لأَنه مما يُعلم ضرورة أَو بخبر قطعي أَو بقياس نظري ، فهذه التي رُويت فيما رآه يوسف براهين .

و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى﴾ في موضع رفع ، التقدير : لولا رؤْيتُه برهان ربه ، وهذه « لولا » التي يحذف معها الخبر ، تقديره : لفعل أَو لارتكب المعصية ، وذهب قومٌ إِلى أَن الكلام تـمَّ في قوله : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ، وأَن جواب « لولا » في قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ، وأَن المعنى : لولا أَنْ رأَى البرهان لَهَمَّ ، أَي : فلم يَهُمَّ عليه السلام ،

وهذا قول يردُّه لسان العرب وأقوال السلف[١] ، قال الزجاج : ولو كان الكلام : « وَلَهَمَّ بِهَا لولا » لكان بعيداً ، فكيف مع سقوط اللام ؟[٢]

والكاف في قوله : [كَذَلِكَ] متعلقة بمضمر تقديره : جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف ، ويصحُّ أن تكون الكاف في موضع رفع

---

(١) قال أبو حيان في « البحر المحيط » : « ليس كما ذكر ، وهو موجود في لسان العرب ، قال تعالى : ﴿ إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقوله : ﴿ إنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ إما أن يتخرج على أنه الجواب ، وإما أن يتخرج على ما نذهب إليه من أنه دليل الجواب ، والتقدير : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به .

وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيءٌ من ذلك لأنها أقوال متكاذبة ، يناقض بعضها بعضاً ، مع كونها قادحة وبخاصة في المقطوع لهم بالعصمة ، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدروا جواب « لولا » محذوفاً ولا يدل عليه دليل لأنهم لم يقدروا الهمَّ بها ، ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط لأن ما قبل الشرط دليل ، ولا يحذف شيء بدون دليل » .

(٢) ردَّ عليه أبو حيان أيضاً في البحر بأنه كلام لا يصح الالتفات إليه ، لأنه يوهم أن قول الله تعالى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هو جواب « لولا » ، ونحن لم نقل بذلك ، وإنما هو دليل الجواب . وعلى تقدير أن يكون هو نفس الجواب فاللام ليست بلازمة ، لأن جواب «لولا» يجوز أن يأتي – إذا كان بصيغة الماضي – باللام وبغير اللام ، تقول : لولا زيد لأكرمتك ، ولولا زيد أكرمتك ، فمن ذهب إلى أن قوله تعالى : ﴿ وهَمَّ بِهَا ﴾ هو نفس الجواب لم يبعد .

ثم قال : « والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها البتَّة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله ، ولا نقول : إن جواب « لولا » متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل إن صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري ، وأبو عباس المبرد ، بل نقول : إن جواب « لولا » محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب : « أنت ظالم إن فعلت » فإنهم يقدرونه : إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قوله : « أنت ظالم » على ثبوت الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجوب الفعل ، وكذلك التقدير هنا : « لولا أن رأى برهان ربِّه لَهَمَّ بها » ، فكان موجد الهَمِّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ » .

بتقدير: عِصْمَتُنَا له كذلك لنصرف[١] . وقرأ الجمهور : [لِنَصْرِفَ] بالنون ، وقرأ الأعمش : [لِيَصْرِفَ] بالياء على الحكاية عن الغائب[٢] .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والحسن بن أبي الحسن ، وأبو رجاء : [ٱلْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام في كل القرآن ، وكذلك [مُخْلِصاً] في سورة مريم[٣] ، وقرأ نافع [مُخْلِصاً] كذلك بكسر اللام ، وقرأ سائر القرآن [الْمُخْلَصِينَ] بفتح اللام ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وجمهور من القراء [الْمُخْلَصِينَ] بفتح اللام ، و [مُخْلَصاً] كذلك في كل القرآن .

وقوله تعالى : ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية . [ٱسْتَبَقَا] معناه : سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب ، هي لتردَّه إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فقبضت في أعلى قميصه من خلفه ، فتخرق القميص عند طوقه ونزل التخريق إلى أسفل القميص ، والقَدُّ : القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ، والقَطُّ يستعمل فيما لو كان عرضاً ،

---

(١) يرى الحوفي أن الكاف للتشبيه في موضع نصب ، أي : أريناه البرهان كذلك ، وقال أبو البقاء : الكاف في موضع رفع ، والتقدير : الأمر كذلك ، وقال أبو حيان : التقدير : مثل تلك الرؤية نرى براهيننا لنصرف ، فالإشارة إلى الرؤية ، والناصب للكاف ما دل عليه قولـــه : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ، و [لِنَصْرِفَ] متعلق بذلك الفعل الناصب للكاف .

(٢) وهو عائد على الله تعالى .

(٣) في قوله تعالى في الآية (٥١) : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ .

وكذلك هي اللفظة في قول النابغة :

تَقُدُّ السَّلُوقِــيَّ . . . . (١)

فإن قوله : «وتُوقِد بالصُّفَّاح» يقتضي أن القطع بالطول .

و [أَلْفَيَا] : وجدا ، والسَّيِّدُ : الزوج ، قاله زيد بن ثابت ، ومجاهد . فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلا من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه ، قاله السُّدّي ، فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه ، فأرت العزيز أن يوسف أرادها ، وقالت : ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، وتكلمت في الجزاء ، أي أن الذنب ثابت ومتقرر .

وهذه الآية تقتضي تعظيم موقع السجن من النفوس لاسيما بذوي الأقدار إذْ قد قُرِنَ بأليم العذاب .

---

(١) هذا جزء من بيت قاله من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث ، والبيت بتمامه :

تَقُدُّ السَّلوقيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحِبِ

والضمير في (تَقُدّ) يعود على السيوف المذكورة في الأبيات السابقة ، والسَّلُوقي صفة لموصوف محذوف تقديره : تَقُدُّ الدِّرْع السَّلُوقي ، وهو منسوب إلى (سَلوق) بفتح السين ، وهي بلدة على نهر دجلة بالعراق سُمِّيَت باسم بانيها وهو سَلَوْقس الرومي ، وكانت تصنع في سَلُوق هذه دروع جيدة متقنة . والمضاعف نسجه ، أي الذي كررت حلقاته حلْقةً فوق حلْقة ، وذلك يجعله أمتن فلا تقطعه السيوف ، وسمَّى صنع الحديد نسجاً على طريقة المجاز . والصُّفَّاح : صفايح البَيْض فوق الرأس وصفايح الذراعين ، والصُّفَّاح بضم الصاد وشدها هي والفاء المفتوحة . والحُباحِب – بضم الحاء الأولى وكسر الثانية – شرارة تطير عند قدح الحديد بالحديد أو بالحجارة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قال نوف الشامي : كان يوسف عليه السلام لم يبن على كشف القصة ، فلما بغت عليه غضب فقال الحق ، فأَخبره أنها هي رَاوَدَتْهُ عن نفسه ، فروي أَن الشاهد كان الرجل ابن عمها ، قال : انظر إلى القميص ، فإِن كان قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت ، أَو من قُبُلٍ فصدقت ، قاله السُّدِّي ، وقال ابن عباس : كان رجلا من خاصة الملك ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : إن الشاهد كان طفلا في المهد فتكلم بهذا ، قاله أَيضاً ابن عباس ، وأَبو هريرة ، وابن جبير ، وهلال بن يساف ، والضحاك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومما يضعف هذا أَن في صحيح البخاري ، ومسلم : (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وابن السوداء

الذي تمنت له أن يكون كالفاجر الجبار)[١] ، فقال : «لم يتكلم» ، وأسقط صاحب يوسف منها ، ومنها أن الصبي لو تكلّم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص ، وأسند الطبري إلى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [تكلم في المهد أربعة) فذكر الثلاثة وزاد صاحب يوسف ، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد فهُمْ ـ على هذا ـ خمسة ، وقال مجاهد أيضاً : الشاهد القميص .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف لأنه لا يوصف بأنه من الأهل .

وقرأ جمهور الناس : ﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ و ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ بضم الباءَيْن وبالتنوين ، وقرأ ابن يَعْمر ، والجارود بن أبي سبرة ، ونوح[٢] ، وابن أبي إسحٰق : ﴿مِنْ قُبُلُ﴾ و ﴿مِن دُبُرُ﴾ بثلاث ضمات من غير تنوين ، قال أبو الفتح : هما غايتان بنيتا كقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ

(١) ورواه أيضاً الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ، ولفظه فيه : (لم يتكلم في المهد إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جرير ، وابن ماشطة فرعون) ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ، وقال : حديث صحيح . وفي تفسير ابن كثير أن ابن عباس رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (تكلم أربعة وهم صغار) ، وذكر فيهم شاهد يوسف ، وقد ذكر ذلك ابن عطية هنا .

(٢) هو نوح القاري ، من رواة الحروف المتصدرين بعد أبي عمرو بن العلاء .

وَمِنْ بَعْدُ﴾[١]، قال أَبو حاتم : وهذا رديءٌ في العربية جدًّا ، وإنما يقع هذا البناءُ في الظروف ، وقرأَ الحسن : ﴿مِنْ قُبْلٍ﴾ و ﴿مِنْ دُبْرٍ﴾ بإسكان الباءَين والتنوين ، ورويت عن أَبي عمرو ، وروي عن نوح القاري أَنه أَسكن الباءَين وضم الأَواخر ولم ينون ، ورواها عن أَبي إسحٰق عن يحي بن يَعْمر .

وسُمِّي المتكلم بهذا الكلام شاهداً من حيث دلَّ على الشاهد ، ونفْس الشاهد هو تخريق القميص .

وقرأَت فرقة : ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُطَّ مِنْ دُبُرٍ﴾[٢] ، والضمير في [رأَى] هو للعزيز ، وهو القائل : ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ ، قاله الطبري ، وقيل : بل الشاهد قال ذلك ، والضمير في [إِنَّهُ] يريد مقالها المتقدم في الشكوى بيوسف .

---

(١) من الآية (٤) من سورة (الروم) . ومعنى قول أبي الفتح شرحه بقوله في « المحتسب » : كأنه يريد : وقدَّت قميصه من دُبُره وإن كان قميصه قُدَّ من قبُلِه ، فلما حذف المضاف إليه — وهي الهاءُ وهي مراده — صار المضاف غاية في نفسه بعد ما كان المضاف إليه غاية له ، وهذا مفهوم في قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ﴾ ، فبني هنا كما بني هناك على الضَّمِّ ، ووكَّد البناء أن « قُبُل ودُبُر » « يكونان ظرفين » . تأمل كلامه هذا فكأن فيه إجابة عن قول أبي حاتم بعده .

(٢) جاءَ في بعض النسخ : (عُطَّ) بالعين المهملة ، وآثرنا التي نقلها أبو حيان في « البحر » عن ابن عطية . مع العلم بأن «عَطَّ» في اللغة معناها : قَدَّ أو شَقَّ ، يقال : عطَّ الثوبَ عَطًّا : شَقَّهُ طُولا أوْ عَرْضاً .

ونزع لِهذه الآية من يرى الحكم بالأَمارة من العلماءِ ، فإنها معتمدهم(١) ، و [يُوسُفُ] في قوله : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عنْ هَذَا﴾ منادى – قاله ابن عباس – ناداه الشاهد ، وهو الرجل الذي كان مع العزيز و ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ معناه : عن الكلام به ، أَي : اكْتُمْه ولا تتحدث به ، ثم رجع إليها فقال : ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ أَي : استغفري زوجك وسيدك ، وقال : ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل : «من الخاطئات» لأَن الخاطئين أَعم ، وهو من : خطئَ يَخْطَأُ خَطْئاً وخَطَأً ، ومنه قول الشاعر :

لَعمْرُكِ إنّما خَطَئي وصَوْبي عليَّ ، وإنَّ ما أَتْلَفْتُ مالُ (٢)

وينْشد بيْت أُميَّة بن أَبي الصَّلْت :

عِبَادُكَ يَخْطَئُونَ وأَنْتَ رَبٌّ بِكَفَّيْكَ ٱلْمنَايا والْحُتُومُ(٣)

---

(١) إذا كان الشاهد طفلا صغيراً كانت شهادته كافية ولا حاجة إلى علامة أو أمارة أُخرى فإن كلامه هو نفسه أمارة ، وإن كان رجلا فإنه يحتاج إلى ذكر أمارة أو علامة على صدق كلامه ، ومن رأى من العلماء أنه لابد من أمارة علي العمل – كشريح القاضي وإياس بن معاوية – فإنه يعتمد على هذه الآية في ذلك ، وهذا هو معنى كلام ابن عطية .

(٢) البيت لأوس بن غَلْفَاء ، قال ذلك في (اللسان – صوب) ، ورواه مع بيت قبله ، قال :

ألا قالت أُمَامَةُ يَوْم غَــــوْلٍ تُقَطّعُ بابْنِ غَلْفَاءَ الحِبَالُ

دعيني إنَّمَـــا خَطَئِي وصَوْبي عَلَيَّ وإنَّ مَا أهْلَكْتُ مَـــالُ

والصَّوب : الصواب ، و (إنَّ ما) تكتب منفصلة ، ومالُ بالرفع ، والمعنى : وإنَّ الذي أهلكته مالُ ، ولا ضير في ذلك ما دام عرضي وافراً .

(٣) البيت في (اللسان) – في « خَطِئَ » ، والرواية فيه :

عبادُكَ يَخْطَئُونَ وأَنْتَ رَبٌّ كَرِيمٌ لا تَلِيقُ بِكَ الذُّمُـــومُ =

قوله عزوجل :

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

ذكّر الفعل المسند إلى النسوة لتذكير اسم الجمع ، و « النِّسْوة » جمعُ قلة لا واحد له من لفظه ، وجمع التكثير نساءٌ ، و [نِسْوَة] فِعْلَة ، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى العدد ، وقد نظمها القائل ببيت شعر :

بِأَفْعُلٍ وأَفْعَــالٍ وأَفْعِلَـــه وفِعْلَة يُعْرفُ الأَدْنَى من الْعددْ (١)

= ورواه أيضاً في « حتَمَ » ولفظه :

حَتَانَيْ رَبَّنَا ولَهُ عَنَوْنَــــا بِكَفَيْــهِ المَنَايَا والْحُتُومُ

ورواه في « الصحاح » مثل رواية ابن عطية . والمنايا : جمع مَنيَّة وهي الموت ، والحُتُوم : جمْع حتْم بمعنى القضاء . وفي (اللسان) — في « ذَمَمَ » لأميَّة أيضاً :

سَلامَكَ رَبَّنَا في كُلِّ فَجْــرٍ بَرِيئاً مَا تَعَنَّتْكَ الذُّمُــومُ

(١) ومثل هذا قول ابن مالك في ألفيَّته المشهورة :

أَفْعِلَةٌ أَفْعُلُ ثُمَّ فِعْلَـــه ثُمَّتَ أَفْعَالٌ جمـــوعُ قِلَّه

ويُروى أَن هؤلاءِ النسوة كُنَّ أَرْبَعاً ، امرأَة خباز الملك ، وامرأَة ساقيه ، وامرأَة حاجبه ، وامرأَة بوابه ، و [ٱلْعَزِيزُ] : الملك ، ومنه قول الشاعر :

دُرَّةٌ غَاص عَلَيْهَا تَاجِرٌ جُلِبتْ عِنْدَ عزيزٍ يومَ طُلَّ (١)

و « الْفَتى » : الغلام ، وعرفه في المملوك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يقل أَحدكم : عبدي ، وأَمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي) (٢) ولكنه قد يقالُ في غير المملوك ، ومنه : ﴿وإِذْ قَالَ مُوسى لِفَتَاهُ﴾ (٣) ، وأَصل الفتى في اللغة : الشاب ، ولكنه لما كان جل الخدمة شبابا استعير لهم اسم الفتى . و [شَغَفَها] معناه : بلغ حتى صار من قلبها موضع الشَّغاف ، وهو على أَكثر القول غلاف من أَغشية القلب ، وقيل : الشَّغافُ : سويداءُ القلب ، وقيل : الشُّغاف : داءٌ يصل إِلى القلب (٤)

---

(١) هذا البيت لأبي دُؤاد الإيادِيِّ ، والمؤلف يستشهد به على أن العزيز بمعنى الملك ، ولم نجد في كتب اللغة ما يؤيد ذلك ، وفي المجاز متسع لاستعمال العزيز بمعنى الملك . وطَلَّ دمُه : أُهدر تستعمل مبنية للمعلوم ولكن استعمالها مبنية للمجهول أكثر وأشهر ، يقال : طُلَّ دمه فهو مطلول . وأبو دُؤاد هذا اسمه جارية بن حُمْران الحجَّاج ، اشتهر بوصف الخيل ، وركز في وصفه على الصورة والإيقاع الموسيقي أكثر من تركيزه على اللفظة المباشرة . مات بعد امرئ القيس .

(٢) أخرجه البخاري في العتق ، ومسلم في الألفاظ ، وأبو داود في الآداب ، والإمام أحمد في أماكن كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يقل أحدكم أطعم ربَّك ، وضِّئ ربَّك ، اسق ربَّك ، وليقل: سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي) .

(٣) من الآية (٦٠) من سورة (الكهف) .

(٤) ويكون حينئذ بالضم على وزن (فُعال) لأنه داءٌ مثل : سُعال وزُكام ، قال النابغة :

وقَدْ حَالَ همٌّ دُونَ ذلِكَ والِجٌ مكانَ الشُّغَاف تبْتَغِيهِ الأصابِـعُ

وقرأ أَبو رجاءٍ ، والأَعرج ، وعلي بن أَبي طالب ، والحسن - بخلاف - ويحيى بن يَعْمر ، وقتادة - بخلاف - وثابت ، وعوف ، ومجاهد ، وغيرهم : ﴿قَدْ شَعَفَهَا﴾ بالعين غير منقوطة ، ولذلك وجهان : أَحدهما أَنه علا بها كل مرتبة من الحب ، وذهب بها كل مذهب ، فهو مأْخوذ - على هذا - من شعف الجبال وهي رُءُوسها وأَعاليها ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يوشك أَن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر يفِرُّ بدينه من الفِتَن)(١) ، والوجه الآخر أَن يكون الشعف لذَّةٌ بِحُرْقَة يوجد من الجراحات والجرب ونحوها ، ومنه قول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُني وقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادهـــا كمَا شَعفَ المهْنُوءَةَ الرَّجُل الطَّالي(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والفتن وغيرهما ، وأبو داود في الفتن ، والنسائي في الإيمان ، وابن ماجه في الفتن ، والموطأ في الاستئذان ، والإمام أحمد في مسنده (٣-٦ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٥٧) .

(٢) الرواية المشهورة « أيقتلني » بالياء ، و « شَغَفْتُ » بالغين المنقوطة ، ومعناها : بلغ حبِّي شَغاف قلبها ، والمهنوءَة : الناقة التي تُطلى بالقطران لإصابتها بالجرب . ويروى البيت بالعين كما في اللسان ، والمعنى : إحراق الحُبِّ للقلب مع لذة يجدها المحبُّ ، كما أن الناقة التي تطلى بالقطران علاجاً لها من الجرب تجد لذة مع حرقة ، وقبل البيت أبيات يتحدث فيها الشاعر عن محبوبته وبعلها ، قال :

وصِرْنَا إلى الحُسْنى ورَقَّ كلامُنَـــا ورُضْتَ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيْ إذْلالِ
فَأصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وَأصبحَ بَعْلُهَا عليْهِ الْقَتَامُ سَيِّئ الظَّنِّ والْبَال

إلى أن يقول : أَيَقْتُلُني وقد أحرقت فؤادها بحبي حرقة تجد فيها كل اللذة والمتعة ؟

والمشعوف في اللغة : الذي أَحرق الحب قلبه ، ومنه قول الأَعشى :

تَعْصِي الْوُشَاةَ وكانَ الْحُبُّ آوِنَةً   مِمَّا يُزَيِّنُ لِلْمَشْعُوفِ ما صَنَعا[1]

ورُوي عن ثابت البناني[2] ، وأبي رجاءٍ أَنهما قرآ : ﴿قَدْ شَعِفَهَا﴾ بكسر العين غير منقوطة ، قال أَبو حاتم : المعروف فتح العين ، وهذا قد قرئ به . وقرأَ ابن مُحَيْصن : ﴿قَدْ شّغَفَها﴾ أَدغم الدال في الشِّين .

ورُوي أَن مقالة هؤلاءِ النسوة إنما قصدن بها المكر بامرأَة العزيز لِيُغْضِبْنَهَا حتى تعرض عليهن يوسف لِيَبينَ عذرها أَو يحقَّ لومها ، وقد قال ابن زيد : الشَّغف في الحب والشَّغف في البغض ، وقال الشعبي : الشغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب ، والشغف : الجنون ، والمشغوف : المجنون ، وهذان القولان ضعيفان .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا سَمِعتْ بِمكْرِهِنَّ﴾ الآية . إنما سُمِّي قولهن مكراً من حيث أَظهرن إنكار منكر وقصدن إثارة غيظها عليهن ، وقيل : مكْرُهُنَّ أَنهن أَفْشَيْنَ ذلك عنها وقد كانت أَطلعتهن على ذلك

---

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يمدح بها هوزة بن علي الحنفي ، والتي مطلعها :

بانَتْ سُعادُ وأمْسَى حَبْلُها انْقَطَعَا   واحْتَلَّتِ الغَمْرَ فالْجُدَّيْنِ فالْفَرَعَا

والرواية في الديوان بالغين المنقوطة .

(٢) هو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني المصري ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن الكريم ، وتوفي سنة ١٢٧ (طبقات ابن الجزري ١–١٨٨) ، ولم يشر ابن جني إلى القراءة بكسر العين ، بل جعل قراءة ثابت البناني مثل قراءة الجماعة الكثيرة المذكورة قبله بفتح العين ، وهذا هو معنى قول أبي حاتم : المعروف فتح العين ، وقد قرئ به .

واسْتَكْتَمْتهُنَّ إياه ، وهذا لا يكون مكراً إلا بأَن يظهرن لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاءِ أذاها .

ومعنى ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي ليحْضُرْنَ ، [وَأَعْتَدتْ] معناه : أَعَدَّت ويَسَّرت ، و [مُتَّكَأً] : ما يُتَّكَأُ عليه من فرش ووسائد ، وعبر بذلك عن مجلس أُعد لكرامة ، ومعلوم أَن هذا النوع من الكرامات لا يخلو من الطعام والشراب ، فلذلك فسر مجاهد وعكرمة المتَّكَأَ بالطعام . قال ابن عباس : [مُتَّكَأً] معناه : مجلساً ، ذكره الزهراوي ، وقال القتبي : يقال : اتَّكَأْنا عند فلان ، أَي أَكلنا .

وقوله : ﴿وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ يقتضي أَنه كان في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين ، فقيل : كان لحماً ، وكانوا لا يَنْتَهِسون اللحم وإنما كانوا يأْكلونه حزًّا بالسكاكين، وقيل : كان أُتْرُجًّا[١] ، وقيل : كان زُماوَرْد[٢] – وهو من نحو الأُتْرُج موجود في تلك البلاد – وقيل : هو مصنوع من سكر ولوز وأَخلاط . وقرأَ ابن عباس ، ومجاهد ، والجحدري ، وابن عمر ، وقتادة ، والضحاك ،

---

(١) الأتْرُجّ : شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون الكبار ، وهو ذهبيُّ اللون ، ذكيُّ الرائحة ، حامض الماءِ «مجمع اللغة العربية بالقاهرة» ، نقلا عن (المعجم الوسيط) .

(٢) الزُّماوَرْدُ – هكذا ضبطه شارح اللسان نقلا عن القاموس ، وقال : هو طعام من البيض واللحم مُعَرَّب ، وقيل : هو الرقاق الملفوف باللحم ، وفي اللسان أيضاً : «ابن سيدة : المُتْك : الأتْرُجُّ ، قال الجوهري : وأصل المُتْكِ : الزُّماوَرْدُ» .

والكلبي ، وأبان بن تغلب : [مُتْكاً] بضم الميم وسكون التاءِ وتنوين الكاف ، واخْتُلف في معناه - فقيل : هو الأُترجُ ، وقيل : هو اسم يعم جميع ما يقطع بالسكين من الفواكه كالأُتْرُجِّ والتفاح وغيره ، وأنشد الطبري :

نَشْرَبُ الإِثْم بالصُّواع جِهَــاراً وتَرَى المُتْكَ بيْنَنَا مُسْتَعارَا (١)

وقرأ الجمهور : [مُتَّكَأً] بشد التاءِ المفتوحة والهمز والقصر ، وقرأ الزهري : [مُتَّكاً] مشدد التاءِ من غير همز ، وهي قراءَة أبي جعفر ابن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ، وقرأ الحسن : [مُتَّكَاءً] بالمدّ على إشباع الحركة . والسكين : تذكر وتؤنث ، قاله الكسائي والفراءُ(٢) ، ولم يعرف الأَصمعي إلا التذكير .

وقولها : [اُخْرُجْ] أَمرٌ ليوسف ، وأَطاعها بحسب الملك ، وقال مكي ، والمهدي : قيل : إن في الآية تقديماً وتأْخيراً في القصص ،

---

(١) البيت في الطبري واللسان والقرطبي وغيرها ، وهو غير منسوب ، والإثم : الخمر ، قاله بعضهم ، واستشهد بقول الشاعر :

شَرِبْتُ الإثْمَ حتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذاكَ الإثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُــول

والصُّواعُ : إناءٌ يُشْرب فيه ، مذكر ، وفي التنزيل ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو الإناءُ الذي كان الملك يشرب منه ، وجِهَاراً : علانية ، والمُتْك : الأُتْرُجُّ ، وسميت الأُتْرُجَّة مُتْكاً لأنها تُقطع ، ومعنى [مُسْتَعَاراً] : نتعاوره بأيْدينا نَشْتَمُّه ، قاله في اللسان . والرواية في اللسان : (المَسْك) بدلا من (المُتْك) .

(٢) وأنشد الفراءُ :

فَعَيَّثَ في السَّنام غَدَاةَ قُــرٍّ بِسِكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَــابِ

وذلك أن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها في القميص للسيد ، وباشتهار الأمر للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا محتمل إلا أنه لا يلزم من ألفاظ الآية . بل يحتمل أن كانت قصة النساء بعد قصة القميص ، وذلك أن العزيز كان قليل الغيرة ، بل قومه أجمعون ، ألا ترى أن الإنكار في وقت القميص إنما كان بأن قيل : ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ؟ وهذا يدل على قلة الغيرة ، ثم سكن الأمر بأن قال : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ وأنتِ ﴿اسْتَغْفِرِي﴾ وهي لم تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار الصحة ، فلذلك تغوفل عنها بعد ذلك ، لأن دليل القميص لم يكن قاطعاً ، وإنما كان أمارة ما ، هذا إن لم يكن المتكلم طفلا .

وقوله : [أَكْبَرْنَهُ] معناه : أعظمنه واستهولن جماله ، هذا قول الجمهور ، وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أبيه عن جَدِّه : معناه : حِضْن ، وأنشد بعض الناس حجة لهذا التأويل :

يَأْتي النِّساءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا   يَأْتي النِّساءَ إِذا أَكْبَرْنَ إِكْبَاراً[1]

(١) البيت في (اللسان) و (الطبري) و (القرطبي) بلفظ «نـأتي» ، وبعض المفسرين مثل السدي وقتادة ومقاتل يقولون : أكبرن بمعنى حِضْن ويستشهدون بالبيت على أن هذا من كلام العرب المعروف ، وبعض آخر ينكرون ذلك ومعهم اللغويون ، قال أبو عبيدة : «ليس ذلك في كلام العرب ،ولكن يجوز أن يكنَّ حضن من شدة الإعظام كما تفزع المرأة فيسقط ولدها» ،=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف ، ومعناه منكور ، والبيت مصنوع مختلق ، كذلك قال الطبري وغيره من المحققين ، وليس عبد الصمد من رُوَاة العلم ، رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أَي : أَكثرن فيها حزَّ السكاكين ، وقال عكرمة : الأَيدي هنا : الأَكمام ، وقال مجاهد : هي الجوارح وقطعنها حتى أَلقينها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فظاهر هذا أَنه بانت الأَيدي ، وذلك ضعيف من معناه ، وذلك أَن قطع العظم لا يكون إِلَّا بشدة ، ومحال أَن يسهو أَحد عنها ، والقطع على المفصل لا يتهيأُ إلا بتلطف لا بُدَّ أَن يُقصد ، والذي يشبه أَنهن حملن على أَيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المتْكِ فكان ذلك حزًّا ،

= وقال الزجاج: « يقال : أكبرنه ، ولا يقال : حِضْنه » ، وقد قَبِل بعض اللغويين هذا المعنى ، وفي (اللسان) عن أبي منصور الأزهري : « إن صحت هذه اللفظة في اللغة بمعنى « حِضْن » فلها مخرج حسن ، وذلك أن المرأة أول ما تحيض فقد خرجت من حدِّ الصغر إلى حدِّ الكبر ، فقيل لها : أَكْبَرَتْ أي حاضت ، وروي عن أبي الهيثم أنه قال: سألْتُ رجلا من طيْ‌ءٍ، فقلت: يا أخا طيءٍ ألَكَ زوجة ؟ قال : لا ، والله ما تزوجت ، وقد وُعِدْت ابنة عمٍّ لي ، قلت : وما سِنُّهَا ؟ قال : قد أكبرت أو كَبِرَت ، قلت : ما أَكْبَرَتْ ؟ قال : حاضت » . إلا أن الهاءَ في قوله سبحانه : (أَكْبَرْنَهُ) تنفي هذا المعنى ، قال بعضهم : يجوز أن تكون هاءَ الوقف لا هاءَ الكناية ،ورُدَّ بأن هذا خطأٌ ، لأن هاءَ الوقف تسقط في الوصل ، وأَمْثَلُ منه قول ابن الأنباري : « إن الهاءَ كناية عن مصدر الفعل ، أي : أَكْبَرْنَ إِكْبَاراً ، بمعنى : حِضْنَ حيْضاً » .

وهذا قول الجماعة ، وضوعفت الطاءُ في [قَطَّعْن] لكثرتهن وكثرة الحزِّ ، فربما كان مرارا .

وقرأ أَبو عمرو وحده : ﴿حَاشَا لِلَّهِ﴾ بأَلف [1] ، وقرأ أُبيٌّ وابن مسعود : ﴿حَاش اللهِ﴾[2] ، وقرأ سائر السبعة : ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾[3] ، وفرقة : ﴿حَشَى لِلَّهِ﴾[4] ، وهي لغة ، وقرأ الحسن : ﴿حاشْ لِلَّهِ﴾ بسكون الشين[5] ، وهي ضعيفة ، وقرأ الحسن أَيضاً : ﴿حَاشَ ٱلإِلٰهُ﴾ محذوفاً من «حاشَى» . فأَما «حَاشَ» فهي حيث جرت حرفٌ معناه الاستثناءُ ، كذا قال سيبويه ، وقد ينصب به ، تقول : «حاشَ زيدٌ وحاشَ زيداً» ، قال المبرد : النصب أَولى إِذْ قد صحَّ أَنها فعلٌ بقولهم : «حاشَ لِزَيْد» ، والحرف لا يحذف منه .

---

(١) قال في «البحر المحيط» : «بغير ألف ولام الجر» .

(٢) في المحتسب (١-٣٤١) : (حَاشَا اللهِ) ، وكتب مُعَلِّقُه في الهامش : «وفي البحر ٥-٣٠٣ (حَاشَى اللهِ) بالإضافة» ، فتأمل . وعلّق ابن جنّي على هذه القراءة بقوله : «هي على أصل اللفظة ، وهي حرف جرٍّ» ، واستشهد على كلامه بقول أبي جُمَيْح :

حَـــاشَى أبي ثَوْبَـــانَ إنَّ بِهِ ضِنّاً على المَلْحَـــاةِ والشَّتْم

(٣) أي بغير ألف بعد الشين وبلام الجر في لفظ الجلالة .

(٤) قال أبو حيان في «البحر المحيط» : «على وزْن رَمَى وبلام الجر» . وقال : ومن الفرقة الأعمش .

(٥) عبارة البحر : «وقرأ الحسن (حَاشْ) بسكون الشين وصلا ووقفاً بلام الجر . وعلّق عليها ابن جنّي بقوله : وهذا ضعيف من موضعين : أحدهما التقاءُ الساكنين : الألف والشين ، وليست الشين مدغمة ، والآخر : إسكان الشين بعد حذف الألف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يُخْفَض به لا غير ، وأن الفعل هو الذي يُنصب به ، فهذه اللفظة تستعمل فعلا وحرفاً ، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فَاعَل ، وذلك في قراءة من قرأ : ﴿حَاشَى للهِ﴾[١] ، معناه مأخوذ من معنى الحرف وهو إزالة الشيءِ عن معنى مقرون به ، وهذا الفعل مأخوذ من «الْحَشَى» ، أي : هذا في حشى وهذا في حشى ، ومن ذلك قول الشاعر :

يقُولُ الَّذي يَمْشي إلى الْحِرْزِ أَهْلُهُ   بأَيِّ الْحَشَى صارَ الْخَلِيطُ الْمُبَايِنُ؟[٢]

ومنه الحاشية ، كأنها مباينة لسائر ما هي له ، ومن المواضع التي «حَاشَى» فيها فعلٌ هذه الآية ، يدلُّ على ذلك دخولُها على حرف الجر ، والحروف لا يدخل بعضها على بعض ، ويدلُّ على ذلك حذف الياءِ منها في قراءَة الباقين : [حَاشَ] على نحو حذفهم من : «لا أُبَالِ» و «لا أَدْرِ» و «لَوْ تَرَ» ، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف

---

(١) أصح القراءات في هذه الكلمة قراءتان : الأولى قراءة الكوفيين : ﴿حَاشَ لِلهِ﴾ بفتح الشين وحذف الياء ، والثانية قراءة بعض البصريين : ﴿حَاشَى لِلهِ﴾ بإثبات الياء ، قال ذلك الطبري . وعلى هذا يمكن فهم الكثير من كلام ابن عطية ، فهو هنا يشير إلى قراءة البصريين .

(٢) البيت للمُعطَّل الهُذَليّ ، قال ذلك في التاج ، وفي اللسان ، والرواية فيهما :

يقولُ الذي أمْسَى إلى الحَزْنِ أهْلُــه   بأيِّ الحَشَى أمْسَى الخَليطُ المُبَايِنُ ؟

ومعنى «الحشى» : الناحية .

مثل : «لَعَلَّ» فيحذف وتَرْجع «عَلَّ» ، ويُعْتَرض في هذا الشرط بـ «مُنْذُ» و «مُذْ» فإنه حذف دون تضعيف ، فتأمله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن ذلك في حديث خالد يوم مُؤْتة : «فَحَاشَى بالناس» . فمعنى ﴿حَاشَ للهِ﴾ ها هنا : حاش يوسف لطاعته لله ، أو لمكانه من الله ، أو لترفيع الله له أن يُرمَى بما رَمَيْتِهِ به [١] أو يُدْعى [٢] إلى مثله ، لأن تلك أفعال البشر وهو ليس منهم ، إنما هو مَلَكٌ ، هكذا رتَّب أبو عليٍّ الفارسي معنى هذا الكلام على هاتين القراءتين اللَّتين في السَّبْع [٣] ، وأما قراءة أُبيٍّ بن كعب ، وابن مسعود فعَلى أن (حَاشَ) حرف استثناءٍ ، كما قال الشاعر :

حـــاشَى أَبي ثَوْبَـــانَ إنَّ بِهِ ... ضِنًّا على الملْحَـــاةِ والشَّتْم [٤]

---

(١) كأن الكلام مُوجَّه من النِّسوة لامرأة العزيز ، فالمعنى : رفعه الله أن يرميه أحد بما رَمَيْتِهِ به يا زَليخا .

(٢) في بعض النسخ : أو «يُذْعِنَ» من الإذعان ، والمعنى على اللفظتين وارد ومناسب .

(٣) يريد قراءة بعض البصريين ﴿حَاشَى لِلهِ﴾ بإثبات الياء ، وقراءة الكوفيين : ﴿حَاشَ لِلهِ﴾ بحذف الياء .

(٤) يروى «أبا» مكان أبي ، والبيت في الحقيقة من بيتين ، ركَّبوا فيه صدر بيت على عجز بيت آخر ، قال ذلك في «البحر المحيط» والبيتان هما :

حَاشَى أَبِي ثَوْبَانَ إنَّ أَبَـــا ... ثَوبان لَيْسَ بِبُكْمَـــةٍ فَـدْمْ

عَمْرو بن عَبْدِ اللهِ إنَّ بِـــهِ ... ضَنّاً عن الْمَلْحَـــاةِ والشَّتْـم

أراد بالبُكْمَةِ : الأبْكَم ، والفَدْم : العَيِيُّ عن الكلام في ثِقَلٍ فهم ، والضِّنُّ بالكسر =

وتسكين الشين في إحدى قراءَتيْ الحسن ضعيف ، جمع بين ساكنين ، وقراءَته الثانية محذوفة الأَلف من (حَاشَى) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتشبيه بالمَلَك هو من قَبِيل التشبيه بالمستعظمات وإن كانت لا تُرى . وقرأ أَبو الحويرث الحنفي ، والحسن : ﴿مَا هَذَا بِشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾ بكسر اللام في [مَلِك] ، وعلى هذه القراءَة فالكلام فصيح ، لمَّا استعظمن حسن صورته قلن : ما يصلح أَن يكون هذا عبداً بشراً ، إنما يصلح أَن يكون مَلِكاً كريماً . ونصب [بَشَراً] على لغة الحجاز ، شبهت [ما] بـ «ليس» ، وأَما تميم فترفع ، ولم يُقرأْ به (١) .

ورُوي أَن يوسف عليه السلام أُعطي ثلث الحُسن ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه أُعطي نصف الحُسن ، ففي بعض الأَسانيد هو وأُمه ، وفي بعضها هو وسارة جَدَّة أَبيه (٢) .

= والفتح : مصدر ضَنَّ ، والمَلْحَاة : المنازعة والخصام . والبيت منسوب لِسَبُرة بن عمرو الأسدي في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ، وفي «المفضليات» و «الأصمعيات» إلى الجميح ، (وقيل : الجميع) ، واسمه : منقذ بن الطماح الأسدي ، ونسبه في (اللسان) إلى سبرة ، والرواية فيه : (حاشَى أبي مَرْوَانَ...) والشاعر يمدح أبا ثوبان بأنه ليس عيِيّاً ولا غبيا ، وهو يترفع عن الخصومة والنزاع .

(١) قال الزمخشري : «ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ (بَشَرٌ) بالرفع ، وهي قراءة ابن مسعود» .

(٢) أخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه، والحاكم عن أنس =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على جهة التمثيل ، أي : لو كان الحسن مما يقسم لكان حُسْن يوسف يقع في نصفه ، فالقصد أن يقع في نفس السامع عظم حُسْنه ، على نحو التشبيه برءُوس الشياطين وأنياب الأغوال [١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

=رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُعطي يوسف وأُمه شطر الحُسْن) ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه قال : « قسم الله الحُسْن نصفين ، فجعل ليوسف وسارة النصف ، وقسم النصف الآخر بين سائر الناس » (الدر المنثور) .

(١) معنى كلام ابن عطية أن الناس تُشَبِّه برءُوس الشياطين وبأنياب الأغوال في مواقف التقبيح أو التهويل مع أنها لم تر الشياطين ولا الأغوال ، وكذلك كان تشبيه يوسف بالمَلَك في الحسن على سبيل الظن بأن صورة المَلَك أحسن ، مع أن النسوة لم يرين المَلَك ، وهذا مألوف ودارج عن الألسنة .

قال الطبريُّ : المعنى : فهذا الذي لُمْتُنَّني فيه ، أي : هذا الذي قطعتن أَيديكن بسببه هو الذي جعلتني ضالَّة في هواه ، والضمير عائد على يوسف في [فيهِ] ، ويجوز أَن تكون الإشارة إلى حُبِّ يوسف والضمير عائد على الحب ، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه .

ثم أَقَرَّت امرأَة العزيز للنسوة بالمراودة ، واستأْمَنَت[١] إليهن في ذلك إذ قد علمت أَنهن قد عَذَرْنها ، و [ٱسْتَعْصَمَ] معناه : طلَب العصمة وتمسَّك بها وعصاني ، ثم جعلت تتوعده - وهو يسمع - بقولها : ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ...﴾ إلى آخر الآية .

واللام في قوله : [لَيُسْجَنَنَّ] لام القسم ، واللام الأُولى[٢] هي المؤذنة بمجيء القسم ، والنون هي الثقيلة والوقوف عليها بِشَدِّها ، و [لَيَكُوناً] نونه هي النون الخفيفة ، والوقف عليها بالأَلف ، وهي مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿لَنَسْفَعاً﴾[٣] ، ومثلها قول الأَعشى :

وصَلِّ عَلَى حين الْعَشِيَّاتِ والضُّحَى ولا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ واللهَ فاعبدا[٤]

---

(١) تأتي « استأمن » بمعنى « ائتمَن » ، والمراد أنها اطمأنت إليهن وظنت أنهن سيحفظن سرَّها ، وفي بعض النسخ « استنامت » بمعنى : سكنت سكون النائم ، وهذا لا يفعله إلا المطمئن .

(٢) هي التي في قوله : [وَلَئِن] .

(٣) من قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة (العَلَق) : ﴿كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بالنَّاصِيَةِ﴾ .

(٤) البيت للأعشى الأكبر ميمون بن قيس ، والبيت كما رواه ابن عطية نقلا عن الطبري مركب من بيتين ، وهما كما في الديوان : =

أراد: فاعْبُدَنْ . وقرأت فرقة: [وَلِيَكُونَنَّ] بالنون الشديدة ، والصاغرون : الأَذلَّاءُ الذين لَحِقَهم الصَّغار .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ . رُوي أنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة : «أَطِـع مولاتك ، وافعل ما أمرتك به» ، فلذلك قال : ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ، قال نحوه الحَسَن ، ووزن «يدعون» في هذه الآية : يفْعُلْن ، بخلاف قولك : «الرجال يدعون» .

وقرأ الجمهور : [ٱلسِّجْنُ] بكسر السين ، وهو الاسم . وقرأ الزهري ، وابن هرمز ، ويعقوب ، وابن أبي إسحٰق : [ٱلسَّجْنُ] بفتح السين ، وهي قراءة عثمان رضي الله عنه وطارق مولاه ، وهو المصدر ، وهو كقولك : الجِذْع والجَذْع .

وقوله : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي ...﴾ إلى آخر الآية ، استسلام لله تبارك وتعالى ، ورغبة إليه ، وتوكل عليه ، المعنى : وإنْ لم تُنْجِني أَنْت هلكتُ ، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله ، والضمير في [إِلَيْهِ] عائد على الفاحشة المعنية بـ[مَا] في قوله : [مِمَّا] . و [أَصْبُ] مأْخوذ من

= وَذَا النُّصُبَ المَنْصُوبَ لا تَنْسُكَنَّهُ ولا تَعْبُدِ الأَوْثَانَ ، واللهَ فاعْبُدا
وصَلِّ عَلَى حِينِ العَشِيَّاتِ والضُّحَى ولا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ ، واللهَ فاحْمَدَا

وهما من قصيدة له يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِض عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وعَادَكَ ما عَادَ السَّلِيمَ المُسَهَّدَا

الصَّبْوَة ، وهي أَفعال الصِّبا ، ومن ذلك قول الشاعر ـ أَنشده الطبري ـ :

إلى هِنْـــدٍ صبَـــا قَلْبِـــي وهِنْدٌ مِثْلُهَـــا يُصْبِـــي (١)

ومن ذلك قول دُرَيْد بن الصمة :

صَبَا ماصَبا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قال لِلْبَاطِلِ : ابْعُدِ (٢)

والجاهلون : هم الذين لا يراعون حدود الله تعالى ونواهيه (٣) .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ الآية . قول يوسف عليه السلام : ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ إلى قوله : ﴿مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ كلام يتضمن التشكي إلى الله عزَّ وجلَّ من حاله معهن ، والدعاءَ إليه في كشف بلواه ، فلذلك قال ـ بعد مقالة يوسف ـ : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ ، أَي : أَجابه إلى إرادته ، وصرف عنه كيدهن في أَن حالَ بينه وبين المعصية . وقوله : ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صفتان لائقتان بقوله : [فَاسْتَجَابَ] .

---

(١) البيت لزيد بن ضَبَّة ، وهو من شواهد أَبي عبيدة في « مجاز القرآن » . وكذلك ذكره في (اللسان ـ صبَا) قال : « يقال : صَباً إلى اللهو صَبَا وصُبُوّاً وصَبْوَةً . قال زيد ابنُ ضَبَّةَ : إلى هند ... البيت » .

(٢) قال دُرَيْد هذا البيت من قصيدة يرثي فيها أخاه ابن أُمه ، وهي أَفضل شعره لما فيها من معان إنسانية ، ولما فيها من شجو غنائي يغمر الأفكار والصور بغلالة رقيقة من الوجدان الحزين ، يقول عن أخيه : إنه تعاطى اللهو واللعب في صباه ، فلما اكتهل وظهر الشيب في رأسه ارعوى وأَبعد الباطل عن فكره ونفسه ، ومع أن القصيدة في رثاءٍ صادق حزين فإن الشاعر بدأها بغزل رقيق قصير ، قال :

أَرَثَّ جديدُ الْحَبْلِ مِنْ أُم مَعْبَدِ بِعَاقِبَةٍ أَمْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ؟

(٣) وذلك لأنهم لا يعملون بما يعلمون ، ومن لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواءٌ ، وقد يكون من الجهل بمعنى السَّفَهِ ، لأن الوقوع في مواقعة النساء والميل إليهن سفاهة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

لما أَبى يوسف المعصية ويئست منه امرأة العزيز طالبته بأَن قالت لزوجها : إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس ، وهو يعتذر إليهم ويصف الأَمر بحسب اختياره ، وأنا محبوسة محجوبة ، فإمَّا أَذنت لي فخرجتُ إلى الناس فاعتذرت وكذبته ، وإمَّا حبسته كما أَنا محبوسة ، فحينئذ بدا لهم سجنه . قال ابن عباس : فأُمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطبل ، ونودي عليه في أَسواق مصر : إن يوسف العبراني أَراد سيدته ، فهذا جزاؤُه أَن يسجن ، قال أَبو صالح : ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكي .

و [بَدَا] معناه : ظهر ، والفاعل بـ [بَدَا] محذوف تقديره : بدْوٌ ، أَو رأْي (١) ، وجُمع الضمير في [لَهُمْ] والساجن الملكُ وحده من حيث

(١) قال في « البحر » : التقدير : بدا لهم هو ، أي : رأْيٌ أو بداءٌ ، كما قال :

بَدَا لَكَ مِنْ تِلْكَ الْقَلُوصِ بَدَاءُ

=

كان في الأَمر تشاور ، و [يَسْجُنُنَّهُ] جملة دخلت عليها لام القسم ، ولا يجوز أَن يكون الفاعل بـ [بَدَا] [لَيَسْجُنُنَّهُ] لأَن الفاعل لا يكون جملة بوجه ، هذا صريح مذهب سيبويه ، وقيل : الفاعل : [لَيَسْجُنُنَّهُ] ، وهو خطأٌ ، وإِنما هو مفسِّر للفاعل .

و [الآيات] ذكر فيها أَهل التفسير أَنها قَدُّ القميص - قاله مجاهد وغيره - وخمش الوجه الذي كان مع قَدِّ القميص - قاله عكرمة - وحزُّ النساءِ أَيديهن ، قاله السدي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومقصد الكلام إِنما هو أَنهم رأَوا سجنه بعد بدو الآيات المبرئة له من التهمة ، فهكذا تبيَّن ظلمهم له ، وخمشُ الوجه وحزُّ النساءِ أَيديهن ليس فيهما تبرية ليوسف ، ولا تتصور تبرية إِلا في خبر القميص ، فإِن كان المتكلم طفلا - على ما روي - فهي آية عظيمة ، وإِن كان رجلا فهي آية فيها استدلالٌ ما ، والعادة أَنه لا يُعَبَّر بآية إِلا فيما ظهوره في غاية الوضوح ، وقد تقع «الآيات» أَيضاً على «المبينات» كانت في أَي حدّ اتفق من الوضوح ، ويحتمل أَن يكون قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآياتِ﴾ أَي : من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأَمر

= وقال القرطبي : وهو مصدر الفعل ، وقد حذف لأن الفعل يدل عليه ، كما قال الشاعر :

وحَقَّ لِمَنْ أبو موسى أَبُوهُ   يُوَفِّقه الذي نَصبَ الجِبَالا

أي : وحقّ الحقُّ . فحذف .

وقرائنه أن يوسف بريءٌ ، فلم يرد تعيين آية ، بل قرائن جميع القصة .

و « الحين » في كلام العرب وفي هذه الآية : الوقت من الزمن غير محدود ، يقع للقليل والكثير ، وذلك بيِّن من موارده في القرآن ، وقال عكرمة : الحين هنا يراد به سبعة أعوام ، وقيل : بل يراد بذلك سنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف ـ وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا يقرأ « عَتَّى حِين » بالعين ـ وهي لغة هذيل ـ فقال له : من أَقرأَك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب عمر إلى ابن مسعود : « إن الله أَنزل القرآن عربيًّا بلغة قريش ، فبها أَقْرِئ الناس ، ولا تقرئهم بلغة هذيل » . ورُوي عن ابن عباس أَنه قال : « عَثَر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات : هَمَّ فسُجن ، وقال : اذكرني عند رَبِّكَ فأَنساه الشيطان ذكر ربِّه فطول سجنه ، وقال : إنكم لسارقون ، فروجع : إن يسرق فقد سَرَق أَخٌ له مِن قبل » .

وقوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ﴾ الآية . المعنى : فسجنوه فدخل معه السجن غلامان أيضاً ، وهذه « مع » تحتمل أَن تكون باقتران وقت الدخول ، وأَلا تكون بل دخلوا أفذاذاً[1] ، وروي أَنهما كانا

(١) أي : أفراداً ، وهو جمع فَذ .

للملك الأَعظم ، الوليد بن الريان ، أَحدهما : خبَّازه ، والآخر : ساقِيه .

والفتى : الشابُّ ، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر ، ويحتمل أَن يتصف هذان بجميع ذلك ، واللفظة من ذوات الياءِ ، وقولهم : « الفُتُوَّة » : شاذٌّ ، وروي أَن الملك اتَّهمهما بأَن الخابز منهما أَراد سمَّه ، ووافقه على ذلك الساقي فسجنهما ، قاله السدي ، فلما دخل يوسف السجن استمال الناسَ فيه بحسن حديثه وفضله ونبله ، وكان يسلِّي حزينهم ، ويعود مريضهم ، ويسأَل لفقيرهم ، ويندبهم إلى الخير ، فأَحبَّه الفتَيَان ولزماه ، وأَحبه صاحب السجن والقيِّم عليه ، وقال له : كن في أَي البيوت شئت ، فقال له يوسف : لا تُحِبَّني يرحمك الله ، فلقد أَدخلت عليَّ المحبةُ مضرات : أَحبتني عمتي فامتحنت لمحبتها ، وأَحبني أَبي فامتحنت لمحبته لي ، وأَحبتني امرأَة العزيز فامتحنت لمحبتها بما ترى ، وكان يوسف عليه السلام قد قال لأَهل السجن : إني أَعْبُر الرؤْيا وأُجيد ، فروي عن ابن مسعود أَن الفَتَيَيْن استعملا هذين المنَامَيْن ليجرباه ، وروي عن مجاهد أَنهما رأَيا ذلك حقيقة فأَرادا سؤاله ، فقال أَحدهما واسمه « نبو » فيما رُوي [1] :

(١) في تفسير الطبري اثبتت « نبو » بتقديم النون على الباء ، وفي تفسير القرطبي « نبوه » بزيادة هاءٍ .

إني رأيت حَبَلــة[(١)] من كــرْم لها ثلاثة أغصان حســـان ، فيها عناقيد عنب حسان ، فكنت أعصرها وأسقي الملك ، وقال الآخر واسمه «مجلث» : كنت أرى أني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأْسي ثلاث سلال فيها خبز والطير تـأْكل من أعلاه .

وقوله : ﴿أَعْصِرُ خَمْراً﴾ قيل : إنه سمَّى العنب خمراً بالمآل ، وقيل : هي لغة أَزد عمان ، يسمون العنب. خمرا ، وقال الأَصمعي : حدثني المعتمر قال : لقيت أَعرابياً يحمل عنباً في وعاءٍ ، فقلت : ما تحمل ؟ قال : خمراً ، أَراد العنب . وفي قراءَة أُبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود «إنِّي أَراني أَعْصِرُ عِنَباً»[(٢)] ، ويجوز أَن يكون وصف الخمر بـأَنها معصورة ، إذ العصر لها ومِنْ أَجلها .

وقوله : [خُبْزاً] يروى أَنه رأَى ثريداً فوق رأْسه ، وفي مصحف ابن مسعود : «فوقَ رأْسي ثريداً تـأْكلُ الطَّيْر منه» .

---

(١) الحـَبَلة بفتح الحاء والباء ، وربما جاءت الباءُ ساكنة : القضيب من الكرم ، والجمع حـَبَل ، وفي «النهاية» : أُمُّ العنب ، وفي الحديث : (لا تقولوا : العنب الكرم ، ولكن قولوا : العنب الحـَبَلة) .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني : «هذه القراءة هي مراد قراءة الجماعة : ﴿إنِّي أَرَانِـي أعْصِرُ خـَمْراً﴾، وذلك أن المعصور حينئذ هو العنب ، فسماه خمراً لما يصير إليه من بعد حكايةً لحاله المستأنفة ، كقول الشاعر — يريد أبا المهوش الأسدي ، أو يزيد بن عمر بن الصَّعِق — :

إذا ما ماتَ مَيْتٌ مِن تميـــــــمٍ فَسَرَّكَ أنْ يَعيش فجىءْ بِــــزَادِ

يريد : إذا مات حيٌّ فصار ميتا كان كذا ، أو فليكن كذا .

وقوله : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال الجمهور : يريدان : في العلم ، وقال الضحاك وقتادة : المعنى من المحسنين في عِشْرته مع أهل السجن وإجماله معهم ، وقيل : أرادا إخباره أنهما يريان له إحساناً عليهما ويَداً إذا تأول لهما ما رأياه ، ونحا إليه ابن إسحٰق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

روي عن السدي وابن إسحٰق أن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامة رائي الخبز وأنها تؤذن بقتله ذهب إلى غير ذلك من الحديث عسى ألا يطالباه بالتعبير ، فقال لهما ـ مُعَلِّماً بعظيم علمه بالتعبير ـ : إنه لا يجيئكما طعام في نومكما تريان أنكما رُزِقْتماه إلا أعلمتكما بتأْويل ذلك الطعام ، أَي : بما يَؤُول إليه أَمْره في اليقظة قبل أن يظهر ذلك التأْويل الذي أُعْلِمَكُما به ، فروي أنهما قالا :

ومن أَين لك ما تدَّعيه من العلم وأَنت لست بكاهن ولا منجم ؟ فقال لهما : ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ، ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لهما الإِيمان بالله ، فروي أَنه قصد في ذلك وجهين : أَحدهما : تنسيتهما أَمْر تعبير ما سأَلا عنه ، إِذْ في ذلك النذارة بقتل أَحدهما ، والآخر : الطماعية في إِيمانهما ، ليأْخذ المقتول بحظه من الإِيمان وتسلم له آخرته ، وقال ابن جريج : أَراد يوسف عليه السلام : لا يأْتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إِلا نبأْتكما منه بعلم ، وبما يؤول إِليه أَمركما قبل أَن يأْتيكما ذلك المآل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فعلى هذا إِنما أَعلمهم[١] بأَنه يعلم مغيبات لا تَعَلُّق لها برؤْيا ، وقصد بذلك أَحد الوجهين المتقدمين ، وهذا على ما رُوي أَنه نُبِّىءَ في السجن ، فإِخباره كإِخبار عيسى عليه السلام . وقال ابن جريج : كانت عادة ذلك الملك إِذا أَراد قتل أَحد ممن في سجنه بعث إِليه طعاماً يجعله علامة لقتله .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إِسناد .

(١) لعله أَراد أَن خطابه كان لِلْفَتَيَيْن وصاحب السجن وكل من فيه ، ولذا عبَّر عنهم بضمير الجمع .

وقوله : [تَرَكْتُ] مع أَنه لم يتشبث بها – جائز صحيح ، وذلك أنه عبَّر عن تجنبه من أَول بالترك ، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أَن يتوكأَ الترك الحقيقي الذي هو بَعْدَ الأَخذ في الشيءِ ، والقوم المتروك مِلَّتهم : الملِك وأَتباعه ، وكرر قوله : [هُمْ] على جهة التأْكيد ، وحسن ذلك للفاصلة التي بينهما .

وقوله : [وَٱتَّبَعْتُ] الآية . تمادٍ من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملَّة الحنيفة ، وزوال مواجهة «مجلث» بما تقتضيه رؤْياه . وقرأَ [آبائي] بالإِسكان في الياءِ ، الأَشهبُ العقيلي وأَبو عمرو ، وقرأَ الجمهور : [آبائــيَ] بياءٍ مفتوحة ، قال أَبو حاتم : هما حسنتان فاقرأْ كيف شئت ، وأَما طرح الهمزة فلا يجوز ، ولكن تخفيفها جيد ، فتصير ياءً مكسورة بعدها ياءٌ ساكنة أَو مفتوحة .

وقوله : [ذَلِكَ] إشارة إلى ملَّتهم وشرعهم ، وكون ذلك فضلا عليهم بيِّن ، إِذْ خصَّهم الله تعالى بذلك ، وجعلهم أَنبياءَ ، وكونه فضلا على الناس هو إِذْ يدعون به إلى الدين ، ويساقون إلى النجاة من عذاب الله عزَّ وجلَّ . وقوله : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ هي (من) الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد ، وقوله : ﴿لا يَشْكُرُونَ﴾ يريد الشُّكْر التَّام الذي فيه الإِيمان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وصْفُه لهما بـ ﴿ صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ﴾ هو : إمَّا على أَنْ يَنْسُبهما بصحبتهما للسجن من حيث سكناه ، كما قال تعالى : ﴿ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ ﴾[1] ، و ﴿ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[2] ، ونحو هذا ، وإما أَن يريد صُحْبَتَهُما له في السجن ، فأَضافهما إلى السجن لذلك ، كأَنه قال : يا صاحبيَّ في السجن ، وهذا كما قيل في الكفار : إن الأَصنام شركاؤُهم . وعَرْضُه

(١) من قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (الأعراف) : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ ــ وتكررت في قوله تعالى في الآية (٢٠) من سورة (الحشر) : ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

(٢) من الآية (١١٩ من سورة البقرة) ، وتكررت في الآيات (١٠ ، ٨٦ ــ المائدة) و (١١٣ ــ التوبة) و (٥١ ــ الحج) و (١٩ ــ الحديد) .

عليهما بُطُولَ أَمْر الأَوْثان بأَن وصفها بالتفرق [١] ، وَوَصْفُ الله تعالى بالوحدة والقهر ـ تلطُّفٌ حسن وأَخذٌ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته ، وهكذا الوجه في مُحاجَّة الجاهل ، أَن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أُخرى فوقها ، ثم كذلك أَبداً حتى يصل إلى الحق ، وإن أُخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إليه دفعةً أَبَاهُ للحين وعانده ، وقد ابتلي بأَرباب متفرقين من يخدم أَبناءَ الدنيا ويؤملهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾ ، ذهب بعض المتكلمين إلى أَنه أَوقع في هذه الآية الأَسماءَ على المسميات وعبَّر عنها بها إذ هي ذوات أَسماءٍ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والاسم الذي هو : (أَلف وسين وميم) قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين ، فإن حُملت الآية على ذلك صحَّ المعنى ، وليس الاسم ـ على هذا ـ بمنزلة التسمية التي هي : رجلٌ وحجر ، وإن أُريد بهذه الأَسماءِ التي في الآية أَسماءُ الأَصنام التي هي بمنزلة

---

(١) بُطُول: مصدر الفعل (بَطَل) ، والمعنى المراد أنه عرض على الفتَيَيْن بطلان أمْر الأوثان بأن وصفها بالتفرق في قوله : ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ ، وقد يضاف إلى التفرق دليلا على بطلان أمرها التَّعددُ أيضاً ، فقد قال عنها [أرْباب] بصيغة الجمع ، وكذلك هذا الاستفهام الإنكاري أو التقريري إلى جانب ما وصف به الله سبحانه وتعالى من الوحدة والقهر إزاء تعددها وتفرقها . و (تَلَطُّفٌ حَسَنٌ) هو جواب المبتدأ (عَرْضُهُ).

اللات والعزي ونحو ذلك من تسميتها آلهة ، فيحتمل أن يريد : إلَّا ذوات أَسماءٍ ، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . ويحتمل ـ وهو الراجح المختار إن شاءَ الله ـ أَن يريد : ما تعبدون من دونه أُلوهية ، ولا لكم تعلق بإِلٰه إلا بحسب أَن سميتم أَصنامكم آلهة ، فليست عبادتكم لإِلٰه إلا باسم فقط لا بالحقيقة ، وأَما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواءٌ ، فإنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم ، فذلك هو معبودكم إذا حُصِّل أَمركم ، فعبّر عن هذا المعنى باللفظ المسرود في الآية . ومن هذه الآية وَهِمَ من قال «في قولنا : رجل وحجر» : إن الاسم هو المسمى في كل حال ، وقد بانت هذه المسأَلة في صدر التعليق .

ومفعول «سمَّيْتُمْ» الثاني محذوف ، تقديره : آلهةً ، هذا على أَن الأَسماءَ يراد بها ذوات الأَصنام ، وأَما على المعنى المختار من أَن عبادتهم إنما هي لمَعَان تعطيها الأَسماءُ وليست موجودة في الأَصنام ـ فقوله : [سَمَّيْتُمُوهَا] بمنزلة : وضعتموها ، فالضمير للتسميات ، وأَكد الضمير ليعطف عليه .

والسلطان : الحُجَّةُ ، وقوله : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَي : ليس لأَصنامكم التي سميتموها آلهة من الحكم والأَقدار والأَرزاق شيءٌ ، أَي : فما بالها إذن ؟ ويحتمل أَن يريد الردَّ على حُكْمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالى ، وليس لهم تعدي أَمْر الله في أَلا يُعبد غَيرُه .

و [ٱلْقَيِّم] معناه : المستقيم ، و ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاس لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهالتهم وغلبة الكفر .

ثم نادى ﴿يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ ثانية لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب ، فروي أنه قال لنبو : أَمَّا أَنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك ، وقال لمجلث : أما أَنت فتصلب ، وذلك كله بعد ثلاث ، فروي أَنهما قالا له : ما رأَينا شيئاً وإنما تحالمنا لنجربك ، ورُوي أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب ، وقيل : كانا رأَيا ثم أَنكرا .

وقرأَت فرقة : ﴿فَيَسْقِـي رَبَّهُ﴾ من سَقَى ، وقرأَت فرقة : [فَيُسْقِى] من أَسقى ، وهما لغتان لمعنى واحد [١] . وقرأَ عكرمة ، والجحدري : [فَيُسْقَى] بضم الياءِ وفتح القاف ، أَي : ما يُرويه [٢] . وأَخبرهما يوسف عليه السلام – عن غيب عَلِمَهُ من قبل الله تعالى – أَن الأَمر قد قضي ووافق القدر .

وقوله : ﴿وقَالَ لِلَّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ الآية . الظن ها هنا بمعنى اليقين ، لأَن ما تقدم من قوله : ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ يلزم ذلك ، وهو

---

(١) وقد جمع بينهما لبيد في قوله :

سَقَى قَوْمِي بني مَجْدٍ وأَسْقَى نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ

وفاعل (سقى) ضمير المطر ، و (مَجْد) هي ابنة تيم بن غالب بن فهد ، وهي أُم كلاب وكليب بني ربيعة .

(٢) قال ابن جني عن هذه القراءة : « هذا في الخير يضاهي في الشر قوله : (فَيُصْلَب) ، لأن تلك نعمة وهي نقمة . (المحتسب) » .

يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود ، وقال قتادة : الظن هنا على بابه لأن عبارة الرؤيا ظن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقول يوسف عليه السلام : ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ دالٌّ على وحي ، ولا يترتب قول قتادة إلا بأن يكون معنى قوله : ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ ، أي : قضي كلامي وقلت ما عندي والله أعلم بما يكون بعد .

وفي الآية تأويل آخر ، وهو أن يكون [ظَنَّ] مسنداً إلى الذي قيل له : إنه يسقي ربَّه خمراً ، لأنه دخلته أُبَّهَةُ السرور بما بُشِّر به ، وصار في رتبة من يؤمل حين ظنَّ وغلب على معتقده أنه ناج ، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المُعَرَّف بالصلب .

ومعنى الآية : قال يوسف لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأُولى مع الملك : اذكرني عند الملك ، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته ، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق ، أو يذكره بهما .

والضمير في [أَنْسَاهُ] قيل : هو عائد على يوسف عليه السلام [١] ، أي : نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله ، وجنح إلى الاعتصام

---

(١) النسيان غير جائز على الأنبياء في أمور الشريعة ، وأما في أمور الدنيا فهو جائز إذا أخبر الله عنهم ، أما نحن فلا يجوز لنا أن نصفهم به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون) ، وقال : (نسي آدم فنسيت ذريته) ، ذكر ذلك القرطبي .

بمخلوق ، فروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عزّ وجلّ في ذلك ، وطوّل سجنه عقوبة على ذلك ، وقيل : أُوحي إليه : يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لأُطيلن حبسك ، وقيل : إن الضمير في [أَنْسَاهُ] عائد على الساقي ، قاله ابن إسحٰق ، أَي : نسي ذكر يوسف عند ربّه ، فأَضاف الذكر إلى ربِّه إذْ هو عنده ، والربُّ ـ على هذا التأْويل : الملك (١) .

والبضع في كلام العرب اختلف فيه ـ فالأَكثر على أَنه من الثلاثة إلى العشرة ، قاله ابن عباس . وعلى هذا هو فقه مالك رحمه الله في الدعاوي والإيمان ، وقال أَبو عبيدة : البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد ، وإنما هو من الواحد إلى الأَربعة ، وقال الأَخفش : البضع من الواحد إلى العشرة ، وقال قتادة : البضع من الثلاثة إلى التسعة ، ويقوي هذا ما رُوي من أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأَبي بكر الصديق في قصة خَطَره (٢) مع قريش في غلبة الروم لفارس : (أَما علمت أَن البضع من الثلاث إلى التسع) (٣) ، وقال مجاهد : من الثلاثة إلى السبعة .

---

(١) إطلاق الربِّ على السيد أو الملك معروف في اللغة ، قال الأعشى :

ربِّي كريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمَـــةً وإذا تُنُوشِدَ في المهَارقِ أَنْشَـــدَا

ومعنى (تُنُوشِد) : نُوشد ودُعي ، والمهارق : الصحف والواحدة مَهْرَق ، يقول : إذا سُئِل أعْطَى .

(٢) الخَطَر بفتح الخاء والطاء : النصيب والرهان ، وفي حديث عُمَر في قسمة وادي القُرى : (وكان لعثمان فيه خَطَر ، ولعبد الرحمن خَطَر) أي نصيب . (المعجم الوسيط) .

(٣) قصة مراهنة أبي بكر رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم مشهورة معروفة ، إذ كان المسلمون يُحبون غلبة الروم على فارس لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب =

قال الفراءُ : ولا يذكر البضع إلا مع العشرات ، لا يذكر مع مائة ولا مع ألف ، والذي روي في هذه الآية أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين ، ثم نزلت له قصة الفَتَيَيْن ، وعوقب على قوله : ﴿ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بالبقاءِ في السجن سبع سنين ، فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة ، وقيل : عوقب ببقاءِ سنتين ، وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لولا كلمته ما لبث في السجن طول مالبث)، ثم بكى الحسن وقال : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

= ذلك لأنهم وأهل فارس لا يؤمنون بكتاب ولا بالبعث ، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية ، وثلاث سنين على رواية أُخرى ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (اذهب فزائد في الخطر ومادد في الأجل) ، وكان ذلك قبل تحريم الرهان ، راجع صحيح الترمذي في تفسير أول سورة الروم .

(١) أخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (رحم الله يوسف لولا ... الحديث) . (الدر المنثور) .

المعنى : وقال الملك الأعظم : ﴿إِنِّي أَرَى﴾ يريد : في منامه ، وقد جاءَ ذلك مُبَيَّناً في قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾(١) ، وحُكيت حالٌ ماضية بـ [أَرَى] وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرُّؤْيَا (٢) .

و ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ ، يروى أَنه قال : رأَيتها خارجة من نهر ، وخرجت وراءَها سبع عجاف ، فرأَيتها أَكلت تلك السمان حتَّى حصلت في بطونها ، ورأَى السنابل أَيضاً كما ذكر ، والعجَافُ : التي بلغت غاية الهزال ، ومنه قول الشاعر :

. . . . ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُون عجَافُ(٣)

ثم قال لجماعته وحاضريه : ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ . قرأَت فرقة بتحقيق الهمزتين ، وقرأَت فرقة بأَن لفظت بأَلف [أَفْتُوني] واواً .

وقوله : [للرُّؤْيَا] دخلت اللام لمعنى التأْكيد والربط ، وذلك أَن المفعول

---

(١) من الآية (١٠٢) من سورة (الصافات) ، ومما يلفت النظر أن ابن عطية أحال على تفسير الرؤيا على آية الصافات هنا ، وكان الأولى أن يحيل عندما ذكر له الفتيان ما رآه كل منهما .

(٢) معنى ذلك أن (أرى) حكاية حال ماضية ، ولذلك جاءت بلفظ المضارع الذي يدل على الاستقبال دون (رأيت) التي تدل على الزمن الماضي . وتأمل كيف جعل الله الرؤيا ليوسف في أول أمره مع أبيه وإخوته بلاءً وشدة ، ثم جعلها آخراً من هذا الملك بشرى ورحمة .

(٣) البيت لابن الزِّبَعْرَى ، وهو بتمامه :

عَمْرو العُلا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ورِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

ومُسْنِتُونَ : أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا ، وفي حديث أبي تميمة : (الله الذي إذا أَسْنَتَّ أَنْبَتَ لك) ، أي : إذا أَجْدَبْتَ أخْصب لك . وعِجَافٌ : بلغوا غاية الهزال والضعف .

إذا تقدم حسُن في بعض الأَفعال أَن تدخل عليه لام الجر ، وإذا تأَخر لم يحتج الفعل إلى ذلك ، و «عبَارَةُ الرُّؤْيا» : مأْخوذة من : عبَر النهر ، وهو تجاوز من شط إلى شط ، فكأَن عابر الرُّؤْيا ينتهي إلى آخر تأْويلها .

وقوله : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ الآية . الضِّغْث - في كلام العرب - أَقل من الحزمة وأَكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه ، وربما كان من جنس واحد ، وربما كان من أَخلاط النبات ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾[(١)] ، وروي أَنه أَخذ «عِثْكَالًا» من النخل[(٢)] ، وروي أَن النبي صلى الله عليه وسلم فعل نحو هذا في حدٍّ أَقامه على رجل زمن[(٣)] ، ومن ذلك قول ابن مُقْبل :

خَوْدٌ كَأَنَّ فِرَاشَهَا وُضِعتْ به   أَضْغَاثُ رَيْحَانٍ غَدَاةَ شَمَال [(٤)]

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (ص) .

(٢) العِثْكَالُ والعُثْكُولُ : العِذْقُ أو الشِّمْراخ وهو ما عليه البُسْر من عيدان الكباسة ، وهو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الحدود ، والإمام أحمد في مسنده (٥-٢٢٢) ولفظه فيه عن سعيد بن سعد بن عبادة قال : (كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف ، لم يُرَع أهل الدار إلا وهو على أَمة من إماء الدار يخبث بها ، وكان مسلماً ، فرفع شأنه سعدٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اضربوه حدَّه ، قالوا : يا رسول الله ، إنه أضعف من ذلك ، إن ضربناه مائة قتلناه ، قال : فخذوا له عِثْكالا فيه مائة شِمْراخ فاضربوه به ضربة واحدة ، وخلُّوا سبيله) . والزَّمِن : ذو الزمانة ، أي مبتلى بالزمانة وهي العاهة والآفة .

(٤) الخَوْد : الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة ما لم تصر نَصَفاً ، وقيل : الجارية الناعمة ، والجمع : خُودات وخُودٌ ، والضِّغْث : الحُزْمة من الحشيش ، أو كل ما ملأ الكف من النبات المختلط ، والشَّمال : الريح الباردة ، يقول : إن رائحة فراشها بعد النوم كأنما وضعت فيه صنوف من الرَّيحان تنشر رائحتها ريحُ الشمال اللطيفة .

ومن الأَخلاط قول العرب في أَمثالها : «« ضِغْثٌ علَى إِبَّالة »[1] ، فيشبه اختلاط الأَحلام باختلاط الجملة من النبات ، والمعنى أَن هذا الذي رأَيْتَ أَيُّها الملك اختلاط من الأَحلام بسبب النوم ، ولسنا من أَهل العلم بذلك ، أَي : بما هو مختلط ورديءٌ ، فإنما نفوا عن أَنفسهم عبر الأَحلام لا عبر الرؤْيا على الإطلاق ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الرؤْيا من الله ، والحُلْم من الشيطان)[2] ، وقال للذي كان يرى رأْسه يُقطع ثم يردّه فيرجع : (إذا لعب الشيطان بأَحدكم في النوم فلا يحدث بذلك)[3] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالأَحلام وحدثان النفس مُلغاة ، والرؤْيا هي التي تعبّر ويلتمس علمها . والباءُ في قوله : [بِعالِمِينَ] للتأْكيد ، وفي قوله : [بتَأْويل] للتعدية ، وهي متعلقة بقوله : [بِعالِمِينَ] .

---

(١) الضِّغْث : قبضة من الحشيش أو النبات المختلط ، والإبَّالة : الحُزْمة من الحطب ، وبعضهم يقوله بالباء الخفيفة المفتوحة ، وعليه :

لي كُلَّ يَوْمٍ مِنْ ذُؤَالــــه ضِغْثٌ يَزِيدُ عَلى إبَالــــه

ومعنى المثل : بَلِيَّةٌ على أخرى . (مجمع الأمثال – الميداني) . وفي (المستقصى) للزمخشري : « يُضْرَب لِمَنْ حمَّلك مكروهاً ثم زادك عليه » .

(٢) رواه البخاري في « التعبير » وفي « بدء الخلق » ، وفي « الطب » ، ورواه مسلم في « الرؤيا » ، وأبو داود في « الأدب » ، والترمذي في « الرؤيا » ، وكذلك ابن ماجه والدارمي ، ومالك في « الموطأ » ، والإمام أحمد (٥-٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٠) . ولفظه كما في البخاري (الرؤيا الصالحة من الله ، والحُلْم من الشيطان ، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره ، وإن الشيطان لا يتزيَّا بي) .

(٣) رواه مسلم وابن ماجه عن جابر ، ورمز له السيوطي بالصحة . (الجامع الصغير) .

و «الأَحلام» : جمع حُلْم ، يقال : حلَم الرجل - بفتح اللام - يحلُم إذا خيل إليه في منامه ، والأَحلام مما أثبتته الشريعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الرُّؤْيا من الله ، وهي المبشِّرة ، والحُلْم المحزن من الشيطان ، فإذا رأى أَحدكم ما يكره فليثفل عن يساره ثلاث مرات ، وليقل : أَعوذ بالله من شرِّ ما رأيت ، فإنها لا تضره)[(١)] ، وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإنه لا يلتفت إليه .

ولما سمع الساقي الذي نجا هذه المقالة من الملك ومراجعة أَصحابه تذكَّر يوسف وعلمه بتأْويل الأَحلام والرُّؤَى ، فقال مقالته في هذه الآية .

و [ٱدَّكَرَ] أَصله : اذْتكَرَ ، افتعل من الذكر ، قلبت التاءُ دالًا وأُدغم الأَول في الثاني ، ثم بدلت دالًا غير منقوطة لقوة الدال وجَلَدها ، وبعض العرب يقول : «اذَّكر» ، وقرئ : ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ﴾[(٢)] بالنقط ، و ﴿مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ على اللغتين ، وقرأ جمهور الناس : ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وهي المُدة من الدهر ، وقرأ ابن عباس وجماعة : ﴿بَعْدَ أَمَهٍ﴾[(٣)] وهو النسيان ،

(١) راجع الهامش قبل السابق على هذا .
(٢) تكررت في الآيات : (١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠) من سورة (القمر) .
(٣) أي : بفتح الهمزة والميم مخففة وهاءٍ ، والجماعة التي قرأت مع ابن عباس هي . زيد بن علي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجاءٍ ، وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضبعي ، وربيعة بن عمرو ، قال أبو الفتح بن جني : «والأَمَهُ : النسيان ، يقال : أَمِهَ الرجل يأمَهُ أَمَهاً : نَسِي» ، وقال الشاعر :

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لا أنْسَى حَدِيثــاً ... كَذَاكَ الدَّهْرُ يُودي بِالْعُقُــولِ

وقرأ مجاهد ، وشُبَيْل بن عَزْرَةَ (١) : ﴿بَعْدَ أَمْهٍ﴾ بسكون الميم ، وهو مصدرٌ من «أَمِهَ» إذا نسي ، وقرأ الأَشهب العقيلي : ﴿بَعْدَ إِمَّةٍ﴾ بكسر الهمزة ، والإِمَّةُ : النعمة ، والمعنى : بعد نعمة أَنعمها الله على يوسف في تقريب إطلاقه وعزَّته . وبقوله : [ٱدَّكَرَ] يقْوي قول من يقول : إن الضمير في [فَأَنْسَاهُ] عائد على الساقي ، والأَمر محتمل .

وقرأ الجمهور : ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ﴾ ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن : ﴿أَنَا آتيكُمْ﴾ ، وكذلك في مصحف أُبي بن كعب ، وقوله : [فَأَرْسِلُون] استئذان في المضي ، فقيل : كان السجن في غير مدينة الملك ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : كان فيها (٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أَميال .

---

(١) اختلف في اسم أبيه ، فهو عَزْرَة في التاج والمحتسب ، وفي القاموس : عُروة ، وفي الفهرست : عَرْعَرَة ، وكان رافضاً ، ثم انتقل إلى الشُّراة ، ويُعَدُّ من خطبائهم وعلمائهم ، يروي عن أنس بن مالك ، وروى عنه شعبة ، مات بالبصرة في دولة بني العباس .

(٢) وفي الكلام حذف بعد [فَأَرْسِلُون] ، والتقدير : « فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال » ، والصِّدِّيق : بناءُ مبالغة مثل : السِّكِّير ، والشِّرِّيب ، وكان الساقي قد صحب يوسف زماناً وخَبَرَه وعرف صدقه في غير ما أمْر ، كتأويل رؤياه ورؤيا صاحبه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

المعنى : فجاءَ الرسول ـ وهو الساقي ـ إلى يوسف فقال له : يا يوسف، ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ، وسمَّاه صدِّيقاً من حيث كان جرب صدقه في غير شيءٍ ، وهو بناءُ مبالغة من (صَدَقَ) ، وسمِّي أَبو بكر رضي الله عنه صدِّيقاً من «صدَّق غيرَهُ» إذ مع كل تصديق صدق ، فالمصدق بالحقائق صادق أَيضاً ، وعلى هذا الأَساس سُمِّي المؤمنون صدِّيقين في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[1] . ثم قال : ﴿أَفْتِنَا في سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ أَي : فيمن رأَى في المنام سبع بقرات ، وحكى النقاش حديثاً روى فيه أَن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشَّره بعطف الله تعالى عليه ، وأَخرجه من السجن ، وأَنه

(١) من الآية (١٩) من سورة (الحديد) .

قد أحدث للملِك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف ، ويروى أن الملِك كان يرى سبع بقرات سمان يخرجن من النهر ، وتخرج وراءها سبع عجاف ، فتأْكل العجافُ السمان ، فكان يعجب كيف غلبتها ؟ وكيف وسِعت السمانَ بطونُ العجاف[1] ؟ وكان يرى سبع سنبلات خضر وقد التَفَّت بها سبع يابسات حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي تأْويل هذه الرؤْيا فيزول همُّ الملك لذلك وهَمُّ الناس ، وقيل : لعلهم يعلمون مكانتك من العلم وكُنْه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ الآية . تضمن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول : أحدها : تعبير بالمعنى وباللفظ . والثاني : عرض رأي وأَمْر بِهِ وهو قوله : ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ ، والثالث : الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن ، قاله قتادة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل هذا ألا يكون غيباً ، بل علم العِبارة أعطي انقطاع الجدب بعد سبع ، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا خصب شاف ، كما أعطي أن

(١) ويصح أن تضبط هكذا : وَسِعَت السِّمانُ بطونَ العجاف ، كما يقال : « هذا الإناء يسع عشرين كيلا ، ويَسَعُه عشرون كيلا . (المعجم الوسيط) .

النهر مثال للزمان إذ هو أشبه شيءٍ به فجاءَت البقرات مثالا للسنين .

و [دَأَباً] معناه : ملازمة لعادتكم في الزراعة ، ومنه قول امرئ القيس :

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا . . . . . . البيت (١)

وقرأ جمهور السبعة : [دَأْباً] بإسكان الهمزة ، وقرأ عاصم وحده : [دَأَباً] بفتح الهمزة ، وأبو عمرو يُسهِّل الهمزة عند درج القراءَة ، وهما مثل : نَهْر و نَهَر ، والناصب لقوله : [دَأَباً] [تَزْرَعُونَ] عند أَبي العباس المبرد ، إذ في قوله : [تَزْرَعُونَ] «تَدْأَبُونَ» ، وهي عنده مثل : «قعد القرفصاءَ» ، و «اشتمل الصماءَ» (٢) ، وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل مضمر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر ، كأَنه قال : «تزرعون تدأَبون دأَباً» .

وقوله : ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ هي إشارة برأْي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في

---

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة ، والبيت بتمامه :

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَها وجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَاب بِمَأْسَلِ

ويروى : «كدينك» ، أي : مثل عادتك وشأنك ، وأُم الحويرث هي أُخت الحارث بن حصين ابن ضمضم من بني كلب ، وقد تزوجت من حُجْر أبي امرئ القيس ، ومأسَل بفتح السين : جبل بعينه ، وبكسر السين : ماءٌ بعينه ، والرواية هنا بالفتح .

(٢) جاء في «الصحاح – شمل» : «واشْتِمَالُ الصَّمَّاءِ : أن يُجَلِّل جَسَدَهُ كله بالكساء أو بالإزار» .

السنبل ، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت ، والمعنى : اتركوا الزرع في السنبل إلا مالا غنى عنه للأكل ، فيجتمع الطعام هكذا ويتركب ، ويؤكل الأقدم فالأقدم ، فإذا جاءت السنون الجدبة تقوَّت الناسُ الأقدمَ فالأقدم من ذلك المدَّخر ، وادَّخروا أيضاً الشيء الذي يصاب في أعوام الجدب على قلَّته ، وحملت الأعوام بعضُها بعضاً حتَّى يتخلص الناس ، وإلى هذه السنين أشار النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه على قريش : (اللَّهم أَعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف)[1] ، فابتدأ ذلك بهم ، ونزلت سَنَةٌ حصَّت كلَّ شيءٍ[2] ، حتى دعا لهم النبي عليه الصلاة والسلام فارتفع ذلك عنهم ولم يتماد سبع سنين ، ورُوي أَن يوسف عليه السلام لما خرج ووصف هذا الترتيب للملِك وأَعجبه أَمْرُه ، قال له الملك : قد أَسندت إليك تولِّي هذا الأَمر في الأَطعمة هذه السنين المقبلة ، فكان هذا أَوَّل ما وَلِيَ يوسف .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ، وفي الاستسقاء وغيرهما ، والترمذي في التفسير ، ولفظه كما جاء في باب الاستسقاء في البخاري عن مسروق قال : (كنا عند عبد الله ، فقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً قال : اللهم سبْعاً كسبع يوسف ، فأخذتهم سنَة حصَّت كل شيءٍ حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف ، وينظر أحدهم إلى السماءِ فيرى الدخان من الجوع ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد ، إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرَّحِم ، وإن قومك قد هلكوا ، قال الله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ فالبطشة يوم بدر ، وقد مضت الدخان والبطشة واللِّزام وآية الروم) .

(٢) من قولهم ، حصّ الشيءَ : حلَقه ، وحصّ الشيءَ : أذهبَه . (المعجم الوسيط) .

وأَسند الأَكل إلى السنين في قوله : [يَأْكُلْنَ] اتِّساعاً من حيث يُؤكل فيها ، كما قال تعالى : ﴿والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[١] ، وكما يقال : «نهارك بطالٌ وليلك قائم» ، وهذا كثير في كلام العرب[٢] ، ويحتمل أَن يُسَمَّي فعل الجدب وإيباس البالات أَكلا ، وفي الحديث : (فأَصابتهم سنة حصَّت كل شيءٍ)[٣] وقال الأَعرابي في السَّنَة : «جَمَشت النَّجْمَ ، وألحبت اللَّحم ، وأَحجنت العظم»[٤]

و [تُحْصِنُونَ] معناه : تُحرزون وتخزنون ، قاله ابن عباس ، وهو مأْخوذ من الحصن ، وهو الحرز والملجأُ ، ومنه تحصُّن النساءِ لأَنه بمعنى التحرز[٥] .

---

(١) تكررت في الآيات (٦٧) من سورة (يونس) و (٨٦) من سورة (النمل) و (٦١) من سورة (غافر) .

(٢) هو من المجاز العقلي ، وأمثلته كثيرة في كلام العرب كما يقول ابن عطية ، ومنه قول الشاعر :

نَهَارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَــةٌ ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ

فقد أسند الشاعر السهو والغفلة إلى النهار ، والنوم إلى الليل ، وذلك لأن السهو والغفلة يقعان في النهار ، والنوم يقع في الليل ، ولهذه الملابسة الزمانية ساغ الإسناد إلى زمان الحدث ، والعلاقة هي الزمانية .

(٣) هذا جزءٌ من الحديث السابق .

(٤) يقال : جَمَش نباتَ الأرض : حَصَدَه ، وجَمَش الشَّعْر : حَلَقَه ، والنجم هو النبات . فالمعنى : السَّنَةُ استأصلت النبات . ويقال : لحِبَ لحم فلان : نَحَل ، ويقال : حَجَنَ العُودَ : لواه ، فالمعنى أنها أذهبت اللحم وقوَّست العظم .

(٥) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾، من الآية (٣٣) من سورة (النور) .

وقوله تعالى : [يُغَاثُ] جائز أن يكون من الغيث ـ وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وجمهور المفسرين ـ أي : يُمْطرون ، وجائز أن يكون من : « أغاثهم الله » إذا فرج عنهم ، ومنه الغوث وهو الفرج .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : [يَعْصِرُونَ] بفتح الياء وكسر الصاد ، وقرأ حمزة ، والكسائي ذلك بالتَّاء على المخاطبة ، وقال جمهور المفسرين : هي من عَصْر النباتات كالزيتون والعنب والقصب والسمسم والفجل وجميع ما يُعصر ، ومصرُ بلدُ عَصْر لأشياء كثيرة ، وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجدب ، والحلْبُ منه لأنه عصر للضرع ، وقال أبو عبيدة وغيره : ذلك مأْخوذ من العُصْرَة والعُصْر (١) وهو الملجأ ، ومنه قول أبي زبيد في عثمان رضي الله عنه :

صادِياً يَسْتَغيثُ غَيْرَ مُغَــــاثٍ ولقد كانَ عُصْرَةَ المنجود (٢)

---

(١) بضم العين وسكون الصاد فيهما ، يقال : جاء ولكن لم يَجِئْ لِعُصْر ، أي : لم يجئْ حين المجيء .

(٢) البيت لأبي زُبَيْد الطائي ، والصادي : الشديد العطش ، والجمع : صُدَاة . ومعنى (كان عُصْرَة المنجود) : كان ملجأ المكروب . قال في (اللسان) : « العَصَر بالتحريك ، والعُصْرُ والعُصْرَةُ : الملجأُ والمنجاة ، وعَصَر بالشيء واعْتَصَر به : لجأ إليه ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ : إنه من هذا ، أي : ينجون من البلاء ويعتصمون بالخصب » . وقد قيل : إن أبا زُبَيْد قال البيت في رثاء ابن أخته الذي مات عطشاً في طريق مكة وليس في عثمان رضي الله عنه .

ومنه قول عدي بن زيد :

لَوْ بِغَيْرِ الماءِ حَلْقِي شَـــرِق كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصارِي(١)

ومنه قول ابن مقبل :

وصَاحِبِـي وَهْوَهٌ مُسْتَوْهِلٌ زعِـلٌ يحولُ بينَ حِمَارِ الْوَحْشِ والْعَصَر (٢)

ومنه قول لبيد :

فَبَاتَ وأَسْرَى الْقَوْم آخِرَ لَيْلِهِمْ وما كان وَقَّافاً بِغَيْرِ مُعَصَّرِ (٣)

أَي : بغير ملتجإ ، فالآية على معنى : ينجون بالعُصْرة .

---

(١) قال عَدِي بن زيد هذا البيت من قصيدة أنفذها إلى النعمان يذكره بطول عهده بالسجن ويرجوه العفو عنه ، والاعتصار : أن يَغَصَّ الإنْسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلا قليلا . ويقول : لو أني شرقت بغير الماءِ لكان في الماء نجاتي وإليه التجائي ، فكيف أفعل وقد شرقت به ؟ وأنت مائي ، ولو كنت سجنت بأمر غيرك للجأت إليك فكيف وأنت ساجني ؟

(٢) صاحبه هنا هو فرسه ، والفرسُ الوَهْوَهُ والوَهْوَاهُ هو النشيط الحديد الذي يكاد يُفلت من كل شيءٍ من شدة حرصه على السَّبق ومن نَزَقه ، والوَهْوَه أيضاً الذي يُرَدِّد صوته في جزع ، والمُسْتَوْهِلُ : الفَزِعُ النشيط ، والزَّعِل : النشيط ، والعَصَر : الملجأ ، يصف فرسه بالنشاط والسرعة ويقول : إذا طارد فريسة بادرها ومنعها من أن تلجأ إلى ملجئها الذي تحتمي به ، أو حال بينها وبين النجاة .

(٣) استشهد صاحب (اللسان) بالشطر الثاني من البيت ، والرواية فيه : « وما كان وقّافاً بدار مُعَصَّر » ، وذكر صاحب التاج البيت كاملا ، والرواية فيه كرواية (اللسان) . والبيت في الديوان من قصيدة قالها لبيد يذكر مَن فَقَد مِنْ قومه ومن سادات العرب ، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه ، ومطلع هذه القصيدة :

أعَاذِلُ قُومي فاعْذُلي الآن أو ذَري فَلَسْتُ وإن أقْصَرْتِ عَنّي بِمُقْصِرِ

والمُعَصَّر بفتح الصاد المشددة : الملجأ والحرز ، وقد نقل ابن عطية البيت عن الطبري بلفظ (بِغَيْر) وإلا فرواية الديوان هي (بدار) كما رواها التاج واللسان ، والضمير في (بَات) يعود على قَيْس بن جزء كما ذكر في الأبيات السابقة .

وقرأ الأعرج ، وعيسى ، وجعفر بن محمد: [يُعْصَرُونَ] بضم الياء وفتح الصاد ، وهذا مأخوذ من العصرة ، أي : يؤتون بعصرة ، ويحتمل أن يكون من : عَصَرت السحاب ماءها عليهم ، قال ابن المستنير: معناها : يُمْطَرون ، وحكى النقاش أنه قُرِئ : [يُعَصِّرون] بضم الياء وكسر الصاد وشدها وجعلها من عصر البلل ، وردَّ الطبري على من جعل اللفظة من العُصْرَة ردًّا كثيراً بغير حجة [١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدلُّ عليها ، والمعنى هنا : فرجع الرسول إلى الملأ والملِك فقص عليهم مقالة يوسف ، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير وحسن الرأي وتضمن الغيب في أمر العام الثامن ، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة ، فعَظُم يوسف في نفس الملك ، وقال : ﴿ٱئْتُونِي بِهِ﴾ ، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه وقال : إن الملك قد أمر بأن تخرج ـ

(١) قال الطبري : « ذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين » .

فقال له : ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي الملك وقل له : ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصي عن ذنبي وينظر في أمري ، هل سجنتُ بحق أو بظلم ؟ فرسم قصته بطرف منها إذا وقع النظر عليه بأن الأمر كله ، ونكَّب عن ذكر امرأة العزيز حسن عشرة ورعايةً لزمام الملك العزيز له .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وأبو حيوة : [النُّسْوَة] بضم النون ، وقرأ الباقون : [النِّسْوَة] بكسر النون ، وهما لغتان في تكسير «نساء» الذي هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقرأت فرقة : [اللَّايي] بالياء ، وقرأت فرقة : [اللاتي] بالتاء ، وكلاهما جمع «التي» .

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناةً وصبراً وطلباً لبراءة الساحة ، وذلك أنه ـ فيما رُوي ـ خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً ، فيراه الناس بتلك العين أبداً ، ويقولون : هذا الذي راود امرأة مولاه ، فأراد يوسف عليه السلام أن تبين براءته وتتحقق منزلته من العِفَّة والخير وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يرحم الله أخي يوسف ، لقد كان صابراً حليماً ، ولو لبثْتُ في السجن لبثه لأجبت الداعي ولم ألتمس العذر حينئذ)(١) ، وروي نحو هذا الحديث

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يرحم الله يوسف ، إن كان لذا أناة حليماً ، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل =

من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره ..

وهنا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف ، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة ، أي : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ، وذلك أن هذه القصص والنوازل إنما هي معرضة ليقتدي بها الناس إلى يوم القيامة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ، وذلك أن المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما ينتج له من ذلك البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن مِنْ ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأمن

= إلي لخرجت سريعاً) ، (الدر المنثور) . وفي لفظ لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر) ، (تفسير ابن كثير) ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : (يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ . (نقله القرطبي وابن كثير) .

ذلك ، فالحالة التي ذهب إليها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه حالة حزم ومدح ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد بالربِّ الله عزَّ وجلَّ ، وفي الآية وعيد ـ على هذا ـ وتهديد ، ويحتمل أن يريد بالربِّ العزيزَ مولاه ، ففي ذلك استشهادٌ به وتقريع له . والضمير في [كَيْدِهِنَّ] للنسوة المذكورات لا للجنس لأنها حالة توقيف على ذنب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

المعنى : فجمع الملِك النسوة وامرأة العزيز معهن ، وقال لهن : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الآية ، أَيْ : أَيُّ شيءٍ كانت قصتكن ؟ فهو استدعاءٌ منه أن يعلمنه القصة ، فجاوب النساءُ بجواب جيد تظهر منه براءَة أَنفسهن جملة ، وأَعطين يوسف بعض براءَة ، وذلك أَن الملِك لما قرَّر لهن أنهن راودنه قلن ـ جواباً عن ذلك ـ : ﴿حَاشَ للهِ﴾ ، وقد يحتمل ـ على بعد ـ أَن يكون قولهن : ﴿حَاشَ للهِ﴾ في جهة يوسف عليه السلام ،

وقولُهن : ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ليس بإبراءٍ تام ، وإنما كان الإبراءُ التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأُ في جهتهنّ(١) ، ولو قلن : «ما علمنا عليه إلا خيراً» لكان أدخل في التبرئة ، وقد بوَّب البخاري على هذه الألفاظ على أنها تزكية ، وأدخل قول أُسامة ابن زيد في حديث الإفك : «أهلك ولا نعلم إلا خيراً» ، وأما مالك رحمه الله فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد ، لأنه ليس بإثبات العدالة .

قال بعض المفسرين : فلما سمعت زوجة العزيز مقالتهن وحَيْدَتهن عن الوقوع في الخزي حضرتها نِيَّة وتحقيق(٢) فقالت : ﴿ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ . و [حَصْحَصَ] معناه : تبين بعد خفائه ، كذا قال الخليل وغيره(٣) ، وقيل : مأْخوذة من الحِصَّة ، أي بانت حِصَّته من حِصَّة الباطل ، ثم أَقرت على نفسها بالمراودة ، والتزمت الذنب ، وأَبرأَت يوسف البراءَة التامة .

---

(١) يريد : حتى يتقرر الخطأ إذ كان في جهتهن ، وقد تقرر أنه لا خطأ فيها بشهادتهن .

(٢) خافت بعد إقرارهن ببراءة يوسف أن يشهدن عليها إن أنكرت فحضرتها نية الاعتراف ، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف .

(٣) أصله : حَصَصَ ، فقيل : حَصْحَصَ ، كما قيل : كَبْكَبُوا في كببوا ، وكفكفوا في كففوا ، وأصل الحَصِّ استئصال الشيء : حصَّ شَعره إذا حلقه ، قال أبو قيس بن الأسلت :

قَدْ حَصَّتِ البَيْضَةُ رأسي فَمَا أطْعَمُ نَوماً غَيْرَ تَهْجَاع

ويقال : سنة حصَّاءُ أي جرداءُ لا خير فيها ، قال جرير :

يَأوي إلَيْكُم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ مَن ساقَهُ السَّنَةُ الحَصَّاءُ والذِّيب

وفي الحديث : (فأصابتهم سنةٌ حصَّت كلَّ شيءٍ) ، أي : أتت على كل شيء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قال جماعة من أهل التـأْويل : هذه المقالة هي من يوسف عليه السلام ، أي : ذلك لِيَعْلَمَ العزيز سيِّدي أني لم أَخنه في أَهله وهو غائب ، ولِيَعْلَم أَيضاً أَن الله تعالى لا يهدي كيد خائن ولا يرشد سعيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والهدى للكَيْد مستعار ، بمعنى : لا يكمله ولا يمضيه على طريق إصابة ، ورُبَّ كيْدٍ مَهْدِيٍّ إذا كان مِن تَقِـيٍّ في مصلحة .

واختلفت هذه الجماعة ـ فقال ابن جريج : هذه المقالة من يوسف عليه السلام هي متصلة بقوله للرسول : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفي الكلام تقديم وتـأْخير ، فالإِشارة بقوله : [ذَٰلِكَ] ـ على هذا التـأْويل ـ هي إلى بقائه في السجن والتماسه البراءَة ، أَي : هذا لِيَعْلم سيدي أَني لم أَخنه ، وقال بعضهم : إنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأَة العزيز كلامها إلى قولها : ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ ، فالإِشارة ـ على هذا ـ إلى إقرارها وصَنيع الله تعالى فيه ، وهذا يضعف لأَنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك ، وبعد هذا يقـــول الملك : ﴿ٱئْتُونِي بِهِ﴾ .

وقالت فرقة من أهل التأْويل : هذه الآية من قول امرأة العزيز ، وكلامها متصل ، أي : قَوْلي هذا وإقراري ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته بأن أكذب عليه أو أرميه بذنب هو بريءٌ منه ، والتقدير - على هذا التأْويل - : توبتي وإقراري ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي ... وعلى أن الكلام من يوسف يجيءُ التقدير : وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين .

انتهى الجزءُ السابع بعون الله وتوفيقه والحمد لله رب العالمين ، ويليه الجزءُ الثامن بمشيئة الله تعالى ، ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أُبرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّــارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا ما رحِم رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

حقوق الطبع لهذا التفسير محفوظة
للمحقــقين
الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم

فهرست الايات

الآية	الصفحة

بقية تفسير سورة التوبة

قوله عزّ وجلّ : (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء) إلى آخر الآية ٩٤ ... ... ١

قوله عزّ وجلّ : (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم) إلى آخر الآية ٩٧ ... ... ٤

قوله عزّ وجلّ : (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر) إلى آخر الآية ٩٩ ... ... ٧

قوله عزّ وجلّ : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) إلى آخر الآية ١٠١ ... ... ١١

قوله عزّ وجلّ : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً) إلى آخر الآية ١٠٣ ... ... ١٧

قوله عزّ وجلّ : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) إلى آخر الآية ١٠٥ ... ... ٢٤

قوله عزّ وجلّ : (وآخرون مُرْجَون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) إلى آخر الآية ١٠٧ ... ... ٢٨

قوله عزّ وجلّ : (لا تقم فيه أبداً لَمَسْجد أُسس على التقوى مِن أول يوم أحق أن تقوم فيه) إلى آخر الآية ١٠٩ ... ... ٣٥

قوله عزّ وجلّ : (لا يزال بُنيانهم الذي بَنَوْا ريبة في قلوبهم) إلى آخر الآية ١١١ ... ... ٤٧

الآية	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) إلى آخر الآية ١١٣	٥٢
قوله عزّ وجلّ : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) إلى آخر الآية ١١٦	٦٢
قوله عزّ وجلّ : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوه في ساعة العُسرة) إلى آخر الآية ١١٩	٦٧
قوله عزّ وجلّ : (ما كان لأهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) إلى آخر الآية ١٢١ ...	٧٥
قوله عزّ وجلّ : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) إلى آخر الآية ١٢٣	٧٨
قوله عزّ وجلّ : (وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً) إلى آخر الآية ١٢٦	٨٣
قوله عزّ وجلّ : (وإذا ما أُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد) إلى آخر الآية ١٢٩	٨٧
تفسير سورة يونس عليه السلام	٩٣
قوله عزّ وجلّ : (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) إلى آخر الآية ٢	٩٤
قوله عزّ وجلّ : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) إلى آخر الآية ٤	٩٩
قوله عزّ وجلّ : (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) إلى آخر الآية ٦	١٠٣

الآية | الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (إن الذين لا يرجون لقاءَنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون) إلى آخر الآية ١٠ ... ... ١٠٧

قوله عزَّ وجلَّ : (ولو يُعَجِّل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقُضي إليهم أجلهم) إلى آخر الآية ١٢ ... ... ١١٣

قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد أهلكنا القرون من قَبْلكم لمَّا ظَلَموا وجاءتهم رسلهم بالبيِّنات) إلى آخر الآية ١٥ ... ... ١١٧

قوله عزَّ وجلَّ : (قُلْ لو شاءَ الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) إلى آخر الآية ١٨ ... ... ١١٨

قوله عزَّ وجلَّ : (وما كان الناس إلا أُمَّة واحدة فاختلفوا) إلى آخر الآية ٢١ ... ١٢٢

قوله عزَّ وجلَّ : (هو الذي يُسَيِّركم في البر والبحر) إلى آخر الآية ٢٢ ... ... ١٢٥

قوله عزَّ وجلَّ : (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) إلى آخر الآية ٢٣ ... ... ١٣٠

قوله عزَّ وجلَّ : (إنما مَثَلُ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) إلى آخر الآية ٢٤ ... ... ١٣٢

قوله عزَّ وجلَّ : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاءُ إلى صراط مستقيم) إلى آخر الآية ٢٧ ... ... ١٣٥

قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم) إلى آخر الآية ٣٠ ... ... ١٤٠

قوله عزَّ وجلَّ : (قُل مَن يرزقكم من السماء والأرض) إلى آخر الآية ٣٣ ... ١٤٣

قوله عزَّ وجلَّ : (قُل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده) إلى آخر الآية ٣٦ ... ... ١٤٦

الآية | الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرى من دون الله) إلى آخر الآية ٣٨ ... ... ١٤٩

قوله عزّ وجلّ : (بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله) إلى آخر الآية ٤٣ ... ... ١٥٣

قوله عزّ وجلّ : (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يَظْلِمون) إلى آخر الآية ٤٦ ... ... ١٥٧

قوله عزّ وجلّ : (ولكل أُمّة رسول فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يُظْلمون) إلى آخر الآية ٤٩ ... ... ١٦٠

قوله عزّ وجلّ : (قُل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيَاتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون) إلى آخر الآية ٥٣ ... ... ١٦٢

قوله عزّ وجلّ : (ولو أن لكل نفس ظَلَمت ما في الأرض لافْتدت به) إلى آخر الآية ٥٦ ... ... ١٦٥

قوله عزّ وجلّ : (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشِفاءٌ لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) إلى آخر الآية ٥٨ ... ... ١٦٧

قوله عزّ وجلّ : (قُل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا) إلى آخر الآية ٦٠ ... ... ١٧٠

قوله عزّ وجلّ : (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً) إلى آخر الآية ٦٣ ... ... ١٧٢

قوله عزّ وجلّ : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) إلى آخر الآية ٦٦ ... ... ١٧٦

قوله عزّ وجلّ : (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) إلى آخر الآية ٧٠ ... ... ١٨٠

الآية	الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري) إلى آخر الآية ٧١ ... ... ١٨٣

قوله عزّ وجلّ : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله) إلى آخر الآية ٧٣ ... ... ١٨٧

قوله عزّ وجلّ : (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات) إلى آخر الآية ٧٥ ... ... ١٨٩

قوله عزّ وجلّ : (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) إلى آخر الآية ٧٨ ... ... ١٩١

قوله عزّ وجلّ : (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) إلى آخر الآية ٨٢ ... ١٩٤

قوله عزّ وجلّ : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأيهم) إلى آخر الآية ٨٦ ... ... ١٩٧

قوله عزّ وجلّ : (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً) إلى آخر الآية ٨٩ ... ... ٢٠٣

قوله عزّ وجلّ : (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده) إلى آخر الآية ٩٢ ... ... ٢١٠

قوله عزّ وجلّ : (ولقد بوّأنا بني إسرائيل مُبَوّأَ صدق ورزقناهم من الطيبات) إلى آخر الآية ٩٥ ... ... ٢١٦

قوله عزّ وجلّ : (إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) إلى آخر الآية ٩٨ ... ... ٢٢٠

قوله عزّ وجلّ : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) إلى آخر الآية ١٠١ ... ... ٢٢٤

الآية	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) إلى آخر الآية ١٠٤	٢٢٦
قوله عزّ وجلّ : (وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين) إلى آخر الآية ١٠٧	٢٢٨
قوله عزّ وجلّ : (قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) إلى آخر الآية ١٠٩	٢٣٠
تفسير سورة هود عليه السلام	٢٣٢
قوله عزّ وجلّ : (الر كتاب أُحكمت آياته ثم فُصلت من لدن حكيم خبير) إلى آخر الآية ٤	٢٣٣
قوله عزّ وجلّ : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) إلى آخر الآية ٦ ...	٢٣٨
قوله عزّ وجلّ : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) إلى آخر الآية ٨	٢٤٤
قوله عزّ وجلّ : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور) إلى آخر الآية ١١	٢٤٧
قوله عزّ وجلّ : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) إلى آخر الآية ١٣	٢٤٩
قوله عزّ وجلّ : (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنمـــا أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو) إلى آخر الآية ١٦	٢٥٢
قوله عزّ وجلّ : (أفمن كان على بيِّنة من ربه ويتلوه شاهد منه) إلى آخر الآية ١٧	٢٥٦

الآية	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) إلى قوله تبارك وتعالى (ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) الآية ٢٠ ...	٢٦٢
قوله عزّ وجل : (أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) إلى آخر الآية ٢٤	٢٦٦
قوله عزّ وجل : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين) إلى آخر الآية ٢٧	٢٦٩
قوله عزّ وجلّ : (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده) إلى آخر الآية ٣٠	٢٧٤
قوله عزّ وجلّ : (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) إلى آخر الآية ٣٢	٢٧٧
قوله عزّ وجلّ : (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) إلى آخر الآية ٣٥	٢٨٠
قوله عزّ وجلّ : (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) إلى آخر الآية ٣٧	٢٨٣
قوله عزّ وجلّ : (ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه) إلى آخر الآية ٤٠	٢٨٩
قوله عزّ وجلّ : (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) إلى آخر الآية ٤٢	٢٩٦
قوله عزّ وجلّ : (قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) إلى آخر الآية ٤٤ ...	٣٠٣
قوله عزّ وجلّ : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق) إلى آخر الآية ٤٦	٣٠٩

الآية	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) إلى آخر الآية ٤٩	٣١٦
قوله عزّ وجلّ : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) إلى آخر الآية ٥٢	٣١٨
قوله عزّ وجلّ : (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) الى آخر الآية ٥٦	٣٢٢
قوله عزّ وجلّ : (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم) إلى آخر الآية ٦٠	٣٢٤
قوله عزّ وجلّ : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) إلى آخر الآية ٦٢	٣٢٨
قوله عزّ وجلّ : (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته) إلى آخر الآية ٦٥	٣٣١
قوله عزّ وجلّ : (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا) إلى آخر الآية ٦٨	٣٣٥
قوله عزّ وجلّ : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام) إلى آخر الآية ٧١	٣٣٩
قوله عزّ وجلّ : (قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب) إلى آخر الآية ٧٣	٣٤٨
قوله عزّ وجلّ : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) إلى آخر الآية ٧٦	٣٥٣

الآية	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب) إلى آخر الآية ٨٠	٣٥٦
قوله عزّ وجلّ : (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقِطْع من الليل) إلى آخر الآية ٨١	٣٦٥
قوله عزّ وجلّ : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود) إلى آخر الآية ٨٣	٣٦٩
قوله عزّ وجلّ : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) إلى آخر الآية ٨٦	٣٧٤
قوله عزّ وجلّ : (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) إلى آخر الآية ٨٨	٣٧٨
قوله عزّ وجلّ : (ويا قوم لا يجرمنّكم شِقَاقي أن يصيبكم ما أصاب قوم نوح) إلى آخر الآية ٩٢	٣٨٢
قوله عزّ وجلّ : (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون) إلى آخر الآية ٩٥	٣٨٧
قوله عزّ وجلّ : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) إلى آخر الآية ١٠٠	٣٩٠
قوله عزّ وجل : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم) إلى آخر الآية ١٠٥	٣٩٤
قوله عزّ وجلّ : (فأما الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) إلى آخر الآية ١٠٨	٤٠٠
قوله عزّ وجلّ : (فلا تكُ في مِرْية مما يعبد هؤلاء) إلى آخر الآية ١١١	٤٠٦

الآية	الصفحة
قوله عزَّ وجلَّ : (فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير) إلى آخر الآية ١١٥	٤١٢
قوله عزَّ وجلَّ : (فلولا كان من القرون من قبلكم أُولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض) إلى آخر الآية ١١٧	٤٢٠
قوله عزَّ وجلَّ : (ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة ولا يزالون مختلفين) إلى آخر الآية ١١٩	٤٢٣
قوله عزَّ وجلَّ : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثَبِّت به فؤادك) إلى آخر الآية ١٢٣	٤٢٦
تفسير سورة يوسف عليه السلام	٤٣٠
قوله عزَّ وجلَّ : (الر تلك آيات الكتاب المبين) إلى آخر الآية ٣	٤٣١
قوله عزَّ وجلَّ : (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) إلى آخر الآية ٤	٤٣٤
قوله عزَّ وجلَّ : (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) إلى آخر الآية ٦	٤٣٧
قوله عزَّ وجلَّ : (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) إلى آخر الآية ١٠ ...	٤٣٩
قوله عزَّ وجلَّ : (قالوا يا أبانا مالَكَ لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون) إلى آخر الآية ١٥	٤٤٦
قوله عزَّ وجلَّ : (وجاءوا أباهم عشاءً يبكون) إلى آخر الآية ١٨	٤٥٤
قوله عزَّ وجلَّ : (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بُشْرَى هذا غلام) إلى آخر الآية ٢٠	٤٦٠

الآية	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) إلى آخر الآية ٢٢	٤٦٧
قوله عزّ وجلّ : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك) إلى آخر الآية ٢٥	٤٧١
قوله عزّ وجلّ : (قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها) إلى آخر الآية ٢٩	٤٨٤
قوله عزّ وجلّ : (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) إلى آخر الآية ٣١	٤٨٨
قوله عزّ وجلّ : (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) إلى آخر الآية ٣٤	٥٠٠
قوله عزّ وجلّ : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتّى حين) إلى آخر الآية ٣٦	٥٠٤
قوله عزّ وجلّ : (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) إلى آخر الآية ٣٨	٥٠٩
قوله عزّ وجلّ : (ياصاحِبَيِ السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) إلى آخر الآية ٤٢	٥١٢
قوله عزّ وجلّ : (وقال المَلِك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف) إلى آخر الآية ٤٥	٥١٨
قوله عزّ وجلّ : (يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف) إلى آخر الآية ٤٩	٥٢٤

الآية	الصفحة
قوله عزَّ وجلَّ : (وقال الملِك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك) إلى آخر الآية ٥٠	٥٣١
قوله عزَّ وجلَّ : (قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) إلى آخر الآية ٥١	٥٣٤
قوله عزَّ وجلَّ : (ذلك ليعلم أني لم أخُنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) إلى آخر الآية ٥٢	٥٣٦

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٢٥١ لسنة ١٩٨٤

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٦٧١ - الدوحة - قطر